

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ١٢

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

نيابطين ٢



دار
الكتاب
والفكر



الاعمال الأدبية الكاملة

الطبعة الأولى ١٩٥٢ م

دوستوفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ١٤/٥٥٣٧ - هاتف: ٢٥٢٨٣٣

الخطوط والغلاف: عماد حليم

طبعته بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

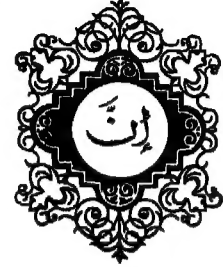
الشياطين
٢

جميع الحقوق محفوظة

« الشياطين » (Biessy) ! نشرت هذه الرواية أول مرة في
مجلة «الرسول الروسي» فاجزء الاول والثاني نشر سنة ١٨٧١ ، والجزء
الثالث نشر سنة ١٨٧٢ ،

الفصل السابع

عن جماعتنا



الدار التي يسكنها فرجنسكى فى شارع النملة
تملكها زوجته • هى مبنى من خشب لا يشمل
الا على طابق واحد • فليس هناك مستأجرون •
وقد دعا فرجنسكى نحو خمسة عشر شخصاً

بحجة الحفلة • ولكن هذا الاجتماع لا يشبه فى شيء السهرات التى تقام
فى هذه المناسبات بالأقاليم • لقد انفق الزوجان مرة واحدة الى الأبد ،
منذ بداية حياتهما الزوجية ، على أن الاحتفال بأعياد الميلاد أمر سخيف ،
« اذ لا شيء يبعث على البهجة » • وقد استطاعا فى بضع سنين أن ينعزلا
انعزالاً تاماً عن كل مجتمع • وأصبح الناس يعدونه ، رغم أنه رجل
مؤهوب ورغم أنه ينعم ببعض الثراء ، أصبحوا يعدونه امرأ شاذاً يحب
العزلة ، وقالوا عنه ، عدا ذلك ، انه « يعبر عن نفسه بتكبر » • أما السيدة
فرجنسكى التى كانت تمارس مهنة التوليد ، فانها بسبب هذه المهنة كانت
توضع فى أدنى درجات السلم الاجتماعى ، رغم المنصب الذى يشغله
زوجها فى الادارة • غير أنها كانت لا تتصف بالمذلة التى تناسب وضعها ؛
وقد أصبحت سيداتنا جميعهن منذ أن انعقدت تلك العلاقة الحمقاء النكراء
بين السيدة فرجنسكى والكابتن لبيادكين ، وهى علاقة حرصت السيدة
فرجنسكى على أن تعلنها فى كل مكان تقيداً بالمبدأ ، أقول أصبحت سيداتنا

جميعهن ، حتى أكثرهن تسامحاً ، يشحن عنها وجوههن ويدرن لها ظهورهن باحتقار واضح . غير أن السيدة فرجنسكى رزيت هذا كأنه هو بعينه ما كانت تشده وتسعى إليه . ومع ذلك كانت هذه السيدات القاسيات تستنجد ، فى اللحظات الهامة ، بآرينا بروخورفنا (أى السيدة فرجنسكى) ، ماوسهين أن يفعلن هذا ، ويؤثرنها على المولدات الثلاث الأخريات بالمدينة . وكانت نساء مالكى الأراضى فى المنطقة تعتمد على خدمات السيدة فرجنسكى فى كثير من الأحيان أيضا . فالى هذا الحد كانت الثقة كبيرة بعلمها وحظها ومهارتها فى الحالات الصعبة . وقد أصبحت فى النهاية لا تمارس المهنة الا من أجل الأثرياء ، لأنها كانت تحب الربح حباً شديداً . وكانت تشعر شعوراً كاملاً بما لها من سلطان ، فهى لا تتحرج أى تحرج ، وهى ترخى العنان لطبيعتها حراً طليقاً . فإذا كانت تقوم بواجبات مهنتها فى أحسن البيوت ، وروعت النساء التى تولدهن ، وربما وروعتهن عن عمد ، مظهرةً أسد الاحتقار للمواضعات الاجتماعية ، أو مستهزئةً « بأقدس » الأمور ، وذلك حتى فى اللحظة التى يمكن أن تكون فيها هذه « الأمور المقدسة » أنفع ما تكون . لقد روى أحد أطبائنا ، وهو نفسه مولد ، أن امرأة من النساء اللواتى تولدهن ، جاءها المخاض يوماً ، فكانت تعاني آلاماً شديدة ، فذكرت اسم الله العلى القدير ، فما كان من آرينا بروخورفنا الا أن أطلقت مزحة متحللة على حين فجأة فنزلت المزحة على المرأة المسكينة نزول الصاعقة ، وأحدثت فيها من الروع والهول ما عجل خلاصها تعجلاً كبيراً . على أن السيدة فرجنسكى ، رغم أنها عديمة المذهب ، تتقيد بأكثر العادات الاجتماعية بلى حين يكون فى ذلك نفع لها . من ذلك أنها لا تعفى نفسها أبداً من حضور حفلة تعميد الطفل الذى وُلد على يديها . وهى ترتدى لهذه المناسبات ثوباً من حرير أخضر طويل الذيل ، وتعد شعرها فى مؤخرة الرأس كمكة معقدة ذات ضفائر وجدائل ، بينما هى فى العادة

تستطیع اھمال ھندامھا • ومع أنها طوال مدة الاحتفال الديني تصطنع وضعاً وقحاً يستثير رجال الدين ، فانھا متى انتهى الاحتفال الديني تحرص على أن تقدم الشھبانيا للمدعوين بنفسھا (وھي لهذا الغرض انما جاءت وازيئت) ، وويل لمن ينسى ، حين يقبل الكأس ، أن ینفخ المولدة بالھدية الصغیرة • • •

ان المدعوين الذين كانوا في ذلك المساء عند فرجنسكى (وأكثرھم رجال) يتظاهرون بأنھم اجتمعوا عرضاً ومصادفة • لم يكن ثمة عشاء ولا موائد للعب • غير أن مائدتين مغطاتين بغطاء غير نظيف جداً كانتا قد ضُمَّتا احدهما الى الأخرى في وسط الصالون المفروشة جدرانه بورق أزرق قديم ، وعليھما سماوران يغطى ماؤھما الى جانب صينية كبيرة محمّلة خمسة وعشرين كأساً وسلّة ملأى بقطع من خبز أبيض كالذى يُقدّم في المدارس الداخلية للبنات أو البنين • وكانت أخت ربة الدار ھي التي تصب الشاي ، وھي عانس في نحو الثلاثين من العمر ليس لھا حاجبان ، وشعرھا مصفر اللون ؛ انسانة صموت لا تتكلم ، ولا تضمر لأحد حباً ، تعتنق الأفكار الجديدة ، ويخشھا فرجنسكى نفسه في سره • لم يكن في الصالون من النساء الا ثلاث : السيدة فرجنسكى ، وأختھا ، وأخت السيد فرجنسكى التي وصلت من بطرسبرج منذ ھنية ولم يتسع وقتھا بعد حتى لتغير ملبسھا •

ان آرينا بروخوروفنا ، المشعّنة الشعر ، التي ترتدى ثوباً من صوف ضارب اللون الى خضرة ، سيدة مھيبة المظهر ، غير دميعة ، عمرھا سبعة وعشرون عاما • انھا تتأمل المدعوين بعينھا الجريئتين وكأن نظرتها تقول : « أنرون ؟ لست أخشى أحداً » • أما الأنسة فرجنسكى ، أخت السيد فرجنسكى ، وھي طالبة تؤمن بالمذهب العدمي ، فانھا فتاة قصيرة سمينة حمراء الخدين ليست بالدميعة أيضاً • ولقد جلست الى جانب آرينا

بروخوروفنا ، وجعلت تُجبل على الحضور نظرة فلقة نافذة الصبر ، وفي
يدها لفافة ورق . وكان فرجنسكى نفسه يعانى من ألم فى ذلك المساء .
ومع ذلك جلس على مقعد أمام المائدة . وكان جميع الحضور جالسين .
فاذا نظر الناظر الى الطريقة التى صُنِّت بها المقاعد أدرك أن الأمر أمر
اجتماع (جلسة) . ولكن كان واضحاً مع ذلك أن المجتمعين ينتظرون
شيئاً ما ، فهم من أجل مخادعة الانتظار انما يترسلون فى محادثات صاخبة
وان تكن تافهة . حتى اذا دخل ستافورجين وفرخوفنسكى صمتوا جميعاً
على حين فجأة .

ولكن يجب علىَّ أن أتوقف هنا لأقدم بعض الايضاحات .

أظن أن هؤلاء الناس ، وقد أُبلغوا من قبل ، انما اجتمعوا على أمل
ممتع هو أن يعلموا ببعض الامور الهامة . انهم يملكون زهرة الراديكالية
الحمراء فى مدينتنا القديمة ، وقد كانت عناية فرجنسكى باختيارهم لهذه
« الجلسة » عناية كبيرة . يجب أن أقول أيضاً أن عدداً منهم (هو قلة على
كل حال) لم يكونوا قد جاءوا قبل ذلك اليوم الى عند فرجنسكى . وكان
واضحاً أن أكثرهم لا يدرك هدف الاجتماع ادراكاً واضحاً . غير أنهم
جمعوا ينظرون الى بطرس ستيفانوفتش على أنه رسولٌ وقد من الخارج
مزوداً بسلطات كاملة . ان هذه الفكرة التى ترضى غرورهم طبعاً كانت
قد رسخت فى نفوسهم منذ البداية . ومع ذلك كان بعضهم قد تلقى تعليمات
محددة من قبل . فان بطرس ستيفانوفتش قد استطاع فى الواقع أن يشكل
عندنا خلية من « خمسة » ، على غرار ما فعل فى موسكو ، وعلى غرار ما فعل
أيضاً فى جيش اقليمنا كما عُلِم فيما بعد . ويظهر أنه أنشأ خلية رابعة فى
ولاية س . . . فهؤلاء الخمسة « المختارون » كانوا يجلسون فى ذلك
الاجتماع الى المائدة المشتركة ، ويجيدون اصطلاح هيئة أناس عاديين فلا
يحزر المرء دورهم . لقد عُرِفَت الآن أسماؤهم فليست سرّاً : انهم ليوبتين ،

وفرجنسكى ، وشيجالوف (ذو الأذنين الطويلتين ، وهو أخو السيدة فرجنسكى) وليامشين ، ورجل يقال له تولكاتشنيكو ، وهو انسان عجب في نحو الأربعين من العمر يقال انه يعرف الشعب معرفة رائعة ، ولاسيما قطاع الطريق والمصوص ، ويواظب على التردد الى الحانات (لا بهدف دراسة الشعب فقط) ويفتخر بملابسه الغليظة ، وحذاءيه المطليين بالقطران ، وهيته الماكرة ، وكلامه الشعبى العامى . لقد سبق أن اصطحبه ليامشين فى الماضى الى سهرات ستيفان تروفيموفتش مرة أو مرتين ، فلم يحدث فى الحضور كبير أثر . ولقد كان يعمل فى السكك الحديدية ، ويظهر فى مدينتنا من حين الى حين ، حين يصبح بغير عمل فى المادة . ان هؤلاء الأشخاص الخمسة قد شكلوا أول خلية ، مقتنعين بأنهم ليسوا الا خلية واحدة بين مئات الخلايا وألوف الخلايا المنتشرة فى روسيا كلها والمرتبطة جميعها بلجنة مركزية ، قوية سرية ، مرتبطة أوثق الارتباط ، أيضا ، بسائر الحركة الثورية فى أوروبا . يجب على أن أعترف مع ذلك أسفاً بأن هناك خلافاً قد بدأ يظهر بينهم . لقد كانوا منذ الربيع يعوّلون على وصول بطرس ستيفانوفتش الذى أبلغهم عن وصوله تولكاتشنيكو أولاً وشيجالوف بعد ذلك ؟ ورغم أنهم قد توقعوا منه أشياء خارقة وانتظموا تلبيةً لأول نداء صدر عنه دون أن يدوا أى اعتراض ، فانهم ما ان تشكلت حلقتهم حتى شعروا جميعاً بأنهم قد أهينوا وأُسيء اليهم ، وأغلب ظنى أن مرد ذلك الى شعورهم بأنهم تعجلوا فى الموافقة . ولا شك أنهم انما لبوا نداء فرخوفنسكى خشية أن لا يُتهموا بعد ذلك بأنهم جنوا . ولكن كان فى وسع بطرس ستيفانوفتش ، فيما يبدو لهم ، أن يعترف لهم بطلوتهم ، فيفضى اليهم بسرٍ خطير ما . وذلك ما لم يفعله فرخوفنسكى . فانه لم يخطر بباله أن يرضى رغبتهم المشروعة هذه فى الاطلاع ، فلم يفض اليهم بأى سر . وكان على وجه العموم يعاملهم بصرامة قصوى ، بل يعاملهم

معاملة لا تخلو من الاحتقار • فكان ذلك يسير حقهم ، حتى لقد كان شيخالوف يحض الآخرين على «المطالبة بايضاحات» • ولكن لا الآن طبعاً ، لا عند فرجنسكى حيث يضم الحفل كثيراً من الغرباء •

وعلى ذكر « الغرباء » يجب أن أشير الى فكرة تراودنى ، هى أن أعضاء الحلقة كانوا مبالغين فى ذلك المساء الى الاعتقاد بأن مدعوى فرجنسكى لا بد أن يكون بينهم أفراد منضمون الى حلقات أخرى مجهولة عندهم لكنها تنتمى الى نفس التنظيم وقد شكلها فرجوفسكى أيضاً ، بحيث أن جميع الحضور كان يشبه بعضهم فى بعض ويمثل بعضهم على بعض ، وذلك أمر يفضى على الاجتماع طابعا عجيبا ، روائيا ان صح التعبير • على أن هناك أيضا أشخاصا لا يمكن الاشتباه فيهم • من ذلك أن ضابطا برتبة ميجر ، وهو قريب فرجنسكى ، ولا شأن له بهذه الأمور البتة ، ولا دُعى الى الحفلة ، كان قد جاء من تلقاء نفسه ليعبر للسيد فرجنسكى عن تمنياته بمناسبة عيد ميلاده • وكان يستحيل طبعاً أن يرفض استقباله • ثم ان فرجنسكى لم يكن قلقاً من هذه الناحية ، لأن الميجر « عاجز عن الوشاية» . ذلك أنه ، رغم غيابه ، كان طوال حياته يحب أن يتردد على أشد البيئات الراديكالية تطرفاً ، لا لأنه كان يشاركها آراءها ، بل لأنه كان يستمتع بالاصفاء الى أحاديثها • ثم انه هو نفسه قد تعرض للخطر • فحين كان شاباً ، وقعت فى يده حزمٌ من منشورات تحريضية ، وأعدادٌ من جريدة « الناقوس » ، فرأى أن من الجبن أن يرفض توزيعها ، رغم أنه لم يجرؤ أن يفضها • اتنا ما نزال نلقى فى روسيا أناساً كثيرين من هذا النوع • وكان باقى المدعويين يمثلون اما نموذج الشخص الجسريع الكرامة ، الحائق الحاقه ، واما نموذج الشاب الذى تشتعل نفسه حماساً وسماحة • وكان هناك اثنان أو ثلاثة من أساتذة المدارس الثانوية ، أحدهم أعرج فى الخامسة والأربعين من العمر ، وهو رجل شرير شديد الغرور ؛ وكان

هناك بضعة ضباط منهم واحد من سلاح المدفعية متخرج من المدرسة الحربية حديثاً ، وهو فتى صموت كان لا يعرف بعدُ أحداً ، وكان يمسك بيده قلماً ، وما ينفك يدوّن في دفتره دون أن يشترك في الحديث . ولقد لاحظته الجميع ، ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً . وكان بين الحضور أيضاً ذلك الطالب المتشرد الذي ساعد ليامشين على درس صور خليعة في حمل بائعة الأناجيل المتجولة ، وهو شاب مديد القامة ضخم الجسم تتصف حركاته بقلّة الاكترات وشدة الحذر في آن واحد ، وتتميز ابتسامته بالسخر دائماً ، ويبدو عليه أنه واثق بنفسه كل الثقة ، راضٍ عنها كل الرضى . وكان ابن عمدتنا حاضراً كذلك (وهو ذلك الفتى الفاسق الذي أتبع لى أن أتكلّم عنه بمناسبة المغامرة التي وقعت لامرأة الليوتانان الشابة) ، ولا أدري لم كان حاضراً . انه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة . يجب أن أذكر أيضاً أن الحفل قد ضمّ كذلك تلميذاً من تلاميذ المدارس الثانوية عمره ثمانية عشر عاماً ، وهو ولد مشعث الهيئة شديد الحماسة مظلم الوجه كان يبدو عليه أنه يضيق ذرعاً بصغر سنه ويشعر من ذلك بجرح في كرامته . ان هذا الصبي هو منذ الآن زعيم جماعة من التأمّرين جنّدهم من بين تلاميذ الصف الأعلى ، كما علّم ذلك فيما بعد على دهشة من الناس جميعاً . لم أقل حتى الآن شيئاً عن شاتوف : لقد كان جالساً الى أحد أطراف المائدة ، متقهقراً قليلاً عن الآخرين ، مطرقاً الى الأرض ، صامتاً ، مكفهر الوجه . وقد رفض الشاي والخبز ، ولم يترك قبضته لحظة كأنما هو يريد أن يُظهر أنه انما جاء لعمل ، ولم يجيء مدعوّاً ، وأنه سينصرف متى شاء . وغير بعيد عنه كان يجلس كيريلوف . وكان صامتاً هو الآخر ، لكنه لم يكن خافض العينين . بالعكس : كان يحيل نظرته الثابتة الكابية باتباه على كل من يأخذ زمام الكلام ، ويصغى الى جميع الناس بدون أية دهشة . وكان الذين لم يسبق لهم أن رأوه ينظرون اليه خلصةً شاردى اللب .

هل كانت السيدة فرجنسكى على علم بوجود « الخمسة » ؟ لا أدري على وجه اليقين • ولكن من حق المرء أن يَحْمَنَ أن زوجها قد أطلعها على كل شيء • أما الطالبة فكان واضحاً أنها لا تعرف السر • ثم ان لها مشاغلها الخاصة على كل حال : كانت لا تنوى أن تمكث عندنا الا يوماً أو يومين ، لتطوف بعد ذلك على جميع المدن الجامعية « بغية أن تعرف عن كتب الآم الطلاب الأشقياء وأن تحضهم على الاحتجاج » • وهى تحمل عدة مئات من نسخ منشور مطبوع على الحجر كانت قد كتبه هى نفسها فيما يَخِيل الى • شيء غريب : ان التلميذ والطالبة ، رغم أنهما يلتقيان هنا أول مرة ، قد شعر كل منهما نحو الآخر بكره فظيع • يحسن أن نشير الى أن الميجر هو عمُ الفتاة ، وأنه يراها الآن عند آل فرجنسكى بعد فراق دام عشر سنين • وحين دخل ستافروجين وفرخوفنسكى الى الصالون كان خذاها حمرأوين كالجرم : ذلك أنها كانت قد تشاجرت منذ هنية مع عمها حول « قضية المرأة » •

٢

تهالك فرخوفنسكى على كرسى من الكراسى باهمال ملحوظ ، تقريباً دون أن يحسب أحداً • كانت هيئته تعبر عن الانشمزاز ، وتكاد تعبر عن الاستلاء • أما ستافروجين فقد سلم على الحفل بأدب • ولم يكن أحد غيرهما ينتظر ، ومع ذلك اصطنع الجميع ، بما يشبه التواطؤ والاتفاق ، هيئة من لا يلاحظهما • وما ان جلس ستافروجين حتى سأله السيدة فرجنسكى بلهجة قاسية :

— ستافروجين ، هل تريد شايًا ؟

فأجاب ستافروجين قائلاً :

– أتمنى •

فأمرت السيدة فرجنسكى أختها بقولها :

– صبي شايًا لستافروجين •

ثم اتجهت الى فرخوفنسكى فسألته :

– وأنت هل تريد شايًا ؟

فأجابها فرخوفنسكى :

– طبعاً • من يلقى على ضيوفه مثل هذه الأسئلة ؟ واعطينى حليباً

أيضاً : فإن مذاق الشاي عندك كمذاق دواء ، وأنتم تحتفلون اليوم بعيد

• ميلاد

– ما هذا الكلام ؟ أترك من أنصار الاحتفال بالأعياد • لقد تناقشنا

فى هذا الأمر منذ برهة •

كذلك قالت الطالبة ضاحكة •

فدمدم التلميذ يقول فى الطرف الآخر من المائدة :

– كلام قديم !

فانبرت الطالبة تردُّ عليه قائلةً وهى تضطرب على كرسيها :

– كلام قديم ؟ ان محاربة الأوهام الاجتماعية ، حتى البريئة منها ،

لا يمكن أن تكون كلاماً قديماً بحال من الأحوال • بالعكس : هى جديدة

دائماً بكل أسف •

ثم أضافت تقول مستدركة :

– هذا عدا أنه ليس هناك أوهام اجتماعية بريئة غير ضارة •

فصاح التلميذ يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- كل ما أردت أن أقوله هو أن الأوهام الاجتماعية أمور بالية محاربتها طبعاً ، ولكن فيما يتعلق بالأدعياء فإن جميع الناس يعرفون سخافات تافهة ، وأنه ليس يجدينا أن نضيع في الكلام عليها و ما أكثر ما يبدده الناس كافة ! فالأفضل أن ينفق المرء وقته في نافعة ***

هتفت الطالبة تقول :

- انك تسهب في الكلام وتغضب ، ولا يفهم المرء عنك شيئاً
قال التلميذ :

- يخيّل الى أن من حق كل انسان أن يتكلم ، واننى اذ أن أعبر عن رأيي كما يعبر عن رأيه أى انسان آخر ***
فقاطعت ربة البيت نفسها قائلة على حين فجأة بشراسة :
- لا أحد يحرمك من حق الكلام • كل ما هنالك أنه بطل أن توجز ، لأن أحداً لا يفهم عنك •

قال التلميذ مدمماً وقد أوشك أن يهوى الى فاع الكمد و
- اسمح لي أن ألفت نظرك مع ذلك الى أنك لا تعامليننى
كاف • واذا لم أكمل عرض رأيي ، فليس يرجع ذلك الى اننى الأفكار ، وانما يرجع الى أننى أملك أفكاراً كثيرة مسرفة في الكثير
ثم أمسك عن الكلام وقد أرتج عليه وارتبك أشد الارتباك •
قالت الطالبة :

- اذا كنت لا تحسن التمييز عما بنفسك فخبر لك أن تصمت
فوثب التلميذ عن كرسیه ، وصاح يقول وقد احمر خجلًا
أن ينظر فيما حوله :

— أردت أن أقول انك انما حاولت أن تلمعي لأن السيد ستافروجين دخل • هذا ما أردت أن أقوله !

فهتفت الطالبة تقول :

— أفكارك وسخة ، لا أخلاقية ، تدل على ضحالة فكري ! أرجوك أن لا توجه إلى الكلام بعد الآن •

قالت ربة الدار :

— حين دخلت يا ستافروجين كان أحدهم ينادى بحقوق الأسرة :
هو هذا الضابط الذي ترى (قالت ذلك وأشارت الى قريبها الميجر) •
طبعاً ، لست أنا من سأصدّع رؤوسكم وأضجركم بهذه الترهات السخيفة التي سوتى أمرها منذ مدة طويلة • ولكن من أين نشأت هذه الحقوق العائلية وهذه الواجبات العائلية التي اتخذت صورة أوهام اجتماعية راهنة • هذا هو السؤال • ما رأيك ؟

سألها ستافروجين :

— ماذا تعنين بقولك « من أين نشأت ؟ »

فدخلت الطالبة تقول وهي تلتهم ستافروجين بعينها التهاماً ان صح التعبير :

— نحن نعلم مثلاً أن وهم وجود الله انما نشأ عن الرعد والبرق • فمن المعروف أن الإنسان البدائي قد ارتاع من الرعد والبرق فبعد العدو الذي لا يرى ، شاعراً أمامه بضعفه • ولكن من أين نشأ وهم الأسرة ؟ من أين نشأت الأسرة ذاتها ؟

قالت السيدة فرجنسكى محاولة وقف الطالبة عن الكلام :

— ليس هذا هو الأمر تماماً •

قال ستافروجين :

- أخشى أن يجيء الجواب على هذا السؤال خالياً من الحشمة •
- فصاحت الطالبة متعجبةً وهي تنب عن كرسىها من جديد :
- كيف هذا ؟

ولكن ضحكات مخنوقة سُمعت آتيةً من جهة فئة الأساتذة ، فسرعان ما استجاب لها بالضحك ، على الطرف الآخر من المائدة ، ليامشين والتلميذ والميجر ذو الصوت الجهير •

فقالت السيدة فرجنسكى لستافروجين محقةً :

- عليك أن تؤلف تمثيلات هزلية •
- وأعلنت الفتاة رأيها مستاءةً تقول :
- هذا لا يشرفك يا سيد ... لا أدري ما اسمك ...

فجهمج الميجر قائلاً :

- وأنت كفتى عن التحرك والتلمل • لكأنك قاعدة على ابرة ...
- أرجوك أن تسكت وأن تعفينى من أمازيحك وتشبيهاك الكريهة •
- اننى أراك أول مرة • ولا أريد أن أعرف شيئاً عن قرابتنا •
- أنا عمك مع ذلك • حملتك على ذراعى حين لم تكونى الا طفلة صغيرة •

- لا يهمنى أن تكون قد حملتنى على ذراعىك • لم أطلب منك أن تحملننى ، واذا كنت قد حملتنى ، أيها الضابط القليل الأدب ، فلأنك كنت تجد فى ذلك لذة لك • واسمح لى أن أنبّهك الى أنك لا يجوز لك أن تخاطبنى بصيغة المفرد ، اللهم الا من حيث اننى مواطنة ؛ اننى أمنعك من ذلك مرةً واحدة الى الأبد •

قال الضابط لستافروجين وهو يضرب بقبضته المائدة :

— هن جميعا كذلك ! اسمح لى : اننى أحب اللبرالية وأحب جميع الأفكار الحديثة ، وأصنى متلذذاً الى الأفكار الذكية ، ولكننى لا أستطيع هذا كله الا من الرجال • اعلم ذلك • أما من النساء ، من هذه هاته الشابات الثرثرات ، فلا ثم لا ••• ان ذلك فوق طاقتى •

ثم قال للفتاة صارخا وقد أصبحت لا تطيق الاستقرار فى مكانها :
— لا تتحركى هذا التحرك كله ! أنا أيضا أطلب الكلام • لقد
أهنت !

دمدمت ربة الدار تقول مستاءة :

— انك تمنع الآخرين من الكلام ، وأنت نفسك لا تعرف أن تقول
شيئا •

فقال الميجر غاضباً حائقاً وهو يلتفت نحو ستافروجين :

— لا ، سأقول كل ما فى قلبى • اننى لم أشرف بمعرفتك يا سيد
ستافروجين ، ولكننى أتوجه بالكلام اليك لأننى آخر من دخل • لولا
الرجال لهلكت هذه النسوة كالذباب • ذلك هو رأى • وقضية المرأة
كلها ما هى الا دليل جديد على نقص أصالتهن • أوكد لك أن هذه القضية
انما اخترعها الرجال ، حماقة منهم ، فجلبوا لأنفسهم الشقاء • الحمد لله
على اننى لست متزوجا ! انهن جميعا متشابهاً متماثلات ، ولا يستطعن
حتى أن يتكروا أعمال سيدات • فالرجال هم الذين يتكرون لهن هذه
الأعمال أيضا • أنظر الى هذه ! لقد حملتها على ذراعى • وحين كانت فى
العاشرة من العمر كنت أرقص معها المازوركا • وها هى ذى اليوم تصل ،
فأهرع طبعاً الى تقيلها ، فاذا هى تعلن لى فوراً أن الله غير موجود • كان

فى وسعها أن تدع لى فسحةً من الوقت لأقبلها • ولكنها لم تفعل • كانت مستعجلة ! صحيح أن الناس الأذكاء أصبحوا لا يؤمنون بوجود الله ، وذلك لأنهم أذكاء • أما أنت ، أيتها الحمقاء الصغيرة ، (كذلك قلت لها) ، فماذا تعرفين عن الله ؟ ان طالبا من الطلاب هو الذى بث فىك هذه العقيدة • فلو علمت أن تشعل مصابيح أمام الأيقونات ، لأشعلت مصابيح أمام الأيقونات !

أجابت الطالبة باحتقار ، كأنها تتواضع فترضى أن تتناقش شخصاً كهذا الشخص مدةً طويلة :

- أنت تكذب لا أكثر ! وأنت رجل شرير ! لقد عرفت كيف أبرهن لك منذ قليل على صحة أدلتى • قلت لك انهم كانوا يعلموننا فى دروس الدين ما يلى : « اذا كرمت أباك وأقربائك ، فسيوهب لك العمر المديد والنراء الطائل • » • هذا موجود فى الوصايا العشر • فإذا كان الله قد رأى أن من الضرورى أن يكافىء على الحب ، فمعنى ذلك أن الهك هذا غير أخلاقى • تلك هى التعابير التى صغت بها برهانى • وأنا لم أسق لك هذا البرهان منذ أول كلمة ، وإنما سقته بعد أن زعمت أنك تؤكد حقوقك على • فهل الذنب ذنبى اذا كنت أنت بليد العقل فلم تفهم شيئاً حتى الآن ؟ انك غاضب حائق ، وهذه هى الحالة النفسية لجيلكم كله •

قال الميجر :

- حمقاء !

فقال الفتاة :

- غبى !

قال الميجر :

- هكذا ••••• اشتمينى الآن !

قال ليوتين بصوته الحاد الضئيل :

- اسمح لي يا كابيتون مكسيموفتش : ألم تعلن لي أنت نفسك أنك لا تؤمن بالله ؟

- وماذا يعنى هذا ؟ أنا ، شىء آخر ! ... ربما كنت أؤمن ، ولكنى لا أؤمن ايماناً كاملاً . ورغم اننى لا أؤمن ايماناً كاملاً فأتنى لا أقول بأن علينا أن نطلق على الله رصاص البندقية ! حين كنت ما أزال أخدم فى سلاح الفرسان ، كان يتفق لى كيرا أن أفكر فى الله . الشعراء يسلّمون بأن الفرسان لا يزيدون على أن يشربوا ويلهوا . ولقد كنت أشرب فعلاً . ولكن هل تصدق ؟ لقد كان يتفق لى أن أنب عن سريرى كما أنا ، فأخذ أرسم إشارة الصليب أمام الأيقونة ، وأدعو الله أن يهب لى الايمان . ذلك اننى حتى فى ذلك الحين كان الهدوء لا يجد الى نفسى سبيلاً ، فأنا لا أنفك أسأله : هل الله موجود أم هو غير موجود ؟ انظر الى أى حد كان الأمر يعذبنى . وكنت فى الصباح أعود الى اللهو والقصف طبعاً ، وكان ايمانى يزول فيما يبدو . وقد لاحظت على كل حال أن الايمان يضعف فى النهار بوجه عام .

سأل فرخوفنسكى ربة الدار هو يشأب :

- ألبس عندكم ورق للعب ؟

فهتفت الطالبة تقول وقد احمر وجهها استياء من أقوال الميجر :

- اننى أؤبد سؤالك كل التأيد .

وقالت السيدة فرجنسكى بخشونه وهى تلفى على زوجها نظرة عتب :

- انا نضيع وقتاً ثميناً فى الاستماع الى أحاديث سخيفة .

فقال الطالبة وقد نفذ صبرها :

- كنت أريد أن أشارك في الجمعية التي تبحث آلام الطلبة واحتجاجهم • أما وأنا نضيع الوقت في أقوال لا أخلاقية ...

فأسرع التلميذ يقول :

- لا شيء يوصف بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي •

فقال الطلبة :

- أعرف هذا كل المعرفة يا حضرة التلميذ ، أعرفه قبل أن يعلموك
إياه بزمان طويل •

فأجاب الآخر غاضباً :

- وأنا أؤكد أنك لست أكثر من طفلة وصلت من بطرسبرج لتلقى
علينا دروساً ، مع أننا نعرف هذه الأمور أحسن مما تعرفونها كثيراً • ان
جميع الناس في روسيا يعلمون منذ بيلنسكي أن الوصية القائلة « كرم
أباك وأمك » هي وصية لا أخلاقية • ولكنك لم تعرفي حتى كيف تردديها
بنصّها الصحيح •

سألت السيدة فرجنسكي زوجها حازمة :

- أسوف ينتهي هذا ؟

انها بصفتها ربة الدار كانت تحمر خجلاً من تفاهة هذا الشجار ،
و لاسيما أنها كانت تلاحظ ابتسامات ودهشة بعض الأشخاص الذين
يجيئون اليوم أول مرة •

قال فرجنسكي رافعاً صوته :

- يا سادة ، اذا كان أحد منكم يريد أن يتكلم في موضوع أهم ،
أو كان لديه ما يقرؤه لنا ، فاني أدعوه الى البدء بدون اضاءة للوقت •

فتدخل الأستاذ الأعرج الذى ظل الى ذلك الحين صامتاً ملتزماً وضع
التحفظ ، تدخل فقال بصوت مترقق •

– اسمحوالى أن ألقى سؤالاً : أنحن هنا فى جلسة ، أم فى اجتماع
زيارة يضم عدداً من الناس لا أكثر ؟ اننى ألقى هذا السؤال من باب
المحافظة على الشكل ، وحتى لا أظل فى شك وحيرة من أمرى •

فأحدث هذا السؤال « الماكر » أثره : فنظر كل واحد الى جيرانه
كأنه ينتظر منهم جواباً ، ثم اذا بجميع الأعين تتجه نحو فرخونسكى
وستافروجين كأنما ذُكرت كلمة السر •

قالت السيدة فرجنسكى :

– اقترح اجراء تصويت لنعرف أنحن فى جلسة أم لا ؟
فتدخل ليوتين فقال :

– أضم صوتى الى هذا الاقتراح ، رغم أنه غامض قليلا •

فانطلقت أصوات من جميع الجهات تقول :

– وأنا أيضا ! وأنا أيضا !

قال فرجنسكى مؤيداً :

– أعتقد فعلاً أن هذا سيدخل على حديثنا شيئاً من النظام •

قالت ربة الدار :

– فلنقترح • يا ليامشين اجلس الى اليبانو ، أرجوك • فى سمك أن

تقترح من هناك حين يجيء الأوان •

هتف ليامشين محتجاً :

– كيف ؟ أيضاً ؟ لقد اصطنعت دور العارف بما فيه الكفاية •

— أرجو وألحُ في الرجاء • اجلس واعزف ! أم تراك لا تريد
تخدم « القضية » ؟

— أؤكد لك أن أحداً لا يتجسس علينا يا آرينا بروخوروفنا • ذا
منك خيال محض • ثم ان النواقد عالية جداً • وحتى لو سمعنا النساء
فانهم لن يفهموا شيئاً •

جميعهم أحدهم يقول :

— نحن أنفسنا لا نفهم ، فكيف يفهم الآخرون ؟

قالت آرينا بروخوروفنا تشرح لفرخوفنسكى :

— أقول لك ان الحذر لا يكون مفرطاً مهما يكن شديداً • إذ
أتمخذ هذا الاحتياط على أساس أن من الممكن أن يكون نمة تجسس علينا
فاذا سمع الناس الموسيقى قالوا لأنفسهم ان عندنا حفلة •
قال ليامشين متبرماً :

— ليكن ما تريدن •

وجلس الى البيانو وأخذ يعزف لحن فالس ، ضارباً على أصابع الييا
ضربات قوية كأنه أصم ، حارياً في العزف على ما تشاء المصادفة تقريراً
قالت السيدة فرجنسكى :

— الذين من رأيهم أن يكون الاجتماع « جلسة » ، عليهم أن يرفع
أيديهم •

فرفع بعضهم أيديهم ، ولم يحرك بعضهم الآخر ساكنات ، ورفع بعض
ثالث أيديه ثم خفضها ثم رفعها من جديد •

هتف أحد الضباط يقول :

— ما هذا ؟ لم أفهم شيئاً !

وقال آخر :

- أنا أيضا لم أفهم شيئا !

وصرخ ثالث قائلا :

- أما أنا فقد فهمت • اذا كان الجواب « نعم » ، تُرفع اليد •

- ولكن ما معنى « نعم » ؟

- معناها أن رأيك أن يكون الاجتماع « جلسة » •

- لا ، أبداً ، بالعكس !

قال التلميذ مخاطباً السيدة فرجنسكى :

- أنا اقترعت مؤيداً فكرة « الجلسة » •

- فلماذا لم ترفع يدك اذن ؟

- لقد نظرت اليك ، فرأيت أنك لم ترفع يدك ، فلم أرفع يدي أنا
أيضاً •

- هذا غباء ! أنا لم أرفع يدي لأننى كنت أتولى اجراء الاقتراع •
أيها السادة ، سنجرى الآن اقتراعاً على العكس : من كان رأيه أن يكون
الاجتماع جلسة فليبق ساكناً ولا يرفعن يده • ومن كان رأيه أن لا يكون
الاجتماع جلسة فليرفع يده اليمنى •

سأل التلميذ :

- من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة ؟

صرخت السيدة فرجنسكى تقول حانقة :

- أترك تفعل هذا متعمداً ؟

- لا ، من فضلك ! من الذى يحب أن يرفع يده ؟ أهو الذى يريد

أن يكون الاجتماع جلسة أم هو الذى لا يريد ذلك ؟ يجب توضيح هذا •

- كذلك هتفت بضعة أصوات •
- من كان رأيہ أن لا يكون الاجتماع جلسة •
- صرخ ضابط يسأل :
- طيب • فماذا يجب عليه أن يفعل ؟ أيرفع يده أم لا يرفمها ؟
- قال الميجر :
- هيء هيء ! اننا لمتعود على البرلمان بعد !
- قال الأستاذ الأعرج :
- يا سيد ليامشين ، معذرة ... انك تحدث من الصخب ما يجعلنا عاجزين عن أن نسمع بعضنا بعضاً ويفهم بعضنا عن بعض •
- هتف ليامشين يقول للسيدة فرجنسكى :
- أؤكد لك أنه مامن أحد يتصمت على النوافذ يا آرينا بروخوروفنا •
- لا أريد أن أعزف • لقد جئت اليك زائراً لا ضارباً على البيانو !
- قال فرجنسكى يسأل الحضور :
- أيها السادة ، أجيبنى ببساطة : أنحن فى جلسة أم لا ؟
- فقالت الأصوات تجيبه من كل جانب :
- بلى ! بلى !
- فاذا كان الأمر كذلك فلا داعى الى الاقتراع • أأنتم موافقون أيها السادة ؟ هل يجب الاقتراع ؟
- لا ، لا داعى الى الاقتراع ، فهمننا ! ...
- هل لأحد رأى مخالف ؟
- لا ، الجميع متفقون !

هنا نادى صوت يقول :

- ولكن ما معنى أننا فى جلسة ؟

لم يجب أحد •

- يجب انتخاب رئيس •

- هو صاحب الدار طبعاً • هو مضيفنا !

فبدأ فرجنسكى يتكلم فقال :

- اذا كان الأمر كذلك أيها السادة فانى أعود الى اقتراحى الذى

عرضته منذ قليل : من كان عنده ما يقرؤه لنا فليتكلم بدون اضاءة للوقت •

خيم صمت شامل • والتفت جميع الأنظار مرة أخرى نحو

ستافروجين وفرخوفنسكى •

قالت السيدة فرجنسكى تسأل فرخوفنسكى :

- فرخوفنسكى ، هل لديك ما تعلقه لنا ؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى قائلاً وهو يتمطى ويتأهب

تثاؤباً ذا صوت :

- لا شيء البتة • ولكننى أريد كأساً من الكونياك •

- وأنت يا ستافروجين ؟

- لا ، شكرآ ، لا أشرب !

- أنا سأنتك هل تريد أن تتكلم ، ولم أسألك عن الكونياك !

- أتكلم ؟ عم ؟ لا •

قالت مخاطبة فرخوفنسكى :

- ستؤتى بالكونياك •

نهضت الطالبة لتشرع فى الكلام ، ولم تكن قد انقطعت عن التحرك والاضطراب على كرسيها :

- لقد جئت لأنكلم عن آلام الطلاب النساء وعن الوسائل التى يجب استعمالها لحملهم على القيام باحتجاج جماعى ...

ولكنها لم تلبث أن توقفت عن الكلام فجأة : فعلى الطرف الآخر من المائدة كان قد وقف منافس "سرعان ما جذب اليه جميع الأنظار . انه شيجالوف المتجهم المظلم الوجه ، وقف ببطء ، ووضع على المائدة ، بحزن وأسى ، دفترأ سميكا مغطى بكتابة دقيقة . وظل واقفاً لا يتكلم . أخذ بعض الحضور يتأملون الدفتر متمججين . ولكن ليوتين وفرجنسكى والأستاذ الأخرج بدا عليهم الرضى الشديد .

قال شيجالوف بلهجة حزينة لكنها جازمة :

- أطلب الكلام .

ف قالت فرجنسكى :

- الكلام لك .

فعاد الخطيب يجلس ، وانتظر لحظة ، ثم شرع يتكلم بفخامة فقال :

- أيها السادة !

ولكن أخت السيدة فرجنسكى قاطعته بخشونة اذ قالت مخاطبة فرخوفنسكى :

- اليك الكونياك !

ووضعت أمام فرخوفنسكى ، وهى تقلب شفتها احتقارا ، زجاجة وقدحاً جاءته بهما دون صينية ودون صحن .

فتوقف الخطيب عن الكلام بوقار • وصرخ فرخوفنسكى يقول له
وهو يصب لنفسه الكونياك :

— لا عليك ! أكمل • • • •

— أيها السادة ، اننى اذ أسألكم الانتباه ، واذ أسألكم أيضاً ، كما
سترون فيما بعد ، أن تساهموا معى وأن تساعدونى فى هذا العمل الذى
له شأن كبير وله خطورة أساسية ، يجب على أن أقدم لكم بعض
الايضاحات التمهيدية •

قال بطرس ستيفانوفتش فجأة يسأل السيدة فرجنسكى :

— هل عندك مقص يا آرينا بروخوروفنا ؟

فسألته هذه محملقة :

— مقص ؟ ماذا تريد أن تعمل بالمقص ؟

فقال وهو يتفرس بهدوء فى أظافره الطويلة السوداء :

— نسيت أن أقصّ أظافرى • كان على أن أقصّها منذ ثلاثة أيام • • •

فاحمرت آرينا بروخوروفنا ، ولكن الطالبة أعجبها عدم التخرج هذا
الذى أظهره فرخوفنسكى ، فقالت :

— أظن أننى رأيت المقص منذ لحظة على النافذة •

وقامت فجاءت بالمقص ومدته الى فرخوفنسكى ، فتناوله منها حتى
دون أن ينظر اليها ، وأخذ يرقب بطرس ستيفانوفتش حاسداً كارهاً •

تابع شيجالوف كلامه فقال :

— اننى وقد عكفت عكوفاً تاماً على دراسة تنظيم مجتمع المستقبل
الذى يجب أن يحل محل مجتمعنا الحالى ، وصلت الى الاقتناع بأن جميع

منشئ المذاهب الاجتماعية منذ أقدم العصور الى أيامنا هذه ، انما كانوا أناساً حالمين ورواة حكايات خرافية ، وحمقى ، يناقضون أنفسهم ولا يفهمون شيئاً فى مجال العلوم الطبيعية ، ولا يعرفون شيئاً عن هذا الحيوان الذى يسمى بالانسان . ان أفلاطون وروسو وفورييه ليسوا الا أعمدة من ألومنيوم . انهم ، فى أكثر تقدير ، يصلحون للمصافير لا للبشر ، فلما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديداً دقيقاً بعد أن قررنا جميعاً أن علينا أن نتقل الى الفعل بغير تردد ، فأننى أعرض مذهبى فى تنظيم العالم .

ثم نقر شيجالوف على دفتره وقال :

— ها هو ذا . لقد كنت أريد أن أعرض عليكم كتابى بأكبر ايجاز ممكن . لكننى أرى أن على أن أضيف اليه كثيراً من الايضاحات الشفهية . لذلك سيحتاج عرضى الى عشر سهرات على الأقل ، تبعاً لعدد فصول الكتاب .

هنا سُمعت بضغ ضحكات . وتابع شيجالوف كلامه يقول :

— يجب على ، عدا ذلك ، أن أنبهكم الى أن مذهبى لم يكتمل اكتمالاً تاماً (وهنا انطلقت ضحكات أخرى) فلقد تهت فى شعاب مقدماتى نفسها ، وجاءت تيجتنى متناقضة تناقضا مباشراً مع الفكرة الأساسية التى يقوم عليها المذهب . اننى وقد انطلقت من فكرة الحرية التى ليس لها حدود قد انتهت الى فكرة الاستبداد الذى ليس له حدود . ولكننى أضيف الى ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك حل آخر للمشكلة الاجتماعية غير الحل الذى خلصت اليه .

ازدادت الضحكات . ولكن الشبان فقط هم الذين كانوا يضحكون ، أعنى الأغرار الذى ليس لهم سابق دراية ان صح التعبير . أما السيدة

فرجنسكى وليونين والأستاذ الأعرج ، فقد كانت وجوههم تعبّر عن شيء من الأسف والغضب .

قال أحد الضباط يسأله محاذراً :

- اذا لم تستطع أنت نفسك أن تكمل مذهبك ، واذا كنت قد هويت من ذلك الى اليأس ، فماذا نستطيع أن نفعل نحن ؟

فأجابه شيجالوف يقول بلهجة قاطعة :

- انك على حق أيها الضابط ، ولا سيما باستعمالك كلمة اليأس هذه . نعم ، لقد حوصرت باليأس . ومع ذلك يستحيل على المرء أن يقول شيئاً آخر غير الذى قلته فى كتابى . ليس هناك أى مخرج غير هذا المخرج . لن يعثر أحد على غير هذا أبداً . لذلك أسارع فأدعو الحضور ، دون اضاءة للوقت ، الى سماع قراءة كتابى خلال عشر سهرات ، والى أن يقولوا لى بعد ذلك رأيهم . فاذا رفضتم أن تصفوا الى ، فلا يبقى علينا بعد ذلك الا أن نفترق ، فيعود الرجال الى مكاتبهم ، وتعود النساء الى مطابخها . لأنكم اذا نبذتم مذهبى فلن تجدوا حلاً آخر ، لن تجدوا أى حل آخر . ستضيعون وقتكم ، ثم تجدون أنفسكم مضطرين حتما أن تعودوا الى مذهبى .

أخذ الحضور يتحركون . وسألت بعض الأصوات : « أهو مجنون ؟ » .

قال ليامشين ملخصاً :

- الموضوع اذن هو على وجه الاجمال موضوع يأس شيجالوف :
أيجب عليه أن ييأس أم لا ؟

فقال التلميذ :

– ان باس شيجالوف مسألة شخصية •

فانطلق ضابط يقول مرحباً :

– اقترح أن نجرى اقتراعاً لنعرف هل ليأس شيجالوف قيمة عامة ،
وهل يستحق كتابه عناء الاستماع اليه !

فتدخل الأستاذ الأعرج فقال :

– ليس هذا هو الأمر

ان للأستاذ الأعرج فى العادة ابتسامة خفيفة ساخرة ، فلا يعرف المرء
أهو مازح فى كلامه أم هو جاد •

وتابع الأستاذ الأعرج يقول :

– لا يا سادة ، ليس هذا هو الأمر • ان السيد شيجالوف قد أسرف
فى التفرغ لأداء مهمته ، ثم هو عدا ذلك مسرف فى التواضع • اننى أعرف
كتابه • انه من أجل أن يحل المسألة الاجتماعية حلاً نهائياً ، يقترح تقسيم
الانسانية قسمين غير متساويين • فعُشِّرَ ينال الحرية المطلقة وينال سلطة
بغير حدود على تسعة الأعشار الأخرى ، وتسعة أعشار يجب عليهم أن
يفقدوا شخصيتهم وأن يصبحوا أشبه بقطيع ، فاذا ظلوا خاضعين خضوعاً
تاماً بغير حدود أمكنهم أن يصلوا شيئاً فشيئاً بعد سلسلة من التحولات الى
حالة البراءة البدائية ، الى شئ يشبه جنة عدن الأولى ، مع بقائهم مضطرين
الى العمل • والاعراض التى ينادى بها المؤلف ليجرّد تسعة أعشار
الانسانية من ارادتهم وليحوّلهم الى قطيع بواسطة التربية ، انما هى
اجراءات ممتازة الى أبعد الحدود • انها قائمة على حقائق العلوم الطبيعية ،
وانها لمنطقية تماماً • قد لا يسلم المرء ببعض النتائج التى ينتهى اليها ،
ولكن من المستحيل على المرء أن ينكر ذكاء المؤلف وأن يجدد معارفه •

وانه لمن المؤسف حقاً أن لا نستطيع ، بسبب الظروف ، أن نوافق له على السهرات العشر التي يطلبها ، والا لكننا سمعنا كثيراً من الأمور الشائقة الهامة حتماً •

قالت السيدة فرجنسكى تسأل الأستاذ الأعرج بشيء من القلق :
- هل يمكن أن تنتظر نظرة جد الى هذا الرجل الذى لم يعرف ماذا يصنع بالانسانية فردّ تسعة أعشارها الى العبودية ؟ اننى قد اشتبهت فى الأمر منذ مدة طويلة •

فسألها الأعرج :

- أخاك تعين ؟

- مرة أخرى ، روابط الدم ! أأنت تسخر منى ؟

قالت الطالبة مستاءة :

- انه لجبن أن نعمل فى سبيل الارستقراطيين وأن نخضع لهم خضوعنا لآلهة !

قال شيجالوف يختم الكلام بلهجة السلطة :

- ان ما اقترحه ليس جبناً ، وانما هو الجنة ، الجنة الأرضية ، ولا جنة سواها •

هتف ليامشين يقول :

- أما أنا فأننى اذا لم أعرف ماذا أصنع بتسعة أعشار الانسانية ، عمدت الى نسفهم بدلاً من أن أنظم الجنة الأرضية ، ولم أبق على قيد الحياة الا عدداً من الناس المتعلمين الذين سوف يعيشون فى دعة وسلام وفقاً لمبادئ العلم •

قالت الفتاة محتجة :

- يجب أن يكون المرء مهرّجاً حتى يقول مثل هذا الكلام !

فهمست السيدة فرجنسكى تقول لها :

- هو مهرّج فعلاً ، ولكنه نافع •

وتدخل شيجالوف يقول ملتفتاً نحو ليامشين بقوة :

- قد يكون هذا هو الحل الأمثل للمشكلة • انك تجهل حتماً ،

يا سيدى المازح ، أنك قد قلت الآن شيئاً عميقاً كل العمق • ولكن لما

كانت فكرتك • ستحيلة التحقيق تقريبا ، فلا بد من الاكتفاء بالجنة الأرضية

مادام يجب أن نسميها بهذا الاسم •

فأقلت من لسان فرخوفنسكى قوله :

- ما هذه السخافات !

لقد قال فرخوفنسكى هذا الكلام بما يشبه الففلة ، دون أن يرفع

رأسه ، وكان ما يزال يقلّم أظافره بكثير من عدم الاكترات •

فسرعان ما تدخل الأعرج ، وكأنه كان لا ينتظر الا اللحظة المواتية

ليهاجم بطرس ستيفانوفتش ، تدخل فقال :

- لماذا سخافات ؟ صحيح أن حب شيجالوف للانسانية فيه شيء من

التعصب • ولكن تذكر أن فورييه ، ولا سيما كاييه ، وحتى برودون ، كانوا

أنصاراً لبعض الحلول الاستبدادية الشديدة ، وكانوا يبدون من النظرة

الأولى خياليين • بل لعل السيد شيجالوف أقرب منهم الى العقل والنزوى •

أؤكد لكم أنه يكاد يستحيل على المرء بعد قراءة كتابه أن لا يسلم ببعض

أفكاره • انه ربما كان أقل ابتعاداً عن الواقعية من الآخرين ؟ وتكاد جنته

الأرضية أن تكون هى الجنة الحقيقية ، الجنة التى يتوق اليها البشر بعد

أن فقدوها ، اذا صدق أن تلك اللجنة قد وُجدت حقاً فى يوم من الأيام •

جمعهم فرخوفنسكى يقول مرةً أخرى :

- كنت أتنبأ فعلاً بأن أسمع كلاماً من هذا النوع •

قال الأعرج وقد ازداد غضبه استعاراً :

- اسمح لى ! ان الكلام على تنظيم المجتمع المقبل والنقاش حوله يكادان أن يكونا الآن ضرورةً لجميع الناس الذين يفكرون • ان هرتسن لم يهتم طوال حياته الا بهذا • وأنا أعلم من مصدر ثقة أن يلنسكى كان يقضى سهرات كاملة فى المناقشة مع أصدقائه حول المسألة الاجتماعية محدداً أدق التفاصيل من نظام المجتمع المقبل •

قال الميجر :

- بل هناك أشخاص أصبحوا من ذلك مجانيين !

وتشجع ليوتين فتجراً أن ينتقل الى الهجوم فقال :

- حين يناقش المرء فانه قد يصل الى نتيجة ما ، وهذا خير دائماً من أن يلتزم الصمت مصطنعاً وضع دكتاتور •

فقال فرخوفنسكى بدون اكتراث :

- أنا حين قلت : « هذه سخافات » ، لم أقصد شيجالوف البتة •

ثم أضاف يقول وهو يرفع عينيه قليلاً :

- اسمعوا أيها السادة ؟ فى رأى أنا أن جميع هذه الكتب ، وفورييه ، وكايبه ، و «حق العمل» ، وأفكار شيجالوف ، فى رأى أن هذا كله يشبه ألوف الروايات التى تصدر كل يوم : تسلية فنية ! وأنا أفهم أن تضجروا فى هذه المدينة ، فتأخذون بتسويد ورق •

استأنف الأعرج كلامه فقال وهو يتحرك مضطرباً على كرسيه :

– من فضلك ! ما نحن الا ريفيون فعلاً ، ونحن اذن نستحق
الشفقة • ولكننا نعرف أنه لم يحدث بعد في هذا العالم شيء خطير كل
الخطورة ، فلا داعي اذن لأن نشكو الجهل وأن نرثي لحال أنفسنا • ان
هناك منشورات من أصل أجنبي تدعونا أن نضم جهودنا لتحطيم كل شيء ،
اذ مهما نفعل في سبيل شفاء المجتمع ، فلن نصل الى شفائه يوماً ، على حين
أننا بقطع رقاب مائة مليون نبسط الموقف ونجعل اجتياز الهوة أضمن •
هذه فكرة ممتازة حقاً ، ولكنها لا تقل استحالةً على التحقيق عن فكرة
شيجالوف التي تعاملها بهذا الاحتقار كله •

أقلت اسان بطرس ستيفانوفتش فقال وهو يقرّب الشمعة كأنه
لا يشعر بالغلطة التي يرتكبها :

– هذا كله حسن جداً ، ولكنني لم أجيء الى هنا من أجل أن
أناقش •••

– انه لما يدعو الى الأسف ، الى الأسف الشديد ، أنك لم تجيء الى
هنا من أجل أن تناقش • وانها لحسارة حقاً أن تكون الآن مستغرقاً هذا
الاستغراق كله في العناية بزيتك !
– ما شأنك وزيتي ؟

قال ليوتين مجازفاً من جديد :

– ان تغيير العالم بقطع مائة مليون رقبة لا يقل صعوبة عن تغيير العالم
بالدعاية • وقد تكون الطريقة الأولى أصعب ، ولا سيما في روسيا •
وقال ضابط :

– ان جميع الآمال معقودة الآن على روسيا •

فأجاب الأعرج :

- نعم ، يظهر أنهم يعقدون على روسيا آمالاً كبيراً • نحن نعلم أن أصبحاً سرية قد أشارت الى وطننا الحبيب وعدته أقدر جميع بلدان العالم على تحقيق هذا العمل العظيم • ولكن اليكم ما أريد أن ألفت اليه الانتباه : اذا حلّت المشكلة الاجتماعية تدريجياً بالدعاية ، فأننى أظن أربح شيئاً ما : أربح أولاً امكان التمتع بالثروة ، وأربح ثانياً المكافأة التى تعطينى اياها الحكومة المقبلة اعترافاً بالخدمات التى أكون قد قدمتها للقضية الاجتماعية • أما اذا حلّت المشكلة حلاً فورياً ، أى اذا قطعت مائة مليون رقبة ، فما الذى يمكن أن أربحه أنا ؟ ان المرء حين يدعو الى مثل هذه العقائد يعرّض لسانه لخطر القطع •

قال فرخوفنسكى :

- سيقطع لسانك أنت حتماً •

- أرايت اذن ؟ ولما كنت لا تستطيع ، فى أحسن الظروف ، أن تفرغ من هذه المذبحة فى أقل من خمسين سنة ، أو فى أقل من ثلاثين سنة ، لأنك لن تذيب خرافاً ، ولأن من الممكن أن لا تمكّنك الضحايا من ذبحها ، أفليس الأفضل اذن أن يطوى المرء أمتعته وأن يهاجر الى مكان بعيد فى جزيرة هادئة فيقضى هنالك بقية أيامه هادئاً ؟ صدقنى اذا قلت لك ان دعايتك هذه لن تزيد على أن تشجع الناس على الهجرة •

قال الأعرج هذه الجملة الأخيرة وهو ينقر على الطاولة باصبعه •

لقد انتصر • انه أحد الروس القوية فى الاقليم • وكان ليويتين يتسم وقد بانت فى وجهه معان مفهومة • وكان فرجنسكى يبدو مصعوقاً • وكان الآخرون يتابعون المناقشة باهتمام شديد ، ولا سيما السيدات

والضباط • أدرك الجميع أن صاحب فكرة المائة مليون من الروس قد أخرج وغلب ، فهم ينتظرون النهاية •

قال فرخوفنسكى مدمماً بلهجة فيها مزيد من عدم الاكتراث ، بل فيها كذلك شيء من الضجر :

- يجب أن أعترف بأنك قد قلت الآن فكرة صحيحة • ان فكرة الهجرة فكرة ممتازة • ومع ذلك ، رغم المحاذير الواضحة التي ذكرتها ، فإن الجنود الذين يعتقدون عقيدتنا وينضمون الى قضيتنا يزداد عددهم يوماً بعد يوم • وسوف نستغنى عنك • ان الأمر أمر دين جديد يجب أن يحل محل الدين القديم • ان الأمر أمر قضية خطيرة ، لذلك يزداد عدد جنودنا • أما أنت فما عليك الا أن تهاجر • وأنا أنصحك بأن لا تهاجر الى جزيرة هادئة من الجزر ، بل الى مدينة درسدن • أولاً لأن هذه المدينة لم تعرف الأوبئة يوماً ، فأنت لا بد أن تخاف الموت حتماً من حيث أنك رجل مثقف • وثانياً لأن مدينة درسدن ليست بعيدة عن الحدود الروسية ، فيسهل ارسال ايراداتك اليها من وطنك الحبيب • وثالثاً لأن هذه المدينة ملأى بما يسمى كنوز الفن ، وأنت رجل فنان ، لأنك كنت أستاذاً للأدب فيما أظن • ورابعاً وأخيراً لأن هذه المدينة صورة مصغرة عن سويسرا : فهذا يفيدك في استئزال الوحى الشعرى ، لأنك تنظم شعراً ولا شك • الخلاصة : كنز كبير فى علبة صغيرة •

قامت حركات شتى • الضباط يضطربون على كراسيهم • لو انقضت دقيقة واحدة أخرى لأخذ الجميع يتكلمون فى آن واحد معاً • ولكن الأعرج انقضَّ على الطعّم • قال :

- لا ، قد لا تترك « القضية » المشتركة ! ... سوف نرى ...

فما ان سمع فرخوفنسكى منه هذا الكلام حتى قال يسأله فجأة :

– ماذا ؟ أتقبل أن تدخل فى جماعتنا اذا أنا عرضت عليك ذلك ؟

ووضع المقص على المائدة •

ارتعش الجميع • ان الشخص اللغز قد حسر القناع عن وجهه فجأة •
حتى لقد جرؤ أن يذكر كلمة « جماعة » •
أجاب الأعرج بشئ من الارتباك :

– ان كل من يعد نفسه رجلاً شريفاً لا يمكنه أن يتقاعس عن القيام
بمهمته ، ولكن ...

قاطعهُ بطرس ستيفانوفتش قائلاً له بلهجة صارمة :

– اسمح لى • دعنا الآن من « لكن » • اننى أعلن لكم أيها السادة
أننى أطالب بجواب واضح بيّن • أنا أفهم تماماً اننى اذ جئت الى هنا واذ
جمعتكم ، قد أصبح لكم على حق تقديم ايضاحات (وهذا كشف آخر
لم يكن متوقعا) ، ولكن يستحيل على أن أمدكم بايضاحات وشروح
ما جهلت حالتكم النفسية • اننى أترك جانباً الكلمات التى لا فائدة منها ولا
طائل تحتها – ذلك أننا لا يمكن أن نتكلم ثلاثين سنة أخرى كما تمّ حتى
الآن طوال ثلاثين سنة – وأسألكم ماذا تفضّلون : أتفضّلون الطريقة
البطيئة ، أى الروايات الاجتماعية وتنظيم مصائر الانسانية على الورق لألف
سنة قادمة ، بينما الحكم الاستبدادى يتلغ اللقم السائغة التى تسقط فى
أفواهكم وتدعونها تفلت منكم ، أم تفضّلون حلاً سريعاً أيّاً كان هذا
الحل ، حلاً يفك أيديكم من وثاقها ويتيح للانسانية أن تنظم نفسها بحرية
كاملة ، لا على الورق بل فى الواقع ؟ يصيح بعضهم قائلاً : « بل نريد
قطع مائة مليون رقبة » • ان هذا الكلام قد لا يكون الا مجازاً • ولكن
هبوا أنه ليس مجازاً بل حقيقة • لماذا تخافون منه اذا كان الحكم الاستبدادى
سيقضى ، أثناء استغراقنا فى الأحلام البطيئة التى ندونها على الورق ،

سيقضى لا على مائة مليون فحسب ، بل على خمسمائة مليون ؟ لاحظوا أيضا أن المريض الذى ليس الى شفائه من سبيل ، لا يمكنكم أن تشفوه مهما تصفوا له من وصفات طبية • ثم انكم اذا تأخرتم تنيحون له أن تسرى عدواه الينا جميعا ، وأن يجهز على القوى القتية التى ما يزال فى وسعنا أن نعتمد عليها ، فيكون فى هذا هلاكنا جميعا • اننى أسلّم معكم بأن الاسترسال فى أقوال لبرالية بليغة أمر ممتع جدا ، على حين أن العمل فيه بعض المخاطر ... ثم اننى لست خطيبا • فأنا انما جئت الى هنا لأثقل اليكم بلاغا ؟ لذلك اطلب الى حفلكم الكريم أن يقول بكل بساطة دون تصويت ما الذى يسرّه أكثر من سواء : أن يتخطى فى المستقبل بسرعة السلحفاة ، أم أن يطوى الطريق طياً بسرعة السهم ؟

هتف التلميذ يقول متحمساً :

— رأى أن يطوى الطريق طياً بسرعة السهم •

وقال لياشين :

— وأنا أيضا •

وجمجم أحد الضباط :

— الاختيار واضح لا لبس فيه •

وكذلك قال ثانٍ فثالث •

والشئ الذى فجأ الحضور خاصة هو أن لدى فرخوفنسكى بلاغا يجب أن ينقله ، وأنه وعد بالكلام •

قال فرخوفنسكى وهو يجيل على الحفل بصره :

— أيها السادة ، أرى أنكم جميعكم تقريبا من أنصار الحل الذى

تنادى به المنشورات وتدعو اليه •

فصاحت أغلبية الأصوات تقول :

- نعم ، جميعنا ، جميعنا •

وتدخل الميجر فقال :

- أعترف لكم بأننى أهيل الى حل أكثر انسانية ، ولكننى أنجاز الى رأى المجموع •

وقال فرخوفنسكى يسأل الأعرج :

- يبدو أنك لا تعارض أنت أيضا ، هه ؟

فأجاب الأعرج وقد احمر وجهه :

- ليس معنى هذا أننى ... ولكن اذا انضمت الى رأى المجموع فما ذلك الا لأننى لا أريد أن أحدث اضطرابا ...

- هكذا أنتم جميعا ! انكم مستعدون لأن تناقشوا وتجادلوا مدة ستة أشهر ، ولكنكم تصوتون فى النهاية كسائر الناس • أيها السادة ، أنتم جميعا مستعدون حقا ؟ فكروا فى الأمر !

(مستعدون لأى شئ ؟ - سؤال غامض ولكنه جذاب الى أقصى الحدود) •

تعالأت أصوات كثيرة تقول :

- طبعاً ، جميعاً !

وكان الحضور من جهة أخرى ينظر بعضهم الى بعض •

قال فرخوفنسكى :

- قد تستاءون فى المستقبل من أنكم تعجلتم فى الموافقة ؟ هذا يحدث لكم فى جميع الأحيان تقريبا •

اضطرب الحفل ، بل اضطرب اضطراباً شديداً •

صاح الأعرج يقول بلهجة غاضبة :

- اسمح لى مع ذلك أن ألفت انتباهك الى أن الأجوبة على أسئلة من هذا النوع لا يمكن أن تكون الا شرطية • لقد سمعت جوابنا ، ولكنك قد ألقيت سؤالك بطريقة تبلغ من الغرابة ...

- ما غرابتها ؟

- ما هكذا تلقى أسئلة كهذه الأسئلة •

- علمنى اذن كيف يجب القاؤها • على كل حال ، كنت واثقاً أنك ستكون أول نادم ...

- لقد انتزعت منا موافقتنا على عمل فورى ، ولكن ما هى الحقوق التى لك علينا ؟ أين سلطاتك الكاملة ؟

- كان ينبغي أن تفكر فى هذا قبل الآن ! لماذا أسرعت تجيب ؟ أتوافق من أجل أن تتراجع على الفور !

- فى رأى أن الصراحة الطائشة فى سؤالك تدل دلالة واضحة على أنك لا تملك لا سلطات كاملة ولا حقوقاً ، وتدل على أنك لم تشأ بطرح سؤالك الا ارضاء حب الاطلاع عندك •

هتف فرخوفنسكى يقول وكأنه قد تنبه الى الخطر :

- ولكن ما هى المسألة ؟ ما هى المسألة ؟

قال الأعرج :

- أقول ان المرء حين يريد أن يضم أعضاء ، انما يفعل ذلك سرّاً ، ولا يفعله بحضور عشرين شخصاً لا يعرفهم •

كان الأعرج قد بلغ من الحلق حداً لا يستطيع معه أن يسيطر على نفسه ، وأن يكتم ما يدور في خاطره . فالتفت فرخوفنسكى نحو الحفل وهو يتظاهر بقلق شديد :

– أيها السادة ، أرى من واجبي أن أعلن لكم ان هذا كله ليس الا سخافات ، وأن حديثنا قد مضى بنا الى أبعد مما نريد . أنا لم أضْمَ بعدُ أعضاء ، وليس لأحد حق في أن يقول اننى أهتم بهذا . نحن لا نزيد على أن نعلن آراءنا . أليس كذلك ؟

ثم أضاف يقول وهو يلتفت نحو الأعرج :

– لقد نهتني الى الخطر على كل حال . أنا لم أكن أتخيل أن الكلام هنا في أمور بريئة كل البراءة محظور الا على افراد . أترك تخشى وشاية ؟ هل يمكن أن يكون بيننا جاسوس ؟

هاج الحضور . وطفق الجميع يتكلمون في آن واحد .
تابع فرخوفنسكى كلامه فقال :

– اذا كان الأمر كذلك أيها السادة ، فالشخص الوحيد المعرّض للخطر بينكم هو أنا . لذلك أطلبكم بأن تجيبوا عن سؤال سألقيه عليكم ، ان كان ذلك يناسبكم طبعاً ، فانكم أحرار على كل حال :

– ما هو السؤال ؟ ما هو السؤال ؟

– هو سؤال سيبيّن بوضوح هل علينا أن نكمل حديثنا . أم أن على كل واحد منا أن يتناول قبعته صامتاً ثم يمضى لشأنه .

– السؤال ! السؤال !

– اذا علم أحدنا أن اغتيالاً سياسياً يُهيأ ، فهل هو يشى بالمؤامرة متنبأً بجميع النتائج ، أم هو يبقى في بيته منتظراً الأحداث ؟ ان الآراء قد

تختلف • فالاجابة عن هذا السؤال ستبين لنا بوضوح هل يجب علينا أن نفرق أم يجب علينا أن نبقي معاً ، لا فى هذه السهرة وحدها بل بعدها أيضاً •

ثم قال فرخوفنسكى للأعرج :

– اسمح لى أن أخطبك أنت أول من أخطب •

– لماذا أنا بالذات ؟

– لأنك أنت الذى بدأت • أرجوك ، لا تتملص • لن يفيد المكر

فى شىء • على كل حال ، افعلى ما تشاء ، فأنت حر •

– معذرة ، ان سؤالاً كهذا السؤال اهانة •

– أوضح مزيداً من الايضاح ، أرجوك •

قال الأعرج :

– أنا لم أكن شرطياً سرياً فى يوم من الأيام •

– أوضح مزيداً من الايضاح ، من فضلك • لا نضيعن وقتنا •

انشل الأعرج من فرط الغضب فلبث صامتا ، واكتفى بأن أخذ

يرشق عدوه من تحت نظارتيه بنظرات مثقلة كرهاً وبغضا •

– أنعم أم لا ؟ أتشى أم لا تشى ؟

كذلك صرخ فرخوفنسكى يسأله •

فصرخ الأعرج يقول بصوت أعلى أيضا :

– لا أتشى طبعاً •

وتعالت أصوات عدة تقول :

- ولا أحد يشئ طبعاً •

وتابع فرخوفنسكى استجوابه ، فقال يسأل الميجر :

- اسمح لى أن أسألك أنت يا حضرة الميجر : أتشئ أم لا تشئ ؟
لاحظ أننى أتجه بالسؤال اليك بالذات •
- لا ، لا تشئ •

- واذا علمت أن رجلاً يستعد لأن يقتل أو يسرق رجلاً آخر ،
رجلاً عادياً ، فأنت تنبئه الى الجريمة ، أليس كذلك ؟
- طبعاً ، لأن الأمر هنا أمر شخصى وليس وشاية سياسية • أنا لم
أكن من الشرطة السرية فى يوم من الأيام •
وتعالت أصوات من جميع الجهات تهتف :

- ولا أحد كان من الشرطة السرية فى يوم من الأيام • لا داعى
الى اللقاء مثل هذه الأسئلة • سيكون جواب الجميع واحدا • ليس ههنا
جواسيس •

صاح الطالب يسأل :

- ولكن لماذا ينهض ذلك السيد ؟

- هذا شاتوف • لماذا تنهض يا شاتوف ؟

كذلك سألت السيدة فرجنسكى •

كان شاتوف قد نهض فعلاً على حين فجأة • انه يحمل فبعنه يده ،
ويحدثق الى فرجوفنسكى • كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول له شيئاً ما ،
ولكنه يتردد وقد اصفر لونهُ من شدة الغضب • ومع ذلك سيطر على
نفسه وكظم غيظه واتجه نحو الباب صامتاً •

صرخ فرخوفنسكى يقول له بلهجة ملفزة :

– ما تفعله يلحق بك ضرراً يا شاتوف •

فأجابه شاتوف قائلاً :

– كما يلحق نفعاً بالجاسوس الوغد الذى هو أنت •

وخرج •

فتمالت الصرخات وصيحات التعجب فى كل جهة :

– تمت التجربة •

– وكانت نافعة •

– بعد فوات الأوان !

– من دعاء ؟ كيف دخل الى هنا ؟ من هو ؟ من شاتوف ؟ أتراه يشى

أم لا ؟

قال أحدهم :

– لو كان خائناً لأظهر غير ما يبطن ، ولكنه لم يعبأ بنا وخرج •

صاحت الطالبة :

– وهذا ستافروجين ينهض • انه هو أيضا لم يجب عن السؤال !

كان ستافروجين قد نهض فعلاً ، وكان كيريلوف قد اقتدى به على
الطرف الآخر من المائدة •

قالت ربة الدار تخاطب ستافروجين بجفوة :

– اسمح لى يا سيد ستافروجين ! نحن جميعاً قد أجبننا عن السؤال ،

وأنت ننصرف دون أن تقول كلمة !

جميع ستافروجين يقول :

- لا أرى ضرورة للإجابة عن السؤال الذى يهمكم *
- ولكننا عرضنا أنفسنا للخطر ، وأنت لم تعرض نفسك لشيء *
- بهذا صاحت عدة أصوات *

أجاب ستافروجين ضاحكا ، ولكن عينيه كانتا تسطمان :

- فيم يعينى أن تعرضوا أنفسكم للخطر ؟

فهمت أصوات كثيرة تقول متعجبة :

- كيف هذا ؟

ونهض عدد من الحضور فجأة *

صرخ الأعرج يقول :

- اسمحوا لى أيها السادة ، اسمحوا لى * ان فرخوفنسكى أيضا لم
- يجب عن السؤال ، وإنما اكتفى بالقائه *

- * فأحدثت هذه الملاحظة أثرا خارقا * نظر الجميع بعضهم الى بعض *
- * وانفجر ستافروجين ضاحكا عند أنف الأعرج وخرج يتبعه كيريلوف *
- * وهرع فرخوفنسكى وراءهما الى حجرة المدخل *

- ماذا تفعل ؟

كذلك تتم يقول وهو يمسك يد ستافروجين ويشد عليها بكل
ما أوتى من قوة * وتابع كلامه :

- اذهب الى عند كيريلوف * وسألق بكما * يجب أن أكلمك *
- لا بد أن أكلمك * لا غنى عن هذا *

أجابه ستافروجين بخسونة :

- لالى أنا •

- بل لا غنى عنه لك أنت يا ستافروجين • سأشرح لك هذا فى البيت

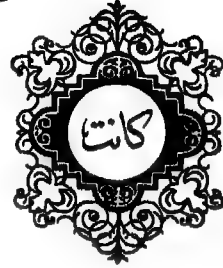
كذلك قال كيريلوف متدخلًا فى الأمر • وقال يطمئن فرخوفنسكى:

- سيصحبنى الى بيتى •

وخرجا •

الفصل الثامن

ابن القيس واليفان



أول حركة قام بها بطرس ستيفانوفتش هي أنه عاد بأقصى سرعة الى المدعوين ليهدئ النفوس ، ولكن أغلب الظن أنه رأى أن ذلك لا يستحق العناء ، لأنه ترك « الجلسة » بعد دقيقتين ، وطار يلحق بستا فروجين وكيريلوف . وفيما كان يركض تذكر شارعاً صغيراً يمكن أن يوصله الى عمارة فيلييوف بسرعة أكبر . فسلك ذلك الشارع غاطساً في الوحل حتى الركبتين ، فاذا هو يصل الى المنزل فعلاً في اللحظة التي كان فيها صاحبه يجتازان البوابة .

قال كيريلوف :

— كيف ؟ أوصلت ؟ حسن جداً . ادخل .

وقال ستا فروجين سائلاً كيريلوف حين لمح في حجرة المدخل سماوراً

يفل فيه الماء :

— ألم تقل لنا انك تعيش وحيداً ؟

فأجاب كيريلوف بقول مدمماً :

— سترى مع من أعيش .

وما ان دخلوا حتى أخرج فرخوفنسكى من جيبه الرسالة الغفل التي

عهد بها اليه فون لمبكه ، ووضعها على المائدة أمام ستافروجين • وجلس
الثلاثة • فقرأ ستافروجين الرسالة صامتاً • ثم سأله :

- هيه ، وبعد ؟

فقال فرخوفنسكى :

- ان هذا الشقى سيفعل ما يكتبه • وما دام مرتبطاً بك فقل ما الذى
يجب على أن أفعله • أوكد لك أنه قد يذهب منذ الغد الى فون لمبكه •

- فليذهب !

- كيف هذا ؟ يمكننا أن نمنعه •

- أنت مخطئ : انه ليس مرتبطاً بى • على كل حال ، لا يهمنى
الأمر • انه لا يستطيع شيئاً ضدى • وانما هو يهددك أنت •

- وأنت أيضاً •

- لا أظن ذلك •

- ولكن الآخرين قد لا يوفرونك • كيف لا تفهم هذا ؟ اسمع
يا ستافروجين • انك تتلاعب بالألفاظ • أياكون هذا من حرصك على المال ؟

- هل الأمر أمر مال ؟

- طبعاً • يجب دفع ألفين ، أو ألف وخمسمائة على الأقل • أعطنى
هذا المبلغ غداً أو حتى اليوم ، فأرحّله فى مساء غدٍ الى بطرسبرج •
ذلك ما يريد فى حقيقة الأمر • لاحظ أن من الممكن حتى ترحيل ماريا
تيموفتشنا معه اذا شئت •

لكأنه كان طائش اللب ، فهو يتكلم مضطرباً دون تفكير ، وهو يرسل

أقوالاً خطيرة دون أن يتبصر بالمواقب • وكان ستافروجين يلاحظه مدهوشاً •

قال ستافروجين :

- ليس هناك أى سبب يدعونى الى ترحيل ماريا تيموفتشنا •
- وربما كنت لا تريد لها أن ترحل •
- قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ضحكة ساخرة •
- ربما •

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول وقد نفذ صبره واستعر حنقه :

- الخلاصة : أعطى المال أم لا ؟

فأجابه ستافروجين وهو يتأمل مظلّم الوجه :

- لا ، لن أعطيه !

- ايه يا ستافروجين ! اما أنك تعلم شيئاً ما ، واما أنك فعلت شيئاً ما !

انك ... تمزح !

قال فرخوفنسكى ذلك وتقبض وجهه ، وارتعش طرفاً شفتيه ، ثم

إذا هو ينفجر ضاحكاً ضحكة غريبة على حين فجأة •

قال نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين بهدوء :

- لقد قبضت من أهلك المال المتأتى عن بيع أرضك • دفعت لك أمى

عن ستيفان تروفيموفتش مبلغ ستة آلاف أو ثمانية آلاف روبل • ففى

وسمعت اذن أن تدفع ألفاً وخمسمائة روبل من هذا المبلغ • كفانى مادفعته

حتى الآن من مال فى سبيل الآخرين • ما أكثر ما أعطيت ذات اليمين

وذات الشمال ! هذا مزعج أخيراً ...

قال ستافروجين ذلك ثم ابتسم من أقواله نفسها •

- ! ... انك تمزح الآن ! ...

نهض ستافروجين • فسرعان ما وثب فرخوفنسكى عن كرسيه ،
وأسند ظهره الى الباب بحركة آلية كأنه يريد أن يمنع ستافروجين من
الخروج • وفيما كان يقولاي فسيفلودوفتش يرفع ذراعه ليُشحيه ويخرج ،
اذا هو يعدل على حين فجأة ، ويقول :

- لن أدع لك شاتوف •

فارتعش بطرس ستيفانوفتش • وحدّق كل من الرجلين الى عيني
صاحبه •

وعاد ستافروجين يتكلم فقال :

- ذكرت لك منذ قليل لماذا أنت فى حاجة الى دم شاتوف • انك
تريد أن تستخدم دم شاتوف فى ترسيخ الرابطة التى تشد جماعتك بعضها
الى بعض • لقد حملته على الانصراف ، بحذق وبراعة • كنت تعلم أنه
سوف برفض أن يقول : « لن أشئ » ، وأنه يجد أن الكذب عليك جبن
منه وعار • ولكن أنا ، ما حاجتك الىّ أنا الآن ؟ انك تلاحقنى منذ لقائنا
فى الخارج • والشروح التى قدمتها لى فى هذا الشأن حتى الآن ليست
الا هذيان محموم • ومع ذلك تحضنى على أن أعطى لييا دكين ألفاً وخمسمائة
روبل من أجل أن يدفع فدكا الى قتله • اننى أعرف : أنت تظن أننى
أريد أن أدفع الى قتل زوجتى فى هذه المناسبة نفسها • وتتخيل أنك بهذه
الجريمة تمسك بى وتسيطر على ، أليس هذا صحيحاً ؟ ولكن فيم تفيدك
هذه السلطة ؟ فيم يمكننى أن أنفعل ؟ أعود فأقول لك مرة أخرى : أنعم
النظر الىّ ، واعرف أننى است الرجل الذى تشده ، ودعنى وشأنى !

سأله فرخوفنسكى لاهثاً :

- هل جاء اليك فدكا ؟

– نعم ، جاء • والسعر الذى يطلبه هو أيضا ألف وخمسمائة روبل •
على كل حال ، سوف يؤكد لك هذا بنفسه • ها هو ذا !

قال ستافروجين ماداً ذراعه •

فالتفت بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى فجأة : ان شخصا جديدا
يخرج من الظل ويقف على العتبة : انه فدكا وقد ارتدى معطفاً قصيراً ،
لكنه حاسر الرأس كأنه فى بيته • كان يتسهم ، كاشفاً عن أسنانه البيضاء
المنضودة • ان عينيه السوداوين اللتين تلتهمعان التمتعاً ضارباً الى صفرة
تتفحصان وجوه الشبان الثلاثة بحذر • لم يكن يدرك ما يجرى ، ولم يعزم
أمره على الدخول • واضح أن كيريلوف هو الذى جاء به • وعلى كيريلوف
انما تلبثت نظرته السائلة أخيراً •

قال ستافروجين :

– لا شك أن استقدمته الى هنا ليشهد الصفقة ، وربما ليرى أن المال
قد أصبح بين يديك منذ الآن ، أليس كذلك ؟

ودون أن ينتظر جواباً ، أسرع ستافروجين يخرج متعجلاً • فخرج
فرخوفنسكى عن طوره ، وهرع يدركه تحت البوابة •

صاح فرخوفنسكى يقول وهو يمسك ستافروجين من كوعه :

– قف ! لا تخط خطوة واحدة أخرى •

حاول ستافروجين أن يتخلص بحركة مفاجئة ، ولكنه لم يستطع
ذلك • فثار غضبه فأمسك بيده اليسرى شعر فرخوفنسكى ، وقلبه
على الأرض بكل ما أوتى من قوة ، واجتاز الباب • ولكنه ما ان قطع ثلاثين
خطوة حتى كان فرخوفنسكى قد أدركه مرة أخرى •

ودمدم فرخوفنسكى يقول بصوت متقطع :

- لتتصلح ! لتتصلح !

فرغ نيقولاى فسيفولودوفتش منكيه ، وظل سائراً فى طريقه دون أن يلتفت •

- اسمع ، سأجيبك بليزافتا نيقولايفنا منذ الغد ، هل تريد ؟ لا ؟ لماذا لا تجيب ؟ قل ما تشاء فأنفد • اسمع ، سأترك لك شاتوف ، هل تريد ؟

- هو اذن صحيح أنك كنت قد قررت قتله ؟

كذلك صرخ ستافروجين •

فعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال متعجلاً :

- ولكن ما حاجتك الى شاتوف ؟

كان صوته يخفق فى حلقه • وكان فى جريه الى جانب ستافروجين لا ينفك يشده فى كل لحظة من كفه ، ربما دون أن يشعر بذلك •

- اسمع ، سأتركه لك ، فلنتصلح • حسابك مئقل • • • ولكن فلنتصلح !

وأخيراً نظر اليه ستافروجين فدُهِش : ليس هذا الصوت صوتَه نفسه ، وليست هذه النظرة نظراته نفسها التى كانت له منذ قليل عند كيريلوف • ان أمام نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين الآن شخصاً آخر • اللهجة مختلفة : ان فرخوفنسكى يتوسل الآن ويضرع ويبتهل ، زائغ الهيئة تماماً ، كرجل يُسلب أعزّ ما يملك أو سلب أعزّ ما يملك •

هتف ستافروجين يسأله :

- ما بك ؟

ولكن فرخوفنسكى لم يجب ، فهو ما يزال يركض بقربه ويحدثق
اليه بنظرة ضارعة متوسلة لا تشنى .

دمدم يقول مرة أخرى :

– فلنتصافح . اسمع ! أنا أيضاً عندى تحت الجزمة سكين ، مثل
فدكا تماماً . ولكننى أريد أن نتصالح .

فصاح ستافروجين يقول غاضباً ، ولكن على دهشة :

– ماذا تريد منى أخيراً ؟ اذهب الى الشيطان ! ما هذا السر ؟ أنا لك
تميمة ؟

همس فرخوفنسكى يقول :

– اسمع ! سوف تثير روسيا ، سوف نحدث ثورة فى روسيا
كان كمن يهذى . وتابع كلامه :

– ألا تعتقد أننا نستطيع أن نفعل هذا ؟ سوف نحدث من الاضطرابات
والزلازل ما يجعل كل شىء ينهار . ان كارمازينوف على حق : أصبح المرء
لا يستطيع أن يتشبث بأى شىء . كارمازينوف ذكى جداً . عشر حلقات
أخرى كهذه الحلقة فى روسيا ، ثم يصبح القبض على مستحيلاً .

فقال ستافروجين رغم ارادته :

– حلقات مؤلفة من أغبياء كهؤلاء ؟

– أوه ! كن أكثر غباءً يا ستافروجين ! كن أنت نفسك أكثر غباءً !
على كل حال ، لا داعى لأن يتمنى لك المرء ذلك : فما أنت بالذكى جداً .
ولكنك خائف ، لا تملك الايمان . أبعد الأمر ترعبك . ضخامة المهمة
تبث فى نفسك الهلع . ولماذا تعدهم أغبياء ؟ ليسوا بالأغبياء الى هذا الحد :
ما من أحد يملك اليوم تفكيراً خاصاً به . العقول الأصلية المستقلة تادرة

جداً في هذا الزمان • فرجنسكى انسان نقى جداً ، أنقى عشر مرات من أناس منلك ومنلى • ما قيمة هذا على كل حال ؟ أما ليوئين فهو وغد • لكننى أعرف نقطة الضعف فيه • ما من وغد الا فيه نقطة ضعف • صحيح أن ليامشين ليس له نقطة ضعف • ولكننى ممسك به • بضع حلقات أخرى كهذه الحلقة ، ثم يصبح تحت تصرفى فى كل مكان جوازات سفر ، ومال • هذا وحده شئ كثير • ايس هذا بالليل • ويصبح لى مخابى • مضمونة آوى اليها • فاذا وضعوا أيديهم على احدى الحلقات ، فاتهم الحلقات الأخرى • ستحدث اضطرابات ، وثورات ••• هل يمكن أن لا تصدق أننا نستطيع نحن الاثنين كل شئ ؟

— خذ شيجالوف ، ودعنى وشأنى ! •••

— شيجالوف رجل عبرى • هل تعرف أنه عبرى من مستوى فوريه ، ولكنه أجراً من فوريه ، وأقوى من فوريه ؟ سوف أنهم به • لقد اخترع « المساواة » •

قال ستافروجين لنفسه وهو يتفرس فى فرخوفنسكى من جديد :
« انه محموم • انه يهذى » • واستمرا يسيران جنباً الى جنب •

وعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال :

— مشروعه عظيم • انه يخلق التجسس • جميع أعضاء المجتمع فى مشروعه يتجسس بعضهم على بعض ، وعليهم أن ينقلوا كل ما يصل الى علمهم • كل واحد ينتمى الى الجميع ، والجميع ينتمون الى كل واحد • كل البشر عبيد ومتساوون فى العبودية • وفى الحالات القصوى يأتجا الى الاقتراء والى القتل • ولبس الشئ الرئيسى هو أنهم جميعا متساوون • قبل كل شئ ، يجب خفض مستوى التعليم والعلوم والمواهب • ان المستوى العالى لا يصل اليه الا أصحاب المواهب • اذن فلا مواهب • ان أصحاب

المواهب يستولون دائماً على السلطة ويصبحون طغاةً مستبدين • ليس
فى وسعهم أن يفعلوا غير ذلك • ولقد أساءوا دائماً أكثر مما أحسنوا •
فيجب الغاؤهم أو انزال عقوبة الموت فيهم • شيشرون سيُقطع لسانه •
كوبرنيك ستُفقأ عيناه • شكسبير سيرُجم بالحجارة • هذا هو مذهب
شييجالوف • هذه هى الشييجالوفية ! يجب على العبيد أن يكونوا متساوين •
بدون استبداد لم توجد فى يوم من الأيام لا حرية ولا مساواة • ويجب
أن تعم المساواة القطيع • هذه هى الشييجالوفية • هاهاها ! ... أيد هشك
هذا ؟ أنا من أنصار شييجالوف •

كان ستافروجين يُغذّ الخصى ليصل الى بيته بأقصى سرعة • قال
يحدث نفسه : « اذا كان هذا الرجل سكران ، فأين أمكنه أن يسكر ؟
أبكون الكونياك الذى شربه منذ قليل هو الذى أسكره ؟ » •

- اسمع يا ستافروجين ! ان توطئة الجبال فكرة ممتازة • ليست
هذه الفكرة سخيفة مضحكة • أنا من رأى شييجالوف • لا حاجة الى
التعليم • كفى علماً ! حتى بدون العلم تكفينا الموارد التى نملكها الآن ألف
سنة أخرى • ولكن علينا أن نقيم الطاعة • الشيء الوحيد الذى يفتقر اليه
العالم انما هو الطاعة • ان الظلم الى التعليم قد أصبح منذ الآن ظماً
ارستقراطياً • وما ان تُمكن الأسرة أو الحب من القيام حتى تنشأ الرغبة
فى التملك على الفور • سوف تقتل هذه الرغبة : سوف تنمى الادمان على
السكر ، سوف تغذى الافتراء والتخرص ، والسعاية والنعيمية • سوف
تغرق البشر فى فجور لا عهد بميله من قبل ، سوف تقتل كل عبقرية قبل
أن تولد • سوف يكون جميع الناس متساوين : مساواة مطلقة • « نحن
نعرف مهنتنا ونحن أناس شرفاء ، ذلك كل ما نحتاج اليه » • هذه هى
الاجابة التى أجاب بها العمال الانجليز فى الآونة الأخيرة • الضرورى
وحده ضرورى • ذلك هو الشعار الذى يجب أن ترفعه الانسانية بعد

الآن • ولكن سوف يجب علينا أن نمنحها من حين الى حين بعض
الانتفاضات نوقرها لهم نحن القادة • ان العيد يجب أن يكون لهم سادة •
طاعة كاملة ، امحاء للشخصية مطلق • ولكن شيجالوف يسمح بالانتفاضات ،
مرة كل ثلاثين سنة • وعندئذ يهجم الجميع على الجميع ويلتهم بعضهم
بعضاً ، ولكن الى حد ، للتغلب على الضجر فحسب • الضجر شعور
أرستقراطي • ان مجتمع شيجالوف لن يعرف الرغبات • لنا نحن الرغبة
والألم • أما العيد فلهم الشيجالوفية •

— أتستنى نفسك ؟

— وأستنيك أيضا • هل تعلم أنني فكرت في أن أترك العالم للبابا •
فليخرج حافي القدمين ، وليظهر للشعب قائلا : « انظروا كيف صيرونى » ،
فاذا الجميع يتبعونه ، حتى الجيش • البابا فى القمة ، ونحن حوله ،
وتحتنا الجماهير الخاضعة لنظام شيجالوف • وانما ينبغي فقط أن يقوم
اتفاق بين الأمية والبابا • وسيحدث هذا • سيوافق المعجوز فوراً • ماذا
بقى له أن يفعل غير هذا ؟ تذكر كلماتى • هاهاها ! ... أهذا غباء
شديد ؟ ... قل لى أهذا غباء ؟ أهو غباء أم لا ؟ ...

دمدم ستافروجين يقول غاضباً :

— كفى !

— كفى ! اسمع • لقد عدلت عن البابا • ليذهب شيجالوف الى
الشیطان ! وليذهب البابا الى الشيطان ! نحن فى حاجة الى شيء راهن ، شيء
يمكن أن يلهب النفوس • أما أفكار شيجالوف فهى مسرفة فى الرهافة
والتعقيد • هى مثل أعلى ينتمى الى المستقبل • ان شيجالوف صانع
مجوهرات • وهو غبى ككل محب للبشر • لا بد لنا من الاندفاع فى أعمال

ضخمة ، وشيجالوف يحترق هذا النوع من الأعمال • اسمع : فى الغرب
سيكون البابا ، وعندنا ... ستكون أنت !

غمغم ستافروجين يقول وهو يسرع فى خطاه مزيداً من الاسراع :
- دعنى وشأنى • أنت سكران !

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول كأنه فى نشوة :

- ستافروجين • انك جميل ! وأتمن ما فيك هو أنك يعمق لك
أحياناً أن تجهل ذلك • آه ... لقد درستك دراسة عميقة ! اننى كثيراً
ما أنظر اليك خلصةً • بل ان فيك شيئاً من البراءة أيضاً ، شيئاً من
السذاجة ، هل تعرف هذا ؟ نعم ، ان فيك هذا • لا بد أنك تتألم من هذه
السذاجة ، لا بد أنك تتألم منها صادقاً • اننى أحب الجمال • صحيح أننى
عدمى ، ولكننى أحب الجمال • هل العدميون لا يحبون الجمال ؟ ان
العدميين لا يحبون الأصنام المعبودة • أما أنا فأحب الأصنام المعبودة • أنت
معبودى ! انك لا تسبى الى أحد ، ومع ذلك يكرهك جميع الناس • أنت
تعامل الناس معاملة أندادٍ مساوين لك ، ومع ذلك فانهم يخافون منك •
هذا حسن جداً • لا أحد سيحبى • يربت على كتفك • انك ارستقراطى ؟
والارستقراطى الذى يحبى الى الديموقراطية يسحر العقول ويأسر النفوس
الى أقصى حد • ليس يكلفك شيئاً أن تضحى حياتك أو حياة انسان آخر •
أنت من نحن فى حاجة اليه • أنت من أنا فى حاجة اليه • ولا أعرف
شخصاً آخر مثلك • أنت الزعيم ، أنت الشمس ، أما أنا فلست الا دودة
من دود الأرض ...

قال فرخوفنسكى ذلك ثم تناول يد ستافروجين فجأة وقبلها •
ارتعش نيقولاى فسيفولودوفتش • وبحركة عنيفة سحب يده • ووقف
الاثنان كلاهما •

دمدم ستافروجين يقول لصاحبه :

- أنت مجنون •

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يستأنف كلامه فقال :

- ربما كنت أهدى • نعم ، ربما ••• لكننى أنا الذى اكتشفت بأى شئ يجب البدء • هذه فكرة ما كانت لتخطر ببال شيجالوف فى يوم من الأيام • أمثال شيجالوف كثيرون جداً ! لكن رجلاً واحداً فى روسيا عرف ما هى الخطوة الأولى التى يجب القيام بها ، وعرف كيف يجب القيام بها • هذا الرجل هو أنا • ما بالك تنظر الىّ هكذا ؟ أنا فى حاجة اليك • أنا لا غنى لى عنك • أنا بدونك صفر • لست بدونك الا ذبابة ، الا فكرة فى قمقم ، الا كولومب بنير أمريكا ! •••

كان ستافروجين ما يزال ساكناً جامداً يتأمله بانتباه محاولاً أن يقرأ فى عينيه المجنوتين •

وتابع فرخوفنسكى كلامه فقال بصوت لاهت متعجل ، وهو يشد ستافروجين من كمّ معطفه فى كل لحظة :

- اسمع ، سنبدأ بأن نثير اضطرابات • سبق أن قلت لك ذلك • سوف تتسلل الى أعماق الشعب • هل تعرف أننا أقوىاء قوة رهيبة منذ الآن ؟ ان الذين يعملون من أجلنا ليسوا فقط أولئك الذين يقتلون ويشعلون الحرائق ويسعملون المسدس بالطريقة الكلاسيكية وأولئك المسعورين الذين يعضون • حتى ان هؤلاء قد يكونون أميل الى الاعاقة والعرقلة • انتى لا أقبل شيئاً بدون انضباط • أنا وغد ، ولست اشتراكياً هاها ! اسمع ، انتى أضع الجميع فى الحساب : ان معلم المدرسة الذى يستهزئ مع تلاميذه بالههم ومهادهم واحد منا ؟ والمحامى الذى يدافع عن موكله القاتل المثقف مشيراً الى أنه أعلى ثقافة من الذين قتلهم ، والى

أنه اضطر أن يقتل للحصول على المال ، هو واحد منا ؟ وتلاميذة المدرسة الذين يقتلون أحد الفلاحين نشداناً لاحتساسات خارقة هم منا ؟ والمحلفون الذين يبرّتون جميع المجرمين بغير استثناء هم منا ؟ ووكيل النيابة الذي يرتعش خوفاً متى خطر بباله أنه لم يظهر قدراً كافياً من اللبرالية هو منا • ثم أضف الى هؤلاء ، الموظفين والكتاب • ان كثيرين منهم يتمنون لنا دون أن يخطر ذلك ببالهم ! ثم ان طوعية التلاميذ والحمقى طوعية مطلقة • أما المعلمون فانهم ممثلون غيظاً • كل شيء في كل مكان ليس الا غروراً وشهوة حيوانية لا عهد بمثلها من قبل • هل تتصور مدى المساعدة التي يمكن أن تقدمها لنا الأفكار الجاهزة الرائجة ؟ حين سافرت أنا ، كانت فكرة لتريه هي الشائعة في الناس ، فكانوا يزعمون أيامذاك أن الجريمة أصبحت لا تعدّ اختلالاً بل دليلاً على سلامة الحس ، بل واجباً أخلاقياً ، أو احتجاجاً كريماً في أقل تقدير • « كيف يمكن لانسان مثقف أن لا يقتل اذا هو احتاج الى مال ؟ » • ولكن هذا ليس الا بداية • انا منذ الآن نرى الاله الروسي قد أذعن للخسارة الرخيصة الثمن • فالشعب يشرب ، والأمهات تشرب ، والأولاد يشربون ، والكنائس خالية مقفرة • وماذا نسمع في محاكم القرويين ؟ « سطل خمرة ، والا فمائتا جلدة ! » • دع لهذا الجيل أن يكبر فقط ! خسارة ! أننا مستعجلون ، فلو كان في وسعنا أن نتظر ، لما أصبحوا جميعهم الا أشد سكرأ • خسارة ! أيضاً أنه لا توجد بروتاريا • ولكنها ستوجد ••• ستوجد !••• نحن سائرون الى هذا •

جمجم ستافروجين يقول مستأنفا السير :

– خسارة ! أيضاً أننا غدونا أغبياء حقاً •

– اسمع ! لقد رأيت طفلاً في السادسة من عمره يقود الى البيت

امه التي كانت سكرى تماماً وكانت تمطره بوابل من أقذع الشتائم •••

هل تصدّق أن هذا قد سرّني ؟ حين سنستولى على السلطة ، فقد نراهم يشفون من دائهم ... وسوف نطردهم الى الصحراء أربعين عاما اذا وجب الأمر . أما الآن فنحن فى حاجة الى جيل أو جيلين اثنين من الفاسقين الداعرين . نحن فى حاجة الى فساد لا نظير له ، الى تحلل دنىء ، يحيل الانسان حشرةً قذرة حقيرة قاسية أنانية . ذلك ما نحن فى حاجة اليه . وعدا هذا سنعطيهـم قليلاً من « الدم الجديد » حتى يألفوا ويتعودوا . ما بالك تضحك ؟ اننى لا أناقض نفسى . اننى لا أناقض الا محبى البشر وشيـجالوف . أنا وغد ولست اشتراكيا . هاهاها ! ... خسارة فقط أننا لا نملك الوقت الكافى . لقد وعدت كارمازينوف بأن نبدأ فى شهر أيار (مايو) ، وبأن يكون كل شىء قد تمّ فى أول أكتوبر (تشرين الأول) . لن يطول الأمر ، كما ترى . هاهاها ! ... هل تعرف ما سأقوله لك يا ستافروجين ؟ ان الشعب الروسى ، رغم شتائمه البذيئة وتجديفاته ، كانت روح الاستهتار غريبة دائماً عنه . هل تعلم أن الأفنان كان يحترم بعضهم بعضاً أكثر مما يحترم رجل مثل كارمازينوف نفسه : كانوا يتلقون جلدات السياط ، ولكنهم استطاعوا أن يدافعوا عن آلهتهم ، أما كارمازينوف فقد ترك الهه .

قال ستافروجين :

— هذه أول مرة أصغى فيها الى كلامك يا فرخوفنسكى ، ويجب أن أقول لك اننى مذهول مشدوه . ما أنت بالاشتراكى حتماً ، وانما أنت رجل ... طامع ، رجل سياسى .

— بل أنا وغد ، وغد ، كما قلت لك . هل تحب أن تعرف من أنا ؟ سأقول لك : الى هذا انما أريد أن أصل . اننى لم أقبل يدك عبثاً بغير هدف . ولكن يجب أن يؤمن الشعب بأننا نعرف ماذا نريد ، على حين أن الآخرين « يشهرون الهراوة ويضربون ذويهم » . آه ... ليتنا نملك

وقتاً ! ان بلاءنا الوحيد هو افتقادنا الوقت الكافى • سوف تنادى بالتدمير • • •
 فلماذا • • • لماذا كانت هذه الفكرة فاتنة آسرة الى هذا الحد ؟ نعم ، يجب
 على المرء أن يرخى أعضائه أحياناً ! • • • سوف تشعل حرائق ! • • •
 سوف ننشر أساطير • ومن أجل تحقيق هذا ستفيدنا أيسر حلقة صغيرة •
 سأجد لك بين هذه الحلقات هواة يطلقون النار فرحين ، بل يرون أنهم
 نالوا شرفاً عظيماً لأنهم كانوا الأوائل • وعندئذ انما تبدأ البلبلة والثورة •
 وسنشهد انقلاباً لا عهد للعالم بمثله من قبل • • • سيهبط على روسيا ضباب
 كيف • • • وستبكي الأرض آلهتها القديمة • • • ويومئذ نخرجه • • •
 نخرج من ؟

— من ؟

— ابن القيصر ، ايفان •

— كيف ؟

— ابن القيصر ، ايفان ! أنت ، أنت !

فكّر ستافروجين لحظة •

ثم سال المجنون وهو ينظر اليه بدهشة عميقة :

— محتال ! هذه اذن خطتك ؟

وعاد فرخوفنسكى يتكلم فقال بصوت عذب ، بصوت يشبه أن يكون

صوت عاشق ولهان (وكان فى الواقع يبدو سكران) :

— سوف نقول انه « مختبىء » • هل تعلم ماذا تعنى هذه الكلمة

« مختبىء » ؟ ولكنه سيظهر ، سيظهر • سوف نخلق أسطورة أجمل من

أسطورة سوبتزي • « انه موجود ، ولكن أحداً لم يره بعد » • ما أروع

الأسطورة التى يمكن خلقها فى هذا الشأن ! ولكن الشيء الرئيسى هو أن

ذلك سيكون قوةً جديدةً • وحاجتنا انما هى الى قوة جديدة • الى قوة جديدة انما نحن نتوق • ما الذى تجيء به الاشتراكية ؟ لقد حطمت القوى القديمة ، ولكنها لم تخلق قوى جديدة • أما نحن فسنملك قوة ، وبإلها من قوة ! على شرط أن نملك رافعة ، ولو لحظة قصيرة ، رافعةً تتيج لنا أن نرفع الأرض • وسيتور الجميع حينذاك •

قال ستافروجين وهو يتبسم ابتسامة سخرية :

— هل يمكن أنك تعتمد على "جاءاً" ؟

فقال فرخوفنسكى :

— لماذا تبسم ، ولماذا تبسم ابتسامة فيها هذه السخرية كلها ؟ لا تروّعنى ! أنا الآن أشبه بطفل • تكفى ابتسامة كابتسامتك لقتلى خوفاً . اسمع ! لن أظهر لك لأحد ، لن أظهر لك لأحد البتة • انه موجود ، ولكن أحداً لم يره • انه مخبئ • مع ذلك ربما كان من الممكن اظهارك ، لواحد من مائة ألف مثلاً • وستضج الأرض كلها حينذاك : « لقد رئى ، لقد رئى ! » • ألم يروا ايفان فيليوفتش ، ألم يروا الاله يهوه مختطفاً من السماء فى عربة من نار • ألم يروا «بأعينهم» ؟ وأنت لست ايفان فيليوفتش • أنت جميل ، وأنت ذو كبرياء كاله ، ولست تسعى الى شيء لنفسك ؟ سوف تحيط به هالة التضحية : « المخبئ » ! أسطورة • ذلك هو الشيء الرئيسى ! سوف تنتصر ، تكفيك نظرة لتنتصر • انه يجيء بحقيقة جديدة و « يخبئ » • وسننطق ، الى هذا ، بحكمين أو ثلاثة من أحكام سليمان • لا حاجة الى الجرائد • حلقاتنا ستولى نشر الشائعة • ويكفى أن نلبى طلباً من عشرة آلاف طلب حتى يتجه الجميع إلينا • فى كل قرية سيعرف كل فلاح أن فى مكان ما جذعاً يجب عليه أن يودعه التماسه • وستنتشر فى الأرض كلها شائعة تقول : « لقد صدر قانون

جديد ، قانون عادل ! » • البحار ستهتاج ، والمنزل الخشبي القديم
ستهاوى • وعندئذ نفكر فى شيد بناء من حجر ، لأول مرة • و « نحن »
الذين سنشيده ، نحن وحدنا •

قال ستافروجين مدمماً :

– جنونٌ هذا كله •

– لماذا ؟ لماذا لا تريد ؟ أتخاف ؟ ولكن لئن كنت أنشبت بك ، فما
ذلك الا لأنك لا تخاف من شيء • أ يكون هذا ابتعاداً عن العقل • ما أنا
الآن الا كولومب بدون أمريكا • هل يمكن أن يكون كولومب بدون
أمريكا عاقلاً ؟

لزم ستافروجين الصمت • وفى أثناء ذلك وصلاً ، ووفقاً أمام درجات
الباب •

همس فرخوفنسكى يقول فى أذن نيقولاى فسيفولودوفتش :

– اسمع • سأدبر كل شيء بغير مال • سأفرغ منذ الغد من ماريا
تيموفتشنا ••••• ولن يكلفك هذا شيئاً • وفى غدٍ سأجيئك بليزا • هل
تريد ليذا غداً ؟

حدث ستافروجين نفسه فتساءل متسماً : « أترأه فقد عقله حقاً ؟ » •
وفتح الباب •

سأله فرخوفنسكى وهو يمسك ذراعه :

– ستافروجين ، هل أمريكا لنا ؟

فأجابه ستافروجين بجفاء :

– فيم يفيدنا هذا ؟

– لا تريد ؟ كنت أتوقع هذا ! •••••

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش وقد ثارت تائثرته على حين فجأة •
وتابع كلامه فقال :

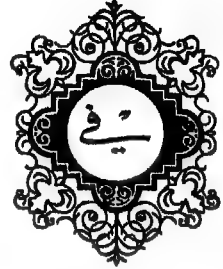
- أنت تكذب ، أيها السيد الشرير الفاجر الداعر • لست أصدقك •
ان لك لشمهوه ذئب ! ... افهم أخيراً أن حسابك أشد ثقلاً من أن أتنازل
عنك • أنت فريد في العالم • لقد اخترعتك منذ لقائنا في الخارج •
اخترعتك وأنا ألاحظك • لولا أنني لاحظتك خلصة لما خطر ببالي شيء •
صعد ستافروجين السلم دون أن يجيب •

وصرخ فرخوفنسكى :

- ستافروجين ! اننى أمهلك يومين ... بل أمهلك ثلاثة أيام •
لكننى لا أستطيع أن أمهلك أكثر من ذلك • لا بد لى من جواب •

الفصل التاسع

«مساور» في بيت ستيفان تروفيموفتش



تلك الأثناء حدث أمر أدهشني كثيراً وأدخل في نفس ستيفان تروفيموفتش أشد الاضطراب • ففي الساعة الثامنة من الصباح هربت الى ناستاسيا من عنده لتبلغني أن مولاها قد « صودر » • فلم أفهم في البداية شيئاً • فقالت ان موظفين قد جاءوا وقاموا « بمصادرة » ، فأخذوا أوراقاً لفها جندى بخيط و « حملها على نقالة » • بدت لي هذه القصة عجيبة كل العجب • فأسرعت الى بيت ستيفان تروفيموفتش • وجدته في حالة غريبة جداً : كان منفعلًا ، مضطربًا ، وكان وجهه في الوقت نفسه يعبر عن معنى الانتصار • وعلى مائدة ، الى جانب كأس من الشاي لم يشرب منها شيء ، كان هناك سماور يغلي ماؤه • ان ستيفان تروفيموفتش يدور حول المائدة ، أو يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً ، دون أن يدرك ماذا يفعل • وهو يلبس ، على عادته ، ثوب التريكو الأحمر ، ولكنه ما ان رأيته حتى أسرع برتدي صديرتي وردنجوتيه ، وذلك أمر ما كان يفعله أبداً في الماضي حين يفاجئه صديق وهو بثوب التريكو •

— « أخيراً يصل صديق » ! (بالفرنسية) •

قال ذلك وتنفس من أعماق صدره • ثم تابع كلامه :

— « عزيزي » (بالفرنسية) ، أنت الشخص الوحيد الذي بمث

أنبئه بما حدث ، ولا أحد يعرف شيئاً البتة • يجب أن نقول لناستاسيا أن تغلق الباب ، ولا تدع لأحد أن يدخل ، الا «هم» طبعاً ••• «هل فهمت؟»
(بالفرنسية) •

كان ينظر الى قلقلًا كأنه ينتظر جواباً • وأسرت أسأله طبعاً عما حدث ، فاستطعت كيفما اتفق أن أستخرج من أقواله المفككة التي تقطعها وقفات واستطرادات لا داعي لها أن موظفاً من موظفى الاقليم قد جاءه «فجأة» فى الساعة السابعة من الصباح •

- « معذرة ، لقد نسيت اسمه • ما هو من أبناء هذه البلاد »
(بالفرنسية) ولكنى أعتقد أن لمبكه هو الذى جاء به • « شخص غبى ألمانى
الهيئة اسمه روزنتال » •

- أترأه هو بلومر ؟

- بلومر • نعم ، هذا هو الاسم الذى ذكره • « هل تعرفه ؟ شخص
أهبل يدل وجهه على رضاه عن نفسه ، وهو مع ذلك قاس صلب جاد »
(بالفرنسية) • هيئته هيئة رجل من رجال البوليس ، من رجال البوليس
السرى • « اننى أعرفهم » (بالفرنسية) • كنت ما أزال نائماً • وطلب
منى أن يلقي نظرة على كتيب ومخطوطاتى ، هل تتخيل هذا ؟ « نعم ،
أتذكر ، لقد اسعمل هذه الكلمة » (بالفرنسية) • لم يعتقلنى ، ولكنه
أخذ الكتب ••• « كان يقف بعيداً » (بالفرنسية) ، ولما بدأ يشرح لى
الغرض من زيارته ، كان وجهه يدل على أنه يتصور أننى ••• « الخلاصة
كان وجهه وجه من يظن أننى سأهوى عليه فوراً وأخذ أضربه ضرباً
عنيفاً • جميع أمثاله من أبناء الطبقة الدنيا هم كذلك » (بالفرنسية) حين
يجدون أنفسهم أمام رجل محترم • طيبي أننى فهمت كل شئ على الفور •
« اننى أتهيا لهذا منذ عشرين سنة » (بالفرنسية) • فتحت له جميع

الأدراج وأعطيته المفاتيح : أعطيته المفاتيح بنفسى ، سلّمته كل شيء .
 « كنت رصيناً وهادئاً » (بالفرنسية) • أخذ من الكتب طبقات هرتمن
 الأجنبية ، والنسخة المجلدة من « الناقوس » ، وأربع نسخ من قصيدة ،
 « الخلاصة » ، أخذ كل ذلك » (بالفرنسية) • وأخذ أوراقاً ورسائل
 وأخذ « بعض مسوداتى التاريخية والنقدية والسياسية » (بالفرنسية) •
 ذلك كله حملوه • لقد قالت ناستاسيا ان جندباً حمل هذه الأشياء كلها على
 نقالة مغطاة بغطاء ، نعم ، « هكذا » (بالفرنسية) ، بغطاء .

كان يهذى • من ذا يستطيع أن يفهم من كلامه شيئاً ؟ وطفقت ألقى
 عليه الأسئلة من جديد : هل جاء بلومر وحيداً ، أم كان معه أحد ؟ من
 أمره بالمجيء ؟ بأى حق ؟ كيف جرؤ ؟ ما هو التفسير الذى ذكره ؟

— « كان وحيداً ، وحيداً ، نعم » (بالفرنسية) ••• على كل حال
 كان هناك شخص آخر « فى حجرة المدخل » أتذكر ذلك ، ثم •••
 (بالفرنسية) • نعم كان هناك شخص آخر على كل حال ، فيما أظن •
 وفى المدخل كان يربط حارس • يجب أن نسأل ناستاسيا • هى تعرف
 ذلك كله خيراً مما أعرفه أنا • « كنت أنا مهتاجاً احتياجاً شديداً ، كما
 تعلم » (بالفرنسية) • « وكان يتكلم ، ويتكلم ••• قال أشياء كثيرة
 جداً ••• » (بالفرنسية) • ولكنه لم يتكلم الا قليلاً ، وانما كنت أنا
 الذى أتكلم • رويت قصة حياتى كلها ، من هذه الناحية طبعاً • « صحيح
 أننى كنت مهتاجاً احتياجاً شديداً ، ولكننى كنت رصيناً ، أوكد لك ،
 (بالفرنسية) • على اننى أخشى أن أكون قد بكيت • أما النقالة فقد
 أخذوها من عند صاحب الدكان التى تقع بجانبنا •

— ربه ! كيف أمكن أن يقع هذا كله ! ولكن ناشدتك الله ياستيفان
 تروفيموفتش ، تكلم بشيء من الدقة والوضوح ! ان ما تقصه على حلم •

— « عزيزى » (بالفرنسية) ... أنا نفسى أعتقد بأننى أحلم ...
« هل تعلم ؟ » (بالفرنسية) • « لقد نطق باسم تلياتييكوف » (بالفرنسية)
وأظن أن تلياتييكوف هذا هو الذى كان مختبئاً عند المدخل • نعم ، أتذكر
الآن : لقد اقترح علىّ أن استدعى وكيل النيابة ودمترى متريش فيما
أظن ... « دمترى متريش الذى ما يزال مدينّاً لى بخمسة عشر روبلاً
ربحتها منه فى اللعب بالورق ... أقول هذا بالمناسبة عابراً ... الخلاصة :
اننى لم أفهم كثيراً • » (بالفرنسية) • ولكننى كنت أمكرّ منهم • ماشائى
ودمترى متريش ! أظن اننى رجوته أن يُبقى الأمر سرّاً ، نعم توسلت
إليه ، ضرعت إليه ... أخشى أن أكون قد أسرفت فى التذلل له •
« ما رأيك ؟ » ... الخلاصة أنه قبل ... بل لا ... اننى أتذكر أنه هو
الذى قال ان الأفضل أن يبقى الأمر سرّاً مكنوماً ، لأنه لم يجرى الا لقاء
نظرة عابرة ، على حد تعبيره ... ولا شئ غير ذلك ، نعم ، لا شئ غير
ذلك ، فاذا لم يغير على شئ بقى الأمر عند هذا الحد ولم يتجاوزه • لذلك
اترقنا « صديقين » • « اننى راض كل الرضى » •

هتفت أقول له مستاءً استياء الصديق من صديقه :

— ما هذا الذى تقوله ؟ أيعرض عليك ضمانات هى من حقت فى مثل
هذه الحالة ثم ترفضها بنفسك ؟

— كان الأحسن أن أتنازل عن الضمانات • علام أحدث فضيحة ؟
لقد كان من الأفضل أن نفترق صديقين مؤقتاً ... ذلك أن الأمر اذا شاع
فى المدينة ، « فان أعدائى ... ثم علام وكيل النيابة ، علام هذا الخنزير
وكيل النيابة الذى أساء الأدب معى مرتين ، والذى ضرب ضرباً مبرحاً
فى احدى السنين عند تلك الفتاة الجميلة ناتاليا بافلوفنا ، حين اختبأ فى
مخدعها • ثم ... يا صديقى ، لا تواجهنى باعتراضات تلو اعتراضات ،

ولا تؤسنى وتبسط عزيمتى ، أرجوك ، فحين يكون المرء تعباً فلا شيء أبغض اليه وأبعد عن قدرته على الاحتمال من أن يسمع أصدقاءه يقولون له انه ارتكب غلطة • ولكن هلاًّ جلست وشربت كأساً من الشاي ! أما أنا فأعترف بأننى متعبٌ كثيراً ••• يخيل الىّ أننى أحسن صنعاً اذا أنا اضطجعت ووضعت كمّادة خلى على رأسى • ما رأيك ؟

صحت أقول له :

— حتماً • بل أنت فى حاجة أيضاً الى جليد • انك مضطرب اضطراباً شديداً • وجهك شاحب ويداك ترتعشان • اضطجع ، ارتح قليلاً ، ولا تقل شيئاً • ساقبى جالساً الى جانبك انتظر أن تتحسن حالك •

لم يشأ أن يضطجع • ولكننى ألححت • وجاءتنا ناستاسيا بخلى فى طاسة • فبللت بالخل منشفة ووضعت المنشفة على رأسه • ثم صعدت ناستاسيا على كرسي وأخذت تشعل قنديلاً أمام الأيقونة • لاحظت ذلك مدهوئاً • فأننى لم أرك عند صاحبى قبل ذلك قنديلاً قط •

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لى وهو يرمقنى بنظرة مأكرة :

— أنا الذى أمرت ناستاسيا بذلك بعد انصرافهم رأساً • « اذا كان لدى المرء أشياء من هذا النوع ، وجاموا يعتقلونه » فان هذا يكون له أثره ، لأنهم لا بد أن ينقلوا ما رأوا •••

أشعلت ناستاسيا القنديل ، وظلت واقفةً فى العتبة ، مسندة خدها الى راحة يدها اليمنى ، وأخذت تتأمل مولاها وقد ظهر على وجهها حزن شديد •

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لى :

— « أبعدنا » بأية حجة من الحجج • اننى أكره هذه الشفقة الروسية • ثم ان هذا يضايقنى ويزعجنى •

ولكن ناستاسيا خرجت بعد لحظة من تلقاء نفسها • ولاحظت أنه لا ينقطع عن النظر الى الباب والاصغاء الى أيسر ضجة صادرة عن حجرة المدخل •

قال وهو يلقي على نظرة ذات دلالة :

- « يجب على المرء أن يكون مستعداً ، كما تعلم » • فى أية لحظة قد يأتون ، فيقتادوننى ، فاذا أنا أختفى فى مثل لمح البصر •

- عجيب ! ما هذا الذى تقول ؟ من ذا يختفى ؟ من الذى يقتادك ؟

- « يا عزيزى » لقد سألته ملحاً حين انتهى عما سيفعلونه بى •

صحت أقول مستاءً :

- ليتك سألته أيضاً الى أين سينفونك !

- ذلك بعينه ما عنيته بسؤالى • ولكنه انصرف دون أن يجيبنى • فيما يتعلق بالملابس والثياب ، ولا سيما الثياب الدافئة ، سوف يكون الأمر على مايجبون • فاذا أذنوا لى بحملها كان هذا من حسن حظى ، ولكنهم يستطيعون أيضاً أن ينفونى مرتدياً معطف جندى • غير أننى (هنا خفض صوته وهو ينظر الى الباب الذى خرجت منه ناستاسيا منذ هنيهة) قد دمست خمسة وثلاثين روبلاً فى بطانة جيب صديرتى التى كانت مفتوحة • أنظر ، هى هنا ، جُسَّها بيدك • أظن أنهم لن ينتزعوا منى صديرتى • ومن أجل التمويه ، تركت سبعة روبلات فى محفلة نقودى ، فكأننى أقول لهم : « هذا كل ما أملك » ، ثم انى تركت قليلاً من النقود على المائدة ، بحيث لا يحزرون أننى خبأت المال ، بل يعتقدون أن هذا كل شىء فعلاً • الله يعلم أين سأقضى الليلة !

خفضت رأسى أمام هذا الجنون • واضح أن اعتقال الناس وتفتيشهم لا يكون بهذه الطريقة التى يصفها • لقد خلط كل شىء ما فى ذلك شك •

صحيح أن هذه القصة كان يجرى مثلها قبل تطبيق القوانين الجديدة •
وصحيح أيضا أنه قد اقترح عليه إجراءً أقرب الى الأصول المتبعة ، ولكنه
« كان أمكرَ منهم » فرفض ... ولا شك أن الحاكم فى الماضى ، منذ زمن
غير بعيد ، يستطيع فى بعض الحالات القصوى ... ولكن أين « الحالة
القصوى » هنا ؟ ذلك ما كان يدهشنى •

قال ستيفان تروفيموفتش فجأة :

– لا شك أنهم تلقوا برقية من بطرسبرج •

– برقية ؟ بشأنك ؟ عن مؤلفات هرتمن وقصيدتك ؟ انك فقدت
عقلك • لا يُعتقل الناس لأسباب كهذه •

لقد غضبتُ فعلاً • فصعّر وجهه ، وظهر عليه التأذى ، لا من
لهجتى بل من قولى انه ليس ثمة ما يدعو الى اعتقاله •

دمدم يقول بهيئة ملغزة :

– هل يعرف المرء فى هذا الزمان لماذا يمكن أن يُعتقل ؟

فاذا بفكرة مجنونة تلمع فى ذهنى على حين فجأة ، فأقول له :

– ستيفان تروفيموفتش ، قل لى وأنا صديقك الذى لن يخونك :
أأنت تنتمى الى جمعية سرية ما ؟

فما كان أشد دهشتى حين لاحظت أنه هو نفسه لا يعرف • ذلك أنه
أجابنى بقوله :

– هذا يتوقف على الجهة التى ننظر منها الى الأمور ...

– كيف ؟

– حين ينذر المرء نفسه لفكرة التقدم من أعماق قلبه ، وحين ...

مَنْ ذَا يستطيع أن يجزم ؟ رب شخص يتخيل أنه لا ينتمى الى أية جمعية ،
حتى اذا نظر الى الأمر من كتب اكتشف نقيص هذا تماما •

- مستحيل • اما أنه ينتمى واما أنه لا ينتمى !

- يرجع عهد هذا الأمر الى أيام بطرسبرج ، الى الوقت الذى أردنا
فيه انشاء مجلة • ذلك مصدر كل شئ • لقد انصرفنا حينذاك فنسونا ، ثم
تذكرونا الآن • عزيزى ، ألا تعرف كيف تجرى الأمور ؟

كذلك هتف متوجعاً ، وتابع كلامه يقول :

- يعتقلونك ويُرْكَبونك زحّافة ويمضون بك الى سيريا الى الأبد أو
ينسبونك فى معقل من المعازل •

قال ذلك وانفجر يبكى متحجّياً • كانت دموعه تسيل غزيرة على
خديه ، وظل ينسج هذا النسيج المتشنج خلال خمس دقائق ، ضاغطاً
بمبديله الأحمر على عينيه •

اضطربتُ من ذلك اضطراباً شديداً • ان هذا الرجل الذى كان لنا
بمثابة نبى منذ عشرين سنة الى الآن ، وكان معلمنا ، وكان امامنا ، وكان
يعاملنا بتلك الأبوة وتلك الفخامة كلها ، وكان يتسلط علينا من على ، وكنا
نقدسه تقديساً من أعماق قلوبنا ، ونعدُّ وجوده بيتنا شرقاً لنا ، ان هذا
الرجل ينتحب الآن اتحاب صبي مذنب ينتظر أن يُجسّد بالسوط •
شعرت نحو بشفقة عميقة • انه يؤمن بأن الزحافة آتية لنقله كإيمانه
بوجودى قربه ، بل انه ينتظر وصولها فى هذا الصباح نفسه • انه يؤمن
بأنهم سيجيئون لاعتقاله فى هذه اللحظة ذاتها • وذلك كله بسبب مؤلفات
هرتسن ، وبسبب قصيدة لا أدري ما هى ! ألا ان هذا لجهل بالواقع
وانفصال عنه يبلغان من التمام والقوة ما يجعل حالة الرجل مؤثرة ومغيظة
فى آن واحد •

وأخيراً كفَّ عن البكاء ، وقام عن ديوانه ، وعاد يمشى فى الغرفة طويلاً وعرضاً ، مع استمراره فى التحدث الىَّ . ولكنه كان ينظر من النافذة من حين الى حين ، ويصيح بسمعه الى أسير ضجة . وكان حديثنا متقطعاً لا تسلسل فيه ، وكانت جميع الأقوال التى يمكن أن أسوقها له لأطمئنه لا تحدث فيه أى تأثير . كان لا يصنى الا قليلاً ، ولكنه كان فى حاجة كبيرة الى أن أهدىء روعه وأطمئن نفسه ، والى أن يسمحنى أتكلم فى هذا المعنى بغير توقف . ورأيت أنه أصبح لا يستطيع الاستغناء عني ، وأنه لن يدع لى أن أنصرف بحال من الأحوال ، فبقيت وقضينا معاً أكثر من ساعتين . وتذكر أثناء الحديث أن بلومر أخذ منشورين وجدهما بين أوراقه .

هتفت أقول بغير روية ولا حذر :

– منشورات تحريرية ؟ هل يُعقل أن تكون ؟؟؟

فأجاب بلهجة مقتاةة :

– دسوا لى منها نحو عشرة ؟؟؟ فتخلصت من ثمانية ولم يعثر بلومر

الا على اثنين ؟؟؟

كان يتكلم تارة بتعالٍ وسخط ، وتارة بشكوى ومذلة .

واحمر وجهه استياءً على حين فجأة ، وقال :

– « أنصعنى مع أولئك الناس ! » هل تستطيع أن تفترض أن من

الممكن أن أشارك مع هؤلاء الأوغاد الأنذال ، مع هؤلاء الجواسيس ، مع

ابنى بطرس ستيفانوفتش ، مع هذه « النفوس الزاخرة جنباً وحقارة ! »

آه ! ربه !

– ذلك ما أتساءل عنه وأشك فيه ! أتراهم خالطوا بينك وبين شخص

آخر ؟؟؟ ولكن لا هذا سخف ! مستحيل !

- « اسمع » ... اننى أشعر أحيانا بأننى « سأحدث هنالك فضيحةً ما » • آه ... لا تخرج • لا تدعنى وحيداً ؛ « لقد انتهت حياتى الفكرية والثقافة الآن • أشعر بهذا • » • هل تعلم أن من الممكن أن أهجم على أحد الناس وأن أعضه ، كما فعل الملازم الثانى ...

قال ذلك ورشقتى بنظرة غريبة وجلة ، ولكنها فى الوقت نفسه نظرة يقرأ فيها المرء معنى الرغبة فى التخويف • كان الحق يستولى عليه • وكان يبدو غاضباً مزيداً من الغضب على شخص ما وعلى شىء ما ، كلما انقضى الوقت ولم تصل « الزحاقة » • كان مسعوراً من شدة السخط فعلاً • وفجأة اصطدم ناستاسيا ، التى كانت فى حجرة المدخل ، اصطدمت بحمالة المعاطف فأسقطها على الأرض • فتجمد ستيفان تروفيوفتش فى مكانه من شدة الهلع • ولكن حين اتضح له الأمر ، أخذ يصرخ فى وجه ناستاسيا ، وقرع الأرض بقدمه ، وطرده ناستاسيا الى المطبخ • وبعد دقيقة قال لى بهيئة يائسة :

- لقد هلكت يا عزيزى !

وجلس بقربى ، وحدّق الى عيني بنظرة تثير الشفقة • وأردف يقول :

- « يا عزيزى » ، أنا لست خائفاً من سيريا ، أحلف لك ...

حتى لقد تفرق الدمع فى عينيه • وأضاف قائلاً :

- وانما أنا خائف من شىء آخر ...

فأدركت من النظر فى وجهه أن هناك أمراً خطيراً خطورة خاصة يريد أن يقوله لى ، ولكنه يتردد منذ برهة فى الإفصاح عنه • وهمس يقول أحياناً بلمهجة تحمل معنى السر :

- أنا انما أخاف العار •

- أى عار؟ صدّقنى يا ستيفان تروفيموفتش : ان كل شىء سيتضح
فى هذا اليوم نفسه لصلحتك •

- أأنت واثق بأنهم سيففرون لى ؟

- يففرون لك ماذا ؟ ما معنى هذا التعبير ؟ أى جريمة ارتكبت ؟
أؤكد لك أنك لم تجن أى ذنب •

- « ما يدريك يا عزيزى ؟ » • لقد كانت حياتى كلها ...
« يا عزيزى » ... لسوف ينشون ماضى كله ... فإذا لم يعثروا على
شىء ، كان ذلك « أسوأ وأنكى » عندى •

ما كان أشد دهشنى حين سمعت منه هذه الحملة الأخيرة ! ...

- أسوأ وأنكى عندك ؟

- نعم •

- لا أفهم !

- صديقى ، صديقى ، لا تهمنى سيرىبا ، لا تهمنى آرخانهجلىسك ،
لا يهمنى فقدان جميع حقوقى • ان المرء لا يموت الا مرة واحدة
أما ما أخشاه فهو شىء آخر ...

هنا عاد الى الهمس ، والهيئة المروّعة ، ولهجة السر •

- فما الذى يخيفك ؟ ما الذى يخيفك ؟

فقال أخيراً زائغ العينين :

- السوط •

فعدت أهتف خائفاً على عقله :

- من ذا الذى يمكن أن يجلدك بالسوط ؟ وأبن ؟ ولماذا ؟

- آين ؟ هنك ، حيث يتم الجلد بالسياط •

- ولكن آين ؟

- آه ... عزيزى ...

كذلك دمدم يقول لى بما يشبه الهمس فى الأذن :

- آه ... عزيزى ... تخسف الأرض فجأة تحت قدميك ، فتغور

الى منتصف جسمك ... جميع الناس يعرفون هذا •

صحت أقول وقد فهمت أخيراً ماذا يريد أن يقول :

- حكايات خرافية • هل يُعقل أنك ما تزال تصدق هذه الحكايات
الخرافية القديمة ؟

وانفجرت ضاحكاً •

- حكايات خرافية ؟ لا دخان بلا نار • الذين ذاقوا هذا لا يفتخرون

به طبعاً • لقد تصورت بالخيال ألف مرة كيف تجرى الأمور •

- ولكن أنت ، علام يجلدونك ؟ انك لم تفعل شيئاً •

- تماماً ، سوف يرون أننى لم أفعل شيئاً فيجلدوننى •

- وهل أنت مقتنع بأنهم لهذا الغرض انما سيقنادونك الى بطرسبرج ؟

- يا صديقى ، قلت لك اننى غير آسف على شئ • « لقد انتهت

حياتى الفكرية والثقافية » • منذ أن ودعتنى فى سفورشيكي لم يبق

للحياة من قيمة عندى • ولكنه العار ! العار ! « ما عساها تقول حين تعلم ؟ » •

قال ذلك واحمر احمرارا شديدا ، ونظر الى يائساً • فخفضت
عينى • ثم قلت له :

– لن تعلم شيئاً لأن شيئاً لن يحدث • انك تدهشنى كثيراً فى هذا الصباح ، حتى ليدو لى أتنى أكلّمك لأول مرة فى حياتى يا ستيفان تروفيموفتش •

– يا صديقى ، ليس هو الخوف • هبهم غفروا لى ، وأعادونى الى هنا دون أن يصنعوا بى شيئاً • لقد هلكت مع ذلك • « ستظل تشبه فى طوال حياتى » ••• أنا الشاعر ، أنا المفكر ، أنا الرجل الذى قدستى على مدى عشرين عاماً •••

– لن تخطر لها هذه الفكرة على بال •
دمدم يقول باقتناع عميق :

– بلى • لطالما تكلمنا معا فى بطرسبرج أيام الصوم الكبير قبل رحيلنا ، حين كنا كلانا خائفين ••• « سوف تشبه فى طوال حياتها » • من ذا الذى يستطيع أن يحولها عن هذا الخطأ ؟ مستحيل ! ومن ذا الذى سيصدقنى أنا فى هذه المدينة الصغيرة الحفيرة ؟ ••• « ثم النساء ! » ••• سوف تكون هى سعيدة • صحيح أنها ستألم ، ستألم كثيراً ، ستألم ألماً صادقاً ، لأنها صديقة حقاً ، ولكنها فى قرارة نفسها ، فى سرها ، ستسر سروراً عظيماً ••• سأكون قد زودتها بسلاح ضدى مدى الحياة ••• آه ••• لقد تحطمت حياتى • عشرون عاماً انقضت فى سعادة كاملة ••• والآن ! •••

قال ذلك ودفن وجهه فى يديه •
فقلت مقترحاً :

– ستيفان تروفيموفتش ، ألا يحسن أن تنبىء فراراً بتروفا فوراً بما حدث ؟

فما سمع هذا الاقتراح حتى وثب عن دهبانه وقال :

- معاذ الله ! مستحيل ! أبداً ! يستحيل أن أفعل هذا بعد الذى جرى
فى سفورشنيكى ! أبداً !

وسطعت عيناه •

أحسب أننا لبثنا على هذه الحال ساعةً بل أكثر ، ننتظر حادثاً يجب
أن يقع فيما تصور • وتمدد من جديد ، وأغمض عينيه ، وظل مستلقياً
قراءة عشرين دقيقة دون أن ينطق بكلمة ، حتى ظننت أنه قد نام ، أو أنه
غفا فى أقلّ تقدّر • وها هو ذا ينتصب فجأة ، فينزِع عن رأسه المنشفة
المبللة ، وبش عن الديوان ، ويهرع الى المرأة ، فيعقد رباط عنقه مرتعش
اليدين ، وينادى ناستاسيا بصوت مرعد ، ويأمرها بأن تهبى له معطفه
الجديد ، وقبعته ، وعصاه •

قال بصوت لاهث :

- نفد صبرى • هذا فوق ما أطيق • اننى ذاهب الى هناك بنفسى •
سألته وأنا أنهض أيضاً :

- الى أين ؟

- الى لمبكه • يا عزيزى ، لا بد لى أن أذهب اليه • هذا واجبى •
اننى رجل ، اننى مواطن ، ولست قسّة حقيرة • ان لى حقوقاً • واننى
لأطالب بأن تُحترم حقوقى • • • لقد أهملت حقوقى هذه مدة عشرين
عاماً ، أهملتُها طول حياتى اهمالاً اجرامياً • • • أما اليوم فاننى أطالب بها •
يجب عليه أن يقول لى كل شيء • نعم ، كل شيء • لقد تلقى بريقة ،
ولكننى لا أسمح له بأن يعذبنى • ليقتلنى ، ليقتلنى ، ليقتلنى !

كان يصرخ بصوت حاد وهو يقرع بقدمه الأرض •

قلت له بأكبر هدوء ممكن رغم ما تثيره حالته فى نفسى من قلق
شديد عليه :

– اننى أؤيدك • هذا أفضل حتماً من أن تبقى هنا نهياً للعذاب •
ولكننى لا أؤيد فرط اهتياجك • انظر الى وجهك فى المرأة • ما هذه
الهيئة ؟ كيف يمكنك أن تمثل هناك على هذه الحال • « يجب أن تكون
رصيناً هادئاً مع لمبكه » • انك لا تتورع الآن عن الهجوم على الناس
وعضّهم •

– اننى أسلمهم نفسى • اننى أرمى نفسى فى فم الأسد •

– سأرافقتك •

– لم أكن أتوقع غير هذا من صداقتك • اننى أقبل توضيحتك هذه
التي هى تضحية صديق حق • ولكنك لن تصحبني الى منزل لمبكه •
لا يجب عليك ، وليس من حقك أن تعرض نفسك للخطر بصحبتى مدة
أطول • أوه ! « صدقنى : سأكون هادئاً » • اننى أشعر فى هذه اللحظة
بأننى سأكون « فى مستوى أقدم ما أقدمس » •

قلت أقاطعه :

– ربما دخلت معك • ان لجنّتهم السخيفة قد أبلغتنى أمس بواسطة
فيسوتزكى أنه يعتمد علىّ ، ودعنى الى الاشتراك فى حفلة الغد مفضلاً
(هذه هى التسمية فيما أظن) • • • • • فسأكون اذن فى عداد الشبان الستة
المكلفين بمراقبة الخدمة ، وملاطفة السيدات ، واصطحاب المدعوين الى
أماكنهم • وسنضع على أكتافنا اليسرى عقدة من شرائط بيض وحمرة •
لقد أردت أن أرفض ، ولكننى أستطيع أن أدخل الآن الى المنزل بحجة
أننى أريد التحدث الى جوليا ميخائيلوفنا • سنذهب اذن معاً •

كان يصغى ويهز رأسه ، ولكن كان يبدو عليه أنه لا يفهم شيئاً •
ووصلنا الى العتبة • فإذا هو يقول لى ماداً ذراعه نحو الايقونة :

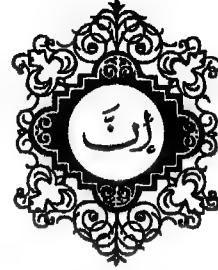
- عزيزى ، عزيزى ، اننى لم أؤمن بهذا ... ولكن ... فليكن ،
فليكن ... هيا بنا •

قال ذلك ورسم اشارة الصليب على نفسه •

قلت محدثاً نفسى وأنا أهبط درجات المدخل : « هذا أفضل •
سوف يحسن اليه الهواء الطرى • سوف يهدأ ، فاذا عاد الى البيت نام » •
ولكننى لم أحسن الحساب . ففى الطريق ، وقع لستيفان تروفيموفتش
حادث زاده اضطرابا ، ودفعه دفعا نهائيا فى طريق ... اننى أعترف بأننى
ما كنت لأتوقع فى يوم من الأيام مثل تلك الحرارة وتلك الهمة اللتين
أظهرهما صاحبنا فى ذلك الصباح • مسكين صديقى الطيب •

الفصل العاشر

الضابون - صبيحة مشؤومة



الحادث الذي وقع لنا في الطريق حادث خارق تماماً • ولكن فلنذكر الأمور مرتبةً متسلسلة • قبل خروجنا أنا وستيفان تروفيموفتش بساعة ، تظاهرت في الشوارع جمهرة من عمال مصنع شيبجولين يُقدَّر عددها بسبعين تقريباً ، وربما أكثر من ذلك ، فأثار تظاهرها اهتمام الناس وفضولهم • كان العمال يسرون صفاً مرتباً ، ملتزمين الصمت • وقد رُوى فيما بعد أنهم انما ندبهم عمال مصنع شيبجولين البالغ عددهم تسعمائة عامل ليطلبوا من الحاكم ، أثناء غياب أصحاب المصنع ، أن يتوسط لهم لدى مدير المصنع ؛ ذلك أن هذا المدير قد غشَّ عمال المصنع بعد اغلاقه ، وخدعهم في حساب حقوقهم ، وهذا أمر أصبح لا ينكره اليوم أحد • حتى أن بعض الناس يؤكدون أن هؤلاء السبعين لم يكونوا منتدبين من رفاقهم لينطقوا باسمهم (والحق أن عددهم أكبر من أن يكونوا وفداً منتدباً) ، وانما كانوا هم العمال الذين أصابهم ضرر أكبر فجاءوا يطالبون بحقوقهم باسم أنفسهم لا باسم جميع العمال ؛ فلا يمكن إذن أن يكون الأمر أمر «ثورة» كما أُشيع فيما بعد • غير أن هناك أناساً آخرين يؤكدون أن المتظاهرين كانوا «نواراً» حقيقين ، وعصاة عنيدين تأثروا بالمشورات التحريضية التي وُزِّعت في المصنع • الخلاصة

أنا لا نعرف حتى الآن ، على وجه اليقين ، هل كان العمال في تظاهريهم ينفذون أوامر صدرت اليهم ، أم هم خرجوا من تلقاء أنفسهم . أما أنا فأعتقد أنهم لم يقرأوا منشورات . وهبهم قرأوها فما كان لهم حتماً أن يفهموا منها شيئاً ، لأن الذين يحررون هذه الأوراق يكتبون كتابة غامضة ، وإن تكن قاسية عنيفة . ولكن لما كان العمال يمرون بظرف صعب فعلاً ، ولما كانت الشرطة التي لجأوا إليها قد رفضت التدخل والتوسط ، فقد كان طبيعياً أن يخطر ببالهم أن يذهبوا الى « الجنرال نفسه » مجتمعين ، حاملين مطلبهم بارزاً للعيان ، وأن يصطفوا حول بابه ، وأن يركعوا أمامه متى ظهر لهم ، مبتلين اليه بأصوات عالية . هذه طريقة تقليدية تاريخية ، فلا حاجة بنا ، في رأيي ، لأن نلجأ الى أى تحليل آخر . فالشعب الروسى ، منذ قديم الزمان ، يحب أن يتجه الى « الجنرال نفسه » ، الى الشخص القادر على كل شيء فى نظره ، لا لنرضى الا لذة التحدث اليه والشكوى له ، أية كانت نتيجة هذا الحديث وهذه الشكوى .

وهنا سلمنا بأن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين وغيرهما - ربما فدكا - قد استطاعوا أن يتصلوا بالعمال (كما تبين بعض الدلائل افتراض ذلك) ، وبأنهم تحدثوا الى اثنين أو ثلاثة منهم أو حتى خمسة ، لا لشيء الا لجس نبضهم ومعرفة مدى استعدادهم ، فأننى مقتنع بأن الأحاديث التي أجروها معهم لم تؤد الى أى شيء ، لأن العمال اذا فهموا شيئاً من هذه الدعاية فانهم قد أشاحوا عنها على الفور حتماً ، اذ لا بد أن تكون قد بدت لهم غبية ليس لها أية فائدة عملية . أما فدكا فلعله قد أصاب عندهم حظاً أكبر من حظ بطرس ستيفانوفتش . فمما لا شك فيه اليوم أن الحريق الذى شب فى المدينة بعد ثلاثة أيام انما أشعله فدكا وعاملان من مصنع شيبجولين . كما أن ثلاثة من عمال هذا المصنع قد اعتقلوا بعد ذلك بشهر بسبب ارتكابهم جريمة سرقة وجريمة اشعال حريق . ومهما يكن دور فدكا ، فيجب أن

نعتقد أنه لم يستطع أن يجتذب الا أولئك الخمسة ، اذ لم يُسمع عن الآخرين شيء من هذا القليل •

حين وصل العمال الى منزل الحاكم وهم ما يزالون صامتين ملزمين نظاما تاما ، اصطفوا حول درجات الباب ، ورفعوا قبعاتهم ، وأخذوا ينتظرون فاغرى الأفواه • انتظروا نصف ساعة ، لأن المصادفة شئت أن يكون الحاكم غائبا عن منزله في ذلك الوقت • فلم تلبث الشرطة أن ظهرت ، أفراداً قلائل في أول الأمر ، وعدداً كبيراً بعد ذلك • وطبعي أن الشرطة طفقت تتعجرف ، وأنذرت المتظاهرين بأن يتفرقوا • ولكن المتظاهرين عندوا فلم يتحركوا ، كقطع من الخراف أمام حاجز ، وأجابوا موجزين مقتضيين بأنهم انما جاءوا ليكلموا « الجنرال نفسه » ، وكان واضحاً أنهم مصرون على موقفهم لا يريدون أن يتزحزحوا عنه • عندئذ حلت التهديدات والصرخات محل التفكير • وتشاور مثلوا السلطة مهمومين حائرين ، تشاوروا بصوت خافت ، فاستقر رأيهم على الاجراءات التي يجب اتخاذها • وآثر رئيس الشرطة انتظار فون لمبكه • ليس صحيحاً أن ايليا ايلتش (رئيس شرطتنا) قد وصل على عربة تجرى بسرعة كبيرة فما ان نزل من العربة حتى أسرع يشهر قبضتيه على المتظاهرين • فلاشك أن ايليا ايلتش كان يجب في الأحوال العادية أن يعدو بمركبته الصفراء سريعاً ، وأنه بينما كانت تشتد حماسة أفراسه فتثير حياء جميع تجار السوق ، كان هو يقف في المركبة منتصب القامة ، متمسكاً بزناد وضع لهذا الغرض • ماداً ذراعه اليمنى كتمثال ، فيجتاز المدينة كلها بأقصى سرعة • ولكنه لم يستعمل اليوم قبضتيه والحق يقال • صحيح أنه لم يستطع عند نزوله من العربة أن يمتنع عن قذف بضعة شتائم مدوية ، ولكنه لم يفعل ذلك في اواقع الا من باب المحافظة على سمعته • وليس صحيحاً كذلك أن جنوداً قد استقدموا حاملين بنادق عليها حراب ، وأن

فصيلاً من القوزاق قد استدعى مع بطارية من المدفعية ، ببرقية • فما هذا كله الا أقاويل لم يصدقها حتى أولئك الذين أشاعوها • وغير صحيح أيضاً أن رجال المطافئ قد استدعوا لرش الجمهور بالماء • كل ما هنالك أن ايليا ايلتش قد غضب غضباً شديداً فصرخ يقول للعمال انه سيلقيهم في الماء ، ولعل هذا الكلام هو الذى ولّد أسطورة الرش تلك التى استولت عليها صحف موسكو وپترسبرج • والرواية الأصدق فى رأى هى أن جميع قوات الشرطة الموجودة قد طوّقت الجمهور فى البداية ، ثم أسرعوا يوفدون الى فون لمبكه رسولاً وثب الى عربة رئيس الشرطة ومضى نحو سكفورسنيكى التى كان فون لمبكه قد ذهب اليها على مركبته منذ نصف ساعة •••

اننى لأعترف مع ذلك بأننى ما زلت أتساءل كيف أمكنهم أن يقبلوا هذا المسعى الذى قامت به جماعة بسيطه من أجل أن تقدم عريضة للحاكم ، أقول كيف أمكنهم أن يقبلوا هذا المسعى على الفور - وان يكن عدد الجماعة سبعين شخصاً - الى ثورة زعموا أنها تهدد أسس الدولة نفسها ؟ ولماذا أسرع فون لمبكه نفسه الى قبول هذه الفكرة والتسليم بها حين وصل بعد عشرين دقيقة ؟ اننى أميل الى الاعتقاد (وليس ذلك الا رأياً شخصياً أيضاً) بأن ايليا ايلتش ، وهو صديق حميم لمدير المنصنع ، قد رأى أن من المفيد ابراز المظاهرة لفون لمبكه فى هذه الصورة ، حتى لا يخطر ببال فون لمبكه أن ينظر فى مطالب العمال وأن يدرسها • ولكن يجب أن نذكر أن فون لمبكه نفسه هو الذى كان قد أيقظ هذه الحطة فى ذهن رئيس الشرطة • ان الحاكم ورئيس الشرطة كانا فى تلك الأيام الأخيرة قد عقدا عدة اجتماعات سرية مشبوهة وان تكن غامضة مبهمه ، استتج منها رئيس الشرطة أن الحاكم يأخذ مسألة المنشورات التحريضية مأخذ الجد كثيراً ، ويقلق لها أشد القلق ، وأنه مقتنع بأن العمال ينتظرون صدور الأمر اليهم

ليقوموا بثورة شاملة • كان الحاكم يبدو متشبهاً بهذه الفكرة تشبهاً يبلغ من القوة أنه لو كذبتْها الوقائع لشعر بأسف • ولقد حدث صاحبنا الحثيث ايليا ايلتش نفسه فقال : « وان الحاكم يريد أن تعترف بطرسبرج بهمته ونشاطه • لم لا ؟ ان هذا يناسبنا كثيراً ! » •

أما أنا فأعتقد بأن المسكين آندره أنطونوفتش كان عاجزاً عن أن يتمنى قيام ثورة ليتاح له أن يبرز ويتميز • انه موظف سليم الخلق حتى الضمير ، ظل محتفظاً ببراءته الى أن تزوج • وهل يكون الذنب ذنبه اذا شاعت الأقدار أن لا تكتفى له بالوظيفة البسيطة المفيدة التي كان يطمح اليها ، وبامرأة صغيرة كان يتوق الى زواجها ، بل وضعت في طريقه أميرةً عمرها أربعون عاماً أرادت أن ترفعه الى مستواها ؟ انى لأعرف معرفةً تكاد تكون مؤكدة أنه منذ ذلك الصباح المشؤم انما ظهرت أولى الأعراض القاطعة لذلك المرض الذي قاد آندره أنطونوفتش الى سويسرا فيما يقال ، وأودعه في تلك المؤسسة الخاصة المعروفة التي أخذ يسترد فيها عافيته وقواه • ولكن مع تسليمنا بأن تلك العلام الواضحة انما ظهرت في ذلك الصباح ، فمن الممكن أن نسلّم ، في رأيي ، بأن وقائع مماثلة وان تكن غير فاطمة الى هذا الحد ، يمكن أن تكون قد حدثت منذ الليلة البارحة • اننى أعرف من مصدر موثوق به (افرضوا أن جوليا ميخائيلوفنا قد أفضت الى بأسرارها ، لا في عهد انتصارانها ، بل بعد ذلك ، حين أصبحت نهياً لما يمكن أن يوصف بأنه نصف ندم ، لأن النساء لا يندمن ندماً كاملاً في يوم من الأيام) ، اننى أعرف اذن من مصدر موثوق به أن آندره أنطونوفتش قد ذهب الى امرأته في الليلة السابقة ، في نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، فأيقظها من نومها لتسمع « انذاره » • لقد طلب منها ذلك بلهجة تبلغ من الصرامة أنها اضطرت أن تنهض عن السرير مستاءة ، مغطاة الرأس بالورق الذي يُلَفُّ به الشعر لتجعيده ، فجلست على

مضجع ، وأخذت تصفى الى كلام زوجها رغم ما ينم عنه وجهها من احتقار
 ساخر . وعندئذ انما أدركت لأول مرة ما آلت اليه حال زوجها . فشعرت
 بجزع . ولكنها بدلاً من أن تعترف بأخطائها وتلطف سلوكها ، أخفت
 جزعها وعندت مزيداً من العناد . افترض أنها ، كسائر الزوجات ، كانت
 تلتزم ازاء زوجها موقفاً جرب كثيراً . وهذا الموقف الذى سبق أن أخفق
 آندره أنطونوفتش فى كثير من الأحيان انما هو الصمت المزدري يدوم
 ساعة أو ساعتين أو أربعاً وعشرين ساعة وربما دام ثلاثة أيام . انه صمت
 عنيد لا يمكن أن يقطعه شيء مما قد يقوله أو يفعله فون لمبكه . والحق أن
 هذه الطريقة هى فوق ما يطيقه انسان حسّاس . هل أرادت جوليا
 ميخائيلوفنا أن تعاقب زوجها على الأخطاء التى ارتكبها فى الآونة الأخيرة
 وعلى الحسد الذى أثارته فى نفسه المواهب الادارية لدى زوجته ؟ أكانت
 مستاءة من الملاحظات التى أبداها لها بشأن سلوكها مع شبانها ومع مجتمعنا
 كله ، دالة على أنه لا يفهم شيئاً من أهدافها السياسية الناعمة العميقة ؟
 أكانت غاضبة من أنه ينفار عليها من بطرس ستيفانوفتش هذه الغيرة الغيبة
 التى لا سبب لها ولا داعى إليها ؟ المهم على كل حال أنها قررت أن لا تذعن
 ولا تخضع رغم أن الوقت هو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، ورغم أن
 آندره أنطونوفتش كان يبدو مضطرباً اضطراباً غريباً . كان خارجاً عن
 طوره ، يذرع أرض الغرفة فى جميع الاتجاهات ، فقال لها ، ولو بطريقة
 مشوشة فى الواقع ، كل ما كان يعتمل فى قلبه ، لأنه « أصبح لا يطيق
 صبراً » . أعلن لها أولاً أن جميع الناس يسخرون منه ، ويجرونه « من
 طرف الأنف » . « لا يهمنى التعبير » ، كذلك صرخ يقول بصوت حاد
 رداً على ابتسامتها الساخرة . « نعم ، من طرف الأنف ! ... هذه هى
 الحقيقة ... فاعلمى يا سيدتى أننى أرفض هذا ... لقد آن الأوان
 يا سيدتى ! اعلمى أن ليس هذا وقت الضحك والغندرة ! ... لسنا الآن

فى مخدع امرأة من نساء المجتمع • وانما نحن نمثل انسانين مجردين
ان صح التعبير ، التقيا فى اللون ليتكاشفا ويقولوا الحقيقة • (واضح أنه كان
مرتبكاً مشوشاً فلا يحسن التعبير عن أفكاره ، الصائبة على كل حال) •
انك أنت يا سيدتى ، أنت التى أخرجتنى من ظرفى القديم • وأنا لم أقبل
هذا المنصب الا من أجلك ، فى سبيل ارضاء مطامحك ••• أتبتسمين
ساخرة ؟ لا تشعرى بالانتصار ••• انتظرى قليلا ! ••• اعلمى ياسيدتى ،
اننى كان فى وسعى أن أنهض بأعباء هذا المنصب على خير وجه ، لا بأعباء
هذا المنصب وحده ، بل بأعباء مناصب أخرى أخطر منه شأنًا عشر مرات ،
لأننى أملك الكفاءات اللازمة • ولكننى لا أستطيع ذلك معك أنت ياسيدتى •
فوجودك أنت تععدم كفاءتى • ذلك أن من المستحيل أن يستقيم العمل مع
وجود مركزين • وأنت قد خلقت مركزين : واحداً عندى ، وواحداً
عندك ، فى مخدعك • مركزان للسلطة يا سيدتى • ولكننى لن أحتمل
هذا • لا • لن أحتمله • ففى الإدارة ، كما فى البيت ، لا يمكن أن يكون
الا مركز واحد • يستحيل أن يكون هناك مركزان ••• ما هو موقفك ؟
ان علاقتنا تحول الى ما يلى : تبرهين لى فى كل ساعة على أننى تافه ، وعلى
أننى غبى ، بل على أننى جبان • وأنا ، فى كل ساعة أيضاً ، أجدنى
مضطراً اضطراراً ذليلاً الى أن أبرهن لك على أننى لست تافهاً ولا غيباً ،
وعلى أننى بنبل أذهل جميع الناس • أليس هذا مذلاً لنا كلياً ؟ •

هنا أخذ الزوج يضرب الأرض بقدميه ضرباً شديداً ، حتى رأت
جوليا ميخائيلوفنا أنها مضطرة أن تنهض مهية الهيئة صارمة الملامح •
فسرعان ما هبط غضب الزوج • ولكنه سقط عندئذ فى فرط الحساسية
وأخذ يبكى منتحياً (نعم ، منتحياً) ، لاطماً صدره ، فافداً صوابه فقداً
تاماً بتأثير الصمت العنيد الذى تصر عليه جوليا ميخائيلوفنا • دام ذلك خمس
دقائق • ثم اذا به يزل لسانه زللاً ما بعده زلل ، فيقول انه يغار على امرأته

من بطرس ستيغافوفتش • واذا أدرك على الفور أنه ارتكب حماقة ضخمة، فانه لم يلبث أن غضب غضبا مسعورا، وأخذ يصرخ قائلاً انه لن « يسمع بانكار وجود الله » ، وان « صالونها هذا بؤرة كفر وجحود » ، وان على الحاكم أن يكون مؤمناً بالخالق ، وكذلك يجب أن تكون زوجة الحاكم أيضاً ، وانه قد ضجر واشمأز من جميع هؤلاء الشبان • وأضاف يقول : « ان من واجبك أنت يا سيدتي ، نعم من واجبك أنت ، حرصا على كرامتك نفسها ، أن تدعى زوجك وأن تعلمي للملأ جهاراً أنه ذكي ، حتى ولو كان عاجزاً (فكيف ولست بعاجز !) ولكن الواقع هو أنك أنت السبب في أن الناس يحتقروني هنا ، فأنت التي تحرضينهم على ! • • • • » ثم صرخ قائلاً : انه سيعدم قضية المرأة اعداما ، وانه سيمنع من الغد تلك الحفلة السخيفة التي ترمع اقامتها لمعونة المربيات (شيطان يأخذهن !) ، وانه سيطرده من الاقليم ، بواسطة قوزاقى ، أول مربية يلقاها • « سأفعل هذا عمداً ، عمداً » • كذلك كان يصيح • « هل تعلمين أن التافهين الذين يحيطون بك يحاولون اثارة العمال ، واننى على علم بأفعالهم هذه ؟ هل تعلمين أنهم يوزعون فى المدينة منشورات تحريضية ، عن عمد ، عن عمد ؟ هل تعلمين أننى أعرف أسماء أربعة من هؤلاء الأشرقياء ، وأننى أفقد عقلى وأصير مجنوناً ، مجنوناً ، مجنوناً 119 » • ولكن جوليا ميخائيلوفنا قطعت الصمت حينذاك ، وأعلنت بلهجة قاسية أنها هى نفسها مطلعة منذ زمن طويل على هذه النيات الاجرامية ، ولكن هذا كله لا قيمة له ، وأن زوجها يسرف فى أخذ الأمر مأخذ الجد ، وأنها تعرف لا الأندال الأربعة الذين يعرفهم فحسب ، بل تعرف كذلك جميع الآخرين (هنا كانت تكذب) ، لكنها لا يخطر ببالها أن تصبح مجنونة ، حتى انها تثق بعقلها وذكايتها أكثر من أى وقت مضى ، وتأمل أن تتم مهمتها على أحسن وجه : تشجيع الشبان، وتسمعهم صوت العقل ، وتبرز لهم فجأة أن أغراضهم مكشوفة ، ثم

تقترح على نشاطهم أهدافاً أقرب إلى الرشاد وأسمى وأرفع . فما سمع أنطون أنطونوفتش هذا الكلام حتى جنّ جنونه ! اذن لقد ضحك عليه وعبث به بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى بطريقة تبلغ هذا المبلغ كله من السوء ، فهو قبل أن يجيء إليه كان قد كشف لجوليا ميخائيلوفنا عن كل شيء ، وهو قد يكون المحرّض الأساسى على المؤامرة . وها هو ذا أنطون أنطونوفتش يصبح متفجر الغضب : « اعلمي أيتها المرأة الطائشة الفاسدة اننى سأعتقل على الفور عشيقك الحقيقى ، وأنتى سأرميه فى حفرة مكبلاً بالأغلال ، أو أنتى ... أو أنتى سوف ألقى بنفسى من النافذة على مرأى منك ! » . فكان جواب جوليا ميخائيلوفنا على هذا الكلام أن أطلقت ضحكة طويلة منهمة ، وقد اخضرّت لونها من شدة الغضب ، ضحكة أشبه بالضحكة التى يسمعها المرء فى المسرح الفرنسى حين تأخذ الممثلة الفرنسية التى تتقاضى مائة ألف روبل وتمثل أدوار الغايات ، حين تأخذ تضحك عند أنف زوجها الذى يبيع لنفسه أن يغار . فركض فون لمبكه نحو النافذة ، ولكنه توقف فجأة ، وعقد ذراعيه على صدره ، وحدّق الى امرأته بنظرة مروّعة وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموتى ، وقال لها بصوت متقطع متوسل : « هل تعلمين ، هل تعلمين يا جوليا أن من الجائز أن أرتكب عملاً رهيباً ؟ » . ولكن كلماته استقبلت بمزيد من الضحك ، فما كان منه الا أن كزّ أسنانه ، وأنّ أنه عميقة ، وهُرع لا نحو النافذة بل نحو زوجته مشهراً عليها قبضة يده . صحيح أنه لم يهو بيده ، لا لم يهو بها قط ، ولكن هذه الحركة التى بدرت منه قد أثمت هزيمته . فاصطكت ساقاه ، وفرّ هارباً الى حجرتة ، فتهاوى على سريره مرتدياً ثيابه ، كما هو ، ودفن رأسه تحت الأغطية ، ولبت على هذه الحال ساعتين كاملتين ، دون أن ينام ، ودون أن يفكر فى شيء ، ولكنه مغموم القلب قد استولى على نفسه يأس كالح . وكانت تهزه رعوبات حمى من حين الى حين ،

وتستيقظ في نفسه ذكريات ليس لها أية علاقة بوضعه الراهن : فهو تارةً يتذكر ساعة حائطٍ قديمة رأها ببطرسبرج منذ خمسة عشر عاماً، وتقصها ابرتها التي تشير الى الدقائق ؛ وتارةً يتذكر الموظف المرح ميليوا ، أحد أصدقائه ، ويتذكر العصفور الذي طارده ذات يوم في حديقة ألكسندروفسكى حتى اصطاده ، فلما اصطاده فطنا فجأة الى أن أحدهما كان قد أصبح معاون قاض ، فضحكا ضحكاً شديداً . ونام أخيراً في نحو الساعة السابعة من الصباح . نام نوماً لذيذاً ، ورأى أحلاماً ممتعة . حتى اذا استيقظ في نحو الساعة العاشرة وثب عن سريره ، وتذكر فجأة ما قد جرى بالأمس ، فلطم جبينه براحة يده . ولم يتناول فطوره ، ولم يشأ أن يرى أحداً : لا بلومر ، ولا رئيس الشرطة ، ولا الموظف الذي جاء ليزكره بأن عليه في هذا الصباح أن يرأس اجتماعاً يعقده مجلس الاقليم . لم يصغ الى شيء ، ولم يرد أن يعرف شيئاً ، وأخذ يركض المجنون في جميع الغرف التي كانت تشغلها جوليا ميخائيلوفنا ، فأعلمته صوفيا آتروبوفنا ، وهى سيدة نبيلة عجوز تقيم عند زوجة الحاكم منذ مدة طويلة، أن جوليا ميخائيلوفنا ذهبت الى عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنىكي منذ الساعة العاشرة ، بصحبة عدد كبير من الأشخاص ، بغية أن ترى المكان الذي انعقدت النية على اقامة حفلة ثانية فيه بعد خمسة عشر يوماً ، كما تم الاتفاق على ذلك مع فرفارا بتروفنا أمس الأول . فاضطرب آتدريه انطونوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً ، فعاد الى حجرته ، وسرعان ما أمر بكدن الخيل . لقد أصبح لا يستطيع الاستقرار في مكان . ان نفسه ظامئة الى جوليا ميخائيلوفنا : يريد أن يتأملها مرةً أخيرة على الأقل ، وأن يقبى بقربها ولو خمس دقائق ! فلعلها تجود عليه بنظرة ، لعلها تلتفت اليه ، لعلها تبسم له كما كانت تفعل في الماضى ، لعلها تصفح عنه ! آه . . . آه . . . « ماذا فعلتم بالخيال ؟ » . وبحركة غير ارادية فتح كتاباً ضخماً

موضوعاً على المائدة ، فإذا هو يقرأ هذه الجملة التي يقولها فولتير في كتابه «كانديد» : « كل شيء هو أحسن ما يكون في هذا العالم الذي هو أحسن العوالم الممكنة » . فأجرى يده بحركة تدل على الحسرة ، وخرج راكضاً . وصاح يأمر الحوذى بقوله : « الى سكفورشنيكى ! » . وقد روى الحوذى فيما بعد أن مولاه لم ينقطع طوال الطريق عن حثه على الاسراع ، ولكن ما ان شارفا على سكفورشنيكى حتى أمره فجأة بأن يرجع أدراجه وأن يعود الى المدينة قائلاً له : « بأقصى سرعة ، أرجوك ! » . فلما صارا على مقربة من الأسوار «استوقفه من جديد، ونزل من العربى ، وعبر الطريق، ودخل في حقل . ولكنه توقف ، وأخذ يتأمل الأزهار . ولبث على تلك الحال زمناً . حتى لقد بدا لى ذلك غريباً جداً ، بل اننى اضطربت منه اضطراباً شديداً . » . هذا ما شهد به الحوذى فيما بعد . اننى أتذكر كيف كان الجو فى ذلك الصباح : كان يوماً من أيام شهر ايلول (سبتمبر) بارداً صاحياً لكن رياحه شديدة . وأمام آندره أنطونوفتش كان يمتد منظر حزين كئيب ، هو منظر الحقول التى حُصد زرعها منذ مدة طويلة، فليس فيها الا بضع زهيرات صفراء شبه يابسة تُرعشها الريح . هل خطر بباله أن يشبّه مصيره بمصير هذه الأزهار التى أذبلتها أولى موجات البرد؟ لا أظن ذلك . بل اننى لعلى يقين من أن خواطره كانت تطوف فى بعيد ، ولا تلتفت الى الأزهار ، رغم ما قاله الحوذى ، ورغم ما رواه مفوض الشرطة التى وصل فى أثناء ذلك وحكى فيما بعد أنه رأى فى يد الحاكم باقةً من زهيرات صفراء . ان مفوض الشرطة هذا ، فاسيلى ايفانوفتش فليبوستيروف ، الذى وصل الى مدينتنا منذ مدة قصيرة ، كان قد لفت الى نفسه الأنظار بهيمته ونشاطه وحرارته وطاقته الجبارة وقوته الطافحة التى كان يبذلها فى تنفيذ أوامر رؤسائه ، وكذلك بما يلتزمه من اعتدال فى الطعام والشراب ، وهو اعتدال كأنه 'وهب له فطرة' . لقد وثب

مفوض الشرطة من العربية ، ودون أن تُربكه المشاغل الغريبة
التي كان صاحب السعادة غارقاً فيها ، أسرع يقول له بلهجة زائفة ان
« المدينة في حالة غليان » .

قال آندره أنطونوفتش وهو يلفت اليه وجهاً قاسياً ، ولا يبدو عليه
أنه 'دهش بتاتاً ، ولا يلوح أنه يتذكر الحوذى والعربة اللذين قاداه الى
هذا المكان ، حتى لكانه في بيته ، في حجرته :

– هيه ؟ كيف ؟

– أنا مفوض شرطة الحى الأول ، فليوستريوف . لقد قامت ثورة
يا صاحب السعادة !

قال آندره أنطونوفتش يسأله :

– أهم النصابون ؟

– نعم يا صاحب السعادة . ان عمال مصنع شيجولين يحدثون
فوضى .

– عمال مصنع شيجولين . . .

لا بد أن هذا الاسم قد ذكره بشيء ما ، حتى لقد ارتعش ، ووضع
اصبعه على جيبه . وها هو ذا يتجه نحو عربته بخطى بطيئة وهو ما يزال
صامتاً حالماً ، ثم يصعد الى العربة ويأمر الحوذى بأن يرجعه الى المدينة .
وتبعه فليوستريوف راكباً عربته .

انتى أتخيل أن آندره أنطونوفتش قد فكّر أثناء رحلة العودة هذه
تفكيراً غامضاً مبهماً في أمور كثيرة هامة ومع ذلك أستبعد أن يكون عند
وصوله الى المكان قد اتخذ قراراً ما . لكنه ما ان أبصر جمهور « الثلاثين »
محتشداً حول درجات المدخل ، وما ان رأى حبل رجال الشرطة محيطاً
بهم ، وما ان لمح رئيس الشرطة وألفاء عاجزاً عن القيام بأى عمل (ربما

عن قصد) ، وما ان وجد نفسه محط أنظار جميع تلك العيون القلقة حتى ازدحم الدم فى قلبه ، فنزل من العربة أصفر الوجه ، وقال بصوت مخنوق لاهت :

— أنزلوا قبعاتكم ، احسروا رؤوسكم !
ثم صرخ يقول على غير توقع من أحد ، بل على غير توقع منه هو نفسه :

— اركعوا على ركبكم !
ولعل كل ما حدث بعد ذلك انما مردّه الى أن الأمر قد صدر عنه فجأة دون توقع • هذا ما يحدث على الجبال الروسية : هل تستطيع الزلاجة التى تنزلق على منحدر من جليد أن تتوقف فى منتصف الطريق ؟ ان من سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه قد ظل الى ذلك الحين يظهر متساوى المزاج • فهو لم يصرخ فى حياته يوما ، ولا ضرب الأرض بقدمه • وأمثال هذا الرجل يصبحون خطرين جدا اذا اتفق لهم يوما ، لسبب من الأسباب ، أن أخذت زلاجتهم تنزلق على المنحدر •

أخذ كل شئ من حوله يدور •
وقال بصوت فيه مزيد من الصراخ والحدة والسخف المضحك •
— نصابون !

وتقبض حلقه • أصبح لا يعرف ماذا عساه يفعل • ولكنه كان يعلم ويحس بكل كيانه أنه سيفعل شيئا ما •
ساحت أصوات فى الجمهور تقول : « رياه ! » • ورسم عامل شاب اشارة الصليب • وأخذ ثلاثة رجال أو أربعة يركعون • ولكن الآخرين تقدموا كتلة واحدة وأخذوا يصرخون جميعا فى آن واحد قائلين : « يا صاحب السعادة ... » لقد اتفقوا معنا على أن يكون أجربنا أربعين

كوبكاً ••• ولكن المدير ••• انه لا يجوز له أن ••• الخ ، الخ •••
لقد كان يستحيل على المرء أن يفهم شيئاً •

وكان آندره أنطونوفتش لا يستطيع أن يدرك ما يحدث ، وأأسفاه !
كان ما يزال ممسكا الأزهار بيده • وكان مؤمناً بأن الثورة قامت كإيمان
ستيغان تروفيموفتش بأن زلاجة ستقوده الى سيريا حتماً • وكان آندره
أنطونوفتش يرى بين جمهور « الثائرين » الذين كانوا يحدقون اليه بأعين
محملة ، يرى كالحالم فى منامه أنه يبصر « محرّضهم » بطرس
ستيغانوفتش ، بطرس ستيغانوفتش الذى لم تنقطع صورته عن ملاحظته
صاحبنا منذ أمس ، بطرس ستيغانوفتش الذى يكرهه صاحبنا أشد الكره
ويعقته أكبر المقت •

وزأر آندره أنطونوفتش منادياً :

— هاتوا السياط !

فهبط على الجمهور صمت كأنه صمت الموت •

تلکم هى الوقائع التى جرت فى أول الأمر ، فيما ترويه الأخبار
وتقدره تخميناتى • أما ما حدث فالأخبار والتخمينات بشأنه أقل دقة
ووضوحاً • ومع ذلك نملك بعض المعلومات •

ظهرت السياط بسرعة غريبة ، وهذا يحمل المرء على أن يفترض أن
رئيس الشرطة كان قد تنبأ بما سيحدث فأعدّ السياط احتياطاً لكل طارىء •
ولكن لم يُجلد الا عاملان اثنان ، أو ثلاثة عمال فى أكثر تقدير • واننى
ألح على تقرير هذه الحقيقة ، لأنه زُعم زوراً وبهتاناً فيما بعد أن نصف
المتظاهرين على الأقل قد نالتهم عقوبة الجلد ، ان لم تكن قد نالتهم جميعاً •
وقد اختلقت أمور أخرى أيضاً ، منها أن سيدة فقيرة لكنها نبيلة المحتد قد
مرّت بالمكان عرضاً فى ذلك الحين ، فاعتُقلت وجلدت بدون أى ذنب ؛

ومع ذلك قرأت بنفسى قصة هذا الجلد الملفقة ، فى احدى جرائد
 بطرسبرج . ومن ذلك أيضا أن فتاة اسمها آفدوتيا بتروفا تاراييجين قد
 مرت بالمكان فى طريقها الى الملجأ الذى تعيش فيه ، فاختلطت بالمشاهدين
 مدفوعة الى ذلك بحب الاطلاع طبعاً ، ولكنها حين رأت ما يحدث لم
 تملك الا أن تهتف قائلة « هذا عار » ، وأن تبصق اشمزازاً . فما كان
 من الشرطة ، فبما قيل ، الا أن قبضت عليها وجلدتها . وقد استولت
 الجرائد على هذه القصة حتى لقد نُظِّمَت فى المدينة حملة تبرع للمرأة
 المسكينة ، ساهمت أنا فيها بعشرين كوبكاً . الا أنه قد ثبت اليوم أن
 تاراييجين هذه لم تكن الا أسطورة . حتى لقد ذهبت الى الملجأ بنفسى
 سائلاً فعلمت أن هذا الاسم مجهول هناك ، وقد استاء موظفو الملجأ أكبر
 الاستياء حين نقلت اليهم الشائعات التى كانت تجرى فى المدينة . ولئن
 ذكرت آفدوتيا بتروفا المزعومة فلأن ما وقع لها (اذا صح أنه وقع) كاد
 يقع لستيفان تروفيموفتش بل لعل ذلك الحادث الذى وقع لصاحبى هو
 الذى ولدت تلك القصة ، مع ابدال اسمه باسم تاراييجين تلك التى لم يعرف
 أحد من هى .

لقد أفلت منى ستيفان تروفيموفتش ، لا أدري كيف ، منذ أن
 وصلنا الى المكان . اننى وقد أوجست شراً ، أردت أن أدور به دورة
 لأوصله الى منزل الحاكم ، ولكن حب الاستطلاع استولى على نفسى فوقفت
 أسأل أحد المارة فلما التفت بعد ذلك كان ستيفان تروفيموفتش قد اختفى .
 فأسرعت أركض بغريزتى الى أخطر مكان فورا ، اذ أحسست أن زلازته
 هى أيضاً قد أخذت تنزلق على المنحدر . فوجدته شارعاً فى العمل فعلاً ،
 فأمسكته من ذراعه فيما أذكر ، لكنه ألقى على نظرة هادئة متكبرة ، وكان
 وجهه ينم عن فخامة لا حدود لها ، وقال لى بصوت فيه شئ من تكسر :
 - « يا عزيزى » ، اذا كانوا هنا ، فى هذا المكان ، على مرأى ومسمع

من جميع الناس ، يتصرفون هذا التصرف بغير أى تحرج ، فما عسى
يُنتظر من « ذاك » مثلاً ؟؟؟ اذا أُتيح له أن يفعل مايشاء له هواه ؟ ؟؟؟
قال ذلك وهو يرتعش استياء ، ومدَّ ابهامه بحركة تحدٍ ونهديد
نحو فليوستريوف الذى كان على بعد خطوتين منا ، وكان ينظر إلينا بعينين
محملقتين •

فجئن جنون رجل الشرطة غضباً ، وصرخ يقول :
- « ذاك » ؟ من ذا تعنى ؟ وأنت ، من أنت ؟

وجاء نحونا قابضاً يديه • وردد يلقي سؤاله بغضب يدل على شيء
من الحيرة والارتباك (يجب أن أذكر أنه يعرف ستيغان تروفيموفتش
أحسن معرفة) :

- من أنت ؟ من أنت ؟

فلو انقضت لحظة أخرى لأمسك بتلايب صاحبي • ولكن شاء حسن
الخط أن يلتفت فون لمبكه عند سماع هذه الصرخات ، فتأمل ستيغان
تروفيموفتش بانتباه ، وبدا عليه التردد كأنه يحاول أن يستجمع أفكاره ،
ثم حرك يده بإشارة تملل ، فتوقف فليوستريوف ، فجرت ستيغان
تروفيموفتش ، وأخرجته من الجمهور • ولا شك أنه كان يتمنى هو
نفسه أن يسحب •

قلت ملحاً :

- بسرعة ، بسرعة ، الى البيت ؟ لقد نجونا ، ولم يكن ذلك الا
بفضل لمبكه •

- ارجع الى بيتك يا صاحبي • ليس من حقى أن أعرضك لثل هذه

المخاطر • ان المستقبل • مفتوح أمامك • أنت في مستهل حياتك ، أما أنا فقد
« دقت ساعتى » ♦♦♦

وصعد درجات باب منزل الحساكم بخطى ثابتة • وكان البواب
السويسرى يعرفنى ، فقلت له اننا ذاهبان الى جوليا ميخائيلوفنا • وأدخلنا
الى صالون الاستقبال •

لم أنشأ أن أترك صديقى • ولكننى قدّرت أن المزيد من الكلام
لا طائل تحته ولا فائدة منه • كان وضعه وضع رجل ضحى بحياته فى
سبيل سلامة وطنه •

جلسنا متقابلين • فكنت أنا أقرب الى باب الدخول ، وكان هو فى
الطرف الآخر من الصالون ؟ وقد جلس خافض الرأس مفكراً ، واضعاً
يديه على عصاه ، ممسكاً بالسرى قبعة ذات الحافة العريضة • ولبشنا على
هذه الحال زهاء عشر دقائق •

٢

دخل لمبكه فجأة بخطى سريعة ، يتبعه رئيس الشرطة • فألقى علينا
نظرة ذاهلة ثم اتجه نحو حجرة عمله دون أن يلقي إلينا بالاً • ولكن
ستيفان تروفيموفتش نهض وسدّ عليه طريقه ، وكان لقامته المديدة وهيشته
الخاصة أثرهما فتوقف لمبكه •

دمدم لمبكه يقول مدهوشاً ، وكأنه يسأل رئيس الشرطة ، ولكن دون
أن يكف عن تأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه :

— من هذا ؟

فأجاب ستيفان تروفيموفتش وهو ينحنى بوقار كبير :

- أنا ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكى ، الموظف المحال على التقاعد •

وظل صاحب السعادة يحدق اليه ، ولكن بنظرة كابية •

سأله الحاكم بتلك اللهجة التى تدل على نفاذ الصبر وعلى الاحتقار ، تلك اللهجة التى يستعملها كبار الموظفين فى العادة ، ومدّ أذنه نحو ستيفان تروفيموفتش الذى لا شك أنه واحد يطلب التماساً أو يرجو شفاعته •

قال ستيفان تروفيموفتش :

- لقد فتّش منزلى فى هذا اليوم موظفٌ قال انه يفعل ما يفعل بأمرٍ من صاحب السعادة • فأنا أريد أن ...

- ما اسمك ؟ ما اسمك ؟

كذلك سأله فون لمبكه نافذ الصبر وكأنه بدأ يفهم ، فكرر صاحبه اسمه بوقار أعظم أيضا •

- آ ... آ ... هو اذن أمر تلك الدعاية التى تقوم بها ... أيها السيد ، لقد ظهرت بمظهر يدل على أنك ... هل أنت أستاذ جامعة ؟ هل أنت أستاذ جامعة ؟

- فى الماضى تشرفت بالقاء بضع محاضرات على الشباب فى الجامعة ، و ...

- على الشباب ؟ على الشباب ؟

بدا على لمبكه الارتجاف والارتعاش ، مع أننى أراهن على أنه لما يدرك الأمر بعد ، ولا كان يعرف من ذا يكلم •

وصاح يقول وقد استبد به غضب مفاجئ :

- لن أقبل هذا ! لن أسمح بهذا ! أنا لا أقبل الشباب • انهم يوزعون منشورات تحريرية في كل مكان ! هذا هجوم على المجتمع • هذه قرصنة • أنتم جميعاً نصّابون ! ... ماذا تطلب مني ؟

- ان زوجتك هي التي طلبت مني أن أقرأ بضع صفحات في الحفلة التي تقيمها غداً • أنا لا أطلب شيئاً • أنا أدافع عن حقوقي ...

- في الحفلة ؟ الحفلة لن تكون أيها السيد ! لن أسمح باقامة حفلتكم هذه ؟ محاضرات ؟ محاضرات ؟

كذلك زار غاضباً •

فقال ستيفان تروفيموفتش :

- أود يا صاحب السعادة أن تعاملني بمزيد من الكياسة ، دون أن تضرب الأرض بقدمك ، ودون أن تصرخ في وجهي كما يصرخ المرء في وجه صبي •

- هل تعرف من ذا تكلم ؟

ألقى عليه فون لمبكه هذا السؤال واحمر احمرارا شديدا • فأجاب ستيفان تروفيموفتش :

- أعرف من ذا أكلم يا صاحب السعادة •

- أنا أحمي المجتمع ، وأنت تريد تهديمه • نعم ، أنت تهديم ... المجتمع ! ثم انك ... تذكرت الآن ... ألم تكن معلماً عند الجنرالة ستافروجين ؟

- نعم ... كنت ... معلماً ... عند الجنرالة ستافروجين •

- وخلال عشرين عاما ما برحت تنشر من حولك الأفكار التي ...

أَنظُر الى ثمارها ! ... أطن أننى لمحتك منذ قليل فى الساحة • حذار مع ذلك أيها السيد ! ان ميولك معروفة • ثق أننى أراقبك • لا يمكن أن أسمح بمحاضرات ، لا ، مستحيل • لا تطلب منى أنا مثل هذا الطلب •

وهمَّ أن يتابع طريقه • فقال ستيفان تروفيموفتش :

- أكرر أنك مخطئ يا صاحب السعادة • ان زوجتك هى التى طلبت منى لا أن ألقى محاضرة بل أن أقرأ شيئاً فى حفلة الغد • ولكننى الآن أرفض هذا الطلب • وانما أنا جئت لأرجوك أن تتفضل فتشرح لى سبب تفتيش بيتى اليوم اذا كان ثمة سبب • لقد أخذت منى كتب وأوراق شتى ورسائل أحرص عليها ، وحُمل ذلك كله على نقالة ...

هنا انفض لمبكه واحمر احمرارا شديدا وسأله :

- من الذى فتش بيتك ؟

لقد أدرك أخيرا ما يجرى • واستدار بحركة مفاجئة نحو رئيس الشرطة • وفى تلك اللحظة نفسها ظهرت عند عتبة الباب قائمة بلومر الطويلة المحدودة الخرقاء •

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يومئ الى بلومر :

- هذا هو الذى فتش بيتى •

فتقدم بلومر معترفا بفعلته ولكنه غير نادم عليها • فقال له فون لمبكه غاضباً حائقاً :

- « انك لا تفعل الاحماقات » (بالفرنسية) •

ثم لم يلبث أن عاد الى صوابه وتغير وضعه • فقال متمتماً محمر الوجه متحير الهيئة :

— معذرةٌ ... ربما كان ذلك كله خرافةً لا أكثر ... ربما كان غلطة ... نعم ، غلطة ...

قال ستيفان تروفيموفتش :

— يا صاحب السعادة لقد أتيج لى فى عهد شبابى أن أشهد واقعة ذات دلالة خاصة • فى ذات مساء ، فى دهليز مسرح من المسارح ، اقترب سيدٌ من أحد المشاهدين بغتةً ، فصفعه على وجهه صفعة مدوية على مرأى من جميع الناس • ولكنه سرعان ما أدرك أن الرجل الذى ناله بهذا الأذى ليس هو من كان يريد أن يصفعه وإنما هو رجل يشبهه بعض الشبه ، فما كان منه الا أن نطق بهذه الكلمات نفسها التى تقولها أنت يا صاحب السعادة ، ولكنه قالها بلهجة غاضبة مستعجلة كرجل لا يريد أن يضيع وقته بغير طائل : « لقد أخطأت ... معذرة ... هذه غلطة ... غلطة لا أكثر ... » • فلما أخذ الرجل المظلوم يحتاج ، لأنه ظل مستاءً رغم كل شيء ، ألحَّ الظالم قائلاً بانزعاج : « ألا يكفى أننى اعترفت بأنها غلطة • فما بالك تصيح هذا الصياح ! » •

قال فون لمبكه وهو يتبسم ابتسامة بغير معنى :

— هذا ... مضحك جدا ... مضحك حتما ... ولكن ألا ترى مدى ما أنا فيه من شقاء ؟

لقد رفع صوته حتى كاد يكون صراخاً أثناء النطق بهذه الكلمات ، ويخيّل الى أنه همٌّ أن يخفى وجهه بيديه •

فهذه الصيحة الأليمة ، بل أكاد أقول هذه الانتحابة المفاجئة ، كانت فوق ما يحتمل قلب الانسان • لعل آندره أنطونوفتش لم يدرك ادراكاً واضحاً ما جرى منذ الأمس ، الا فى هذه اللحظة • وسرعان ما أعقبت هذا الاشراق المبالغت نوبةٌ يأس ذليل لا حدود له • من يدري ؟ لعله

كان سينفجر باكيا ناشجا بعد لحظة أخرى • تأمله ستيفان تروفيموفتش مبهوراً مصعوقاً ، ثم حنى رأسه وقال بصوت مؤثر :

- يا صاحب السعادة ، لا تلق بالاً الى شكوى رجل عجوز ففاق • ولكن قل لهم أن يردوا الى كتبى وأوراقى •••

واضطر ستيفان تروفيموفتش أن يقطع كلامه لأن جوليا ميخائيلوفنا داهمت الغرفة مع حاشيتها صاحبة لاغطة • ولكن يجب على أن أصف المشهد الذى أعقب هذا ، أن أصفه بجميع تفاصيله ما وسعنى ذلك •

٣

أقول أول ما أقول ان الحاشية كلها ، وقد وصلت على ثلاث عربات ، قد ظهرت فى الصالة الواسعة دفعة واحدة • ان لميخائيلوفنا مدخلا خاصا يقع على يسار الباب ويؤدى الى حجراتها رأساً ، ولكن الجميع قد مروا بالصالة ، ربما لمعرفتهم بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون فيها ، لأنهم قد أطلعهم ليامشين على ما وقع له ، كما أطلعهم على قضية عمال مصنع شيبجولين • كانت جوليا ميخائيلوفنا غاضبة من ليامشين لأسباب لا أعرفها ، فلم تدعه الى مشاركتهم فى رحلتهم الى سكفورشنيكى • لذلك عرف قبل غبره ما حدث بالمدينة • وقد سرّ كثيراً أن ينقل أبناء سيئة كهذه الأنباء ، فاستأجر حصانا عجوزا وأسرع يجرى فى طريق سكفورشنيكى للقاء جوليا ميخائيلوفنا • وأغلب ظنى أن جوليا ميخائيلوفنا رغم ثقها قد شعرت ببعض الاضطراب والقلق ، ولو الى حين ، حين علمت بهذه الأحداث المخارقة • ليس الجانب السياسى من هذه الأحداث هو الذى يلقها على كل حال : فقد سبق أن أوحى اليها بطرس ستيفانوفتش مرارا أن المشايخين من عمال مصنع شيبجولين لا بد أن يُجلدوا ، وكان بطرس ستيفانوفتش يتمتع لديها

بنقة مطلقة منذ بعض الوقت • ولا شك أنها قالت تحدث نفسها : « لكنه... • سيدفع لى ثمن هذا غالباً على كل حال » وكانت تعنى زوجها طبعاً • يجب أن أذكر عابراً أن المصادفة شئت بما يشبه العمد أن لا يشارك بطرس ستيفانوفتش هذه المرة فى الرحلة الى سكفورشينكى ، وأنه ام يُر طوال ذلك الصباح • ويجب أن أذكر أيضاً فى هذه المناسبة أن فرقارا بتروفنا قد رجعت الى المدينة مع ضيوفها (فى مركبة جوليا ميخائيلوفنا) ، مصرّةً اصراراً مطلقاً على المشاركة فى آخر اجتماع للجنة تنظيم الحفلة ، وهو الاجتماع الذى يجب أن يُعقد فى الغد • فلا بد اذن أن تكون الأبناء التى نقلها لياشين عن ستيفان تروفيموفتش قد همتها كثيراً ، بل لعلها أقلقتها أيضاً •

وقد صُنِّى الحساب مع آندره أنطونوفتش بغير ابطاء • ان الحاكم قد حزر ما ينتظره منذ رأى زوجته الفائتة • كانت مشرقة الوجه أخاذة المحيا ، ترسم على شفيتها ابتسامة لذيذة ، وها هى ذى تقترب من ستيفان تروفيموفتش بحركة رشيقة ، فتمدُّ اليه يدها الصغيرة المغمدة فى قفاز ، وتخاطبه بأرق عبارات المديح : لكأنها لم تفكر طوال هذا الصباح الا فى الطريقة التى ستستقبل بها ستيفان تروفيموفتش معبّرة له عن فرحها برؤيته عندها أخيراً • لم تشر أى اشارة الى تفتيش منزله فى هذا الصباح ، كأنها تجهل كل شيء • ولم تقل لزوجها كلمة واحدة ، ولا ألقت عليه نظرة ، فكأنه غير موجود • وفى مقابل ذلك أسرع تهادر ستيفان تروفيموفتش وبتقاده الى الصالون ، متظاهراً بأنها تجهل أنه كان بسبيل مكاشفة مع آندره أنطونوفتش ، لتدل بذلك على أن هذه المكاشفة لا قيمة لها البتة • يخيل الى أن جوليا ميخائيلوفنا ، رغم ما أظهرته من أبهة وعظمة ، قد ارتكبت فى هذه المرة غلطة ضخمة • ولا شك أن كارمازينوف قد شارك فى ذلك مشاركة خاصة على كل حال • انه تلبيةً لالحاح جوليا

ميخائيلوفنا كان قد اشترك فى رحلة ذلك الصباح ، فبذلك زار فسر فارا
بتروفا ولو زيارة غير مباشرة ، فافتتت فرفارا بتروفا بزيارته • وحين
دخل الآن آخر الداخلين فرأى ستيفان تروفيموفتش منذ صار فى عتبة
الباب ، أطلق صيحة تعبر عن الجبور ، وركض اليه يعانقه ، فبذلك قطع
الكلام على جوليا ميخائيلوفنا •

- ما أكرها من سنين !... أخيراً... • «أيها الصديق الممتاز»... •

وبئله ماداً اليه خدّه ، فرأى ستيفان تروفيموفتش نفسه مضطراً الى
تقبل الخد الممدودة اليه ، فاقدأ صوابه بعض الشيء •

وقد قال لى ستيفان تروفيموفتش فى ذلك المساء ، حين تذكر أحداث
النهار : « يا عزيزى ، لقد تساءلت فى تلك اللحظة من مناس نحن الاثنين
أشد جبناً وحفارة من الآخر : أهو ، الذى قبلنى ليدلنى بعد هنيهة ، أم أنا ،
الذى أحقره وأحقر خدّه ، ومع ذلك قبّلت تلك الخد فى حين كان
يمكننى أن أنسج عنها... آه !... » •

قال له كارمازينوف :

- هيه ! تكلم ! تكلم ! قصّ علىّ كل شئ •

كأن المرء يستطيع أن يروى ببضعة كلمات قصة حياة خمسة وعشرين
عاماً • ولكن هذا الطيش كان فى نظره علامة لهجة تظهر « التفوق » •

قال ستيفان تروفيموفتش بتعقل كبير ، وبلهجة ليس فيها اذن أى
اظهار للتفوق :

- لاحظ أننا التقينا آخر مرة بموسكو ، فى الولاية التى أقيمت
تكريماً لجرانوفسكى منذ أكثر من أربعة وعشرين عاماً... •

فقاطعه كارمازينوف يقول بلهجة الألفة وبصوت حاد ، وهو يشد على كفه متحمساً تحمساً فيه شيء من الافراط :

– « ذلك الانسان العزيز ! » ... انقلنا الى مسكنك بأقصى سرعة
يا جوليا ميخائيلوفنا ، فسنمكث هناك ، فيروى لنا كل شيء .

وفد قال لى ستيفان تروفيموفتش فى مساء ذلك النهار وهو يرتجف
اشمئزازا وتقززا : « مع ذلك لم يكن بنى وبين هذا المنام العجوز أية
سداقه حميمة فى يوم من الأيام . وكنت فى شبابه أكرهه وكان يبادلنى
كرهاً بكره طبعاً ! » ...

سرعان ما امتلأ صالون جوليا ميخائيلوفنا . وكانت فرفارا بتروفنا
متهاجة احتياجا شديدا ، رغم أنها كانت تحاول أن تظهر بمظهر من لا يبالى .
لكننى رأيت نظراتها عدة مرات منقلةً بكره وبغض تلقىهما على
كارمازينوف ، ورأيت هذه النظرات مثقلةً بغضب تصبه على ستيفان
تروفيموفتش ، غضب مستبق ، غضب تغذيه غيره ويفذيه حب : فلو
أن ستيفان تروفيموفتش غلط هذه المرة فرضى أن يقبله كارمازينوف على
مرأى من الجميع ، اذن لكان يمكن فيما أعتقد أن تهجم عليه فتحققه .
نست أن أقول ان ليزا كانت هناك أيضاً . ما رأيتها فى حياتى أشد مرحاً
ما كانت حينذاك ، ولا أقل اكترائاً ، ولا أزر فرحاً . وكان مافريكى
يقول لايفتش الى جانبها طبعاً . وبين جمهرة السيدات الثمبات ، والشبان
الأوغاد الذين كان المجون يُعدّ فى نظرهم مرحاً وكان الاستهتار البشع
يُعد فى نظرهم ذكاءاً ، رأيت وجوهاً أخرى أيضاً : رأيت بولنديا ماراً
بالمدينة كان يتحرك ويسمى حول الجميع ، ورأيت طبيبا ألمانيا هو عجوز
قوى البنية كان يضحك ضحكا مجلجلا لكل كلمة من الكلمات الظريفة
التي يطلقها هو ، ورأيت أميراً شابا واصلاً من بطرسبرج هو نوع من

آلة متحركة ، بارد الهيئة مرسوم القسمات ، تحيط بعنفه يافة عاليه علواً خارقاً • ولكن كان واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا فخورة جداً بوجود هذا الضيف ، وأنها شديدة الاهتمام بما قد نراه من رأى فى صالونها •

بدأ ستيفان تروفيموفتش يتكلم فقال وهو يجلس على الديوان جلسه رسيقة ، وينطق بالكلمات نطقاً شبيهاً بنطق الكاتب الكبير :

— يا سيد كارمازينوف ، ان حياة انسان يتسبب الى عصرنا ويملك اعتقادات معينة ، لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة ، ولو امتدت على فترة خمس وعشرين سنة ***

تخيل الطبيب أن ستيفان تروفيموفتش قد قال شيئاً مضحكاً جداً ، فانفجر يقهقه قهقهة متقطعة تشبه أن تكون صهيل خيل • فرشقه ستيفان تروفيموفتش بنظرة تصطنع معنى الدهشة • ولكن ذلك لم يحدث فى الشيخ أى أثر • والتفت الأمير نحوه كتلة واحدة أيضاً ، وتفرس فيه يفحصه بنظارتى أنه ، ولكن دون أى تعبير عن حب الاطلاع •

تابع ستيفان تروفيموفتش كلامه فقال مكرراً عن عمد ، منفاخراً دون تخرج من اختيار الألفاظ :

— *** لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة • تلك كانت حياتى خلال ربع القرن هذا ، و « لما كان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول ، (بالفرنسية) ، ولما كنت ممن يشاركون فى هذا الرأى كل المشاركة ، فقد ترتب على ذلك أنه فى خلال ربع القرن هذا من الزمان ***

دمدمت جوليا ميخائيلوفنا تقول وهى تلتفت نحو فرافارا بتروفا التى كانت جالسة الى جانبها :

— رائع *** الرهبان ***

فأجابت فراراً بتروفاً على ذلك بنظرة تفيض زهواً وفخراً • ولكن كارمازينوف لم يستطع أن يحتمل هذا النجاح الذى ظفرت به الجملة الفرنسية ، فأسرع يقاطع ستيفان تروفيوفتش قائلاً بصوته الحاد الصارخ:

— أما أنا فهادئ من هذه الناحية • اننى أقيم فى كارلسروه منذ سبعة أعوام ، وحين قرر المجلس البلدى فى العام الماضى انشاء قناة جديدة للماء شعرت فى أعماق نفسى أن انشاء القنوات فى كارلسروه أعزّ فى نفسى وأحب الى قلبى وأهم فى نظرى من جميع أحداث وطنى الجميل الغالى ••• ومن جميع ما يسمى هنا بالاصلاحيات وما شاكل ذلك •••

قال ستيفان تروفيوفتش وهو يزفر زفرة ذات دلالة ، ويحنى رأسه :

— اننى أفهمك ، وان كان قلبى يحتاج •

تهللت جوليا ميخائيلوفنا جذلاً : ان الحديث يجرى الآن مجرى جدياً لبرالياً •

وسأل الطبيب العجوز مستفهماً :

— أهى أفنية مجارٍ ؟

— بل أفنية مياه الشرب يا دكتور ، أفنية مياه الشرب ، حتى لقد ساعدتهم فى كتابة المشروع •

فانطلق الطبيب يضحك ضحكاً قوياً ، وقلّده آخرون ، مستهزئين به • ولكنه لم يفتن الى ذلك ، حتى لقد بدا عليه الجهور من اشاعته هذا الجور من المرح •

قالت جوليا ميخائيلوفنا مستعجلةً التدخل فى الحديث :

— معذرة يا كارمازينوف ، اننى لا أستطيع أن أوافق على رأيك •

ولست أستغرب أن تشعر براحة في مدينة كارلسروه ، ولكنك تحب أن
تموّه على الآخرين ، ونحن في هذه المرة لا نصدّقك . من ذا بين جميع
الكتاب الروس ، الكاتب الذي أبدع نماذج تمثل الفكر الحديث أصدق
تمثيل ، وتنبا بمشكلات عصرنا أكثر من سائر الكتاب ، ودلّ على الملامح
المميّزة لرجل العمل المعاصر أوضح دلالة ؟ هو أنت ، أنت وحدك ، ولا
أحد سواك . فكيف تريد أن تقنعنا الآن بأنك لا تكتثر بروسيا ، وبأن
اهتمامك الأكبر إنما ينصب على إنشاء أفنية مياه الشرب بمدينة كارلسروه؟
ها ها ها !

قال كارمازينوف بصوته المألوف :

- نعم ، هذا حق . لقد صورت في شخصيته بوجودين جميع عيوب
أنصار السلافية ، وصورت في شخصية نيكوديموف جميع عيوب أنصار
الغرب

دمدم ليامشين، يقول :

- « جميعهم » ! قالها بنفسه !

- ولكنني لا أفعل هذا الا عابراً ، تزجيةً للوقت فحسب ، وارضاءً
للمطالب المستمرة لدى أهل وطني . . .

عادت جوليا ميخائيلوفنا الى الكلام فقالت متحمسة :

- لعلك تعلم يا ستيفان تروفيموفتش أننا سيفرحنا غدا أن نسمع
صفحات جميلة ممتعة . . . هي أثر من أحدث وأروع الآثار التي كتبها
سيميون ايجوروفتش . العنوان : « شكرا » . انه يعلن لنا في هذا العمل
الذي ألفه أنه لن يكتب بعد اليوم أبداً ، بأية حال من الأحوال ، ولو جاءت
جميع لائكة السماء أو جميع شخصيات المجتمع العالي تضرع اليه أن يشتي

عن عزمه وأن يتراجع عن قراره • الخلاصة أنه يدع القلم الى الأبد •
وهذا الأثر الرشيق الجميل الذى جعل عنوانه « شكرا » ، انما يتجه به
الى الجمهور شاكرًا له ما أبدى من حماسة دائمة متصلة لأعماله طوال مدة
حياته الأدبية التى نذرنا لحمة الفكر اللبرالى الروسى •

كانت جوليا ميخائيلوفنا فى ذروة الاقتان والحبور •

فقال كارمازينوف وقد استسلم لحنان القلب ورقة العاطفة :

– نعم ، سأودع الجمهور • سأقرأ « شكرا » ، ثم أرحل... وهناك،
فى كارلسروه • • • سأغمض العينين • • •

انه ، كم عدد كبير من كبار كتابنا (وما أكثرهم ، كبار كتابنا) لم
يستطع أن يصمد للمديح وأن يقاوم تأثيره ، بل ضعف له بسرعة ، رغم
ذكائه ، وذلك أمر يُغفر له على كل حال فيما أعتقد • يقال ان واحدا من
أدبائنا الذين يقارنون بشكسبير قد أعلن يقول ذات يوم على حين فجأة :
« هكذا نحن معشر الرجال العظام ، لا نملك أن نتصرف غير هذا التصرف » ،
النع • قال ذلك حتى دون أن يحس به •

تابع كارمازينوف كلامه يقول :

– هناك ، فى كارلسروه ، سوف أغمض عيني • اننا معشر الرجال
العظام لا نملك متى أنهنا رسالتنا الا أن نغمض أعيننا بأقصى سرعة ، دون
أن تنتظر مكافأة • ذلك ما سأفعله •

قال الألماني وقد انطلق يضحك ضحكا شديدا :

– قل لى عنوانك ، وسأجىء أزور قبرك فى كارلسروه •

وقال أحد الشبان الصغار الذين كانوا موجودين :

– فى هذا الزمان ، يُشحن الموتى فى القطار •

فانفجر ليامشين يضحك مفتوناً • وقطبت جوليا ميخائيلوفنا حاجبها •
وانهم لكذلك اذا بستافروجين يدخل فيصرفهم عما هم فيه •

قال ستافروجين متجهاً في أول الأمر الى ستيفان تروفيموفتش :

– هه ! لقد رُوى لى أنهم اقتادوك الى قسم الشرطة •

فقال ستيفان تروفيموفتش مازحاً :

– لا بل هي قضية « خصوصية » •

فقلت جوليا ميخائيلوفنا :

– ولكننى أرجو أن لا يكون لها أى أثر على ما طلبته منك • اننى
أمل رغم الانزعاج المؤسف الذى تعرضت له وأشارت اليه ، والذى
لا أعرف عنه شيئاً البتة حتى الآن ، أن لا تخيب ظننا وأن لا نحرماننا من
متعة الاستماع اليك فى الصبيحة الأدبية •

– لا أدرى ••• أنا ••• الآن •••

– حقا اننى تعيسة جدا يا فرفارا بتروفنا ••• ففى اللحظة التى أتوق
فيها الى أن أعرف معرفة شخصية واحدا من ألمع المفكرين الروس ومن
أكثرهم استقلالا فى الرأى ، أرى ستيفان تروفيموفتش يريد الابتعاد
عنا ! •••

قال ستيفان تروفيموفتش :

– كان علىَّ حتماً أن أظهار بأننى لم أسمع هذا المديح الذى يُقال
بصوت عالٍ ، ولكننى لا أستطيع أن أصدق أن شخصى الضعيف يمكن
أن يكون ضرورة لا غنى عنها للحفلة التى تزمعين اقامتها • اننى على كل
حال •••

هنا دخل بطرس ستيفانوفتش بخطاه السريعة وصاح يقول :

– ولكنكم ستفسدونه بالدلال • فما كدت أفلح في تعليمه أن يسير مستقيماً حتى تدفقت عليه في صباح يوم واحد ضربةٌ تلو ضربة : فمن تقش إلى اعتقال إلى شرطى يمسك بتلابيه ، ثم ماذا أرى الآن ؟ أرى السيدات ينشرن حوله البخور في صالون الحاكم ! انه الآن مقتون بنفسه • أنا من ذلك على يقين • انه لم يحلم بمثل هذا الانتصار في يوم من الأيام • اننى أتخيل ما سيقوله الآن عن الاشتراكيين من سوء !

قالت جوليا ميخائيلوفنا بقوة وعزم :

– مستحيل يا بطرس ستيفانوفتش ! ان الاشتراكية فكرة أعظم من أن ينكرها ستيفان تروفيموفتش •

فقال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض بأبهة نبيلة :

– الفكرة عظيمة ، ولكن الذين يعتقونها ليسوا بالعمالقة دائماً « وحسبنا هذا يا عزيزى ! » (بالفرنسية) •

ولكن وقع في تلك اللحظة حادث لا يمكن أن يكون في حسابان أحد أن يقع • ان فون لمبكه موجود في الصالون منذ بعض الوقت ، ولكن الحضور تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا وجوده رغم أنهم رأوا دخوله جميعاً ؛ كما أن جوليا ميخائيلوفنا ظلت وفية لأسلوبها فاستمرت تتجاهل زوجها • كان فون لمبكه جالسا قرب الباب ، قاسى الهيئة مكفهر الوجه ، يصغى الى ما يدور من أحاديث • فلما أُشير الى الأحداث التى وقعت في الصباح اضطرب على كرسيه قلقاً ، ثم أدار نظراته نحو الأمير • كان واضحاً أن الياقة الضخمة الطويلة التى تلف عنق الأمير قد أثرت فيه تأثيراً شديداً • وان دخول بطرس ستيفانوفتش المدهام ، ودوى صوته ، قد جملاه يرتعش • فما ان أنهى ستيفان تروفيموفتش جملة عن الاشتراكيين حتى اقترب منه آندره أنطونوفتش فون لمبكه ، دافعا لياشين الذى كان في

طريقه والذى تقهر على حين فجأة مصطنعا الدهشة ماسحاً كتفه كأن فون لمبكه قد صدمها صدماً عنيماً • قال فون لمبكه :

— كفى !

وأمسك يد ستيفان تروفيموفتش بحركة قوية روعته ، وضغطها ضغطاً شديداً • وتابع كلامه يقول :

— لقد انحسر القناع عن وجوه النصابين فى هذا الزمان • لا تقل كلمة واحدة أخرى • لقد اتخذت الاجراءات ...

هذه الكلمات التى قيلت بصوت عالٍ ولهجة قاطعة ، قد دوت فى الصالون كله وأحدثت شعوراً شاقاً أليماً • أحس الجميع أن شيئاً مزعجاً سيحدث • ورأيت جوليا ميخائيلوفنا يمتقع وجهها ويصفر لونها • غير أن هذا المشهد قد انتهى بحادث مضحك • فان لمبكه ، بعد أن أعلن أن الاجراءات قد اتخذت ، استدار على حين فجأة ، واتجه بسرعة نحو الباب ، لكنه ترنح عند الخطوة الثانية ؛ اذ تعثرت قدمه بالسجادة ، فكاد يسقط على الأرض طريحاً •

توقف فون لمبكه لحظة ، وتأمل السجادة ، وقال بصوت عالٍ : «يجب تبديل هذا » ، وخرج • فركضت جوليا ميخائيلوفنا وراءه • وسرعان ما أخذ الجميع يتكلمون فى آن واحد • وسمعت بين لفظهم هذه الكلمات « مجنون » ، « مختل » ، « نوبة » ... وكان بعضهم يلطم جبينه بالاصبع • وفى ركن من الأركان رفع ليامشين اصبعين الى رأسه • وخفض بعضهم أصواتهم فأشاروا الى نزاعات عائلية • ومع ذلك لم ينصرف أحد ، بل لبثوا ينتظرون • اننى أجهل الاجراءات التى اتخذتها جوليا ميخائيلوفنا ، ولكنها رجعت بعد خمس دقائق باذلةً جميع جهودها من أجل أن تبدو هادئة • وجواباً عن الأسئلة التى ألقى عليها ، قالت ان آندره أنطونوفتش ثائر

الاعصاب قليلاً ، وان الأمر هين يسير ، وانه يعانى من أمثال هذه النوبات الصغيرة منذ طفولته ، وان حفلة الغد ستسرّى عنه كثيراً . واتفاداً للمظاهر لا أكثر ، وجّهت الى ستيفان تروفيموفتش بضع كلمات من مديح أيضاً ، ودعت أعضاء اللجنة الى اتخاذ أماكنهم لعقد الاجتماع . وعندئذ فقط انما قام أولئك الذين ليسوا أعضاء فى اللجنة ، من أجل ان ينصرفوا . غير أن الأحداث الأليمة التى وقعت فى ذلك النهار المشؤم لم تكن قد انتهت بعد .

حين دخل نيقولاى فسيفولودوفتش ، لاحظتُ النظرة العاصفة التى حدثت بها اليه ليزا . حتى لقد بلغت من طول النظر اليه والتأمل فيه أن ذلك لفت الانتباه أخيراً . ورأيتُ مافريكى نيقولايفتش يميل عليها ليكلهما بصوت خافت فى أغلب الظن . ولكنه عدل عن رأيه ، وعاد ينتصب فجأة ، وشمل الجمع بنظرة كأنه يريد أن يعتذر عما بدر منه . وقد أثار نيقولاى فسيفولودوفتش شيئاً من حب الاطلاع هو أيضاً . كان وجهه أشد شحوباً من عهدنا به ، وكانت نظرته تبدو ذاهلة ذهولاً خاصاً . ولاح عليه أنه لم يسمع جواب ستيفان تروفيموفتش عن السؤال الذى وجهه اليه حين دخل ، بل أنى لأظن أنه نسى أن يحيى ربة الدار . أما ليزا فقد أغفل حتى النظر اليها . وانى لوائق على كل حال بانه لم يقصد ذلك ولم يتعمده : كل ما هنالك أنه لم يلاحظها . وفجأة ، بعد صمت قصير أعقب اقتراح جوليا ميخائيلوفنا بافتتاح اجتماع اللجنة فوراً ، دوى صوت ليزا الرنان مناديا ستافروجين ، متعمداً أن يسمعه الجميع طبعاً .

- نيقولاى فسيفولودوفتش ، ان رجلاً يسمى الكابتن لبيادكين ، ويدعى أنه قريبك ، أنه أخو زوجتك ، يبعث الى رسائل غير لائقة يتشكى فيها منك ويعرض على أن يفضى الى بأسرار تخصك . فاذا صح أن هذا الرجل قريبك ، فاحظر عليه أن يهيننى وضع حدّاً لأفعاله .

كانت هذه الكلمات تشتمل على تحدٍ رهيب . وقد أدرك ذلك جميع

الحضور • ان التهمة واضحة • ولكن من الجائز أن تكون ليزا قد قذفتها دون أن تدرك ما تفعل ، كائنسان يلقي بنفسه من أعلى سطح مغصاً عينيه ولكن جواب نيقولاى فسيفولودوفتشس كان أدعى الى الدهشة وأبعث على الدهول أيضاً •

لم يبدُ عليه شيء من الاستغراب بتاتا ، وأصغى الى كلام ليزا بانتباه شديد وهدوء كامل • ولم يعبر وجهه عن اضطراب ولا عن غضب • وببساطة هائلة ولهجة ثابتة بل متعجلة انما أجاب عن السؤال المحتوم قائلاً :

– نعم ، من سوء حظى أن بينى وبين هذا الرجل قرابة • اقد تزوجت أخته منذ زهاء خمس سنين • وثقى أننى سأبلغه مطالبك فى أقرب فرصة ، وانى لأضمن لك أن يكف عن ازعاجك بعد اليوم •

لن أنسى ، ماحيت ، الهول الذى ارتسم على وجهه فراراً بتروفا • لقد انتصبت زائفةً الهيئة ، رافعةً ذراعها اليسرى فوق رأسها كأنها لتحمية • ونظر إليها نيقولاى فسيفولودوفتشس ، ثم تأمل ليزا ، ثم طاف ببصره على سائر المشاهدين • وألّت بشفتيه ابتسامة ، وغادر الصالون بغير تعجل • وفى اللحظة التى اتجه فيها نحو الباب نهضت ليزا عن ديوانها فجأةً بحركة قوية ، وهمّت أن تركض وراءه • ولكنها سيطرت على نفسها فأمسكت عن الجرى ، وخرجت بهدوء ، دون نظرة تلقبها على أحد ، ودون كلمة تقولها لأحد ، يتبعها مافريكى نيقولايفتشس طبعاً •••

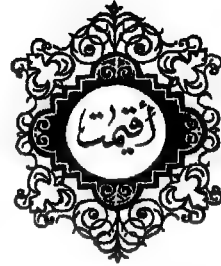
لن أقول شيئاً عن الشائعات التى جرت فى المدينة فى ذلك المساء نفسه • ولقد سجت فراراً بتروفا نفسها فى منزلها لا تبارحه • أما نيقولاى فسيفولودوفتشس فيقال انه ذهب رأساً الى سكفورشنيكى ، حتى دون أن يرى أمه • وفى المساء أرسلنى ستيفان تروفيموفتشس الى عند « تلك الصديقة الغالبة » (بالفرنسية) راجعاً أن تأذن له بأن يجيئها زائراً • ولكننى لم

أستقبل في منزلها • كان ستيفان تروفيموفتش متأثراً متأثراً رهيباً ، حتى
لقد كانت الدموع تترقق في عينيه • كان يكرر على مسمعى بغير انقطاع :
« زواج كهذا الزواج ! يا لها من كارثة للأسرة ! » • ولكن ذلك كان
لا يمنعه من التفكير في كارمازينوف ، وشتمه شتماً عنيفاً ، وأن يجد في
اعداد قراءة الغد ، مكرراً حركاته أمام امرأة (هذه طبيعة فنية) ، مستحضراً
في ذاكرته على سبيل تمليح كلامه جميع الكلمات الطريفة وجميع النكات
القائمة على الجنس اللفظي التي سبق له أن هيأها ودونها في دفتر خاص •
- يا صديقي ، أنا أفعل ذلك كله في سبيل فكرتنا العظيمة • « يا صديقي
العزيز » ، اننى أدع الانزواء الذى ألزمت به نفسى مدة خمسة وعشرين
عاماً ، وأرحل ••• الى أين ؟ لا أدري بعد ••• لكننى أرحل ! •••

الجزء الثالث

الفصل الأول

الحفلة



الحفلة رغم جميع الأحداث التي جرت أمس • وفي اعتقادي أنها كانت ستقام حتى ولو كان لبكه قد قضى نحبه البارحة • فإلى هذا الحد كانت إقامة الحفلة هامة في نظر جوليا ميخائيلوفنا • لقد ظلت إلى آخر لحظة - وأأسفاه! - مصرة على عماوتها، لا تدرك الحالة النفسية التي كان عليها الناس • ومع ذلك ما من أحد كان يتصور أن ذلك النهار الفخم يمكن أن ينتهي بغير فضيحة خطيرة ما، أو بدون «خاتمة» على حد تعبير أولئك الذين كانوا يفركون أيديهم من الجدل سلفاً • صحيح أن كثيراً من الناس كانوا يحاولون أن يصطنعوا هيئة مكفهرة متشائمة، لكننا نستطيع أن نقول بوجه عام أن الروس يجدون في الفضائح والمشاكل لذة قصوى • على أن الواقع هو أن هناك شيئاً آخر أخطر شأنًا من هذا الظمأ إلى الفضائح: إنه حنق عام، أنه نوع من كره وحشي كاسر • يبدو أن جميع الناس كانوا مغتاظين، وكانوا يتوقون إلى تغيير ما، أيًا كان هذا التغيير • كان يرين علينا استخفاف غريب، واستهتار مقصود • السيدات وحدهن كنّ ثابتات الرأي، ولكن في أمر واحد: هو هذا الكره الساحق المالح الذي يحملته لجوليا ميخائيلوفنا، والذي كانت المسكينة لا يخطر لها على بال • لقد ظلت

الى آخر لحظة مقتنعه بأنها محاطة بمحبة الناس جميعا ، وأن الناس مخلصون لها « اخلاصاً متعصباً » .

سبق أن ذكرت أن أنواعا شتى من صغار الأشرار قد ظهرت في مدينتنا . ان أمثال هؤلاء ينبغيسون في عهود الاضطراب ، في عهود الانتقال ، في كل زمان ومكان . لست أعنى الأشخاص الذين يسمون « متقدمين » ، والذين ليس لهم من هم إلا أن لا يكونوا متأخرين متخلفين ، والذين تكون لهم في أكثر الأحيان غاية محدّدة بعض التحديد مهما تكن هذه الغاية سخيّة . لا ، فانما أنا أعنى الأوغاد . ان الوغد موجود في كل مجتمع ، ولكنه لا يظهر على السطح الا في فترات الانتقال . وهو لا يرمى الى أية غاية ، ولا يسمى الى أى هدف ، ولا يملك أية فكرة . كل ما هنالك أنه يعبر عن نفاذ الصبر ، ويدل على اختلاط الأمور في المجتمع . ومع ذلك نرى الوغد ، دون أن يدرك هو ذلك ، يخضع في جميع الأحيان تقريباً لجماعة صغيرة من « المتقدمين » الذين لهم هدف محدد ، فهم يدفعون هؤلاء الأوغاد في الاتجاه الذي يناسبهم ، على شرط أن لا يكونوا الا بلهاء تماماً . وذلك ما يحدث في بعض الأحيان على كل حال .

الآن وقد انقضى كل شيء ، يؤكد الناس لدينا أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتمر بأوامر « الأممية » ، ويوجه جوليا ميخائيلوفنا التي كانت تستخدم الأوغاد تنفيذاً لتعليماته . ويتساءل العقلاء منا مذهولين كيف أمكن تضليلهم هذا التضليل .

لا أحد يعرف (ربما باستثناء بعض الأجانب) ، ولا أنا أعلم ماذا كان ذلك التملل العام والانزعاج الشامل ولا ما هو « الانتقال » المقصود : انتقال الى أى حال ؟ ومع ذلك وقعنا جميعاً تحت سيطرة أولئك الأشياء من الأشخاص الصغار الذين طفقوا ينتقدون بصراحة كل ما هنالك من أمور

هي أقدم الأمور ، هم الذين كانوا قبل ذلك لا يجسرون حتى أن يفتحوا أفواههم ، وراح الآخرون الذين كانوا الى ذلك الحين يحتلون أرفع مقام بصغون اليهم صامتين ، حتى ليشجعونهم بضحكاتهم في بعض الأحيان . ان أناساً مثل ليامشين ، وتليانتيكوف ، وتنتيكوف ، وان أغرارا مدعين مثل رادشتشيف ، وان يهوداً صغاراً من أصحاب الابتسامة الأليمة المتفطنة في آن واحد ، وان ضاحكين ومسافرين عابرين ، وشعراء لبراليين وافرين من العاصمة ، شعراء يقوم عندهم قميص من قمصان الفلاحين وحذاء من مدهونان بالقطران مقام اللبرالية والموهبة ، وان ضباطاً برتبة ميجر وكولونيل ممن لا يشعرون نحو رتبهم العسكرية الا بالاحتقار والازدراء ، والذين لا مانع لديهم في سبيل زيادة قدرها روبل واحد أن يرموا سيوفهم ليلتمسوا وظيفة في مصلحة السكك الحديدية ، وان جنرالات ممن أصبحوا محامين أو موظفين بلا عمل ولكنهم يحسنون تدبير أمورهم وتصريف شئونهم ويعرفون من أين تؤكل الكتف ، وان شباباً من أبناء التجار اعتنقوا الأفكار الجديدة ، وطلاباً لا نهاية لعددهم ، ونساء يعدون أنفسهن بطلات مكافحات في سبيل قضية المرأة ، هؤلاء جميعاً هم الذين أصبحت لهم الغلبة والسيطرة . وعلى من ؟ على أعضاء نادينا ، على موظفين محترمين ، على جنرالات فقدوا في الحرب بعض أعضاء أجسامهم ، على سيداتنا المتعاليات المتكبرات . ومهما يكن من أمر فانا لا نملك الا أن نعذر سيداتنا على أنهن فقدن صوابهن حين نرى أن فرافارا بتروفا نفسها قد خضعت لسطوة هؤلاء الأشرار ، الى أن حلت الكارثة التي أصابت ابنها .

سبق أن قلت ان الناس الآن يحملون « الأممية » تبعه كل ما وقع . وقد بلغت هذه الفكرة من قوة الرسوخ في الأذهان أنهم يعللون بها الأمور حتى للوافدين الينا من الخارج (وما أكثرهم !) حتى ان المستشار كوبريكوف الذي يبلغ الثانية والستين من عمره ، ويحمل وسام سان

ستانسلاس ، قد جاء فى الآونة الأخيرة من تلقاء نفسه يصرّح للسلطات بلهجة نافذة جازمة أنه ظل مدة ثلاثة أشهر خاضعاً لتأثير « الأمية » ، فلما سُئِلَ بما ينبغى لسنه ورتبه من مداراة ومراعاة أن يذكر بعض الايضاحات الدقيقة ، اكتفى بأن قال انه « شعر بذلك شعوراً داخلياً » ، ولكن هذا لم يمنعه من الاصرار على تصريحه . لذلك ترك له أن ينصرف دون أن يلقى عليه مزيد من الأسئلة .

أكرر مرة أخرى : لقد وجدت فئة صغيرة من العقلاء تنحّت جانباً منذ البداية ، حتى لقد سجت نفسها فى بيوتها وأغلقت عليها الأبواب بالأقفال . ولكن ما من قفل يقاوم قوانين الطبيعة . ففى الأسر العاقلة المحاذرة توجد دائماً فئات لا يستطعن الاستغناء عن الرقص ، فهو لهن ضرورة . لذلك رأينا أكثر الأشخاص تحفظاً يشتركون فى النهاية بطاقات لحضور حفلة الرقص التى نُظِّمَت لمساعدة العلمات ، لا سيما وأن الحفلة ستكون باهرة الى أقصى حد . كان يُقال انها ستكون معجزة من المعجزات: تحدث الناس عن أمراء سيحضرونها ، وعن عشراتٍ من خيرة أبناء الأسر سيتولون الاشراف على تنظيمها عاقدين على أكذافهم اليسرى شريطاً يميزهم عن غيرهم ؟ وتحدثوا عن شخصية سياسية من بطرسبرج لا أدري من هى ، وعن كارمازينوف الذى ارتضى فى سبيل تضخيم البرنامج أن يقرأ قصيدته «شكرآ» وهو فى لباس معلمة ، وتحدثوا عن « رباعى أدبى » سيرتدى راقصوه أبهى الأزياء ، فكل زى من هذه الأزياء يرمز الى اتجاه أدبى ، وتحدثوا عن سيد سيلبس رداء خاصاً ويمثل « الفكر الروسى الصادق الأصيل » ، وسيرقص هو أيضاً ، وذلك كله نىء جديد لا عهد بمثله من قبل . فكيف يمكن أن يمتنع المرء عن الاشتراك فى حفلة رقص كهذه الحفلة ؟ هكذا انقاد الجميع للاغراء .

تتضمن الحفلة ، وفقاً للبرنامج ، جزأين : صبيحةٌ أدبية من الظهر حتى الساعة الرابعة ، وحفله رقص تبدأ في الساعة التاسعة وتمتد على طول الليل . ولكن هذا البرنامج يشتمل بذاته على عناصر فوضى . من ذلك أولاً أن الجمهور تخيل أن سيكون ثمة غداءٌ بعد الصبيحة الأدبية فوراً أو أثناءها ، خلال فترة استراحة تُخصّص لهذا الغرض ، غداءٌ مع شمبانيا ، بالمجان طبعاً ، لأنه جزء من البرنامج . ان المبلغ الباهظ الذي يدفعه المشترك ثمناً للبطاقة (وهو ثلاثة روبلات) قد ساهم في ترويج هذه الشائعة وتعزيزها : « هل كان يمكن أن أشتري لولا هذا ؟ ان الحفلة تدوم أربعاً وعشرين ساعة ، فلا بد من اطعام الحضور الذين سيأخذ منهم الجوع كل مأخذ » . كذلك كان يفكر الناس في الأمر . يجب أن أقول ان جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي خلقت بطيشها وتسرعها هذه الأوهام المشؤمة . انها قبل موعد الحفلة بشهر ، كانت وقد هزتها الحماسة الشديدة لمشروعها ، تزعم لكل قادم أنها ستقيم حفلةً ستُشرب فيها الأنخاب . حتى لقد أعلنت عن هذه الأنخاب التي كانت تحرص عليها حرصاً خاصاً ، في جريدة من جرائد العاصمة . كانت تريد أن ترفع الأنخاب بنفسها ، وكانت تهيئها منذ ذلك الحين . كان ينبغي لهذه الأنخاب في نظرها أن تجمع العقول حول « رأيتنا الجديدة » (ما هي تلك الراية الجديدة ؟ أراهن أن المسكينة كانت هي نفسها لا تعرفها !) . فاذا نُشرت في جرائد العاصمة في صورة أنباء ، بحث بها المراسلون الصحفيون ، فلسوف تثير عاطفة السلطات العليا ولسوف تفتن أبواب هذه السلطات حتماً ، ثم اذا هي تنتشر بعد ذلك في البلاد باعثةً على الدهشة والتنافس في كل مكان . ولكن رفع الأنخاب يقتضي شمبانيا . والشمبانيا لا تُشرب على جوعٍ طبعاً ، فلا بد اذن من وجبة غداء . ولكن حين تشكلت بعد ذلك لجنة لدراسة المشروع من جميع

جوانبه ، فان أعضاء اللجنة لم يلبسوا أن برهنوا لجوليا ميخائيلوفنا أن إقامة مأدبة ستكون نفقات طائلة فلا يبقى للمعلمات شيء ذو بال مهما يكن إيراد الحفلة . وهكذا أصبح الوضع كما يلي : فاما مأدبة فاخرة وأنخاب ثم لا يبقى للمعلمات الا زهاء تسعين روبلاً ، واما إيراد كبير اذا اقتضت الحفلة على ما هو ضرورى ولم تكن الا ذريعة لمساعدة المعلمات . وكانت اللجنة من جهة أخرى تنصح بالتعقل والحكمة ، وتقترح حلاً ثالثاً يصلح بين الأمرين ويتصف بالاعتدال والتبصر : اقترحت اللجنة أن تكون الحفلة لا اقل من جميع النواحي ، ولكن بغير شمباتيا ، فاذا تم ذلك كان فى الامكان أن تال المعلمات مبلغاً كبيراً ، مبلغاً يزيد كثيراً على تسعين روبلاً . ولكن جوليا ميخائيلوفنا لم تشأ أن تسمع شيئاً عن هذا الحل الوسط . انها تحققر التسويات البورجوازية . وما دامت فكرتها الأولى مستحيلة التحقيق ، فما هى ذى تعدل عنها لتتدفع الى الطرف الأقصى الآخر : سنحاول أن نظفر بأكبر ربع ، فستشير غير سائر الأقاليم . قالت فى خطاب ملتهب ألقته على أعضاء اللجنة ان الأهداف الانسانية الكبرى التى نرمى اليها أهم كثيراً من ملذات الجسم العابرة ، وان حفلتنا انما هى فى الواقع تعبير عن فكرة عظيمة ، فيجب أن نكتفى اذن بحفلة رقص صغيرة على الطريقة الألمانية ، لا تكلف نفقات كبيرة ، حفلة رقص رمزية ان صح التعبير مادام يستحيل الاستثناء عن حفلة الرقص هذه الكريهة التى لا تطاق ! . والحق أنها كانت قد كرهت هذه الحفلة . ولكنهم استطاعوا أن يهدثوا روعها . وعندئذ انما تخيلوا « الرباعى الأدبى » ، كما تخيلوا تسليات فنية أخرى من شأنها أن تحل محل مباهج الجسم وملذات الطعام والشراب . وعندئذ أيضاً انما رضى كارمازينوف الذى لم ينقطع عن التصنع والتدلل ، ولم يكف عن استدرار الرجاء والضراعة ، أقول عندئذ انما رضى كارمازينوف أن يقرأ قصيدته «شكراً» ، وأن يستأصل بذلك حتى فكرة الطعام من نفس الجمهور الشره

المسرف فى الشراهة • هكذا تسترد الحفلة بهاءها ، ولكنه بهاء من نوع خاص • ومن أجل أن لا يفرق القائمون عليها غرقاً كاملاً فى السحاب ، قرروا أن يقدموا فى بداية حفلة الرقص شيئاً مع الليمون وحلويات جافة ، ثم أن يطوفوا بمصير البرتقال والليمون بعد ذلك ، بل وأن يقدموا فى النهاية مثلجات ، ولكن لا شيء غير ذلك • أما الذين هم جائعون وظامئون فى كل وقت وفى جميع الظروف ، فسيُهيأ لهم «بوفيه» خاص يتهدده بروخورتش (رئيس طهاة النادى) ، ويمكن أن يُقدم فيه تحت رقابة قاسية تمارسها اللجنة كلُّ ما يشتهيهِ المشتَهون ، ولكن أثمان الطعام والشراب لن تكون من أصل ثمن البطاقة ، وإنما يدفعها المستهلكون على حدة ، اذ يعلن لهم ذلك باعلان خاص يوضع على الباب • وحمايةً للقراءة من التشويش أثناء الصبيحة الأدبية ، يظل « البوفيه » مغلقاً ، رغم أن خمس غرف تفصله عن الصالة البيضاء التى سينشُد فيها كارمازينوف قصيدته « شكرًا » • والأمر الغريب هو أن اللجنة ، ومن بين أعضائها أناس عمليون جداً ، كانت تضى على هذا الحادث ، أعنى قراءة القصيدة ، قيمة كبيرة وشأنًا عظيمًا • أما النفوس الشعرية فكانت حماستها أشد • حسبى أن استشهد على ذلك بمثال زوجة مارشال النبالة التى قالت لكارمازينوف انها بعد انشاده القصيدة فوراً ستأمر بأن برُصَّ جدار صالتها بلوحة من مرمر يُكتب عليها بأحرف من ذهب أن الكاتب الروسى والأوروبى الكبير قد أنشد قصيدته «شكرًا» للجمهور المتمثل فى شخصيات مدينتنا ، وذلك فى يوم كذا ، وهو اليوم الذى ترك فيه قلمه وودَّع الكتابة • وستكون هذه اللوحة بما عليها من كتابة ، مهياة عند افتتاح حفلة الرقص ، أى بعد الحادث التاريخى بخمس ساعات • وانى لأعلم من مصدر موثوق به أن كارمازينوف خاصةً هو الذى طالب مصرّاً بأن يظل «البوفيه» مغلقاً أثناء الصبيحة الأدبية ، رغم ما ارتآه بعض أعضاء اللجنة من أن هذا ليس من مألوف عاداتنا •

هذا ما كان قد تقرر بينما كان الناس فى المدينة يأملون أن يحضروا مأدبة ، أى أن يأكلوا ويشربوا بالمجان • لقد ظلوا يوتلون على هذا الى آخر لحظة • وكانت الآنسات تحلم بسكاكر وحلويات توزع وافرة بغير عد ، وتحلم كذلك بأور خارقة لا أدرى ما هى ! كان معلوماً أن الربيع ضخم ، وأن المدينة كلها ستهافت على حفلة الرقص ، وأن كثيراً من الناس يفدون من المقاطعات المجاورة خصيصاً لشهود الحفلة ، وأن الجمهور يتخاطف التذاكر تخاطفاً • وكان معلوماً كذلك أن عطايا ضخمة قد قدّمت : فالسيدة فر فارا بتروفا منلاً قد اشترت تذكرتها بثلاثمائة روبل ووهبت من مزارعها جميع الأزهار التى ستزين الصالة • وزوجة مارتال النبالة (وهى عضوة فى اللجنة) قد قدّمت منزلها والاضاعة • كما أن النادى تبرع بالموسيقى والخدم ، وتنازل عدا ذلك عن طباخه طوال النهار • انتهى أصرف النظر عن عطايا أخرى أقل ضخامة • وقد خطر بالبال تخفيض ثمن التذكرة وجعله روبلين لا ثلاثة • ذلك أن اللجنة قد خشيت فى أول الأمر أن يكون من شأن الثمن الباهظ ، وهو ثلاثة روبلات ، أن يحول دون مجيء الآنسات ، حتى لقد قام فى الأذهان بيع بطاقات عائلية • فالآباء قد لا يدفعون ثمن بطاقة الدخول الا لواحدة من بناتهم ، فلا مانع أن تدخل الأخريات بالمجان ولو كان عددهن عشراً • غير أن هذه المخاوف لم تلبث أن تبددت : فالآنسات جئن زرافات ووحداً ، وأصغر الموظفين اصطحبوا بناتهم جميعاً • طبعاً أنهم ما كانوا ليفكروا فى المجيء لولا أن لهم بنات • ان سكرتيراً صغيراً فقيراً قد جاء ببناته السبع ، مع امرأته طبعاً ، ومع ابنة أخته كذلك • فكانت كل واحدة منهن تحمل بيدها عند الدخول بطاقتها التى ثمنها ثلاثة روبلات • تستطيعون أن تتصوروا بسهولة ان المدينة كلها كانت فى ثورة • واذ كانت الحفلة تشتمل على صبيحة أدبية وحفلة رقص ، فقد كان على السيدات أن يكون لكل منهن ثوبان : واحد للاجتماع

الأدبى والثانى للرقص • لذلك فإن عدداً من رجال الطبقة المتوسطة ، كما عُلِمَ ذلك فيما بعد ، قد رهنوا لهذه المناسبة كل ما يملكون من بياض ، حتى لقد رهنوا أغطية الأسرّة ، ان لم يكونوا قد رهنوا الفرُش نفسها ، لدى يهود كانوا منذ سنتين قد أخذوا يتوافدون الى مدينتنا ويستقرون فيها ويزداد عددهم شيئاً بعد شيء • وجميع الموظفين تقريباً قد اقترضوا سلفاً على مرتباتهم • حتى أن بعض الملاكين قد باعوا بعض مواشيهم • كل ذلك من أجل أن تلبس بناتهم لباساً حسناً ، وأن يظهرن دون غيرهن • أما التزين فلم يُرَ له مثل قبل ذلك فى مدينتنا • غير أن نوادر كثيرة عن الحياة الخاصة التى يعيشها عدد من أسر المدينة قد تناقلها الناس فى كل مكان قبل الحفلة بخمسة عشر يوماً ، وتطوع بعض المسازحين فأسرعوا ينقلونها الى جوليا ميخائيلوفنا • وقد تناقل الناس كذلك صوراً كاريكاتورية رأيت بعضها فى ألوم جوليا ميخائيلوفنا • وذلك كله قد وصل الى مسامع أولئك الذين كانوا موضوع هذه النوادر وتلك الرسوم • وأغلب ظنى أن ذلك هو مصدر الكره الذى حمله كثير من الناس لامرأة الحاكم فى الأيام الأخيرة • ان جميع الناس لا يتذكرون الآن تلك الذكريات حتى يشور غضبهم • ولكن كان واضحاً منذ ذلك الحين أن أيسر هفوة تقع فيها اللجئة وأن أيسر خلل يحدث يمكن أن يفجّر غضب الجمهور قوياً عنيفاً • لذلك كان كل واحد يتوقع بينه وبين نفسه حدوث فضيحة ما • واذا كان الجميع يتوقعون الفضيحة فلا بد أن تقع الفضيحة حتماً •

فى الظهر تماماً بدأت الأركسترا تعزف • ولما كنتُ واحداً من الشبان المشرفين الذين يبلغ عددهم اثنى عشر شخصاً ويزدان كنفهم بعقدة من شريط ، فقد رأيت بنفسى كيف بدأ ذلك النهار المخزية ذكراه • لقد بدأ الأمر بتزاحم وتدافع عند المدخل • لماذا جرى كل شيء مجرى شيئاً منذ اللحظة الأولى ، ولماذا لم تكن الشرطة نفسها فى مستوى الظروف ؟

اننى لا أنهم الجمهور الحقيقى • ان آباء الأسر ، مهما تكن رتبهم عالية ، لم يستعملوا أكواعهم ولم يحاولوا أن يدخلوا قبل غيرهم • بل انه ليقال ، خلافاً لذلك ، أنهم تنحوا جانبا ، وضاقوا صدرأ بهذا المشهد الذى لا عهد لنا بمثله ، مشهد الحشد محاصراً درجات المدخل متزاحماً على الباب • وكانت العربات تصل أثناء ذلك الى أن سدَّت الطريق آخر الأمر •

فى الساعة التى أكتب فيها هذه السطور ، أستطيع أن أؤكد ، بالاستناد الى وقائع ثابتة ، أن ليامشين ولبيوتين وربما غيرهم أيضا ، وهم جميعا مشرفون مثلى ، قد سمحوا بالدخول من غير بطاقة لأفراد من أوباش الناس • لقد رثى انبجاس أشخاص مجهولين تماما ، جاءوا من الريف أو وفدوا لا أدري من أين ! فما ان دخل هؤلاء الجفأ المتوحشون الى الصالة (وكانهم ينفذون كلمة سر) حتى أخذوا يسألون عن «البوقيه» • فلما علموا أن ليس ثمة «بوقيه» أخذوا يطلقون شتمائم فظة ، بوقاحة لا مثيل لها ، وبذاءة غير معروفة ، عندنا حتى ذلك الحين • كان عدد منهم سكارى قد أخذ منهم الثمل كل مأخذ • وكان بعضهم يبدو مشدوهاً مبهوتا من عظمة الصالة لأنه لم ير قبل اليوم شيئا يبلغ هذا المبلغ من البهاء والأبهة ، فهؤلاء جمدوا فى مكانهم لحظة ، وجعلوا ينظرون من حولهم فاغرين أفواههم • ان هذه الصالة البيضاء الواسعة ، رغم أنها قديمة جداً منذ الآن ، لها فى الواقع مظهر رائع باهر : صفآن من النوافذ المنضودة ، بعضها فوق بعض ، سقف مغطى بنقش وحفر وتذهيب ، وشرفات ، وجدران تزينها مرايا ، ومفارش حمراء ، وتمائيل من مرمر (انها تمائيل مهما تكن) ، أثاث مهيب (يرجع عهده الى عصر نابوليسون) مدهون ببياض وذهب ومكسو بمخمل قرمزي اللون • وفى آخر القاعة نُصب منبر للذين سيشارتون فى الصبيحة الأدبية • وفى سائر القاعة صُفَّت كراسى كما تُصَفُّ فى مسرح ، وجُعِلت بين صفوفها مسافات عريضة تسمح بمرور الجمهور •

ولكن ما ان انقضت دقائق الدهشة الأولى حتى أخذ الناس يتبادلون ملاحظات من أغرب ما تكون الملاحظات ، ومن أغبى ما تكون الملاحظات . « ربما كنا لا نريد انشاد الشعر ... لقد دفعنا ثمن تذاكر الدخول مبلغاً طائلاً ... خدعوا الجمهور ... نحن هنا السادة لا آل لمبكه ! ... » .

الخلاصة : لكنهم ما أَدخلوا الا ليحدثوا لغطاً وفوضى . أتذكر على وجه الخصوص حادثاً كان بطله ذلك الأمير الذى يلتف عنقه بياقة عالية مسرقة فى العلو ، والذى يشبه أن يكون وجهه آلة متحركة من تلقاء ذاتها ؛ انه ذلك الأمير الذى لقيته أمس عند جوليا ميخائيلوفنا . لقد قبل بعد الحاح من جوليا ميخائيلوفنا أن يعلّق على كتفه الأيسر عقدة شريط ، وأن يكون بذلك أحد المشرفين . فهذا الشخص الأبكم الذى تكاد حركاته أن تكون حركات آلة اتضح أنه يستطيع أن يفعل اذا كان لا يستطيع أن يتكلم . لقد ناداه كابتن محال على التقاعد ، ناداه بفظاظة وغلظة ، وهو رجل عملاق فى وجهه بقايا من بشور الجدرى ، شجته عصبية من الأوغاد فطالب بأن يُقاد الى «البوفيه» . فما كان من الأمير الا أن أوماً لرجل من رجال الشرطة ، فأسرع الشرطى يتدخل فوراً فيخرج الكابتن من القاعة رغم احتجاجاته الصارخة وزعيقه المتصل . وفى أثناء ذلك أخذ الجمهور « الحقيقى » يصل ويجلس متسللاً بين المرات الثلاث التى جعلت بين صفوف الكراسى . وصمت الصياحون شيئاً فشيئاً . ولكن الجمهور « الرفيع المقام » كان يبدو عليه عدم الرضى وكانت تبدو عليه الدهشة . وكان عدد من السيدات يبدو مرتاعاً لا أكثر ولا أقل .

واستقر كل فرد فى مكانه أخيراً . وصمتت الموسيقى . كان الناس يتمخطون وينظرون من حولهم . وكان للانتظار أبهة وفخامة . وهذا فى العادة نذير سوء . لم يصل لمبكه وزوجته حتى الآن . لا ترى العين فيما حولها الا حريراً ومخمللاً وماساً . العطور تملأ الجو . السادة

يحملون جميع أوسمتهم ، حتى ان المتقدمين فى السن وأصحاب الرتب العالية يرتدون بزائهم الرسمية • وأخيراً دخلت زوجة مارشال النبالة تصحبها ليزا • لم تكن ليزا فى يوم من الأيام باهرة الجمال ولا رائحة الزينة كما كانت فى ذلك اليوم • ان شعرها يتهدل على كفتيها ضفائر ، وان عينيها تسطمان سطوعاً براقاً ، وان بسمه مشرقة تشع فى وجهها • أحدث دخولها أثراً عظيماً • التفتت نحوها جميع الأبصار وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات والآراء عنها بصوت خافت • وأكّدت بعضهم أنها كانت تبحث بنظراتها عن ستافروجين • ولكن لا ستافروجين ولا فرفارا بتروقنا كانا فى الصالة • لم أدرك عندئذ المعنى الذى عبّر عنه وجه ليزا ، ولا فهمت لماذا كان محياها يفيض سعادة وفرحاً وقوة • وخطر ببالي ما حدث بالأمس ، فطفت أحس وأفترض وأخمن • ما يزال آل لمبكه غائبين لم يصلوا بعد • تلك خطيئة • علمت فيما بعد أن جوليا ميخائيلوفنا قد انتظرت بطرس ستيفانوفتش الى آخر لحظة • لقد أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه ، رغم أنها ترفض الاعتراف بذلك فى قرارة نفسها • بالأمس ، فى آخر اجتماع عقدته اللجنة ، كان بطرس ستيفانوفتش قد ردّ عقدة الشريط التى توضع على كتف المشرف ، فاستاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً وخاب أملها حتى أوشكت الدموع أن تترقق فى عينيها حزناً ولوعة • فلما لم تره فى الغد ، أدهشها ذلك كثيراً ثم أدخل الاضطراب والبلبله الى نفسها (اننى استبق الأحداث) : انه لم ييجئ لشهود الصبيحة الأدبية • وجاء المساء دون أن يسمع أحد عنه شيئاً •

أخذ الجمهور يُظهر بعض التملل • ما تزال المنصة خالية • ودوّى تصفيق فى الصفوف الأخيرة ، كما يحدث فى المسرح • السيدات والرجال المسنون يبدو عليهم الامتعاض : « ان آل لمبكه لا يزعمون أنفسهم ! » • ووصلت شائعات سخيفة حتى الى الصفوف الأولى : لن تُقام الحفلة :

فالحاكم قد بلغ به المرض أنه لن ... الخ الخ ! ولكن وصلت أسرة لمبكه أخيراً والله الحمد . كانت الزوجة متأبطة ذراع زوجها . أعترف اننى كنت قد فقدت الأمل فى وصولها . ان الحقيقة تنتصر على الشائعات الكاذبة . بدا الهدوء وظهرت الطمأنينة على الجمهور . كانت هيئة أندره أنطونوفتش تدل على أن صحته جيدة . ذلك كان شعور الجميع : فى وسعكم أن تتصوروا كيف كان الناس ينظرون اليه بانتباه شديد . يجب أن أقول من جهة أخرى - وذلك يميّز الحالة النفسية التى كان عليها الجمهور - ان قلّة من الأفراد فى المجتمع الراقى كانت تصدّق أن لمبكه مريض : ففى تلك البيئة كان لمبكه يتصرف تصرفاً سليماً جداً ، حتى لقد أبدوا الموقف الذى وقفه بالأسس فى الميدان . كانت الشخصيات الرفيعة المقام تقول : « بهذا انما كان ينبغى له أن يبدأ » ان هؤلاء الموظفين البطربرجين الذين يصطنعون فى البداية دور محبى البشر ينتهون الى الاعتقاد ، كسائر الناس ، دون أن يشعروا بذلك ، أن هذه الطريقة هى أحسن الطرق التى يجب أن يستعملها محبو البشر . » هكذا كانوا يفكرون فى نادينا . وكانوا يلومونه على أنه انتقاد للنضب : « كان ينبغى له أن يحافظ على هدوئه . ولكن سبب اندفاعه النضب واضح : انه تمسوزه الخبرة والتجربة » . كذلك كان يقول الاخصائيون فى الموضوع . وقد رأيت جوليا ميخائيلوفنا أنها معط جميع الأنظار أيضاً . لا يمكنكم أن تطالبونى طبعاً بتفاصيل دقيقة جداً عن بعض الوقائع : نحن بصدد امرأة ، وبصدد سر من أسرار حياتها الصميمة . اننى لا أعرف الا شيئاً واحداً : هو أن جوليا ميخائيلوفنا قد لحقت بآندره أنطونوفتش مساء أمس الى حجرة عمله ، ولبثت معه هنالك الى ما بعد منتصف الليل . فما زالت به حتى غفرت له وعفت عنه ، وواسته وعزته . واتفق الزوجان على جميع النقاط ، ونسى كل شيء . وحين تذكر فون لمبكه ، فى نهاية المصارحة ، حين تذكر مذعوراً انفجار غضبه

فى الليلة السابقة ، لم يستطع أن يكبح جماح نفسه ، فبجأ راکعاً على ركبتيه • فما كان من جوليا ميخائيلوفنا الا أن مدت يدها الفاتنة ترفه عنه وأخذت تلمسه بشفتيها مخففة اندفاعات الندامة لدى هذا الرجل الفارسى المرهف الشعور المسرف فى الانقياد لعواطف الرقة والحنان ، أعنى آتديه أنطونوفتش •

لاحظ جميع من فى الصالة ما يشع فى وجه جوليا ميخائيلوفتش من معانى السعادة • كانت تتقدم فى زهو وخيلاء ، وهى ترتدى ثوباً رائعاً • لكن أقصى أمانها قد تحققت : ان هذه الحفلة التى كانت هدفاً وتويجاً لسياستها قد أصبحت واقعاً فى آخر الأمر • اتجه لمبكه وزوجته الى مكانيهما فى الصف الأول ، مرسلين تحيات كثيرة عن يمين وشمال • ولم يلبثا أن أحاطت بهما جمهرة كبيرة • ومضت نحوهما زوجة مارشال النبالة ••• فاذا بغلطة مؤسفة تقع فى تلك اللحظة : لقد أخذت الأركسترا ، على حين فجأة ، بدون أى سبب ، تنفخ فى البوق لحناً من تلك الألحان المألوفة فى المآدب الرسمية حين يشرب الناس نخب شخص من الأشخاص • اننى أعلم الآن أن ليامشين ، بصفته مرشداً من مرشدى الحفلة ، قد أراد أن يستقبل أسرة لمبكه هذا الاستقبال • ولقد كان فى وسعه عند اللزوم أن ينتحل لهذه الفعلة أى عذر من الأعذار ، فيقول انه تصرف هذا التصرف عن حماقة ، أو انه قد دفعته اليه الحماسة • وا أسفاه ! لقد كنت أجهل حينذاك أن ليامشين والآخرين أصبحوا لا يفكرون فى الاعتذار ولا يريدون انتحال الحجج والتعلات ، وانهم سيزيحون النقاب عن وجوههم فى ذلك المساء تماماً • ولكن المظاهرة لم تقتصر على لحن عزف بأبواق : فينما كان الناس يتبادلون نظرات مدهوشة وابتهامات ، ترجعت فى آخر الصالة وعلى المنصات صيحات استحسان موجهة الى لمبكه وزوجته • ان الصيحات ضعيفة ، لكنها استمرت زمناً ! ••• احمرت جوليا ميخائيلوفنا

احمرارا شديدا ، والتمعت عيناها • ووقف فون لمبكه الى جانب كرسيه ،
 والتفت الى الجهة التي كانت تصدر عنها الأصوات ، وأجال على الحضور
 نظرة فيها فخامة وقسوة ••• فسرعان ما أجلسوه • ولاحظت على وجهه ،
 من جديد ، تلك الابتسامة المقلقة نفسها التي ظهرت على شفتيه بالأمس ،
 في صالون زوجته ، حين همَّ أن يتقدم من ستيفان تروفيموفتش • لقد
 بدا لي أن هيئته لا تبشر بخير ؛ بل أسوأ من ذلك أنها مضحكة قليلاً ،
 فهي تعبر عن عزيمة رجل قرر أن يضحي بنفسه ارضاءً للأهداف العليا
 التي ترمى اليها زوجته ! ••• أسرعت جوايا ميخائيلوفنا تستدعيني بإشارة
 من رأسها ، وقالت لي بدمدمة خافتة أن أجرى الى كارمازينوف فأصرع
 اليه أن يبدأ • ولكن ما ان أوليتها ظهري حتى حدث دناءة جديدة أبشع
 من الأولى أيضا • فعلى المنبر ، على المنبر الخالي الذي اتجهت اليه حتى
 الآن جميع الأبصار وانصب عليه كل الانتظار ، والذي كان لا يرى فيه
 المرء الا مائدة صغيرة أمامها كرسى وفوقها كأس ماء على صينية من فضة -
 أقول : على هذا المنبر الخالي ظهرت على حين فجأة قامة مديدة ضخمة هي
 قامة الكابتن ليادكين مرتدياً رداء فراك مع ربطة عنق بيضاء • بلغت من
 شدة الدهول أنني لم أصدق عيني في اللحظة الأولى • وكان الكابتن
 يبدو خجلاً وجلاً وقد وقف في آخر المنبر • غير أن أحداً صرخ يقول
 في الجمهور : « كيف ؟ أهذا أنت يا ليادكين ؟ » • فاذا بوجه ليادكين ،
 اذا بوجه الغبي المحققن المحمر من فرط الطعام والشراب (ولقد كان
 سكران تماماً) ، اذا به يتألق لدى سماع هذه الكلمات فتنشر فيه ابتسامة
 بلهاء ، واذا هو يرفع يده ، ويحك جبينه ، ويهز رأسه الكت الأشعث ،
 ثم يجمع قواه ويعزم أمره فيتقدم خطوتين الى أمام ، ويطلقها ضحكة
 مقهقه طويلة سعيدة هزت جسمه الضخم كله ، وغضنت عينيه • فأخذ
 عدد كبير من الجمهور يضحك لهذا المشهد ، بينما راح الجادون من

المشاهدين يتبادلون نظرات حائرة • وذلك كله لم يدم الا زهاء ثلاثين ثانية على كل حال ، هرع بعدها ليويتين الى المنصة يتبعه خادمان أمسكا الكاتب بلطف من ابطيه ، بينما همس ليويتين فى أذنيه بضغ كلمات • فقطب الكاتب حاجبيه ، ودمدم يقول وهو يحرك يده : « اذا كان الأمر كذلك ••• » ، ثم أدار للجمهور ظهره الضخم وانقاد للممسكين به • ولكن ما هى الا لحظة حتى عاد ليويتين الى المنصة وفى يده ورقة من الورقات التى تكتب عليها الرسائل ، فاصطنع ابتسامة عذبة من ابتساماته تلك التى يختلط فيها السكر بالخل ، وتقدم بخطى قصيرة الى حافة المنبر ، وقال :

— أيها السادة ، لقد أوقعنا السهو والاهمال فى غلطة مضحكة سرعان ما وضعنا لها حداً من حسن الحظ على كل حال • لكننى أخذت على عاتقى أن أنقل اليكم — آملاً أن تقبلوا ذلك — رجاءً زائراً بالاحترام يوجهه اليكم أحد شعراء مدينتنا • ان هذا الشاعر الذى هزته وحركت أوتار قلبه فكرةً انسانية رفيعة (رغم مظهره الخارجى) هى تلك الفكرة نفسها التى جمعنا فى هذا المكان ••• ان هذا السيد ••• أريد أن أقول ان هذا الشاعر ••• على رغبته فى كتمان اسمه يود كثيراً لو تُتلى قصيدته قبل حفلة الرقص ، أقصد قبل الجلسة الأدبية • وهذه الأبيات الشعرية ، رغم أن برنامج الحفلة لا يتضمن القاءها ، قد بدت لنا نحن (من «نحن» ؟ اننى أنقل هنا نص خطابه المضطرب المفكك كلمة كلمة بل حرفاً حرفاً) أنها بما تتميز به من براءة العاطفة ، بالإضافة الى ما تتصف به كذلك من الطرف وروح المرح ، تستحق أن تُقرأ ، لا من حيث أنها قصيدة جادة طبعاً ، ولكن لأنها تتعلق نوعاً من التعلق بالفكرة ••• أو قولوا بالفاية التى ترمى اليها حفلتنا هذه ••• لا سيما وأنها لا تعدو أن تكون أحياناً قليلة • خلاصة الأمر أننى أستاذن الحضور الكرام فى أن •••

أعول صوت من آخر الصالة يقول :

- اقرأ •

- أقرأ ؟

فصرخ عدة أشخاص يقولون :

- اقرأ ! اقرأ !

قال ليوتين وهو ما يزال يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المتعذبة :

- سوف أقرأ اذن •

ومع ذلك كان يبدو عليه التردد • حتى لقد قدرت أنه منفل بعض
الانفعال • ان أمثال هذا الانسان ، مهما يكونوا وقحين ، يتفق لهم أحيانا
أن يتخاذلوا • لو كان طالبا لما تردد حتما ، ولكن ليوتين ينتمى رغم كل
شئ الى الجيل القديم •

- أنبئكم سلفاً ، أقصد يشرفنى أن أنبئكم سلفاً أن القصيدة ليست
من تلك القصائد التى كان ينظمها الشعراء فى الماضى لمناسبات ذات أبهة
وجلال • فما هى فى حقيقة الأمر الا مزاحاة ، ولكنها زاخرة بعاطفة
خالصة ، بالاضافة الى ظرف لاذع وواقعية صادقة ان صح التعبير •

- اقرأ ! هلا قرأت !

فضَّ ليوتين الورقة • لم يتسع وقت أحد للتدخل طبعاً • ثم ان
ليوتين كان يحمل شارة مشرف من المشرفين على الحفلة • وها هو ذا
ينشد بصوت رنان :

قصيدة مهداة من الشاعر الى معلمتنا الوطنية فى هذه المناطق
بمناسبة هذا الاحتفال :

تحية تحية ايها المعلمة
انتصرى وانتهجي

رجعية كنت أم كنت مثل جورج صاند
ابتهجى كائنة ما كنت !

صاحت بعض الأصوات تقول :

- ولكن هذا شعر ليادكين • نعم ، هذا شعر ليادكين •
وانطلقت ضحكات ، بل سمعت أيضا تصفيقات ، وان تكن قليلة •

تعلمين اللغة الفرنسية
لأطفال صغار بلداء
وتصطنعين السرور
لكل من يرغب في ان يدفع الأجور

- صحيح ، صحيح • هذا من الواقعية • لا حيلة للمرء بغير مال •

لكننا بفضل هذا الاحتفال
أصبحنا نملك راس مال
هذا مهر ك نهديه اليك
وهذه هدية من أصدقاء
رجعية كنت أم كنت جورج صاند
تستطعين أن تختاري زوجك
وان تبصقي ، أيتها المعلمة
بعد أن تملكى المهر
على كل شيء !

لم أصدق أذننى • ان فى هذا من الوقاحة ما لا يمكن معه ان
يعذر ليوطين ولو تعلل بالحماقة والغباء • لا سيما وأن ليوطين لم يكن غيباً
البتة • لقد كانت النية واضحة ، فى نظرى على الأقل : انهم يتعجلون
احداث فوضى وبلبلة وفضيحة • ان بعض أبيات هذه القصيدة الغيبة ،
ولا سيما الأخير منها ، شئ لا يمكن قبوله ، مهما يكن قائله أهله • وأظن
أن ليوطين قد أحس بأنه أسرف : فبعد أن فعل فعلته جمّده هذه الجراءة
نفسها فى مكانه ، فلبث على المنصة كأنما هو يريد أن يضيف شيئاً آخر •
لعله كان يتوقع أن يُستقبل غير هذا الاستقبال ، وأن يحدث غير هذا
الأثر • ولكن الذى حدث هو أن فئة الأوباش الصغيرة نفسها التى قاطعته
بالتصفيق قد صمتت مذعورة على حين فجأة • وكان عدد كبير منهم قد
أخذوا القصيدة مأخذ الجد ، وعدوها شعراً واقعياً لبرالى الاتجاه • غير
أن ما اشتملت عليه الأبيات من عامية منيرة مزعجة قد ضايقهم هم أيضاً
آخر الأمر • أما السواد الأعظم من الجمهور فقد شعر بفضيحة كبيرة ،
لا بل أحس أنه أهين • لا أخشى أن أكون مخطئاً حين أزعّم هذا • لقد
اعترفت جوليا ميخائيلوفنا فيما بعد أنها أوشكت أن يُغنى عليها • وهناك
سيد عجوز محترم وامرأته قد نهضا وغادرا الصلاة على مرأى من الناس
الذين كانت نظراتهم تعبر عن القلق • ومن يدرى ؟ لعل أشخاصاً آخرين
كانوا سيقتمدون بهم ويفعلون مثلهم لولا أن كارمازينوف الذى يرتدى رداء
فراك ويضع ربطة عنق بيضاء ويمسك بيده دفترأ قد ظهر على المنصة فى
تلك اللحظة نفسها • لقد استقبلته جوليا ميخائيلوفنا بنظرة مفتونة مسحورة
كما يُستقبل منقذ • • • لكننى أسرعت أمضى الى ما وراء الكواليس • كنت
أريد أن ألقى ليوطين •

قلت له مستاءً وأنا أمسك ذراعه :

— أنت فعلت هذا عامداً •

فأجابني وهو ينكمش على نفسه ويصغر جسمه ويتظاهر بأنه آسف
لما وقع أشد الأسف :

- لم يخطر ببالي هذا ... حقاً لم يخطر ببالي هذا... أحلف لك •
لقد جاءوني بهذه الأشعار ، فظننتها تبعث على التسلية والضحك •
- لا ، لم تظن ذلك • يستحيل عليك أن تعد مثل هذه القذارة مزاحمة
جميلة !

- بل هكذا تصورتها !

- أنت تكذب • وليس صحيحاً كذلك أنهم جاءوك بهذه الأشعار منذ
هينئة قصيرة • لقد كتبها مع ليادكين ، ربما في مساء أمس ، لا شيء الا
اثارة فضيحة • لا شك أنك أنت قائل البيت الأخير منها • لماذا كان
ليادكين يرتدى رداء رسمياً ؟ أكان هو الذي سيقراً القصيدة لولا أنه
كان سكران ؟

اصطنع ليوتين هيئة باردة شريرة • وسألني بهدوء غريب :
- فيم يعينك هذا ؟

- فيم يعينني ؟ ما هذا السؤال ؟ أنت أيضاً تحمل على كتفك سارة
مشرف من المشرفين على الحفلة ... أين بطرس ستيفانوفتش ؟

- لا أعلم • في مكانٍ ما هنا • لماذا تسأل عنه ؟
- لأنني أفهمكم الآن • هذه مؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا لافساد
الحفلة •

رشقني ليوتين بنظرة مأكرة :

- ولكن ما شأنك أنت ؟

وابتسم ، ورفع كتفيه ، وتركني •

صُغْتُ • تأكدت شبهاتي وشكوكي كلها • ما كان أغباني حين كنت
 آمل أن أكون مخطئاً في ظنوني ! ماذا يجب أن أفعل ؟ بدا لي في اللحظة
 الأولى أن أستشير ستيفان تروفيموفتش • ولكن ستيفان تروفيموفتش الذي
 كان متسماً أمام مرآة ، كان يجرب ابتسامات ويراجع في كل لحظة من
 اللحظات ورفه كان قد دوّن عليها بعض الملاحظات • لقد كان عليه أن
 يتكلم بعد كارمازينوف رأساً ، ولم يكن في وسعه حتماً أن يسدى إلى
 أية نصيحة • هل يجب أن أسمى إلى جوليا ميخائيلوفنا ؟ ولكن الألوان لم
 يحن بعد : انها ما تزال في حاجة إلى درس أقسى من هذا الدرس لتشفى
 من أوهامها ولتبرأ من اعتقادها بأن الذين يحيطون بها متعصبون في
 اخلاصهم لها متفانون في سبيل خدمتها • ما كان لها أن تصدقني ، وما كان
 لها الا أن تعدني انساناً تراوده الهواجس وتستبد به الوسواس • ثم ماذا
 في وسعها أن تفعل ؟ ثم قلت لنفسى : « وفيم يهمني هذا فعلاً ؟ سوف
 أنزع الشارة عن كفتي ، وأمضى إلى بيتي » حين سيبدأ الأمر • لقد
 نطقت فعلاً بهذه الكلمات : « حين سيبدأ الأمر » • اننى أتذكر هذا
 جيداً •

ولكن يجب أن أمضى أستمع إلى كارمازينوف • فلما طفت ببصري
 على الكواليس مرةً أخيرة رأيت ناساً مجهولين يتجولون فيها ، حتى ان
 بينهم نساء • فبعضهم يدخل ، وبعضهم يخرج • ان هذه الكواليس مساحه
 ضيقة تفصلها عن الصالة ستارة ، ويصلها بالحجرات الأخرى دهليز •
 فهناك انما كان الذين سيظهرون على المسرح ينتظرون أن يجيء دورهم •
 فلما هممت أن أخرج خطف بصرى على حين فجأة منظر الشخص الذي
 سيعقب ستيفان تروفيموفتش • انه استاذ فيما أظن (حتى اليوم لا أعرف
 ماذا كان على وجه الدقة) : يقال انه ترك بمحض ارادته المؤسسة التى
 كان يعلم فيها ، وذلك في أعقاب اضطرابات حدثت بين الطلاب ؛ وهو

اليوم في مدينتنا لا أدرى لأية أسباب • هو أيضا قد زكّى لجوليا ميخائيلوفنا فاستقبلته باحترام • اننى أعرف الآن أنه لم يجىء إليها الا مرة واحدة ، وأنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة ، مكثفيا بأن يتبسم ابتسامة ساخرة من الأمازيح التى كان يتبادلها الحاضرون عند جوليا ميخائيلوفنا ومن اللهجة التى كانوا يتكلمون بها • ولقد أحدثت هيئته المتفطرسية وحساسيته المتأذية أثرا مزعجا جدا • يجب أن أذكر أن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هى التى طلبت منه أن يشترك فى الصبيحة الأدبية • كان حين رأيتها يمشى طولاً وعرضاً ، ويكلم نفسه ، مثل ستيفان تروفيموفتش ، ولكنه كان خافض العينين • لم يكن يدرس ابتساماته أمام المرأة ، رغم انه كان يتبسم كثيراً فتعبّر ابتساماته عن خبث وشر وقسوة • هو أيضا كان لا يمكن أن يخاطب طبعاً • انه قصير القامة ، أصلع الرأس ، شائب اللحية ، محتشم الملبس ، يبدو فى نحو الأربعين من عمره • لكن أغرب ما فى الأمر هو أنه كان كلما استدار يرفع قبضة يده اليمنى ويلوح بها فوق رأسه ثم يسقطها فجأة كأنه يسحق خصماً من الخصوم • كانت هذه الحركة تتكرر بانتظام • شعرت بضيق وغم وأسعدت أمضى الى سماع كارمازينوف •

٣

مرة أخرى كان الجو فى الصالة مشحونا بالكهرباء • اننى أعلن لكم سلفاً اننى أجل عظمة العبقرية ، ولكننى أتساءل لماذا نرى هؤلاء السادة ، رجالنا العابرة ، يتصرفون تصرف صبيّة صغار حين يصلون الى نهاية سنهم المجيدة ؟ مهما يكن كارمازينوف عظيماً مشهوراً ، ومهما يكن دخوله الى القاعة محفوفاً بهالة من الفخامة والأبهة كأنه ياوران ملك من الملوك ، فهل كان فى وسعه أن يحمل على الصبر جمهوراً كجمهورنا مدة ساعة كاملة ؟ لقد لاحظت على وجه العموم أن الخطيب لا يمكنه فى

اجتماعات أدبية من هذا النوع أن يحتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة دون أن يعاقبه الجمهور ، مهما يكن عبقرياً . يجب أن أذكر على كل حال أن هذا الرجل العظيم قد استقبل استقبالاً فيه أقصى الاحترام ؛ وأن الشيوخ الوقورين قد أظهروا ترحيبهم وتأييدهم ولاح عليهم كثير من حب الاطلاع . أما السيدات فقد بانت عليهن الحماسة . ولقد كان التصفيق قصيراً مع ذلك ، ولم يكن شاملاً . غير أن الصفوف الأخيرة ظلت هادئة ساكنة الى اللحظة التي بدأ فيها السيد كارمازينوف بالكلام . وحتى في تلك اللحظة لم يحدث شيء ذو بال . فكل ما حدث عندئذ لا يعدو أن يكون سوء تفاهم . لقد سبق أن قلت ان صوت السيد كارمازينوف صارخ فيلاً ، نسوى بعض الشيء ، وأنه عدا ذلك متعاذب تعاذباً ارستقراطياً . لذلك فما كاد يتكلم حتى رأينا أحدهم يبيع لنفسه أن يضحك : ربما كان الضاحك رجلاً أحق لا أكثر ، رجلاً لم ير في حياته شيئاً ، فكل شيء يُفرحه ويضحكه . ولا شك في أنه لم يخطر بباله احداث فضيحة . وسرعان ما قامت في الصالة أصوات قوية تأمره بأن يخرس ، فسكت وجمد في مكانه . ولكن ها هو ذا السيد كارمازينوف يصرخ متصنعاً بأنه « كان في أول الأمر لا يريد أن يقرأ شيئاً أمام جمهور ، مهما تكن الأسباب » (لقد كان في حاجة الى أن يقول هذا ، حقاً ؛) . « ان هناك أسطراً تتبع من القلب رأساً كأنها غناء . فاذا قرأتها على جمهور كنت تسيء اليها وتحط من قدرها وتجرحها من قدسيتها » (لماذا يقرأها والحالة هذه ؟) « ولكنهم بلغوا من الالحاح علىّ انني وافقت أخيراً . ولما كنت من جهة أخرى أهجر القلم الى الأبد ، ولما كنت قد آليت على نفسي أن لا أكتب بعد اليوم شيئاً ، فقد كتبت هذه المقالة الأخيرة ؛ ولما كنت قد حلفت أن لا أقرأ على الجمهور بعد اليوم شيئاً ، فقد قررت أن أقرأ الآن ما كتبت توديعاً للجمهور » الى آخر ما هنالك من كلام مشابه .

ولكن ذلك كله ما كان ليعدّ شيئاً • من ذا الذى يجهل مقدمات الكتاب ؟ يجب أن أذكر مع هذا أن أمثال هذا الكلام يمكن أن تحدث آثاراً سيئة كل سوء في مثل هذا الجمهور الذى تعوزه الثقافة ، ولا سيما اذا كانت الحالة النفسية لدى المستمعين فى آخر القاعة هى ما كانت عليه فعلاً • لقد كان من الأفضل للسيد كارمازينوف أن يقرأ قصة قصيرة ، أو أن يقرأ حكاية صغيرة من نوع الحكايات التى كان يكتب مثلها فى الماضى ، وهى حكايات ان كان فيها تصنع وافتعال ، فان فيها فكاهة فى بعض الأحيان على كل حال • فلو فعل ذلك لأتخذ كل نبيء • ولكن لا • لقد كان يريد شيئاً آخر • لقد ألقى خطاباً لانهائية له • رباه ! ما أكثر ما احتوى مقاله من كلام ! اتنى لعل يقين بأن جمهور العاصمة نفسه ما كان يمكن أن يتحمل هذا الخطاب كله ، فما بالك بجمهور مدينتنا ! تصوروا ملزمين من ملازم المطبعة مملوءتين ثرثرة متأنقة فارغة ! زد على ذلك أن كارمازينوف كان يقرأ بلهجة المتفضل المتواضع ، فكأنه يُنم عنينا ويفرنا باحسانه • فمن شأن هذا أن يسىء الى كبرياء الناس طبعاً • أما الموضوع فمن ذا الذى كان يمكنه أن يفهمه ؟ لقد كان مدار المقال على بعض الانطباعات وبعض الذكريات • ولكن بأية مناسبة ؟ ما أكثر ما قطب المستمعون حواجبهم وحكوا جباههم أثناء سماع الجزء الأول من القصة عسى أن يفهموا شيئاً ولكنهم لم يظفروا بطائل • لذلك لم يصغوا الى الجزء الثانى الا من قيل الكياسة والتهذيب • لقد كان فى المقال كلام كثير عن الحب ، عن الحب الذى ملأ قلب الكاتب العبرى يوم توله بغرام فتساء شابة • اعترف لكم أن هذا قد بدا محرراً بعض الاحراج ، بل مزعجاً بعض الازعاج • فما أكبر التعارض فى رأى بين وجهه المتكرش المترهل وبين القصة التى يرويها لنا عن قبلته الأولى ! ... والشئ الذى كان مثيراً أكثر من كل ما عداه هو أن قصة القبله هذه لم تحدث كما تحدث لجميع

الناس • كان لا بد أن تحيط بها أزهار الوزَّال (أزهار الوزَّال أو أية نباتات مزهرة أخرى لا تستطيع أن تعرفها الا اذا رجعت الى كتب النبات)، وكان لابد أن يكون لون السماء فوقها ضارباً الى لون البنفسج، وهو لون لم يستطع أن يميّزه في السماء أحد من البشر يوماً ، بل قل ان البشر رأوه ولكنهم لم ينتبهوا اليه ولم يحفلوا به « أما أنا فقد ميّزته ، ميّزت هذا اللون ، واني لأصفه لكم أيها الأغبياء ، كما يوصف شيء بسيط كل البساطة » • وان الشجرة التي كان الكاتب العبرى وحبيته جالسين تحتها لا بد أن تكون بلون البرتقال • والحبيان موجودان في مكان ما بألمانيا • واهما يبصران بومبوس أو كاسيوس على حين فجأة ، عشية معركة خاضها ، فإذا بالحبيين يتجمدان افتتاناً • وهذه حورية من حوريات البحر تطلق صرخة وراء أحد الأدغال • وهذا جلوك يأخذ يعزف على الكمان ، بين شجيرات القصب ، لحناً عنوانه : « في جميع الآداب » ، ولكن لما لم يكن أحد قد سمع عن هذا اللحن فلا بد من مراجعة معجم موسيقى لمعرفة • وفي أثناء ذلك ينتشر ضباب ، ثم يتكاثف الضباب ••• بل يبلغ من التكاثف أنه يصبح أقرب الى زغب منفوش منه الى ضباب مألوف • وفجأة يغيب كل شيء ، ويأخذ الرجل العظيم باجتياز نهر الفولجا أثناء تكسر الجليد • انه يصف لنا عبور النهر في صفحتين ونصف صفحة • لقد سقط في الماء • انه يفرق • هل يهلك ؟ لا ، لا ، لن يهلك أبداً • لقد حكى لنا العبرى ذلك كله من أجل أن يقول انه حين أوشك أن يفور في قاع المياه ، لمح قطعة من الجليد فجأة ، قطعة صغيرة جدا ، لكنها صافية شفافة « كدعة متجلدة » ، وعليها كانت تتألق ألمانيا أو قل تتألق سماء ألمانيا • وهذا التألق المتلون بألوان قوس قزح يذكر الرجل العظيم بتلك الدعة نفسها التي « كما تتذكرين ، انحدرت من عينك ، حين كنا جالسين تحت شجرة الزمرد ، فصرخت تقولين وقد زحرت نفسك فرحاً :

« لا وجود للجريمة ! » فأجبتك من خلال عبراتي قائلاً : « نعم ، ولكن لا وجود للصالحين العاديين أيضاً ! » ثم أجهشنا باكيين مننحين ، وافترقنا الى الأبد . • وذهبت الفتاة لا أدري الى أى شاطئ من شواطئ البحر ، وذهب هو يعتصم بمغارة في موسكو تحت برج سوخاريف • وما يزال يهبط من مغارات الى مغارات أعمق خلال ثلاث سنين حتى رأى فى باطن الأرض مصباحاً قد وقف أمامه ناسك يصلّى • ويقرب الكاتب من كوة ذات قضبان حديدية ، فاذا هو يسمع زفرة • هل تظنون أن الناسك هو الذى تنهد ؟ نعم انه الناسك • ولكن الزفرة لا تزيد على أن تذكر الكاتب بالتهيدة الأولى التى خرجت من صدر حبيبته قبل سبعة وثلاثين عاماً • متى ؟ هل تتذكرين ؟ فى ألمانيا ، حين كنا جالسين تحت شجرة عتيق • فقلت لى : علام الحب ؟ انظر الى نباتات زهر الوزال هذه التى تحيط بنا • لسوف أكف عن الحب متى صوّحت ! • وهنا يتكاثر الضباب من جديد ، واذا هوفمان يظهر ، واذا حورية البحر تصفر لحناً من ألحان شوبان • وفجأة ، فوق سطوح المنازل بروما ، ينبجس من الضباب آنكوس ماركيوس مترنماً بأغصان أشجار الغار • فاذا رعدة نشوة تهزنا • ثم افترقنا الى الأبد « الخ الخ • لعلى لم أثقل ثرثرة صاحبنا ثقلاً دقيقاً كل الدقة ، ولكننى نقلت معنى الكلام وطابعه العام • ترى ما مصدر هذا الشنف الشديد المخجل ، لدى عظماء رجالنا ، بأمثال هذه السموات الدعية ؟ ان الفلاسفة الأوربيين ، والعلماء ، والمخترعين ، والعاملين ، والأبطال ، ان جميع أولئك الذين يجهدون ويتألمون هم فى نظر العبرى الروسى أشبه بخدم • انه هو السيد ؟ أما هم فلا يمثلون أمامه الا رافعين قبعاتهم بأيديهم ينتظرون أوامره • صحيح أنه ينظر الى روسيا من على أيضا ، وأنه لا شئ أحب الى نفسه من أن يعلن أن روسيا قد أفلست افلاساً تاماً ازاء العقول الأوروبية العظيمة • ولكن هذا لا يصدق عليه هو ،

لا يصدق على شخصه : فهو من جهته يحلق عالياً فوق جميع العقول الأوروبية العظيمة التي لا تزيد على أن تمدد بمادة عبث • انه يستولى على فكرة غيره ، فيضم إليها النقيض الذي يتصوره ، فيتم العبث ، وتنتهى اللعبة • الجريمة موجودة ، الجريمة غير موجودة • الحقيقة لا وجود لها • ليس هناك صالحون عادلون • الالحاد • الدارونية • أجراس موسكو ... لكنه لا يؤمن بأجراس موسكو مع الأسف ! روما ، أكابيل الفار ! ولكنه أصبح لا يؤمن حتى بأكابيل الفار ! ... أضف الى ذلك وصولاً اضطرارياً الى سأم على طريقة بايرون ، وتصميرة وجه على طريقة هاينى ، وجملته من كلام بتشورين ! وتسير الآلة ... وتسير ! ... « ولكن عليكم خاصة أن تمدحونى ! امدحونى ! ذلك ما أريده ! وحين أعلن أنني أهجر القلم ، فما ذلك منى الا تظاهرا ! انتظروا قليلا ! لسوف أضجركم ثلاثمائة مرة أخرى ... حتى تضيقوا ذرعاً بقراءة ما أكتب ! » •

كان طبعياً أن لا تكون خاتمة ذلك حسنة • ومع ذلك فاذا كانت الأمور قد جرت مجرى سيئاً ، فانما الذنب فى هذا ذنب كارمازينوف • لقد أخذ الناس منذ مدة يتمخضون ويسعلون ويتحركون متململين ، كما يحدث دائماً حين يحتل الخطيب المنصة أكثر من عشرين دقيقة ، كأننا من كان الخطيب • ولكن الكاتب العبرى لم يلاحظ شيئاً • لقد ظل يتكلم بصوته المتعذب المترقق وظل يتظارف ويتغنج دون أن ينتبه الى الجمهور الذى أخذ يدهش من هذه الحال • وفجأة تعالى صوت قوى من آخر الصالة يصيح قائلاً :

— ما هذه السخافات !

كانت صيحة غير مقصودة • أنا واثق بذلك • هى صيحة انسان استبد به التعب والضجر ، ولم يكن يخطر بباله قط أن يحدث لغماً وبلبله •

ولكن السيد كارمازينوف توقف عن الكلام ، وألقى على الحضور نظرة سخرية ، واصطنع على حين فجأة لهجة ياوران مزعج قائلاً :

- يبدو أيها السادة أنني أضجركم بعض الاضجار ، أليس كذلك ؟

لقد كان خطؤه أنه تكلم أول من تكلم • انه بالقائه هذا السؤال قد منح أى وغد حق الاجابة بطريقة من الطرق • فلو أنه سيطر على نفسه وأمسك عن الكلام ، لأمكن أن يستمر الناس فى التمخط والسعال ، ولربما وقفت الأمور عند ذلك الحد لا تتعداه ! • • • امل كارمازينوف كان يتوقع أن يجيبه الجواب عن سؤاله تصفيقاً • ولكن أحداً لم يصفق • بالعكس : ظهر على الناس القلق ، ولبثوا ساكنين لا يتحركون •

قال صوت مغتاض يكاد يكون حائقاً :

- أنت لم تَرَ آنكوس مارسيسوس فى حياتك • ما هذه الا جمل

منمقة •

وقال آخر مؤيداً :

- تماماً • لا أحد اليوم يميل الى الرؤى الخيالية • وانما تحب الناس فى هذا الزمان العلوم الطبيعية • هلا اطلعت على العلوم الطبيعية ؟ قال كارمازينوف مذهولاً :

- أيها السادة ، حقاً لم أكن أتوقع اعتراضات من هذا النوع •

ان هذا الرجل العظيم كان قد نسى فى كارلسروه وطنه •

صرخ شاب يقول بصوت كأنه صوت طائر من الجوارح :

- انه لمن المخزى فى هذا العصر أن يزعم لنا زاعم أن الأرض

تحملها ثلاث سمكات • أنت لم تهبط الى مغارة فى يوم من الأيام ، ولا

رأيت ناسكاً • ومن ذا الذى يتكلم عن ناسك فى هذا الزمان ؟

فال كارمازينوف :

— ان الشيء الذى يدهشنى أكثر من كل ما عداه هو أنكم تأخذون الأمر مأخذ الجد الى هذا الحد • على كل حال ، على كل حال ، أتم على حق • ما من أحد يحترم الحقيقة أكثر منى ...

لقد كان مذهولاً مشدوهاً ، رغم أنه ظل يتسم ساخراً • وكان وجهه يقول : « أنا لست أبداً ما تظنون • أنا معكم • ولكن امدحونى ، اغمرونى بالمديح • اننى أعبد المديح ... »

وقال أخيراً وقد اغتاط اغتاطاً عميقاً :

— أرى أيها السادة أن قصيدتى الصغيرة المسكينة لم تجيء فى «هاها» واننى أخطأت هدفى •

— رمى غراباً فأصاب بقرة •

كذلك صرخ يقول بأعلى صوته غبى "ربما كان سكران • ولا شك فى أنه كان لا ينبغى الرد على هذه القولة التى أثارت بضع ضحكات يعوزها الاحترام والحق يقال • ولكن كارمازينوف استجاب استجابة عنيفة • فصاح يقول بصوت كان ما ينفك يزداد صياحا :

— بقرة ؟ فيما يتعلق بالغربان والأبقار ، أعتقد أن الأفضل أيها السادة أن أمتنع عن التعليق • اننى أحترم جمهورى أشد الاحترام ، أياً كان هذا الجمهور ، فلا يمكن أن أسبح لنفسى بتسيهات ولو كانت بريئة ، ولكننى أظن ...

قال واحد من آخر القاعة :

— أراك تسرف مع ذلك !

- ولكننى ظننت أننى اذ أهجر القلم وأودع القارىء كنت
سأسمع ...

فارتفعت فى الصفوف الأمامية أخيراً بضعة أصوات جريئة تقول :

- نعم ، نعم ، نريد أن نسمعك ، نريد أن نلقى اليك !

وصرخت سيدات متحمسات تقول :

- اقرأ ! اقرأ !

ودوّت أخيراً تصفيقات وان تكن ضعيفة هزيلة • فابتسم كارمازينوف
ابتسامة متقلصة ونهض •

وقالت زوجة مارشال النبالة نفسها :

- ثق ياكارمازينوف أن الجميع يعدون الاصغاء اليك شرفاً عظيماً • • •

ومن آخر الصلاة قام معلم مدرسة هو شاب رقيق الحاشية مهذب
وقد ألتنا واستقر بمديتتنا منذ مدة قصيرة ، قام وهو يصيح قائلاً :

- يا سيد كارمازينوف ، لو قد أسعدنى الحظ فأحببت الحب الذى
تصف ، لما تكلمت عن حبى فى مقالة تُقرأ على جمهور •

وعاد الشاب يجلس وقد صار كالجمر احمرارا •

فصرخ كارمازينوف يقول :

- أيها السادة ، لقد انتهيت • اننى أترك الخاتمة وأنسحب • ولكن
اسمحوا لى أن أقرأ لكم الأسطر الأخيرة •

قال كارمازينوف ذلك وبدأ يقرأ ناظراً فى مخطوطته دون أن يعود
الى الجلوس فقال :

» صديقى القارىء ، وداعاً • وداعاً أيها القارىء • لا أريد حتى أن

ألمح كثيراً على ضرورة أن نفترق كما يفترق أصدقاء • علام أزعجك ؟
 ان في وسعك حتى أن تشتمني • فاشتمني ما شئت ، اذا كان ذلك يحدث
 لك أبة مسرة • ولكن الأفضل هو أن لا يفكر أحدا في الآخر بعد اليوم •
 وهبكم جميعا أيها القراء مضيتم بشهامتكم فجأة الى حد استعطافي راكمين
 دامعين قائلين : أكتب أيضا يا كارمازينوف ، اكتب لنا ، لوطنك ، للأجيال
 القادمة ، للمجد ! » : فسوف أجيكم شاكراً بأدب كبير طبعاً : « لا يامواطني
 الأعزاء ! لقد قضينا معاً حتى الآن وقتاً طويلاً كافياً • شكرا لكم • لقد آن
 أن نفترق • شكراً • شكراً • شكراً ! »

وهنا حياً كارمازينوف الجمهور بكثير من الاحتفال وانسحب محمراً
 الوجه احمراراً شديداً •

— ما من أحد يخطر بباله أن يركع أمامه • يا لها من فكرة !

— يا له من غرور !

— هذه فكاهة •

كذلك علّق واحد أعلم من الآخرين • فأجابه ثان :

— أعفني من هذه الفكاهة •

— ويالها من وقاحة أيها السادة !

— لقد انتهى على الأقل !

— حقاً لقد أضجرنا كثيراً !

لكن هذه الصيحات اللفظة التي كانت لا تصدر عن آخر الصلاة
 فحسب ، قد غلبتها تصفيقات الجزء الآخر من الجمهور الذي أخذ ينادي
 كارمازينوف • وتجمع عدد من السيدات ، في طليعتهن جوليا ميخائيلوفنا
 وزوجة مارشال النبالة ، حول المنصة • كانت جوليا ميخائيلوفنا تحمل

اكليلاً رائعاً من الغار ، موضوعاً على وسادة من مخمل أبيض ومحاطاً باكليل آخر من ورود طبيعية •

قال كارمازينوف وهو يتسّم ابتسامة فيها قليل من السخرية :

- اكليل من الغار ! ان هذا اللطف يؤثر في نفسى طبعاً ، وأنا أقبل شاكراً هذا الاكليل الذى سبق تحضيره ولكن لم يذبل بعد • غير أنني أؤكد لكن يا سيداتى أنني قد بلغت من الواقعة على حين فجأة اننى صرت أرى أن أكاليل الغار تكون فى هذا الزمان فى مكانها الطبيعى حين توضع بين يدى طبّاح ماهر أكثر مما تكون فى مكانها الطبيعى حين تُقدّم الى •
- فعلاً ، الطبّاح أنفع •

كذلك قال الطالب الذى شارك فى « جلسة » فرجنسكى • ان كثيراً من الأفراد كانوا قد غادروا أماكنهم واحتشدوا حول المنصة ليروا المشهد رؤية أكمل •

وأضاف آخر وهو يرفع صوته عالياً ، بل عالياً جداً :

- أنا مستعد أن أدفع ثلاثة روبلات لطبّاح الآن •

- أنا أيضاً !

- وأنا أيضاً !

- أليس هنا اذن بوفيه ؟

- كانت تلك خدعة لا أكثر ، أيها السادة •

ومع ذلك فان هؤلاء الرعاع جميعاً كانوا ما يزالون يشعرون بالوجل من شخصياتنا الكبرى ، ومن مفوض الشرطة الذى كان واقفاً فى الصالة • وعاد الناس الى الجلوس بعد زهاء عشر دقائق • غير أن شيئاً من الفوضى كان ما يزال قائماً • وفى وسط هذا السديم الناشئ انما وقع المسكين ستيفان تروفيموفتش •

٤

مضيت ألقاه فى الكواليس مرةً أخرى (و كنت خارجاً عن طورى) ،
فنبهته الى أن كل شىء قد ضاع فى نظرى ، وأن الأفضل أن يعدل عن
الكلام ، وأن يرجع رأساً الى البيت بحجة منص انتابه فجأة • وقلت له
اننى مستعد لأن أرجع معه ، تاركاً شارة المشرف على الحفلة • وكان هو
قد أخذ يتجه نحو المنصة ، ولكنه توقف بغتةً ، وألقى على نظرة احتقار
وقال بلهجة فحمة :

— كيف يمكنك أن تتصور أن فى وسعى أن ارتكب صغارا كهذا
الصغار أيها السيد ؟

فتركنه يمر • كنت وانقا ، كوثوقى بأن اثنين وانين أربعة ، أن
خطابه سيؤدى الى كارثة • وفيما كنت باقياً فى مكاني وقد صُعقت تماما ،
أبصرت مرةً الأخرى الأستاذ الذى سيتكلم بعد ستيفان تروفيموفتش ،
والذى كان لا يبنى يرفع قبضته فى الهواء ويخفضها مهدداً • انه لا يزال
يمشى طويلاً وعرضاً ، غارقاً فى أفكاره ، مجمجماً بكلمات غير مفهومة ،
مبتسماً ابتسامة حائقة • فناديته رغم ارادتي تقريباً (حقاً اننى لا أعرف
ما الذى دفعنى الى مناداته) •

قلت له :

— انك تعرف أن الخطيب اذا احتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة ،
كفّ الجمهور عن الاستماع اليه • هذا ما تشهد به أملة كثيرة • فما من
رجل شهير ، أياً كان شأنه ، يمكن أن يُحتمل أكثر من نصف ساعة • • •
فوقف الرجل مرتعشاً ، جريح الكبرياء ؛ وعبر وجهه عن غطرسة
لا نهاية لها ، ودمدم يقول لى باحتقار :

— لا تخش شيئاً •

واستأنف سيره • وفى تلك اللحظة بلغ الى سمعى صوت ستيفان تروفيموفتش من الصالة •

قلت بينى وبين نفسى : « اذهب الى الشيطان ! » • وهزعت الى الصالة •

كان ستيفان تروفيموفتش قد جلس قبل أن يستتب الهدوء تماما • استقبلته الصفوف الأولى بنظرات كارهة (لقد أصبح الناس فى النادى فى الآونة الأخيرة ، لا يحملون له من المودة والاحترام ما كانوا يحملون له منهما قبل ذلك) • وأسعدنى على كل حال أن رأيته لا يصفرون له استنكارا • لا أدري لماذا كنت منذ أمس أتخيل أنهم سيصفرون له متى ظهر • ولكن ، فى وسط الاضطراب الذى كان يسود الجو ، لم يلاحظ وجوده فوراً • ماذا كان يمكن أن يتوقع هذا المسكين من الناس اذا كانوا لم يتخرجوا حتى مع كارمازينوف ، ولم يتورعوا عن معاملته تلك المعاملة ؟ كان ستيفان شاحب اللون • هذه أول مرة يظهر فيها أمام الجمهور منذ عشر سنين • أدركت ادراكاً واضحاً حين لاحظت انفعاله ورأيت بعض العلامات التى أعرفها فيه جيداً ، أن ستيفان تروفيموفتش كان يعد ظهوره على المنبر لحظة حاسمة فى حياته أو شيئاً من هذا القبيل • وذلك بعينه ما كنت أخشاه • لقد كان الرجل عزيزاً فى نفسى • لهذا تستطيعون بسهولة أن تصوروا ما أحسست به حين فتح فاه ونطق بجملة الأولى •••

بدأ يتكلم بصوت مخنوق وكأنه عقد العزم على أن يجازف بكل شئ • فقال :

— أيها السادة ! فى هذا الصباح أيضا كانت أمامى ورقة من تلك الورقات التى تُوزَّع سرّاً فى البلاد ، فتساءلت للمرة المائة « ما سرُّ هؤلاء ؟ » •

صمتت القاعة فوراً • واتجهت الأنظار كلها الى ستيفان تروفيموفتش

فى شىء من القلق • لا شك أنه استطاع منذ الكلمات الأولى أن يجتذب
اهتمام سامعيه • حتى لقد ظهرت رعوس من خلف الكواليس • وكان
ليوتين وليامشين يصغيان طبعاً •

نادتني جوليا ميخائيلوفنا إليها من جديد ، وهمست تقول لى مرتاعة :

— أسكته ، أسكتبه مهما كلف الأمر !

فلم أزد على أن رفعت كتنى • أين لى أن أسكت انساناً « عزم
أمره » أخيراً ؟ وا أسفاه ! لقد فهمت الآن ستيفان تروفيموفتش !

دمدم بعض فراد الجمهور يقولون :

— هذه منشورات تحريضية •

وظهر فى الصالة اضطراب •

— أيها السادة ، لقد حللت هذا اللغز : ان سر عملهم هو غباؤهم •

قال ذلك وسطعت عيناه • وتابع كلامه فقال :

— نعم أيها السادة ! لو كانت هذه الغباوة مقصودة ، متظاهراً بها ،
محسوبة ، لكاد الأمر أن يكون عبثياً • ولكن يجب أن ننصف كتاب
هذه الورقات : ليس غباؤهم مزيفاً ، بل هو الغباء الخالص العارى البرىء
المسكين ، « هو الغباء فى جوهره الصافى صفاءً عنصر كيمائى بسيط ،
(بالفرنسية) • لو كانوا يعبرون ولو بقليل جداً من الذكاء ، لأدرك
جميع الناس غباؤهم التافه • ولكن جميع الناس يتوقفون الآن أمام هذه
الأوراق مشدوهين ، ولا يستطيعون أن يصدقوا أنها يمكن أن تكون غيبة
الى هذا الحد من الغباء • ان كل واحد منا يقول لنفسه : « يستحيل
التسليم بأن ليس فيها شىء أكثر من هذا » • ونمضى نبحت عن سرهم ،
ويراعى لنا أننا نكتشف لغزهم ، ونحاول أن نقرأ بين السطور • وبذلك

يتحقق الغرض ويحدث الأثر المنشود * آه ... ان الغباء لم يحقق في يوم من الأيام انتصارا كهذا الانتصار ، انتصارا مسوِّغاً هذا التسويغ ، رغم أنه يستحق هذا الانتصار في كثير من الأحيان ... ذلك أن الغباء - أقول هذا بين قوسين - مفيد للإنسانية كالعبقريّة سواء بسواء .

قال صوت خجول في الواقع ، لكنه وضع في البارود ناراً :
- هذه من مزاحات سنوات الأربعينات !

وهتف ستيفان تروفيوفتشى يقول متحدياً الجمهور :
- أيها السادة ! مرحى مرحى ! اننى أشرب نخب الغباء !
أسرعت الى المنصة كما لو كنت أريد أن أصب له ماء . وقلت له :
- ستيفان تروفيوفتشى ، انصرف ! ان جوليا ميخائيلوفنا تتوسل .
إليك أن تنصرف ...

فقال لى غاضباً :

- بل دعنى وشأنى أيها الشاب العاقل !
فوليت هارباً * وتابع هو كلامه فقال :
- أيها السادة ! لماذا هذا الاضطراب ؟ لماذا هذه الأصوات المستاءة التى أسمعها ؟ اننى أجد اليكم حاملاً غصن زيتون * اننى آتيكم بقول فصل ، ذلك اننى أنا الذى أعرف هذا القول الفصل ، وسوف نتصالح *
أقول بعضهم يقول :
- فليسقط ! فليسقط !
وصاح آخرون :

- صمتاً ! دعوه يتكلم ! ليقل ما يريد أن يقوله *
وكان أندهم حماسة ، فيما يبدو ، انما هو معلم المدرسة الشاب

الذى تجاسر فتكلم مرة ، فإذا هو قد أصبح لا يستطيع التوقف عن الكلام .

- أيها السادة ! ان القول الفصل لهو قول صفح وعفو ومغفرة .
اننى لأعلن لكم جهاراً ، أنا الشيخ الذى انتهت حياته ، أن روح الحياة
تهب اليوم مثلما كانت تهب فى الماضى ، وأن الجيل الجديد ما يزال زاخراً
بالقوة . ان حماسة شباب اليوم لا تقل نقاءً وضياءً وسناءً عن حماسة
شباب زماننا المنصرم . هناك شئ واحد تغير : ذلك الشئ انما هو الغاية ،
انما هو الهدف . ان مثلاً أعلى جديداً قد حل محل المثل الأعلى القديم .
والقضية كلها ترجع الى هذا السؤال : هل شكسبير أعلى قيمةً من حذاءين ،
وهل رافائيل أرفع شأنًا من صفحة نعل ؟

- هذه وشاية !

- هذه مسائل تعرض للخطر !

- يا للعميل المحرّض !

صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت حاد :

- أما أنا فأقول لكم ان شكسبير ورافائيل أجل شأنًا من تحرير
الفلاحين ، وأرفع قدرًا من القومية ، وأعظم قيمة من الاشتراكية ، وأسمى
منزلةً من الجيل الجديد ، وأهم خطراً من الكيمياء ؛ وانهما فوق الانسانية
بكاملها تقريباً ، لأنهما ثمرة الانسانية ، ثمرتها الحقيقية ، لأنهما ربما كانا
أجمل الثمار الانسانية التى يمكن أن تهبها الانسانية يوماً ، لأنهما يحققان
منذ الآن صورة من الجمال كاملة قد لا أحب بدونها أن أحيا . . . آه . . .
رباه ! . . . (قال ذلك وضمّ يديه احدهما الى الأخرى) . . . منذ عشر
سنين ، فى بطرسبرج ، ناديت من أعلى المنبر بهذه الأفكار نفسها ، معبراً
عنها بهذه الألفاظ نفسها تماماً . وكما لا تفهموننى الآن ، كذلك سخطروا

منى يومذاك ، وصفروا الى • يا للبشر المساكين ! ماذا يعوزكم حتى تفهموني ؟ هل تعلمون ... هل تعلمون أن الانسانية تستطيع أن تستغنى عن الانجليز اذا لزم الأمر ، وأن تستغنى عن ألمانيا ، وأنها تستطيع جداً جداً أن تستغنى عن الروس ، وعن الخبز ، وعن العلم ؛ ولكنها لا تستطيع أن تستغنى عن الجمال ؟ ان الجمال وحده لا غنى لها عنه ، اذ بدون الجمال لا يبقى لنا على الأرض ما نعمله ! هذا هو السر كله ! ذلكم هو كل التاريخ ! العلم نفسه لا يمكن أن يعيش لحظة بعد زوال الجمال ! هل تعلمون ذلك أنتم يا من تضحكون ؟ نعم ، ان العلم بدون الجمال يتدهور الى تفاهة ، فتصبخوا عاجزين عندئذ حتى عن اختراع مسمار ! ...

قال ذلك ثم أعول فجأة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :
- لن أراجع عن رأيى !

ولكن بينما كان ستيفان تروفيموفتش يهذر هذا الهذر كانت الفوضى فى الصالة تزداد • ان جزءاً من الجمهور قد هبّ واقفاً ، وان عدداً من الناس قد أخذوا يقتربون من المنصة متدافعين • وهذا كله حدث بسرعة تبلغ من الشدة أن الوقت لم يتسع لاتخاذ الاجراءات الضرورية • وربما لم يشأ أحد أن تتخذ هذه الاجراءات •

زار الطالب قائلاً وقد وصل الى قرب المنصة ، وكان يضحك ضحكة خبيثة كاشفاً لستيفان تروفيموفتش عن جميع أسنانه :

- هذا يصلح لكم أيها الكسالى الذين تعيشون عالة على غيركم كما تعيشون

فلما رآه ستيفان تروفيموفتش وثب الى حافة المنصة •

- ألسنت أنا الذى قلت ان حماسة الجيل الجديد لا تقل صفاء وضياء

وسناءً عما كانت عليه حماستنا نحن ، وانها لا تضع الا لخطأ في فهم صور الجمال ؟ ألا يكفيكم هذا ؟ هل يستطيع انسان ، يا أيها المحدودون ؟ أن يكون أكثر حيادا وانصافا ، وأن يكون أعظم هدوءاً ورواية ؟ ... يالكم من عاقين ناكرين للجميل ! ... لماذا ، لماذا لا تريدون أن تتصلحوا ؟ ...

ألقي ستيفان تروفيوفتش هذا السؤال وأجهش باكيا منتحبا ، وأخذ يمسح بأصابعه دموعه التي طفتت تسيل على وجهه كله . كان جسمه يرتعش متشنجا . وكان قد فقد صوابه تماما .

وهبت على الصالة ريح ذعر . ان جميع الحضور تقريبا قد وقفوا . وانتصبت جوليا ميخائيلوفنا فجأة ، سادة زوجها من ذراعه لينهض هو أيضا ... وبلفت الفوضى ذروتها .

هتف الطالب يقول فرحا :

— ستيفان تروفيوفتش ! ان فدكا ، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، قد هرب من السجن وهو الآن يطوف في المدينة وفي الضواحي . انه يسرق ويقتل . ولقد ارتكب في الآونة الأخيرة جريمة قتل جديدة . فهلاً ؟ أذنت لي أن ألقى عليك هذا السؤال : لو أنك منذ خمسة عشر عاما لم تبق جنديا لتسدد ديناً ترتب عليك في القمار ، أو قل بتعبير آخر : لو أنك لم تخسر فدكا في اللعب بالورق ، أفكان ذهب الى السجن ؟ أفكان يقتل كما يفعل الآن في كفاحه من أجل البقاء ؟ ما رأيك في هذا يا عاشق الجمال ؟

انني أعزف عن وصف ما جرى حينذاك . لقد هبت في أول الأمر عاصفة من التصفيق . صحيح أن الذين صفقوا لا يتجاوز عددهم خمس عدد الحضور في القاعة ، ولكنهم صفقوا بحماسة تشبه الهذيان . واتجه الآخرون نحو باب الخروج . ولكن لما كان المصفقون يتدافعون نحو المنصة ،

فقد عمّ اضطراب شامل ، فالسيدات يطلقن صرخات صغيرة ، والقتيات
يكنين ويطلبن اعادتهن الى البيوت • ولبكه واقف أمام كرسيه يجيل على
ما حواه نظرات زائغة • وجوليا ميخائيلوفنا تبدو كأنها فقدت صوابها •
أما ستيفان تروفيجوفتش فقد بان عليه فى البداية أن كلام الطالب قد سحقه
سحقاً بالفعل • ولكنه لم يلبث أن مدّ ذراعيه فوق الجمهور على حين بقتة
وأعول يقول :

– انتى أنفض غبار حذاءى وألن ! هذه هى النهاية !
النهاية ! ...

واستدار الى وراء ، وفرّ الى الكواليس ملوحاً بذراعيه على هيئة
التهديد •

أعول المسعورون يقولون :

– لقد أهان الجمهور ! هاتوه ! أرجعوه !

وأراد بعضهم أن يركض فى اثره • لقد كان يستحيل استحالة
مطلقة ، فى تلك اللحظة على الأقل ، أن تعود الأفكار الى هدوئها ، وأن
يرجع الى النفوس صفاؤها وسكونها •

ولم يطل انتظار وقوع الكارثة الحاسمة • فها هى ذى تنفجر انفجار
قنبلة : ان المحاضر الثالث ، ذلك الرجل المهووس الذى كان لا ينى يشهر
قبضة يده فى الكواليس قد انبجس الآن على المنصة فجأة •

كانت هيئته مجنون تماماً • وجهه يشرق بإبتهامة نصر ، ويزخر
بزهو كبير ؛ وهو يتأمل الصالة مفتوناً بالفوضى التى تسودها ، لا يقلقه ولا
يشوشه أن عليه أن يتكلم فى وسط هذا اللغط وهذه الضوضاء ، حتى
لكأنه مسرور بذلك أعظم السرور • وكان ابتهاجه يبلغ من الوضوح أنه
سرعان ما لفت اليه انتباه الناس كافة على الفور •

هتفت بضعة أصوات تسأل :

- ما هذا أيضاً ؟ من هذا ؟ سكوت ! ماذا يريد أن يقول ؟

صاح المهووس يقول بأعلى صوته ، واقفاً على حافة المنصة :

- أيها السادة

ان صوته صارخ كصوت كارمازينوف ، ولكن ليس فيه ما فى صوت كارمازينوف من تعاذب ارسطراطى •

- أيها السادة ! منذ عشرين سنة ، قبل أن تدخل روسيا حرباً ضدّ نصف أوروبا ، كانت روسيا تعجسد المثل الأعلى لجميع مستشارى الدولة وغيرهم من المستشارين • وكان الأدب عبد الرقابة • وكانت الجامعات تعلم الخطوة العسكرية ، وكان الجيش قد أصبح فرقة باليه • أما الشعب فكان يدفع الضرائب ويصمت مجلوداً بسياط القنّانة • وكانت الوطنية تعنى قبض الرشوات ، فأما الذين لا يقبضون رشوات فيعدون عصاة ثائرين لأنهم يشوشون انسجام النظام • وكانت غابات أشجار السندر تُقطع دائماً فى سبيل الحفاظ على النظام • وكانت أوروبا ترتعش ولكن روسيا خلال السنين الألف من حياتها البليدة لم تكن قد بلغت ذلك المبلغ من السقوط الى الدرك الأسفل

قال الخطيب هذا ورفع قبضة يده وشهرها غاضباً فوق رأسه ثم هوى بها كأنه يحطم خصماً من الخصوم • فضجت القاعة بأصوات معولة مجنونة فى كل جهة من الجهات • وطفق نصف من فى القاعة يصفقون تصفيقا محمومًا • وحتى الحجلون الوجلون انقادوا للحماسة العامة • ان روسيا تُشتم وتلطم بالوحد على رموس الأشهاد • فكيف لا تنور الحماسة تأييداً واستحساناً ؟

- هذا رجل ! هل اسمه كلام ! ما هذا بجمل منمقة فى علم الجمال !

وتابع المهووس خطابه قائلاً وقد سكر بما أصاب من نجاح :

- انقضت على ذلك العهد عشرون سنة • افتتحت جامعات جديدة •
الخطوة العسكرية أصبحت أسطورة • وأصبح يعوزنا ألوف الضباط
لاكمال القيادات في جيشنا • السكك الحديدية التهمت العواصم ، وغطت
روسيا كخيوط العنكبوت ، فما ان تمض خمس عشرة سنة أخرى حتى
يكون في وسع المرء أن ينتقل الى أى مكان فى أغلب الظن • الجسور
لا تحترق الا من حين الى حين ، فى أوقات متباعدة • أما المدن فتحترق
واحدةً بعد أخرى بانتظام ، حين يجىء موسم الحرائق • المحاكم تصدر
أحكاماً كأحكام سليمان الحكيم ، والمحلفون لا يتقاضون مالاّ الا من أجل
أن لا يموتوا جوعاً • ذلك هو الكفاح فى سبيل البقاء • الأفتان أحرار ،
يضرب بعضهم بعضاً لأن السادة أصبحوا لا يضربونهم • بحار من الخمرة
بل أوقيانوسات من الخمرة يشربها الشعب مساعدةً للميزانية • وفى
نوفجورود ، أمام كاتدرائية القديسة صوفيا ، القديمة التى لا فائدة منها ،
نُصبت كرة فخمة كبيرة من البرونز تخليداً لذكرى السنين الألف التى
قضيناها من حياتنا فى فوضى وغباء • وأوروبا تقطب حاجيها ، وتستأنف
قلقها ••• خمسة عشر عاما من الاصلاحات ! ومع ذلك لم تسقط روسيا
يوما ، حتى فى أحلك عهود فوضاها ، الى مثل هذا الدرك الأسفل •••
لم يمكن سماع كلماته الأخيرة : لقد غطّتها هتافات الجمهور وأغرقتها
اغراقاً • وظل المجنون يرى رافعاً قبضة يده ، هاوياً بها على ظفر وانتصاره •
تجاوزت الحماسة العامة كل الحدود • كان الناس يعولون ، ويضربون
أكفهم ، حتى لقد أخذت سيدات تصيح قائلة : « كفى ! لن نقول خيراً مما
قلت ! » • كان الناس كالسكارى • وكان الخطيب يطوف ببصره على
الجمهور ويتلذذ بانتصاره • رأيت لمبكه مضطربا اضطرابا لا سبيل الى
وصفه ، وكان يصدر الى أحدهم أوامره • ورأيت جوليا ميخائيلوفنا شاحبة

كل الشحوب تقول بضع كلمات سريعة للأمير الذى هرع اليها ••• ولكن ستة رجال هم جميعاً أشخاص رسميون قليلاً أو كثيراً ، قد ظهروا على المنصة فى تلك اللحظة نفسها ، فأمسكوا بالخطيب واقتادوه الى الكواليس • لا أدري كيف استطاع أن يفلت منهم • ولكنه قد أفلت فى الواقع ، وركض الى حافة المنصة ، وأمكنه أن يصرخ مرة أخرى شاهراً قبضة يده قائلاً بصوت عال :

— ولكن روسيا لم تسقط يوماً هذا السقوط •••

واقتادوه من جديد • وأراد نحو خمسة عشر رجلاً أن يخلّصوه ، فأحدقوا بالمنصة وحطموا الدرابزين الهزيل الذى يحيط بها فسرعان ما سقط •••

وبعد ذلك رأيت ، دون أن أصدق عينيّ ، رأيت الطالبة (أخت فرجنسكى) تظهر على المنصة فجأة وقد انبجست لا أدري من أين • انها ما تزال مدوّرة الجسم وردية اللون ، وما تزال ترتدى ذلك الثوب نفسه ، وما تزال تتأبط تلك الليفة من الأوراق نفسها • وكان يصحبها عدة أشخاص ، رجال ونساء ، عرفت منهم طالب المدرسة الثانوية ، عدوّها اللدود • لم أستطع أن أدرك الا عبارة واحدة قالتها :

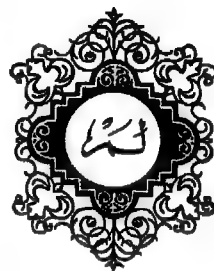
« أيها السادة ، لقد جئت لأطلعكم على آلام الطلاب التعساء ، ولأدعوكم الى الاحتجاج ••• » •

ولّيت هارباً • دسست فى جيبي عقدة الشريط الذى كانت موضوعة على كتفى ، وخرجت الى الشارع من باب خفى كنت أعرفه • وقبل كل شئ ذهبت طبعاً الى ستيفان تروفيموفتش •

الفصل الثاني

نهاية الحفلة

١



يقبل ستيفان تروفيموفتش أن يستقبلني • كان
قد سجن نفسه ، وأخذ يكتب • قرعت
مرة أخرى وناديته من خلال الباب فأجابني
بقوله :

- لقد أنهيت كل شيء يا صديقي ، فماذا يُراد مني أيضاً ؟

- لم تنه أي شيء البتة ، وإنما أنت أسهمت في الكارثة • كفك
مزاحاً ، أرجوك ! ستيفان تروفيموفتش ، افتح ! يجب اتخاذ إجراءات •
قد يجيئون الى هنا ويهينونك •

رأيت من واجبي أن أكون قاسياً بل صارماً معه • كنت أخشى أن
يندفع في حماقة أشد وأخطر • ولكن ستيفان تروفيموفتش قاوم مقاومة
غير معهودة فيه ، مقاومةً أدهشتني كثيراً •

- لا تهني ، أنت خاصة • انني شاكر لك كلِّ ما صنعت لي حتى
الآن ، لكنني أكرر لك انني قد أنهيت صلتني بالناس ، أختارهم وأشوارهم
على السواء • أنا أكتب الآن الى داريا بافلوفنا التي أهملها اهمالاً لا يقتفر ،

فى الآونة الأخيرة • فاحمل رسالتى إليها غداً اذا شئت • والآن - «شكراً» •

- ستيفان تروفيموفتش ، أؤكد لك أن الأمر أخطر شأنًا مما تظن •
أتصور أنك سحقت أحداً ؟ انك لم تسحق أحداً • وانما أنت تحطمت
كما تتحطم زجاجة فارغة •••

كنت فقط فى مخاطبته ، وما زلت أئنالم حين أنذكر هذا • وقابعت
كلامى أقول :

- ليس ثمة سبب يدعوك أن تكتب الى داريا بافلوفنا ••• وماذا عسى
أن تصير بدونى ؟ ماذا تفهم أنت من شئون الحياة العملية ؟ أغلب الظن
أنك تهىء ضربة أخرى ، أليس كذلك ؟ اذا صحح هذا فان شقاء جديدا
سينزل عليك •••

نهض ستيفان تروفيموفتش واقترب من الباب • وقال :

- انك قد بقيت بقربهم زمناً قصيراً ، ولكنك أخذت عنهم لغتهم
ولهجتهم • « عفا الله عنك يا صديقى ، وحماك ! » (بالفرنسية) • لقد
لاحظت فيك نوعاً من الشرف على الدوام ، وربما كانت لك عودة أخرى
الى أفكار أفضل - « بعد فوات الأوان » - شأننا جميعا معشر الروس •
أما عن ملاحظتك التى تعرض فيها بنقص خبرتى فى الشئون العملية ،
فاننى أذكرك بكلمة من كلمائى : ان لدينا ، فى روسيا ، أناسا كثيرين ،
يتهافتون تهافت الذباب وراء واحد منهم ويعييون على الآخرين أنهم يفتقرون
الى الحس العملى ، دون أن يرجعوا الى أنفسهم فى يوم من الأيام ••
« يا عزيزى » ، تذكر أنتى منفعل جدا ، فلا تعذبنى • « شكراً » مرة
أخرى لكل ما صنعتته من أجلى ، ولنفترق كما افترق كارمازينوف عن
جمهورية ، أو قل بتعبير آخر : لكن كريمين سمحين ، فتسنائى كما
سأساك • ان كارمازينوف كان يمكر حين طلب من قرانه أن ينسوه •

أما أنا فأننى أقل غرورا وأقل حباً للمظهر • ثم اننى أعتد خاصة على كونك فى عنفوان الشباب : كيف يمكنك أن تحتفظ مدةً طويلةً بذكرى شيخ لا خير فيه ؟ « عش مدة أطول » يا صديقى ، على حد التعبير الذى قالته لى ناستاسيا مؤخرا بمناسبة عيد ميلادى (« ان للفقراء كلمات رائعة زاخرة بالفلسفة أحيانا ») (بالفرنسية) • اننى لا أتمنى لك سعادة كثيرة – فالسعادة تتعب – ولكننى لا أتمنى لك الشقاء أيضا • وانما أنا أكرر حكمة الفلسفة الشعبية : « عش مدة أطول » ، وحاول أن لا تضجر كثيرا • وهذا التمنى الذى لا سبيل الى تحقيقه ، أنا الذى أضيفه • والآن ، وداعاً ، وداعاً ! ولا تبق أمام بابى • فلن أفتح الباب •

وعاد يكتب • ولم أستطع أن أجنى منه أكثر من ذلك • ولقد تكلم بلهجة متساوية رغم « انفعاله » ، تكلم بغير تعجل ، بل تكلم بفخامة ، بغية أن يفرض على مهابته • لا شك أنه حاقده على بسبب المسارقات التى استرسل فى الافضاء بها الى أمس عن « الزلاجة » ، وعن « الأرض التى تميد تحت خطواته » • ثم ان الدموع التى ذرفها أمام الجمهور منذ قليل قد وضعت فى ظرف مضحك رغم هيئة الانتصار التى كان قد اصطنعها ، وهو يدرك هذه الحقيقة • فاذا تذكرنا أنه ما من أحد يحرص حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يحافظ فى علاقاته بأصدقائه على قواعد الأصول وآداب اللياقة ، كان فى وسعنا أن ندرك ما هو عليه الآن من حالة نفسية خاصة • معاذ الله أن اتهمه ! ومهما يكن من أمر فان هذا التأذى السريع وهذه اللهجة الساخرة اللذين احتفظ بهما رغم كل شيء قد طمانانى : لقد بدا لى قليل الاختلاف جداً عما عهدته فيه عادة ، فلا يمكنه الآن اذن أن يتخذ قرارا فاجعا غير عادى • ولكننى أخطأت الظن ••• لقد غابت عنى أشياء كثيرة •

وهأنذا أستبق الحوادث فأورد لكم مستهل الرسالة التي بعثها الى داريا بافلوفنا ، فاستلمتها هذه في الغد فعلاً •

« بنيّتي ، ان يدى ترتعش ، ولكننى أنهيت كل شيء • لم تشهدى ساعة معركتى الأخيرة مع الناس • انك لم تجيئى لسماع المحاضرة • وحسناً فعلت • ولكنهم سيقولون لك ان رجلاً شجاعاً فى بلادنا روسيا التى تفتقر أشد الافتقار الى رجال شجعان قد نهض مقتحماً تهديدات الموت التى كانت تتقاطر عليه من كل جهة ، فأعلن لأولئك الحمقى الصغار حقيقتهم ، أى قال لهم انهم ليسوا الاحمق صغراً • آه ••• ما هم فى حقيقة الأمر الا صغار تافهون لا قيمة لهم ، ما هم الا صغار أغبياء ، نعم هذه الكلمة التى تصفهم بما فيهم » (بالفرنسية) • لقد قلت كلمتى وحددت مصيرى • سأبارح هذه المدينة الى الأبد ، وأذهب لا أدري الى أين • ان جميع الذين كنت أحبهم قد أشاحوا عني • أما أنت ، أيها النفس الطاهرة البريئة النقية ، أنت أيها الانسانة العذبة الرقيقة ، الذى أوشك مصيرها أن يتحد بمصيرى تنفيذاً لارادة امرأة طاغية ذات نزوات ، أنت التى لعلك كنت تنظرين باحتقار الى العبرات تذرفها عيناى بحقارة وجبانة عشية خطبتنا ، أنت التى لن تملكى الا أن تعدينى رجلاً مضحكاً ، فاقبل هذه الصرخة الأخيرة يطلقها قلبى • اننى اذ أوجه اليك هذه الصرخة انما أحقق واجباً أخيراً • ذلك اننى لا أستطيع وأنا أتركك الى الأبد أن أدعك تظنين اننى لست الا انساناً عقوقاً ، انساناً غليظ القلب ، انساناً أنانياً كما يؤكد لك ذلك كل يوم ، فى أغلب الظن ، شخص عقوق قاسٍ لا أستطيع أن أنساه وا أسفاه ! ••• » •

وهكذا دواليك على مدى أربع صفحات كبار •

حين قال لى ستيفان تروفيموفتش انه لن يفتح ، قرعت الباب بقبضة يدي ثلاث مرات وصرخت أقول له انه سيبحث ناستاسيا لاستدعائى فى ذلك

اليوم نفسه ، ولكننى أنا الذى سأرفض عندئذ أن أجيء • ثم تركته وأسرت أذهب إلى جوليا ميخائيلوفنا •

٢

هناك حضرت مشهداً يثير الأعصاب فعلاً : كانوا بصدد غش المرأة المسكينة بوقاحة لا حياة فيها ، ولم أستطع أن أفعل شيئاً • ماذا كان فى وسعى أن أقول لها فى الواقع ؟ كنت قد ثبتت إلى رشدى وعدت إلى صوابى وأدركت أن ليس لدى على وجه الاجمال الا انطباعات ومشاعر وشبهات وشكوك وتوجسات لا أكثر • رأيته غارقة فى دموعها توشك أن تصاب بنوبة عصبية • كانت تشرب ماء ، وتمسح وجهها بالكولونيا • وكان بطرس ستيفانوفتش واقفاً أمامها يتكلم بغير توقف أو انقطاع ، بينما كان الأمير هنالك أيضاً لا ينطق بكلمة واحدة • انها تأخذ على بطرس ستيفانوفتش ، بصرخات ودموع ، ما كانت تصفه بأنه « خيانة » منه • ما كان أشدّ دهشاً حين رأيته تنسب اخفاق الاجتماع وكل ما جرى إلى مجرد غياب بطرس ستيفانوفتش عن الحفلة •

ولقد لاحظت فيه تغيراً كبيراً : كان يبدو مشغول البال كثيراً • ان وجهه رصين جاد • ان هيئته لا تعبر فى العادة عن جد : فهو يضحك دائماً حتى حين يغضب ، وذلك ما يحدث له فى أحيان كثيرة • انه الآن أيضاً حائق ، ولكنه يتكلم بلهجة فظة ، متزمرة ، متمللمة ، خالية من التخرج زاخرة بالاهانة • كان يؤكد أنه قد أصيب بصداق شديد وتقوى قوى عند جاجانوف الذى ذهب إليه فى الصباح • وا حسرتاه ! لقد كانت المرأة المسكينة لا تتوق الا إلى أن تُخدع مرة أخرى • كانوا لحظة دخولى يتناقشون فى أمر حفلة الرقص : أقيم أم لا ؟ فكانت جوليا ميخائيلوفنا

تصر على أنها لن تظهر في هذه الحفلة بحال من الأحوال بعد « الاهانات التي نالتها في الصباح » • قل بتعبير آخر : انها كانت تريد أن تجبر اجباراً على حضور الحفلة ، وأن يجبرها على ذلك بطرس ستيفانوفتش نفسه • كانت تنظر اليه نظرتها الى عرّاف لا يخطئ • وأظن أنها كانت ستمرض لو انصرف • ولكن بطرس ستيفانوفتش لا يخطر بباله أن ينصرف : انه يصر اصراراً قاطعاً على أن تقام حفلة الرقص ، وعلى أن تحضرها جوليا ميخائيلوفنا حتماً •••

- ما بالك تبكين ؟ أنت حريصة هذا الحرص كله على خلق مشكلة ؟ ألا بد لك من صبّ غضبك على أحد ؟ طيب ! صبّي غضبك علىّ أنا ، ولكن أسرعى ، لأن الوقت يمضى سريعاً ، ولا بد من اتخاذ قرار • أخفقت صبيحتك الأدبية ؟ طيب ••• ان حفلة الرقص ستصلح من الامر ما فسد • انظري الى الأمير • انه يوافقنى على رأىى • نعم ، لو لم يكن الأمير هناك ، لما عرف أحد كيف كان يمكن أن تنتهي القضية !

لقد كان من رأى الأمير فى البداية أن لا تُقام الحفلة (أو قل كان من رأيه أن لا تحضرها جوليا ميخائيلوفنا ، اذ لا بد من إقامة حفلة الرقص على كل حال) ، ولكنه بعد أن ذُكر مرتين أو ثلاث مرات قال فى النهاية بضع كلمات مبهمّة يفهم منها أنه موافق •

وقد دُهِشت كثيراً كذلك من لهجة بطرس ستيفانوفتش التي كانت خالية من الأدب والتعذيب • آه ••• معاذ الله أن أصدّق الاشاعات الدنيئة السافلة التي أذيعت ، فيما بعد ، عن العلاقات التي قالوا انها كانت قائمة بين جوليا ميخائيلوفتش و بطرس ستيفانوفتش • ان أمثال تلك العلاقات المزعومة لم توجد ولا كان يمكن أن توجد بينهما • ولئن استطاع بطرس

ستيفانوفتش أن يكون له على جوليا ميخائيلوفتش شيء من السيطرة ،
فالسبب الوحيد في ذلك هو أنه كان يشجع أحلامها الطموحة ، مقنعاً إياها
بأنها تستطيع أن تؤثر في المجتمع وأن تؤثر في الوزير . لقد دخل في
خططها منذ البداية ، وكان يلقيها هذه الخطط هو نفسه ، ويفرغها بأنواع
المدح المبذول ، فاستطاع أخيراً أن يلتف عليها ويكبلها من أخصى
القدمين إلى قمة الرأس بحيث أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه .

حين رأتني جوليا ميخائيلوفنا أطلقت صرخة ، وسطعت عيناها ،
وقالت تخاطب بطرس ستيفانوفتش :

— ها هو ذا . أسأله . انه هو أيضاً لم يتركني ، كالأمير .
وأردفت تقول لي :

— قل لهم : أليس بديهياً أن المسألة كانت مؤامرة ، مؤامرة دينية
وقحة تهدف إلى إيذائي أنا وآندره أنطونوفتش ؟ أوه ! لقد كانوا متواطئين
متفاهمين ! كانت لهم خطة مرسومة . انهم حزب ، حزب حقيقي .
قال لها بطرس ستيفانوفتش :

— انك تبالغين ، على عادتك . لا بد من قصيدة في رأسك دائماً .
ثم أردف يقول لي :

— على كل حال ، يسعدني أن أراك يا سيد ...
وتظاهر بأنه نسي اسمي . وتابع كلامه :
— ... سوف يقول لنا رأيته .
أجبت متعجلاً :

— رأيي مطابق لرأي جوليا ميخائيلوفتش في كل ما قالت . بديهي
كل البداة أن نمة مؤامرة مجبوكة . انني أرد اليك هذه الشرائط يا جوليا

ميخائيلوفنا • لا أدري هل تقام حفلة الرقص • ذلك أمر لا شأن لي به •
لكننى لن أكون واحدا من المشرفين على الحفلة • انتهى دورى هذا •
اغفرى لى حدى • ولكننى لا أستطيع أن أتصرف تصرفاً مخالفاً للعقل
والحسن السليم ، منافيا لاقتناعائى •

فصاحت تقول وهى تضم ذراعيها :

- هل سمعت ؟ هل سمعت ؟

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت نحوى :

- سمعت • وفى رأيى أنكم جميعكم قد بلغت شيئا شوش عقولكم
وبلبل أفكاركم • فى رأيى أنه لم يقع أى شئ خارق • لم يقع شئ يزيد
على ما سبق أن وقع هنا وما يمكن أن يقع فى كل زمان • أين المؤامرة
التي تتخلون ؟ كان الأمر سخيلاً بشعاً مخزياً ، ولكن أين ترون مؤامرة ؟
أؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا ، حاميتهم التي تدللهم كل الدلال ، وتغفر لهم
كل العيوب ؟ جوليا ميخائيلوفنا ، ماذا كنت أقول لك بلا انقطاع فى الشهر
الأخير ؟ ألم أنبئك وأحذرك سلفاً ؟ ما كانت حاجتك الى هؤلاء الناس
جميعاً ؟ ما كانت حاجتك الى الارتباط بهؤلاء الأوغاد ؟ فيم كان ذلك كله ؟
أكان لتحقيق وحدة المجتمع ؟ هلاً فكرت فيما تقولين ! أهؤلاء قادرون
على أن يتحدوا ؟

- أأنت نهيتى وحذرتنى ؟ بالعكس ! كنت دائماً تشجعنى ، بل كنت
دائماً تطالبنى بالمزيد ... حقاً انك لتدهشنى الآن غاية الدهاش ! أنت
نفسك جئتى بأشخاص عجيبين جداً •

- لا ، أبدا • كنت أشاجرك فى هذا الأمر ، وكنت لا أؤيدك ولا
أحبذ تصرفك • لقد جئت بأناس عجيبين ... هذا صحيح ... ولكن
بعد أن كان منزلك قد امتلأ بأمثالهم ... ثم اتنى لم أجئك بهم الا فى

الآونة الأخيرة من أجل « الحفلة الأدبية » : لقد كان يصعب الاستغناء عن هؤلاء الأوباش • أراهن أن دسنة أو دسيتين منهم قد أُدخلوا بخير تذاكر •

قلت مؤيداً :

— أنا من هذا على يقين •

— أرايت ؟ انك توافق • ثم تذكر اللهجة التي كانت تسود المدينة كلها في الآونة الأخيرة • لم يكن ثمة الا وقاحة ، واستهتار ، واستخفاف ••• وفضائح متصلة لا نهاية لها • من ذا الذي كان يشجع ذلك ؟ من ذا الذي كان يحميه بسلطته ؟ من ذا الذي شوش الأفكار كلها ؟ من ذا الذي أحق هؤلاء الصغار من الناس جميعا ؟ ألم تكن جميع أسرارهم العائلية الصغيرة مودعة في ألبومك ؟ ألم تكوني تمسحين بيدك على رؤوس شعرائنا ورسامينا ؟ ألم تمدى يدك الى ليامشين ليقبّلها ؟ ألم يتجرأ أحد الطلاب أن يشتم بحضورك مستشارا من مستشارى الدولة ؟ ألم يوسخ بحذاءيه المدهونين بالقطران ثوب ابنة ذلك المستشار ؟ فكيف تعجين بعد هذا أن يقوم عليك الجمهور ؟

— ولكنك أنت الذى كنت تدفعنى • هذه خطيئتك • آه ••• رباه !

— لم يحدث هذا أبدا ! لقد نبهتك وحذرتك • وكنا نخصم ونشتجر فى هذا الأمر • نعم ، كنا نخصم ونشتجر •••

— أنت تكذب بغير حياء •

— سهل عليك طبعاً أن تقولى هذا الآن • لا بد لك من ضحية تصيين عليها نار غضبك • وقلت لك : صبى نار غضبك علىّ أنا • لا بأس • ولكننى أؤثر أن أتجه اليك أنت يا سيد ••• (هنا أيضا لم يفلح فى أن يتذكر اسمى) • لنعدّ على أصابعنا : أنا أؤكد أنه ، باستثناء ليوتين ، لم يكن

هناك مؤامرة ، لم يكن هناك أية مؤا •• مرة ! سوف أبرهن على هذا • ولكن فلنحلل أولاً حالة ليوطين • لقد ظهر على المنصة حاملاً أسعار ذلك الأحق ، ليادكين • وأنت ترى أن هذه مؤامرة ، أليس كذلك ؟ ولكن ألا يجوز أن يكون ليوطين قد وجد الأسعار فكهة فعلاً ؟ اننى ألقى هذا السؤال جاداً • لقد ظهر على المنصة آملاً أن يسلى الجمهور ، وأن يضحك الناس كافة ، وعلى رأسهم حامته جوليا ميخائيلوفنا • ألا تصدق هذا ؟ ولكن ألا ينسجم هذا مع كل ما كان يجرى هنا منذ شهر ؟ هل تريد أن أقول لك كل شىء ؟ يميناً ان هذه المراحة كان يمكن فى ظروف أخرى ، أن تمر بسلام • صحيح أنها فظة غليظة ، صحيح أنها قسوة قليلاً ، ولكنها مضحكة ، هل تستطيع أن تنكر هذا ؟

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله مستاءة :

— كيف يمكنك أن ترى مهزلة ليوطين مضحكة ؟ هذه قلة كياسة ••• بل هذه دناءة مقصودة محسوبة ! آه ••• انك تقول هذا الكلام عامداً • واضح بعد هذا أنك أنت أيضاً ضالع فى المؤامرة •

— كيف ؟ اذن كنت مخبئاً وراءهم أحرارهم كما تحررك الدمى ! ولكن لو اننى اشتركت فى المؤامرة — اعلمى هذا — لكان هنالك أشياء أخرى كثيرة غير ليوطين ! وأنت تتصـورين اذن اننى تواطأت مع أبى العزيز على أن يشير فضيحة • من ذا الذى طلب من أبى العزيز أن يقرأ ؟ ومن الذى حاول أن ينيك عن هذا أمس ، نعم أمس ؟

— آه ••• لقد كان بالأمس زاخراً بالفكر والظرف ! كنت، معتمدةً عليه أكبر الاعتماد ، لا سيما وأن له آداباً رفيعة وسلوكاً أنيقاً ! كنت أظن أنه هو وكارمازينوف سوف ••• ولكن انظر ماذا حدث ! •••

— نعم ••• انظرى ماذا حدث ! ان أبى قد أفسد كل شىء رغم كل

ما يتحلى به من « فكر وظرف » كما تقولين • ولو كنت أعلم سلفاً أنه سيتصرف هذا التصرف ، وأنا ضالع في المؤامرة التي دبّرت لافساد حفلتك ، لما ألححت عليك راجياً منك أن لا يترك انيس في مزرعة الخضار ! أليس كذلك ؟ ولكنني حاولت أن أتيك عن دعوة أبي ، لأنني كنت أوجس ما سوف يقع • ومن المستحيل على المرء أن يتوقع كل شيء طبعاً • هو نفسه كان قبل أن يظهر على المنصة بدقيقة واحدة يجهل ما سوف يقوله • هل هؤلاء الشيوخ العصيون رجال ؟ على أن في إمكاننا أن نصلح الأمور : فلكي تُرضى الجمهور ، أرسلني الى أبي منذ الغد طيبين يفتحصانه ، أرسليهما اليه على جناح السرعة رسياً • بل يمكن إرسالهما في هذا اليوم نفسه ، فينقل الى المستشفى رأساً ، ويعالج هناك بكمادات وحمامات باردة • عندئذ سوف يضحك جميع الناس ، وسوف يرون أنه ما كان لهم أن يشعروا باهانة • حتى انني أستطيع أن أخاطب جمهور الحفلة في الأمر هذا المساء ، بصفتي ابن الرجل • أما كارمازينوف ، فشأنه شأن آخر • لقد تصرّف كارمازينوف تصرّف حمار ذى بردعة ، لا أكثر • لقد جعل خطابه يطول ساعة كاملة • لا شك أنه تواطأ معي • لا شك أنه قال لنفسه : « هياً ، فلنعمل خطيئة من شأنها أن تزعج جوليا ميخائيلوفنا ! » هه ؟ •••

— أوه ! كارمازينوف ! « يا للعار ! » (بالفرنسية) • لقد احمر وجهي خجلاً من جمهورنا •

— أما أنا فلو كنت في مكانك لما احمر وجهي خجلاً ، أؤكد لك ••• وانما كنت أضربه ، صاحبك كارمازينوف ! لقد كان الجمهور على حق • وأعود فأسألك مرة أخرى : من المذنب في هذا ؟ من المخطيء ؟ أنا الذي فرضت عليك كارمازينوف ؟ أنا شاركتك في تعظيمه الى حد العبادة ؟ شيطان يأخذه ! وأما عن المهووس الثالث ، المهووس السياسي ،

فذلك حكاية أخرى : الجميع مسئولون عن أمره ، أنا مسئول وأنت مسئولة •

— آه ... لا تجيء على ذكره ! لا تكلمنى عنه ! نى فطيع ، فطيع !
فى هذه الحالة أنا المذنبه ، أنا المخطئة ، أنا وحدى !

— طبعاً ، ولكنك معذورة • أنتى للمرء أن يحذر أناساً يبلغون هذا المبلغ من الصراحة ؟ حتى فى بطرسبرج لا تمكن محاذرتهم دائماً • ألم يُزكّوه لك ؟ ألم يوصوك به خيراً ؟ بلى ! ولقد فعلوا ذلك بكثير من الحماسة • والآن يجب عليك أن تفكرى فى الأمر وأن تتخذى قرارك : انك مضطرة أن تحضرى حفلة الرقص • الأمر خطير : انك أنت التى أظهرته على المنصة • فمن واجبك اذن أن تعلمى على رموس الأستهاد أنك لست متعاونة معه ، وأنه الآن بين يدي الشرطة ، وأنت خُدت فى أمره • يجب عليك أن تصرّحى ، مستاءةً ، بأنك كنت ضحية رجل مجنون • لأنه ليس فى الواقع الا مجنوناً ! على هذا النحو انما يجب شرح الأمور • اننى أكره هؤلاء الناس الذين يعضون • انه لينفق لى أن أقول أموراً أسوأ من تلك التى قالها ، ولكننى لا أقولها من على منبر • والناس انما تجرى أحاديثهم الآن حول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ •

— أى عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟ وماذا يقولون ؟

— أنا نفسى لا أفهم مما يقولون شيئاً • ولكن ألم تسمعى أنت يا جوليا ميخائيلوفنا شيئاً عن وصول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟

— عضو من أعضاء مجلس الشيوخ ؟

— اسمعى • ان الناس جميعاً مقتنعون الآن بأن عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ سيصل قريباً ، وانكم ستعفون من منصبكم • سمعت هذا الكلام فى كل جهة من الجهات •

قلت مؤيداً :

- وأنا سمعت هذا الكلام •

- ولكن من الذى يقول هذا ؟

واصطبغ وجه جوليا ميخائيلوفنا بحمرة شديدة •

- من الذى أطلق هذه الشائعة ؟ أنتى لى أن أعرف ! على كل حال ،

الناس يتحدثون فى هذا الأمر يمنة ويسرة • بالأمس خاصة ، كانوا

يتكلمون فيه كثيراً ، وقد لاح فى وجوههم الجدد ، وان خالط هذا الجدد

تحفظ وتردد • طبعى أن أذكاهم وأخبرهم ببواطن الأمور يلتزمون

الصمت ، ولكن ذلك لا يمنع بعض هؤلاء من الاصغاء بانتباه •

- يا للصغار ! و ... يا للحماقة ! ...

- هذا سبب آخر يدفعك الى أن تظهرى ، والى أن تبرهنى لهؤلاء

الحمقى على أن ...

- نعم ، انتى أدرك بنفسى أن هذا من واجبى ... ولكن ماذا لو

كنت أعرض نفسى لاهانة جديدة ؟ ماذا اذا لم يجيئوا الى حفلة الرقص ؟

ان أحداً لن يحضر حفلة الرقص ... لا ... لن يجيء احد ! ...

- انك مسرفة فى التجمل ! أتصورين أن الناس لن يحضروا حفلة

الرقص ؟ أتخيلين هذا ؟ فما عساهم فاعلين بالأثواب التى أعدوها لهذه

المناسبة ، وما عساهم فاعلين بما زُيِّنت به الفتيات ؟ ألسنت امرأة ؟ ألا انت

لا تعرفين العالم حق معرفته !

- ان زوجة مارشال النبالة لن تعجىء حتماً • أنا واثقة بهذا !

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وقد أصبح لا يستطيع السيطرة على

تململه وحنقه :

– ولكن أى شيء رهيب حدث ؟ لماذا تتصورين أنهم لن يجيئوا ؟

– حدث شيء مخجل ، شيء مخزٍ ، شيء دنىء ، ذلك ما حدث .
شيء لا أفهمه ، ولكننى لا أستطيع أن أظهر للناس بعد أن حدث .

– لماذا ؟ ما هى أخطأوك وذنوبك فى الحساب الأخير ؟ لماذا تحمّلين نفسك كل التبعة ، وتلقين على عاتقك بكل الخطأ ؟ أليس المخطيء هو الجمهور ، وهؤلاء الشيوخ الكبار ، وأرباب الأسر أولئك ؟ لقد كان عليهم أن يحتجزوا الأوباش والأوغاد ، وما هم فى الواقع الا أوباش وأوغاد ؟ تم ينتهى الأمر . ان الشرطة لا يمكن أن تكفى لكل شيء . وانما ينبغي للمجتمع أن يقوم بواجبه ويبدل جهده . ان كل انسان فى بلادنا يتطلب عند دخوله الى حفلة أن يتدب له شرطى خاص يسهر على سلامة شخصه العظيم . الناس فى بلادنا لا تدرك أن عليها أن تحافظ على نفسها بنفسها فى مثل هذه الظروف . ماذا يفعل أرباب أسرنا وكبار موظفينا ، وسيداتنا ، وآساتنا ؟ يصمتون ويحردون . ما من مبادرة يقومون بها ، ولو لقمع سفالة السفلة !

– آآآ نعم . . . ما أصدق هذا الذى تقول ! . . . انهم يصمتون ويحردون ولا يزايدون على أن ينظروا الى ما يجرى !

– اذا كان ما أقوله صادقاً فأعلنه جهاراً ، أعلنه بكبرياء ، أعلنه بقسوة ، لكى تظهرى أنك لم تُصمقى وتُغلبى ، لكى تظهرى ذلك لأولئك الشيوخ وأمّهات الأسر . آآآ لسوف تعرفين كيف تفملين هذا ! انك تملكين الموهبة اللازمة حين تكوينين صافية الذهن . اجمعينهم ، واعلنى لهم الحقيقة بصوت عالٍ . . . ثم نبعث برسالة صحفية الى جريدة «الصوت» أو «البورصة» . انتظرى . سوف أشرع فى العمل . وسوف أدبر كل شيء بنفسى . لا بد طبعاً من الانتباه واليقظة . يجب أن يراقب البوفيه .

ويجب الاخلاص على مجيء الأمير ، ومجيء السيد ... انك لا تستطيع
يا سيدى أن تركنا فى اللحظة التى يجب علينا فيها أن نبذل جهداً جديداً •
وسوف تظهرين متأبطة ذراع آندره أنطونوفتش • كيف حاله الآن ؟

فصاحت جوليا ميخائيلوفنا فجأة تقول باندفاع غير متوقعة حتى لكأن
دموعاً أخذت تترقق فى عينيها :

— أوه ! ما كان أظلمك دائماً فى حق هذا الانسان الملائكى ! لقد
كانت آراؤك فيه خاطئة كل الخطأ ، مهينة كل الاهانة !

ورفعت منديلها الى عينيها • فحمد بطرس ستيفانوفتش فى الوهلة
الأولى مذهولاً •

— رحماك ... أنا ... أنا ... ما هذا الذى تقولين ؟ لقد كنت
دائماً ...

— لا ، أبداً ، أبداً ، لم تنصفه فى يوم من الأيام !

— يستحيل على المرء أن يفهم النساء •

كذلك جميعهم يقول بطرس ستيفانوفتش وهو يتسهم ابتسامة
مقهورة •

قالت جوليا ميخائيلوفنا :

— انه بين الناس أصدقهم فولاً ، وأرهفهم شعوراً ، وأقربهم الى أن
يكون ملاكاً من الملائكة ! هو خير الناس طراً !

— أرجوك ... فيما يتعلق بطيبة قلبه وشهامة نفسه ، أنا أنصفته
دائماً ...

— لا ، أبداً • ولكن دعنا من هذا • لقد كان كلامى الآن خرافة فى

غير محلها • منذ قليل ، رمتنى زوجة مارشال النبالة تلك ، رمتنى هى أيضا ، ببضعة سهام عن أحداث الأمس ، مأكرة مكر يسوعى •

– هوه ! ان فى رأسها الآن هموماً أخرى غير أحداث الأمس • ان أحداث اليوم تكفيها • لماذا تقلقين هذا القلق كله من أنها قد لا تحضر حفلة الرقص ؟ انها لن تحضر حتماً بعد الفضيحة التى وجدت نفسها مقحمة فيها • قد لا يكون لها بها شأن • ولكن سمعتها ستتأثر ، ويديها ستظلان متسختين •

سألته جوليا ميخائيلوفنا مدهوشة أشد الدهشة :

– ما هو الأمر ؟ اننى لا أفهم : لماذا « ستظل يداها متسختين » ؟ ...
قال بطرس ستيفانوفتش :

– لاحظى أننى لا أؤكد شيئاً ، الا أن شائعة تجرى فى المدينة قائلة انها كانت هى الوسيطة •

– وسيطة ؟ بين من ومن ؟

– كيف ؟ ألا تعلمين بعد ؟

كذلك صاح يقول بطرس ستيفانوفتش مدهوشا دهشة كاذبة ، وأردف يقول :

– بين ستافروجين وليفافنا نيقولايفنا •

– ماذا ؟ كيف ؟

كذلك صرخا نسأل جميعا فى آن واحد •

قال بطرس ستيفانوفتش :

– هل يُعقل أن تكونوا جاهلين بالأمر ؟ عجيب ! انها «تراجيديا» –

كوميديا» : ان لبزافنا نيقولايفنا قد انتقلت رأساً من مركبة زوجة مارشال

النبالة الى مركبة ستافروجين ، وهربت معه الى سكفورشنيكى فى وضح
النهار ، منذ ساعة واحدة ، بل منذ أقل من ساعة •

جمدنا من الدهول • وأردنا أن نحصل على تفاصيل طبعاً • فما كان
أشد دهشتنا حين رأيناه عاجزاً عن أن يمدنا بأية تفاصيل ، رغم أنه قد
شهد الحادث « مصادفةً » • يظهر أن الأمور جرت كما يلي : بعد الجلسة
الأدبية ، حين كانت مارشالة النبالة تصطحب فى مركبتها ليزا ومافريكى
يقولان يقتس الى منزل أم ليزا (التى كانت ما تزال تعاني ألماً فى ساقيها) ،
لمحوا مركبة كانت مرابطة على مسافة خمسة وعشرين متراً من باب المنزل •
فما كان من ليزا الا أن وثبت الى الأرض ، وركضت رأساً الى تلك العربية ،
فركبتها ، ولكن دون أن تسي أن تصرخ فائله لمافريكى يقولان يقتس :
« ارحمنى ! » • وأسرت العربية تطوى الأرض منجهةً الى سكفورشنيكى •
فلما سألناه « هل كانا على اتفاق ؟ ومن ذا كان بالعربة ؟ » أجاب بطرس
ستيفانوفتش بأنه لا يعلم • قال : لا بد أنه كان ثمة اتفاق بين الشاب والفتاة ،
ولكنه لم يستطع أن يتعرف الشخص الذى كان بالعربة ، فلعله الخادم
العجوز الكسى ايجوروفتش • سألناه : « ولكن أنت ، كيف اتفق أن كنت
هناك ؟ » ، و « كيف عرفت أنها ذهبت الى سكفورشنيكى ؟ » ، فأجاب
بأنه كان ماراً بالمكان عرضاً ، فلما لمح ليزا أسرع نحو العربة (ورغم ذلك ،
ورغم فضوله ، لم يستطع أن يتعرف الشخص الذى كان بالعربة) ،
وأضاف أن مافريكى يقولان يقتس لم يحاول حتى أن يلاحق ليزا ، بل انه
على عكس ذلك أسكت زوجة مارشال النبالة التى أخذت تصيح بصوت
عالٍ قائلة : « انها ذاهبة الى ستافروجين ، انها ذاهبة الى ستافروجين ! » •
فجأةً رأيتنى أفقد صبرى وأصرخ قائلاً لبطرس ستيفانوفتش وقد
أخذ منى الفضب كل مأخذ :

— أنت الذى دبرت كل شيء أيها الشقى ! فى تدبير هذه المؤامرة

انما قضيت الصباح ! أنت الذى ساعدت ستافروجين ! أنت الذى كنت فى
العربة ! أنت الذى فتحت الباب لليزا ! ... أنت ... أنت ! ... يا جوليا
ميخائيلوفنا ، هذا عدو لك فاحذريه ! سيهلكك أنت أيضا !

قلت هذا ووليت هارباً كمجنون .

ما أزال الى هذا اليوم لا أفهم كيف أمكننى أن أصبّ على رأسه
هذه الكلمات . ولكن رأى كان على صواب : فكما علمنا فيما بعد كان
كل شيء قد تمّ على ذلك النحو الذى ذكرته له ، على ذلك النحو نفسه
تقريباً . والعذر الذى اتحلّه لينبئنا بالخبر كان زائفاً زيفاً واضحاً كل
الوضوح . انه بدلاً من أن ينبئنا بالخبر فور دخوله من حيث أنه خبر هام
جداً مثير جداً ، تظاهر بأنه يظن أننا على علم به قبل وصوله هو ، وذلك
فى الواقع مستحيل ، لأن الحادث وقع منذ هنيهة قصيرة . ولو كنا نعرف
الخبر قبله لبادرناه نحن بالكلام عنه . ولم يكن فى امكانه كذلك أن يعرف
ماذا تقول المدينة عن زوجة مارشال النبالة وماذا تشيع عنها لأن المدة التى
انقضت على وقوع الحادث أقصر من أن تتبع رواج الشائعات . وكنت قد
لاحظت عدا ذلك ابتسامة الاحترار التى ارتسمت على سقته مرتين أثناء
رواية القصة : فلملحه كان يعدنا أناساً بلهاء يسهل الضحك عليهم والتغريض
بهم . ولكن ما شأنى وبطرس ستيفانوفتش ! لقد أخذت أفكر فى الأمر
الأساسى . فهربت من عند جوليا ميخائيلوفنا خارجاً عن طورى . ان هذه
الكارثة قد طعنت قلبى فى الصميم ، فبلغت من الحزن والكرب اننى لعلى
بكيت . كنت لا أعرف ماذا يجب أن أفعل . أسرعت راكضاً الى عند
ستيفان تروفيموفتش ، ولكن الشيخ اللعين رفض أن يفتح لى أيضا .
وهمست ناستاسيا تقول لى خائفة : « انه يرتاح » . فلم أصدق من ذلك
شيئاً . وذهبت الى دار ليزا فاستطعت أن أسأل الخدم فأكدوا لى نبأ هروبها
ولكنهم كانوا لا يعرفون شيئاً عدا ذلك . كان المنزل قد انقلب عاليه سافله .

براسكوفيا ايفانوفنا تُصاب باغماء • ومافريكي نيقولا يقتس لا يتركها •
 بدا لى مستحيلاً أن استدعيه • وحين سألت عن بطرس ستيفانوفتش وعن
 دوره فى القضية فيل لى انه فى الآونة الأخيرة أصبح لا يجرى الى البيت
 أحد غير • ، وانه ربما جاء فى اليوم الواحد مرتين • كان الخدم حزانى ،
 وكانوا يتكلمون عن ليزا بلهجة الاحترام • انهم يحبونها • لم يراودنى
 أى شك فى أنها ضاعت ، فى أنها ضاعت ضياعاً لا خروج لها منه • ولكن
 الجانب السيكلوجى من هذه القضية كان لا يزال مجهولاً عندى • وكنت
 ما أزال عاجزاً عن فهمه كل العجز • لا سيما حين كنت أتذكر مشهد
 الأمس بين ليزا وستافروجين • وكنت أكره أن أسمى فى المدينة سائلاً
 بعض الأصدقاء والمعارف الذين لا شك فى أنهم كانوا على علم بالحادث
 وكانوا يعلقون عليه أسوأ التعليق فى أغلب الطن • لا سيما وأن مثل هذه
 المساعي تشتمل فى رأى على مذلة ألحقها بليزا • ولكن لا أدرى لماذا
 ذهبت الى داريا بافلوفنا (على اننى لم أستقبل هناك • فان منزل آل
 ستافروجين قد أوصد فى وجه كل قادم منذ أمس) • لا أدرى أنا نفسى
 ما الذى كان يمكننى أن أقوله لها لو أتيح لى أن ألقاها • ومن هنا ذهبت
 الى عند أخيها • بدا لى شاتوف مريداً الوجه اربدادا شديدا • أصفى الى
 كلامى ذاهلاً مفكراً كأنه يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتابع ما أقوله
 له • ولم يكذب يمينى بشئ • بل جعل يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطى
 أثقل من خطاه الممهودة • ولم ألبث أن تركته • ولكن بينما كنت أهبط
 السلم ، صاح ينصحنى بأن أذهب الى ليوتين ، قائلاً : « هناك ستعرف كل
 شئ » • ولكننى لم أذهب الى ليوتين • فبعد أن قطعت شوطاً كبيراً من
 الطريق قررت فجأة أن أعود الى شاتوف • لم أدخل عليه • ولكننى
 شققت بابه وسألته هل يريد أن يذهب الى ماريا تيموفثنا • فأجابنى شاتوف
 بشيئة • فرجعت أهبط السلم • أحب أن أذكر هنا ، خشية النسيان ، أن

شاتوف فى ذلك المساء نفسه قد مضى الى الطرف الآخر من المدينة ، الى
 عند ماريا تيموفتشنا التى لم يكن قد رآها منذ مدة طويلة • فوجدها فى ذلك
 اليوم موفورة الصحة مشرقة المزاج • أما أخوها ليادكين فكان قد اضطجع
 على الديوان فى الحجرة الأولى ونام وهو فى حالة سكر شديد • كانت
 الساعة هى التاسعة تماماً كما ذكر لى شاتوف ذلك فى الغداة حين لقينى
 عرضاً فى الشارع • وفى الساعة العاشرة قررت أن أحضر حفلة الرقص ،
 لا « مشرقاً » (فإن عقدة الشريط كانت قد بقيت عند جوليا ميخائيلوفنا) ،
 بل مشاهدأ يدفعه حب الاطلاع وتدفعه الرغبة فى أن يسمع ما تقوله
 المدينة عن جميع هذه الأحداث دون أن يلقى على أحد سؤالاً • ثم اتنى
 كنت أريد أن أرى جوليا ميخائيلوفنا ولو من بعيد : لقد لمت نفسى كثيراً
 على أننى تركتها بمثل تلك السرعة •

٣

تلك الليلة ، مع جميع أحداثها المستحيلة و « خاتمتها » الرهيبة ،
 ما تزال تبدو لى اليوم كابوساً فظيعاً ، و ما تزال تؤلف فيما يتعلق بى أنا
 على الأقل ، أشقّ جزء من أجزاء هذه القصة • لقد وصلت الحفلة متأخراً ،
 ولكننى استطعت أن أشهد نهايتها ، فإنها لم تدم طويلاً • كانت الساعة قد
 تجاوزت العاشرة قليلاً حين دخلت باب منزل زوجة مارشال النبالة • لقد
 أعدوا الصالة البيضاء الكبيرة التى قامت فيها الصبيحة الأدبية لتكون صالة
 رقص ، اذ كانوا يعتقدون أن المدينة ستشارك فى الحفلة • ولكن الواقع
 تجاوز أسوأ التنبؤات • وكنت أنا منذ الصباح متشابهاً فيما يتصل بالاقبال
 على هذه الحفلة • غاب المجتمع الراقى كله ، وغاب كذلك جميع الموظفين
 الذين لهم قدر من الشأن ، وتلك وحدها علامة سوء ونذير شر • أما عن
 السيدات والآمنات فإن حسابات بطرس ستيفانوفتش (وهى حسابات

خادعة مضللة طبعاً) فقد اتضح بطلانها وكذبها : ان عدد السيدات والآسات اللواتى حضرن الحفلة عدد ضئيل جداً • لا تكاد توجد سيدة واحدة فى مقابل أربعة رجال • ويا لهن من سيدات ! انهن نساء ضباط صغار ، وزوجات كتاب فى الدواوين ، وثلاث ممرضات مع بناتهن ، وأسرة السكرتير التى سبق لى أن جثت على ذكرها ، واثنان أو ثلاث من المالكات الفقيرات بمقاطعتنا ، وبائعات ... أفهذا ما كانت تتوقعه وترجوه جوليا ميخائيلوفنا ؟ أما السادة فانهم ، رغم غياب الطبقة الارستقراطية ، كانوا كتلة كثيفة • ولكنهم يحدثون فى النفس تأثيراً سيئاً ، ويشيرون الشبهة • كان بينهم طبعاً ضباط متواضعون محترمون مع زوجاتهم ، وكان بينهم أرباب أسر طيّعون ، مثل ذلك السكرتير الذى له سبع بنات ؛ ان هؤلاء الناس البسطاء انما جاءوا بنوع من « الاضطراب » ، على حد تعبير واحد منهم ، ولكن كان بينهم أشخاص من طينة أخرى : فتيان مستهترون ، وأشخاص من نوع الذين قدّرنا أنا وبطرس ستيغانوفتش أنهم أَدْخلوا الجلسة الأدبية بدون تذاكر • حتى لقد كان عددهم الآن أكبر كثيراً من عددهم فى الصباح • انهم الآن واقفون فى قاعة البوفيه • وقد لاحظت أنهم ما ان دخلوا حتى مضوا اليها رأساً ، كأنهم على موعدٍ فيها • وكان البوفيه قد أُعدَّ فى نهاية سلسلة من الغرف ، فى قاعة فسيحة أقام فيها بروخورتش وسط مجموعة من أشهى المأكولات والمقبلات التى يعدها مطبخ النادى مع أعداد كبيرة من قناني الخمرة • ولاحظت هنالك أفراداً لا يدرى الا الله من أين خرجوا ، وقد أخذهم السكر منذ ذلك الحين ، وكانت هيئاتهم الزرية لا تليق بحفلة رقصٍ حتماً • كنت أعرف أن جوليا ميخائيلوفنا قد ارتأت أن تقيم حفلةً ديموقراطية الى أبعد حد ، وأن تسمح بدخول الحفلة حتى « للبورجوازيين الصغار اذا كان بينهم من يملك ثمن تذاكر دخول ، • وهى حين قالت هذا الكلام أمام لجتتها لم تكن تجازف

بشيء ، لأنها تعلم علم اليقين أن لا أحد من بورجوازيينا الصغار ، وكلهم فقراء ، يخطر بباله أن يشتري بطاقة دخول • مهما يكن من أمر ، ورغم الميول الديمقراطية لدى اللجنة ، فإن حضور هؤلاء الأشخاص المشؤمين الذين يرتدون ملابس مرقعة منقبة لم يبد لي أمراً مقبولاً • ولكن من ذا الذى تركهم يدخلون وماذا كان غرضه من ذلك ؟ ان ليوتين وليامشين كانا قد حرّما من شارتي المشرفين (ولكنهما حضرا الحفلة على كل حال ، لأنهما كانا سيشاركان فى الرقصة الرباعية) • ولكن ما كان أشد دهشتي حين رأيت أن ليامشين قد حلّ محله فى مهمة الاشراف ذلك الطالب الذى أحدثت مشاحنته مع ستيفان تروفيموفتش فضيحة كبرى فى « الصبيحة الأدبية » • وأما ليامشين فقد ناب عنه فى وظائفه بطرس ستيفانوفتش نفسه • فماذا كان يمكن أن يُستظر اذن ؟ لقد أصبحت بسمعى الى المحادثات ، فأدهشنى فى بعضها غباؤها وخبئها • ففى جماعة من الجماعات مثلاً كانوا يؤكدون أن هرب ليزا انما دبّرتّه جوليا ميخائيلوفنا نفسها ، وان جوليا ميخائيلوفنا قد قبضت من ستافروجين ثمن ذلك مبلغاً من المال • حتى لقد حددوا المبلغ ؟ وأن اقامة الحفلة لم يكن لها من غرض الا تنفيذ هذه الخطة ، فلهذا السبب تخلف نصف المدينة عن المجيء بعد أن علم بالأمر • وقد بلغ لبك من الدهشة لهذه القصة كلها أنه فقد عقله ولكنه ينقاد لامراته ولا يخرج على ارادتها • وكان الناس يضحكون ضحكاً فظاً سمجاً شريرا ولم يفقههم أن ينتقدوا حفلة الرقص انتقادا عنيفا ، وأن ينعتوا جوليا ميخائيلوفنا بأبشع الأوصاف دون أى تحرج • ولكن كان يصعب على المرء أن يستخرج أى شيء محدد معين من هذه الثروة المشوشة الحاققة المحمومة • وكان الملجأ كذلك ملاذاً للأشخاص الذين يريدون أن يتسلوا ويتندروا ويضحكوا لا أكثر • فهناك يرى المرء نساءً من أولئك السيدات اللواتي يطفحن نشاطا ومرحاً ، واللواتي أصبح لا يدهشنهن

شيء ولا يرهبن شيء • انهن فى صحبة أزواجهن ، الضباط فى الغالب الأعم • وكان أزواجهن هؤلاء قد جلسوا الى موائد صغيرة يشربون الشاي ويتمزحون ضاحكين • وما هى الا فترة وجيزة حتى أصبح نصف الجمهور فى تلك الحجرة • شعرت بخوف حين تصورت ما قد يحدث حين يتزاحم هذا الجمهور كله دفعة واحدة فى صالة الرقص حيث كانت قد تكونت بمساعدة الأمير ثلاث رقصات رباعية بسيطة •

كانت الفتيات ترقص أمام آبائهن وأمهاتهن ، وكان الآباء والأمهات يتلهجون بذلك ويسرون له • ولكن عددا كبيرا من هؤلاء الآباء والأمهات كانوا يقولون بعضهم لبعض ان بناتهن قد تسليين بما فيه الكفاية ، فيحسن الانصراف فى الوقت المناسب قبل أن « يبدأ الأمر » • ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأن « أمراً سييئاً » لا محالة • يصعب على أن أصف الحالة النفسية التى كانت عليها جوليا ميخائيلوفنا • ورغم انى وجدتتى بقربها عدة مرات ، فأننى لم أكلمها • كما أنها لم ترد التحية التى حيثها بها عند دخولى ، لا شئ الا كونها لم تلاحظنى • كان وجهها مغلقاً ، وكان فى نظرها غطسة واحتقار ، ولكن كان فى هذه النظرة قلق أيضا • واضح أنها كانت تحاول أن تتغلب على نفسها • لماذا ؟ ولن ؟ لقد كان ينبغى لها أن تصرف ، وأن تقاد زوجها خاصة ، ومع ذلك بقيت • يكفى أن ينظر المرء الى وجهها حتى يدرك أن عينيها قد « زالت عنهما الفشاوة » ، وأنها لم يبق لديها أى وهم • أصبحت لا تتبته حتى الى بطرس ستيفانوفتش (وكان بطرس ستيفانوفتش يتحاشاها على كل حال • لقد لمحته فى البوفيه ، فرأيتة شديد المرح) • لقد بقيت جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك ، ولم تترك زوجها • فى ذلك الصباح نفسه ، لو أن أحداً ألمع الماعا الى صحة آندره انطونوفتش لرفضت هذا الالماع مستاءة أصدق الاستياء حتماً • ولكن عينيها قد زالت عنهما الفشاوة الآن فى هذا الأمر أيضا ولا شك •

أما أنا فقد بدا لي منذ النظرة الأولى أن هيئة آندره أنطونوفتش أسوأ مما كانت في الصباح . لكأنه الآن لا يعنى ما يعمل ، بل لا يدرك أين هو من المكان . كان من حين الى حين يلقي على ما حوله نظرات قاسية . وقد تلبثت احدى هذه النظرات على مرتين . وفجأة أخذ يتكلم بصوت قوى، ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته ، فامتلاً من ذلك بالرعب قلبُ موظفٍ عجوزٍ خجولٍ كان حينذاك بقربه مصادفة . ثم ان هذا الجزء نفسه من الجمهور الذى كان واقفاً فى الصالة البيضاء بتواضع ، كان يبتعد عن جوليا ميخائيلوفنا مكفهر الهيئة حانقا ، ملقيا على زوجها نظرات غريبة ، نظرات يتناقض اصرارها وتتناقض دلالتها تناقضا قويا مع ما كانت تعبر عنه هيئاتهم من وجل .

لقد أسرّت الى جوليا ميخائيلوفنا ، فيما بعد ، قائلة :
- ذلك بعينه هو ما فجأني . وعندئذ انما أخذت أدرك حقاً الحالة النفسية التى كان عليها آندره أنطونوفتش .

نعم ، مرةً أخرى ارتكبت غلطة . انه لمن الجائز أنها منذ قليل ، حين خرجتُ من عندها هارباً ، وكانت قد قررت بالانفلاق مع بطرس ستيفانوفتش أن الحفلة ستقام ، وأنها ستحضرها ، أقول انه لمن الجائز أن تكون قد ذهبت الى حجرة آندره أنطونوفتش الذى كانت المصبيحة الأدبية قد قلبت نفسه رأساً على عقب ، فما زالت به تغريه وتغريه حتى حصلت منه على موافقته على مصاحبته الى حفلة الرقص . ولكن لا شك أنها تلوم نفسها على ذلك أشد اللوم الآن ! ومع ذلك لم تشأ أن تنصرف . أكان العجب هو الذى يعمدُ بها ؟ لا أدري ! انها رغم زهوها قد حاولت عدة مرات أن تعقد حديثاً بينها وبين بعض السيدات ، موجّهة اليهن ابتسامات متواضعة ، ولكن السيدات سرعان ما كن يتخوفن ثم يتخلصن من الحديث بكلمة نعم أو بكلمة لا ، موجزات مقتضبات ، ويتبعدن عنها متعجلات تعجلاً واضحاً .

وكان لا يمثل الطبقة الارستقراطية فى الحفلة الا ذلك الجنرال
المحال على التقاعد الذى سبق أن أتيح لى الكلام عنه والذى « فتشح باب
التذمر على مصراعيه للناس كافة » بعد المباراة التى قامت بين ستافروجين
وجاجانوف . كان الجنرال يتجول فى القاعات مهيب المنظر ، ملاحظاً كل
شئ ، حريصاً أشد الحرص على أن يظهر بوضعه أنه لم يجرى الا من
باب حب الاطلاع على عادات أهل الاقليم . وانتهى به الطواف الى التثبيت
بجوليا ميخائيلوفنا ، فلم يتركها بعد ذلك ، محاولاً أن يسرى عنها
ويواسيها ويهدئ روعها . ان الرجل الممتاز ، المهيب المنظر ، كان قد
بلغ من التقدم فى السن أن المرء يقبل منه العطف والشفقة . ومع ذلك
كان واضحاً على جوليا ميخائيلوفنا أنها يحقنها أن ترى نفسها مضطرة الى
الاعتراف بأن هذا العجوز الثرائى قد أباح لنفسه أن تأخذها به شفقة وأن
يكون لها بمثابة الحامى قريبا ، شاعراً بأنه اذ يفعل ذلك انما يشرفها .
ومع ذلك لم يتركها الجنرال ، وظل يتكلم بلا توقف .

— يقال ان مدينة من المدن لا يمكن أن تبقى الا اذا كان يحميها
سبعة صالحين . . . نعم . . . سبعة . . . فيما أظن . . . لا أتذكر العدد
المطلوب على وجه الدقة . ومن بين صالحينا السبعة الذين لا يجحدون ،
لا أعرف عدد الذين يشهدون حفلتك هذه ، ولكننى رغم حضورهم
لا أشعر بالثقة والطمأنينة . انك تفقرين لى ، يا سيدتى الفاتنة ، أليس
كذلك ؟ اننى أتكلم رمزاً . ولكننى ذهبت الى البوفيه فعددت نفسى سعيداً
لأننى استطعت أن أخرج منه سليماً لم يمسنى سوء . ان صاحبنا الطيب
بروخورتش ليس فى مكانه ، وأنا أخشى أن لا يطلع الصباح الا ويكون
مبناه قد انقلب عاليه سافله ! أنا أمزح على كل حال . ولكننى أنتظر الرقصة
الرباعية التى مدارها على الأدب ، وبعد ذلك أمضى الى سريرى فأنام .
اعذرني فأنا مريض بداء النقرس . اننى أنام فى ساعة مبكرة . وعلى

كل حال ، فأنا أنصحك بأن تنامي أنت أيضا • أنا انما جئت خاصةً لأمّتع
بصرى بالجمال الغض النظر • ولست أستطيع طبعاً أن أجد منه تشكيلة
غنية كالتشكيلة التى يمكن أن أراها فى هذا المكان ••• انهن جميعاً من
الحى الذى يقع على الضفة الأخرى من النهر • وهو حى لا أذهب اليه
أبداً • هناك زوجة أحد الضباط ، الضباط القنّاسة اذا لم يخطئ ظنى •
انها حسناء ••• وتعرف أنها حسناء • لقد تحدثت مع الصغيرة العنجة •
ما هى بالحجول ! ••• ثم ••• ان الفتيات نصيرات • ولكن ليس فيهن
شئ غير هذا • على كل حال ، لقد سررت بمرآهن • ان بينهن لبراعم
ورد حقاً • خسارة أن شفاهن سمكة قليلاً • ان الجمال الروسى
بوجه عام يفتقر الى اتساق القسّمات ••• « تغفرين لى ، أليس كذلك ؟
(بالفرنسية) • الأعين جميلة ، يجب الاعتراف بهذا ••• هى أعين
ضاحكة • ان براعم الورد هذه لذيذة ما ظلت فتية ••• أى مدة سنتين •••
أو ثلاث سنين ••• ثم هى تتفتح تفتحاً شديداً ، فتشوه ، الى الأبد •••
فنبعث فى الأزواج ذلك النوع من « اللا ••• اكثراً ••• ثية » التى تساهم
كثيراً فى مفاخرة قضية المرأة ••• اذا صحّ ما أفهمه من هذه القضية وما
أعرفه عنها ••• هم ••• الصالة جميلة ، والغرف قد أعدت اعداداً
لا بأس به • كان يمكن أن يكون اعدادها أسوأ • والموسيقى أيضاً كان
يمكن أن تكون أردأ • لا أقول انها كان ينبغى أن تكون أردأ ! ••• الشئ
الذى لا تترتاح اليه النفس هو قلة عدد السيدات • لا أقول شيئاً عن زينة
السيدات ، بل عن عددهن • من المؤسف أن هذا الرجل ، الذى يرتدى
بنطلوناً ومادياً ، قد أباح لنفسه أن يرقص الكانكان منذ الآن • اننى أعذره
لو كان يتهزّز هذا التهزّز عن فرح • ثم انه أحد الصيادلة عندنا ••• انه
لكثير على صيدلى أن يبدأ منذ الساعة الحادية عشرة • لقد بكرّ كثيراً •••
وفى البوفيه رأيت رجلين يتبادلان اللكمات منذ لحظات ، ولم يطردوهما •
ان الذين يتضاربون فى الساعة الحادية عشرة يجب أن يطردوا ، مهما

تكن عادات الجمهور وأخلاقه *** لا أقول شيئاً عن الساعة الثالثة من الصباح ، ففي الساعة الثالثة من الصباح لا يد من بعض التنازلات • ولكن هل يمكن أن تدوم هذه الحفلة حتى الساعة الثالثة ؟ *** أرى أن فرافرا يتروفا لم تبرّ بوعدها فترسل أزهاراً • هم • ان هموم رأسها الآن لا تسمح لها بالتفكير فى هذا الأمر • يا للأم المسكينة ! والشقية ليزا ! هل سمعت ؟ هذه قصة ملفزة فيما يقال ، ان ستافروجين يظهر على المسرح من جديد ! *** هم • *** يحلوا لى أن أذهب الآن فأنام • ان عينيّ تغمضان • والرقصة الرابعة الأدبية ، متى عساها تبدأ ؟

وبدأت الرقصة الرابعة الأدبية أخيراً • وكان الناس بالمدينة ، فى الآونة الأخيرة ، ما ان يجيء الحديث على ذكر الحفلة حتى يتعوضوا لأمر هذه الرقصة ، فان حب الاطلاع كان يثور حتى يبلغ أقصاه • ولا شئ يمكن أن يكون خطراً على نجاح هذه الرقصة كهذه الحالة النفسية • لذلك ما كان أشد خيبة أمل الناس حين رأوها !

انفتح أحد أبواب الصالة البيضاء التى ظلت مغلقة حتى ذلك الحين ، وخرج منه فجأة عددٌ من الراقصين المقنعين • فسرعان ما أحاط بهم الجمهور • وجميع الذين كانوا فى البوفيه هرعوا الى القاعة • وتهايم المقنمون للرقص مصطفين • واستطعت أنا أن أتسلل الى أمام ، فصرت وراء جوليا ميخائيلوفنا وآندره أنطونوفتش والجنرال تماما • وفى تلك اللحظة رأيت بطرس ستيفانوفتش الذى ظل متنجياً طوال الوقت ، رأيت يهرع نحو جوليا ميخائيلوفنا ، ويهمس قائلاً لها بهيئة تلميذ مذنب •

— سوف أبقى فى البوفيه وأراقب الناس •

وكان ذلك منه تظاهراً زائفاً مفضوحاً لا يهدف فى الواقع الا الى احناق المرأة المسكينة مزيدا من الحنق • فاحمر لونها احمرارا شديدا من فرط الغضب •

فأفلت من لسانها قولها بصوت عالٍ سمعه الناس :

ـ لا تحاول أن تخدعنى بعد الآن أيها الشخص الوقح •

فولتى بطرس ستيفانوفتش هارباً ، راضياً عن نفسه كل الرضى •

انه ليصعب على المرء أن يتخيل رقصة رمزية أبشع ولا أغبى ولا أدعى الى الرثاء من تلك « الرقصة الرباعية الأدبية » ! ولا شيء أبعد منها عن ذوق جمهورنا ، وأبعث منها على نفوره ! ومع ذلك فان كارمازينوف ، فيما يظهر ، هو الذى وضع فكرتها • صحيح أن التنفيذ قد تولاه ليوبتين ، وساعده فيه الأستاذ الأعرج الذى شهد سهرة فرجنسكى • ولكن واضح الفكرة هو كارمازينوف على كل حال • حتى لقد أكد بعضهم أن كارمازينوف خطر بباله أن يتقنع وأن يشارك هو نفسه فى « الرقصة الرباعية الأدبية » • لم يتجاوز عدد المقنعين ستة أزواج ، هذا اذا صح أن يطلق اسم المقنع على شخص يرتدى ملابس كملايس سائر الناس : كان أحد المقنعين مثلاً ، وهو سيد متقدم فى السن ، قصير القامة ، يلبس رداء فراك ، وله لحية بيضاء محترمة (هى الشيء الوحيد المصنوع الذى كان بمناسبة قناع) ، كان هذا الرجل يرقص أو قل يتهزز فى مكانه بجد لا يزعزجه عنه شيء ولا يعكره عليه شيء ؟ وينطق أحرفاً غريبة بصوت خافت مبجوح ، فكانت هذه البهجة هى الشيء الوحيد الذى يرمز الى جريدة معينة معروفة • وأمام هذا الشخص كان يرقص رجلان عريضان هما « جيم » و « دال » • كان هذا الحرفان معلقين بدبوسين على رداءيهما (الفراك) ، ولكن لم يعرف أحد ماذا يعنيان ولا الى شيء يرمزان • وكان « الفكر الروسى الشريف » انما يمثله سيد متوسط العمر ، على عينيه نظارتان ، وفى يديه قفازان ، ولباسه فراك ؛ مع جنزير فى قدميه (جنزير حقيقى من جنازير السجناء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة) • انه يتأبط محفظة تحتوى على

« ملف » لا أدرى ما هو • ومن جيبه تخرج رسالة مفضوضة "مرسلة اليه من الخارج تبرهن لأكثر الناس شكاً وريبة على شرف « الفكر الروسى الشريف » ، كما سُرح لنا ذلك بصوت عالٍ ، لأن الرسالة لم تكن قراءتها ممكنة بطبيعة الحال • والرجل يحمل بيده اليمنى قدحاً كأنه يتهاى لأن يقترح نخباً • وعلى جانبه يتوالب اثنان من العدميين قد قصَّ شعرهما قصيراً • وأمام هذا « الثلاثى » يرقص رجل كهل يرتدى فراكاً ويحمل بيده هراوة • انه يمثل جريدة يومية تصدر بموسكو ، وكان هيته تقول: « انتظروا قليلاً فلسوف ترون ما أفعل بكم ! » • ولكنه رغم هراوته لا يستطيع أن يتحمل النظرة التى يطارده بها « الفكر الروسى الشريف » من خلال نظارتيه ، فهو يحاول أن يشيع عينيه ، حتى اذا خطا خطوة من اثنتين ، انحنى وتلوَّى ، ثم لم يعرف أين يدس نفسه من شدة ما يعانى من عذاب الضمير ! ••• لا أتذكر الآن بقية سخافات هذه الرقصة • ولكنها كانت جميعا من هذا الطراز على كل حال ، حتى شعرت أخيراً بعار شديد وخزى أليم • وقد تجلى هذا الشعور بالعار فى جميع الوجوه ، حتى فى الوجوه المشثومة التى وفدت من البوفيه • ولقد ظل الناس صامتين خلال مدة من الوقت ، يتأملون هؤلاء المقنعين مدهوشين دهشة غاضبة حائقة • ولكن من عادة الانسان أن الشعور بالعار يجعله شريراً ميالاً الى الاستهتار والاستخفاف • فهذه جلبة صماء تعلو شيئاً بعد شيء :

دمدم أحد أصدقاء البوفيه متسائلاً :

— ما معنى هذا كله ؟

وقال آخر :

— يا للبلاهة !

فأجاب ثالث :

- هذا أدب • انهم ينتقدون جريدة « الصوت » •
- ولكن فيم يعني أنا هذا ؟
- وبين جماعة أخرى دار الحوار التالى :
- هؤلاء حمير !
- أنا لست حماراً !
- وأنا لست حماراً !
- وفى جماعة أخرى دار الحوار التالى :
- يجب أن يُركل قفاهم بالأقدام وأن يرسلوا الى الشيطان !
- تعال نخرب الصالة كلها •
- وفى حلقة أخرى :
- كيف لا يستحى آل لمبكه أن يروا هذا كله ؟
- علام يستحون ؟ وأنت لماذا لا تستحى ؟
- اننى لأشعر بالحياء فعلاً • ثم انه هو حاكم !
- وأنت أيضا خنزير !
- لم أشهد فى حياتى كلها حفلة رقص تبلغ هذا المبلغ من العامية والابتذال •
- كذلك قالت بلهجة مسمومة وصوت عالٍ ، رغبةً فى أن تُسمع ، سيدةٌ كانت بقرب جوليا ميخائيلوفنا • ان جميع الناس فى المدينة تقريباً يعرفون هذه السيدة التى تبلغ من العمر زهاء أربعين عاماً ، السمينه ، المثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ ، المرتدية ثوباً من حرير صارخ الألوان • ولكنها لم تكن تُستقبل فى منازل عليه القوم • انها أرملة مستشار دولة ، أورثها زوجها منزلاً من خشب وراتباً هزيباً • وكانت قبل شهرين

قد مضت الى منزل جوليا ميخائيلوفنا تحاول زيارتها ، ولكن جوليا لم تستقبلها •

أضافت تقول وهي تلقي على جوليا ميخائيلوفنا نظرة وقحة :

— على كل حال كان هذا متوقعا •

فلم تستطع جوليا ميخائيلوفنا أن تسيطر على نفسها ، فأجابتها قائلة :

— اذا كان متوقعا ، فما كان ينبغي لك أن تجيئي •

فسرعان ما ردّت السيدة تقول رافعة رأسها في تحدٍ :

— كنت ساذجة مسرفة في السذاجة •

كان واضحا أن السيدة كانت تتحرق شوقا الى مشاجرة جوليا ميخائيلوفنا •

ولكن الجنرال تدخل قائلاً بصوت خافت وهو يميل نحو جوليا ميخائيلوفنا :

— سيدتي العزيزة ، حقاً انه لمن الأفضل أن تنصرفي • نحن لا نزيد هنا على أن نضايقهم • فلو انصرفنا لتسلوا وابتهجوا أكثر من هذا • لقد قمت بواجباتك الآن ••• لاسيما وأن آندره أنطونوفتش ليست صحته حسنة فيما أظن ••• قد يحصل شيء خطير •

ولكن كان قد فات الأوان •

ان آندره أنطونوفتش ، منذ أن ظهر المقتّمون ، لم ينقطع عن النظر اليهم بدهشة يمازجها غضب • وحين أخذ الجمهور يضحك ، ألقى على ما حوله نظرات قلقلة عدة مرات • وحينذاك انما لاحظ لأول مرة وجوهاً كريهة تستحق العقاب • فارتسمت على وجهه عندئذ أقصى معاني الشدة • وانفجرت قهقهات على حين فجأة : ان ناشر الجريدة اليومية « الرهبة » بموسكو ، الذي كان يرقص مع هراوة ، وقد عجز عن أن يحتمل النظرة

التي يرشقه بها « الفكر الروسى الشريف » مزيداً من الاحتمال ، وأصبح لا يعرف كيف يتجنبها ، لم يجد وسيلةً أفضل من أن يمشى على يديه ، رافعاً قدميه فى الهواء ، وهذه اشارة لطيفة الى الفوضى الفكرية التي تتخبط فيها هذه الجريدة والى ما تتصف به من بعد عن الحس السليم ونأى عن العقل . ولما كان ليامشين هو الشخص الوحيد الذى يستطيع السير على يديه ، فقد تولى بنفسه تمثيل دور هذه الشخصية التي تحمل الهراوة . لم يكن يخطر ببال جوليا ميخائيلوفنا أن مشهداً كهذا المشهد سيُمثل : « لقد أخفوا عنى هذا الأمر ، لقد كنموه عنى ! » . كذلك كانت تردد فيما بعد مستاءةً غاضبةً حانقة . وكان الناس يضحكون . ولكنهم لا يضحكون طبعاً من « الرمز » الذى لا يهم أحداً ، وانما كانوا يضحكون من منظر سيد يرتدى فراكا وقد جعل رأسه فى أدنى وقدميه فى أعلى . وارتعش فون لمبكه غضباً . وها هو ذا يأخذ يصيح مشيراً الى ليامشين :

– شقى ! ... أمسكوه ! ... اقلبوه ! ... اجعلوا قدميه فى أسفل ، ورأسه فى أعلى ... فى أعلى ! ...

استقام ليامشين على قدميه . وتضاعفت القهقهات .

وصاح فون لمبكه أمراً على حين فجأة :

– اطردوا جميع هؤلاء الأوغاد الذين يضحكون !

فاشتد الضحك صخباً ، وطفق الجمهور كله يضحج مرحاً :

– هذا سلوك غير لائق يا صاحب السعادة !

– لا تجوز اهانة الجمهور !

وصاح صوت فى ركن من الصالة يقول :

– أنت النبى !

وقذف آخر قوله :

— نصابون !

فلما سمع لبكه هذه الصيحة التفت فجأة ، واصفر وجهه اصفرارا شديدا . وألت بشفتيه ابتسامة مبهمة • لكأنه كان يتذكر شيئا ويسترد وعيه •

قالت جوليا ميخائيلوفنا وهي تحاول أن تقتاد زوجها وأن تُخرجه من الجمهور الذى كان يزحمهما من كل جهة :

— أيها السادة ! اعذروا آندره أنطونوفتش • ان آندره أنطونوفتش مريض • اعذروه • اغفروا له •••

نعم ، لقد سمعتها تنطق بهذه الجملة « اغفروا له » • وقد جرى المشهد سريعا جدا • ولكننى أتذكر جيدا أن جزءا من الجمهور قد ارتاع حين سمع ذلك ، فهرع يخرج من الصالة • بل اننى لأتذكر تلك الصرخة التى أطلقها امرأة جعلت تبكى بكاء عصيبا وتقول :

— آه ••• تجدد الأمر !

وفى وسط هذه الفوضى والبلبلة ، انفجرت قنبلة جديدة • فهذا صوت يصيح قائلاً :

— النيران ! النيران ! الضاحية تَحترق !

لا أدرى على وجه الدقة من أين انبعثت هذه الصرخة • أظن أن أحداً فى حجرة المدخل قد أطلقها بعد أن صعد درجات السلم أربعاً أربعاً • المهم أن هلعاً وجزعاً عاماً لا يوصفان قد استوليا على الناس • ان أكثر من نصف الجمهور انما يسكن فى الضاحية (أى فى الحى الذى يقع على الضفة الأخرى من النهر) • وهرع الناس الى النوافذ ، فأبعدوا الحجب وانتزعوا الستائر • كانت الضاحية تَحترق فعلاً • ان الحريق

لم يبدأ الا منذ برهة قصيرة • ولكن المرء يرى رؤية واضحة أن النار
قد شبت في ثلاثة أماكن مختلفة • وذلك هو أقطع ما في الأمر •

أعول الجمهور يقول :

– عمال مصنع شيجولين هم الذين أشعلوا النار •

وانى لأتذكر بضع صيحات ذات دلالة كبيرة :

– كنت أتوقع أن يشعلوا النار ! كنت أوجس هذا طوال هذه الأيام

الأخيرة !

– هذه ضربة من عمال مصنع شيجولين • ليس في هذا شك •

– لقد جمعونا هنا عمداً لاشعال النار في بيوتنا •

ان هذه الصرخة الأخيرة ، وهى أغرب سائر الصرخات كافة ، انما
أطلقتها على غير ارادة منها ، دون أن تفكر فيها ، امرأة جئت من الذعر
يقال لها كوروبوتشكا •

واتجه الناس نحو باب الخروج • لن أحاول أن أصف عويل النساء
المروّعات ، وبكاء الفتيات ، والتراحم والتدافع فى حجرة المدخل حول
المعاطف والشالات • ولا غرابة فى أن عددا من الناس قد انصرف فى
وسط هذه الفوضى قبل أن يعثر على معطفه • ولكننى لا أعتقد أنه كان
هناك سرقات كما رُوى ذلك بالمدينة فيما بعد • وقد أوشك لمبكه وجوليا
ميخائيلوفنا أن يداسا فى هذا الزحام فيهما تهنيسما •

وكان لمبكه يصرخ مرغياً مزيداً ، ماداً نحو الجمهور ذراعه ،
مهدداً :

– أوقفوا الجميع ! اعتقلوا الجميع ! لا يخرجن أحد !

فجاءه الجواب على ذلك شتائم وسبابا من كل جهة بالقاعة •

وصرخت جوليا ميخائيلوفنا تقول له وقد طاش صوابها :

— آندره أنطونوفتش ! آندره أنطونوفتش !

فصرخ يقول وهو يومئ اليها باصبعه :

— اعتقلوها هي قبل أى شخص آخر • وفتشوها قبل أن تفتشوا أى شخص آخر ! لقد أقيمت حفلة الرقص لاشعال النار فى المدينة •

فأطلقت جوليا ميخائيلوفنا صرخة ، وسقطت مغشياً عليها (لقد أغمى عليها اغماءً حقيقياً فى هذه المرة) • فأسرعنا الى نجدها أنا والأمير والجنرال • وهبنا الى مساعدتنا فى هذه اللحظة الصعبة أشخاص آخرون ، حتى ان عددا من السيدات كان بين الذين هبوا الى مساعدتنا • وأفلحنا فى أن نخرجها من هذا الجحيم وأن نركبها عربتها • ولكنها لم تستيقظ من اغماؤها الا حين وصلت الى البيت • فكانت الكلمات الأولى التى نطقت بها هى السؤال عن آندره أنطونوفتش • لقد أصبحت لا تفكر الا فيه وسط انهيار جميع أحلامها • وأرسلنا نستدعى طبيباً • وبانتظار وصول الطبيب قضيت الى جانبها ساعة أنا والأمير • وقد عصفت بالجنرال نوبة كرم وأريحية (رغم أنه كان هو نفسه خائفا مذعورا) فقرر أن يبقى ساهرا على « سرير المسكينة » طول الليل • ولكنه ما ان انقضت عشر دقائق حتى أخذه الكرى فنام على مقعد ، وترك شأنه •

وقد استطاع رئيس الشرطة الذى كان يريد أن ينتقل الى مكان الحادث المشتوم بأقصى سرعة ، استطاع أن يخرج لمبكه من صالة الحفلة وأن يركبه العربّة الى جانب جوليا ميخائيلوفنا ، ناصحاً « صاحب السعادة » الحاكم بأن ينال قسطاً من الراحة • اننى لا أفهم لماذا لم يلجأ مزيدا من اللاحاق • وطبيعى أن كان فون لمبكه لا يريد أن يسمع أحداً ينطق بكلمة « الراحة » ، ويصرُّ على أن يرى الحريق بنفسه اصراراً شديداً • ولم

يكن هذا بالحجة الكافية ، ولكن رئيس الشرطة اصطحبه في عربته أخيراً ، وأخذَه الى «الضاحية» • وقد روى بعد ذلك أن فون لمبكه ظل طوال الطريق يحرك يديه بإشارات معينة ويصدر أوامر غريبة عجيبة «يستحيل تنفيذها» • وفي التقرير الذي قدمه فيما بعد صرَّح بأن «صاحب السعادة كان في تلك اللحظة ، بسبب ذعر مفاجيء وهلع مباغت ، يعاني نوبة حمى حارة • •»

لا داعي الى أن أروى عليكم كيف انتهت الحفلة • لقد هرب الجميع الا عشرين أو ثلاثين شخصا وبضع سيدات • أما الشرطة فلم يبق منها أحد • وهؤلاء الذين لم يهربوا لم يسمحوا لأعضاء الأركسترا أن ينصرفوا ، حتى انهم ضربوهم حين أرادوا الفرار • وفي الصباح كانت «دكان» بروخورتش قد خوت تماما • لقد ظلوا يشربون حتى ضاعت عقولهم ، وظلوا يرقصون بخطى مترنحة مبشرة ، وملأوا بالأوساخ الأرض ولطخوا بالأقذار الجدران • فلما طلع الفجر اتجه جزء من العصابة الى الضاحية سكارى تماما ، وكانت النيران قد بدأت تنطفئ • وهناك استرسلوا في أنواع جديدة من الفوضى والتشويش • • • أما الجزء الآخر منهم ، فكانت الحمرة قد خربتهم تخريبا ، ففصوا بقية الليل على الأرض أو على أرائك المخمل يعانون جميع ما يعانيه السكارى من عقابيل السكر البشعة الأليمة • حتى اذا شرقت الشمس أُخرجوا من المنزل جرأ من أقدامهم • فهكذا انتهت حفلة الرقص التي أقيمت لمعاونة معلمات اقليمنا •

ان النار لم تشب في الضاحية من تلقاء نفسها • لقد كان واضحا أنها من فعل فاعلين • وذلك خاصةً هو ما بث الذعر والهلع بين سكان «الضاحية» • يجب أن نلاحظ أن الصرخة التي انطلقت قائلة : «النيران!» قد أعقبتها على الفور صرخة أخرى تقول : «انهم عمال مصنع شيجولين!» • ولقد أصبح معروفا اليوم أن ثلاثة من عمال مصنع شيجولين هم الذين

أشعلوا النار فعلاً • ولكن زملاءهم جميعاً قد اتضحت براءتهم ، للقضاة وللناس على حد سواء • ان أولئك الأوغاد الثلاثة (الذين قبض على واحد منهم فاعترف بكل شيء ، وما يزال الآخرا هارين) ، قد فعلوا فعلتهم هذه مع فدا ، السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة : ذلك أمر لم يبق أى شك فيه الآن • وهذا مجمل ما نعرفه عن أصل الحريق الذى شب فى « الضاحية » • أما الافتراضات التى قامت فى الأذهان بشأنها شأن آخر • ماذا كان هدف هؤلاء الجناة الثلاثة ؟ أكان يوجههم أحد أم لا ؟ ما تزال الاجابة عن هذا السؤال صعبة أشد الصعوبة حتى الآن !

المهم أن ريحاً قوية قد أورت النيران ، فاذا بالحريق الذى اندلع فى ثلاثة أماكن مختلفة فى آن واحد ، ينتشر انتشاراً سريعاً جداً فيمتد فى حى بكامله ، لا سيما وأن المنازل التى تقع على هذه الضفة الأخرى من النهر كانت جميعها تقريباً من خشب (سيتبين لنا فيما بعد أن واحداً من المساكن الثلاثة قد اكتشفت فيه النار فسرعان ما أطفئت) • على أن مراسلى صحف العاصمة قد ضخمت الحادث : فالنيران لم تلتهم فى الواقع الا ربع الضاحية فى أكثر تقدير (ان لم يكن أقل من ذلك) • ان رجال المطافئ فى مدينتنا ، رغم أن عددهم قليل بالقياس الى سعة المدينة وعدد سكانها ، قد عملوا بهمة ونشاط ، وتصرفوا تصرفاً يتسم بالجرأة والجسارة • ومع ذلك فان جميع جهودهم كان يمكن أن تذهب سدى ، رغم مساعدة الأهالى لهم ، لولا أن الريح قد سكنت فجأة عند طلوع الشمس • انتهى حين وصلت الى « الضاحية » بعد ترك الحفلة بساعة رأيت الحريق يستعر استعاراً مجنوناً • كان الشارع الموازى للنهر مشتعل كله • وكان المرء يرى على وهج النيران كل شيء كأنه فى وضوح النهار • لن أسهب فى وصف المشهد تفصيلاً : من ذا الذى لا يعرف روسيا ؟ فى الشوارع الصغيرة المجاورة ، بلغ الاضطراب حدّاً رهيباً • السكان الذين ما تنفك

النيران تقترب منهم مهددة ، ينقلون أثاث بيوتهم وأمتعتهم العتيقة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على الابتعاد عن منازلهم ، فيظلون في الشارع ، جالسين على صناديقهم وألحقتهم ، تحت نوافذ بيوتهم . الرجال يندفعون في القيام بأعمال قاسية : يهدّون ألواح الحواجز بغير رحمة ، ويهدّون حتى الخصاص والأكواخ حين تكون في متناول النيران والرياح . الأطفال الذين انتشلوا من نومهم يكون . النساء اللواتي فرغن من جمع أمتعتن حولهن ينتجن انتحابا شديدا . واللواتي لم يفرغن من ذلك مازلن يعملن في نقل متاعهن صامتات . الشرارات وجمرات الفحم تتطاير الى بعيد ، فيسارع المسارعون الى اطفائها كيما اتفق لهم ذلك . أناس يهرعون من جميع أركان المدينة ويحتشدون في أمكنة الكارثة . فبعضهم يساعد رجال المطافي . وبعضهم لا يزيد على أن ينظر الى الحريق مشاهدا . ان رؤية نيران عظيمة في الليل يحدث على الدوام أثرا يهيج الأعصاب ويحرّض النفس في آن واحد . ذلك هو سرُّ تأثير الأسهم النارية التي تُطلق في الأعياد ابتهاجا . ولكن الأسهم النارية زينة مقصودة ، وليس فيها خطر مهدّد . لهذا لا تحدث في النفس الا احساسات خفيفة ونشوة يسيرة كتلك التي تحدثها كأس شمبانيا . ولا كذلك الحريق : فيها هنا دعر وشعور بخطر شخصي يضافان الى احتياج فرح تولّده نيران الليل ، فاذا بالمشاهد (اللهم الا اذا ألت به الكارثة هو نفسه) يشعر بنوع من هزة عصبية وتستيقظ في نفسه غمرايز التدمير ، الغافية عند كل انسان - وا أسفاه ! - وحتى عند موظف خجول هادئ ! ان هذا الاحساس الغامض يكاد يكون مسكرا دائما . « أشك أن يكون من الممكن أن يتأمل المرء حريقا دون أن يشعر من ذلك بلذةٍ ما » . ذلكم ما قاله لى ، كلمة كلمة ، في ذات يوم ، ستيفان تروفيموفتش ، حين عاد من رؤية حريق شهده في الليل مصادفةً ؟ ولقد قال لى هذا الكلام وهو ما يزال

يشعر بالآثر الأول الذى تركه فى نفسه منظر ذلك الحريق • لست أنفى طبعاً أن هذا الهاوى نفسه من هوة الحريق قد يكون قادراً قدرة تامة على أن يلقى بنفسه فى النار لانتقاذ طفل أو امرأة عجوز عند اللزوم • ولكن هذا الأمر أمر آخر •

تبع جمهور المستطلعين فاستطعت دون سؤال أحد أن أصل الى أخطر مكان فى الحريق ، وهناك لمحت أخيراً لمبكه الذى كنت أبحث عنه بالحاح من جوليا ميخائيلوفنا • فرأيت الرجل فى ظرف من أعجب الظروف • كان واقفاً فوق بقايا سياج • وفى يساره ، على مسافة ثلاثين خطوة ، يرى المرء هيكلًا أسود لمنزل خشبى من طابقين ، احترق احترقا شبه كامل ، وبانت فى مكان نوافذه فوهات مفجورة • لقد انهار سقف المنزل • وهذه حيّات من النار ما تزال تلمق عوارضه المتفحمة هنا وهناك • وفى الفناء يحاول رجال من رجال المطافئ أن يكافحوا ألسنة اللهب التى أخذت منذ ذلك الحين تخرج من جناح فى وسط الفناء ذى طابقين • وعلى اليمين ، كانوا يحاولون أن يحموا مبنى كبيراً من خشب قد تسلفت اليه النار مرارا ، وكان واضحاً أن مصيره الى الاحتراق • فكان لمبكه يصرخ ، ويحرك يديه بإشارات كثيرة أمام الجناح ، ويصدر أوامر لا ينفذها أحد • أحسست أنهم قد تركوه لشأنه يصيه ما يصيه • والواقع أن الجمهور الذى كان يحيط به وكان كثيفاً وكان متنوعاً ، وقد عرفت منه عدداً من السادة ، بل لقد عرفت منه كبير كهنة الكاثدرائية ، أقول ان هذا الجمهور كان يصفى الى لمبكه مدهوشا مستغربا مستطلعا ، غير أن أحداً لا يكلمه • كان لمبكه أصفر الوجه ، ملتحم العينين ، يلقى خطاباً عجيباً ويقول كلاماً غريباً • وكان الى ذلك حاسر الرأس ، لأنه فقد قبعته منذ مدة طويلة •

— هذا فعل فاعلين ! انهم عديمون ! حين يشب حريق فالذهب العدمي هو المسئول ...

هذا ما سمعته مرتاعا • والحق أنه أصبح على المرء أن لا يستعرب من لميكه شيئاً • ولكن حتى حين يتوقع الانسان كل شيء ، لا يملك الا أن يهزه الواقع القاسى الأليم وأن يبت الاضطراب فى نفسه •

قال له واحد من مفوضى الشرطة وقد هرع اليه مسرعاً :

— صاحب السعادة ، عليك أن تعود الى المنزل وأن تنال قسطاً من الراحة ... بل انه لخطر عليك أن تبقى هنا يا صاحب السعادة ! ...

ان هذا الموظف ، كما علمت ذلك فيما بعد ، كان قد كلفه رئيس الشرطة بأن يسهر على آتدرة أنطونوفتش وأن يحاول اقتياده الى المنزل ولو بالقوة فى حالة الخطر ، وذلك أمر يفوق طاقة مفوض الشرطة طبعاً •

— دموع الضحايا ستكفكف ، ولكن المدينة ستهلك • انهم أولئك الأوغاد الأربعة ... الأربعة والنصف ! ... اعتقلوا هذا الشقى ! انه وحده المسئول • أما الآخرون فقد افترى عليهم زوراً ! هو يتسلل الى الأسر ، ويدمر شرفها • لقد كلفوا المعلومات باشعال النيران فى البيوت • هذا جبن ! هذه حقارة ! هذه خسة ودناءة ! ...

هكذا كان يتكلم الحاكم • واذ رأى فجأةً على سطح البيت المحترق رجلاً من رجال الماطفىء تحديق به ألسنة اللهب ، صرخ يقول :

— آى ... ماذا يفعل هنا ؟ اسحبوه من هذا المكان ! سوف يسقط ! سوف يهلك ! اطفئوه ! ماذا يعمل هنالك ؟

— انه يطفىء النيران يا صاحب السعادة •

— مستحيل ! النيران فى الضمائر لا فى المنازل • اسحبوه من هناك ،

ودعوا كل شيء ! الأفضل أن يُترك كل شيء ! سيتهى الأمر من تلقاء نفسه ! ... من ذا الذى يبكى أيضا ؟ عجوز ! العجوز تبكى ! لقد نسوا العجوز !

فى الطابق الأرضى من الجناح المحترق كانت تصرخ فعلاً عجوز فى الثمانين من العمر ، هى قريبة صاحب المنزل الذى كانت تلتهمه النيران . لكنها لم تكن قد نُسيت ، وانما هى رجعت بارادتها كالمجنونة تريد أن تتشغل لحافها من غرفة لم تكن النيران قد نالتها ، ولكنها بلغتها الآن فهى تشتعل . فكانت العجوز وقد خنقها الدخان والحرارة الشديدة تصرخ صراخاً قوياً مع استمرارها فى دفع لحافها من اطار النافذة بكلتا يديها . فأسرع لمبكه يحاول نجاتها : رثى يركض نحو النافذة ، ويمسك طرف اللحاف ويشده اليه بكل ما يملك من قوة . ولكن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن يسقط لوح من ألواح خشب السقف فى تلك اللحظة نفسها ، فيصيب عنق آندره أنطونوفتش . لم يقتل لوح الخشب حاكمنا ، ولكنه وضع خاتمةً لحياته بالوظيفة ، فى اقليمنا على الأقل . لقد قلبته الصدمة ، ووقع مفشياً عليه .

وطلع الفجر أخيراً ... طلع كالحلأ مشووماً حزيناً . خبت النيران ، وسكنت الريح . وأخذ يهطل مطر ناعم كسول . كنت قد صرت فى حى آخر من الضاحية ، بعيداً عن مكان الحادث الذى وقع للحاكم . وهناك علمت أشياء غريبة جداً : علمت أنه فى أرضٍ نائية مقفرة ، وراء بساتين الخضار ، على مسافة خمسين خطوة من المساكن الأخرى فى أقل تقدير ، كان يوجد بيت صغير من خشب ، جديد كل الجدة ؛ وفى ذلك البيت المنزل انما اشتعلت النار قبل أى مكان آخر ، فى أول ظهور الحريق . فلو أن هذا البيت قد احترق ، لما أمكن أن تصل ألسنة اللهب الى المنازل الأخرى من « الضاحية » . وكذلك كان يمكن أن تاحترق الضاحية كلها

دون أن يكون هذا البيت مهددا بأى خطر ، مهما تكن الرياح شديدة عاتية . فكيف اشتعلت النار فى هذا البيت اذن ؟ هل كان ذلك من فعل فاعل متعمدا ؟ ولكن الأمر الأغرب من هذا هو أن النار التى شبت فى البيت قد أمكن اطفائها منذ البداية ، فاذا بأمور خارقة رهيبة تتكشف فيه . ان مالك البيت ، وهو تاجر صغير كان يسكن غير بعيد عن ذلك المكان ، قد رأى النار تشتعل فى بيته الجديد ، فأسرع يطفئها بمساعدة الجيران على الفور ، ونجح فى ذلك فعلا ببشرة الحطب المتكوم عند الحائط . ولكن البيت كان مسكونا . فماذا رأى فى البيت ؟ رأى ساكنيه ، وهم كابتن معروف فى المدينة ، وأخته وخادمتها العجوز ، وآهم جميعا مذبحين فى تلك الليلة نفسها ، وقد سلبوا ما يملكون حتما (من أجل أن يذهب الى مكان الجريمة انما كان رئيس الشرطة قد ترك فون لمبكه قبيل انقاذ اللحاف .) كان نبا جريمة الاغتيال هذه قد انتشر بسرعة ، فما طلع الصباح حتى كان جمهور كبير من الناس قد غزا الأرض الخاوية حول البيت الصغير ، وقد انضم اليه حتى أناس من المنكوبين . وبلغ الازدحام من الشدة أنه أصبح يستحيل على المرء أن يتقدم . وقد ذُكر لى أن الكابتن وُجد منحور الرقبة ، راقدا على دكة وهو يرتدى ثيابه كلها ، ولعله حين طُعن كان نائما كاليت من فرط السكر ، فلم يشعر بشيء ، وانما نرف كما « تنرف بقرة » . أما أخته ماريما تيموفئنا فقد كانت « مخرقة بطعنات سكين » ، راقدة على العتبة . وهذا ما يمكن أن يُستنتج منه أنها تخبطت وقاومت القاتل . وأما الخادمة التى لا شك أن الضجة هى التى أيقظتها من نومها فقد كانت مهشمة الرأس . ومما رواه مالك البيت أن الكابتن قد جاء اليه فى صبيحة الأمس سكران كل السكر ، وأراه على سبيل التباهى والمفاخرة بالغنى ، حزمة من الأوراق المالية قدرها مائتا روبل على وجه التقريب . وقد وُجدت المحفظة الخضراء التى كان لبيادكين يضع فيها نقوده ،

و جدت فارغةً ملقاةً على أرض الغرفة • ولكن صندوق ماريا تيموفتشنا لم يمسه أحد ، وكذلك اطار الأيقونة المصنوع من فضة ، وأمتعة الكابتن • واضح أن القاتل ، وهو مستعجل أمره ، كان يعرف المكان ، وكان لا يريد أن يأخذ الا مال الكابتن ، وكان يعرف أين يوجد هذا المال • ولو أن مالك البيت لم يصل بالسرعة المناسبة لأحرقت كومة الحطب البيت كله ، ولكن من الصعب اكتشاف الحقيقة •

ذلك ما كان يرويه الجمهور • وكانوا يضيفون الى هذا أن البيت انما استأجره نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين ، ابن الجنرالة ستافروجين ، وانه هو الذى فاوض مالك البيت على استجاره : لقد كان مالك البيت لا يريد تأجير بيته ، لأنه كان يقدّر أن يفتح فيه حانة ، ولكنه استجاب لالحاح ستافروجين الذى دفع له أجرة ستة أشهر سلفاً دون أن يكثر بمقدار الأجرة أصلاً •

كان الناس يقولون فى الجمهور :

— لا شك أن هناك أمراً مدبراً •

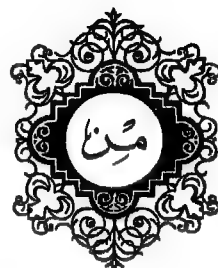
ولكن أكثرهم كانوا يلزمون الصمت • الوجوه مظلمة مريدة مكفهرة • ولكن النفوس لا تبدو مهتاجة احتياجاً شديداً • على أنهم لا يكتفون عن الكلام على ستافروجين • كانوا يقولون : ان المرأة القاتل زوجته • وبالأمس استمال اليه « بحيلة غير مشروعة » ابنة الجنرال دروزدوف ، وهى أنسة تنتمى الى أكرم أسر المدينة • وكان سيُسكى الى بطرسبرج • فمن أجل أن يستطيع تزوج الأنسة دروزدوف انما قُتلت اذن زوجته •

لم تكن سكفورشنيكى تبعد عن المكان أكثر من فرسخين ونصف • لذلك تساءلت (ما زلت أذكر هذا) : ألسْتُ أحسن صنعا اذا أنا مضيت

أنبياء آل ستافروجين بما حدث دون أن أذكر مع ذلك أنهم يستثيرون
الجمهور ويحرّضونه ؟ ولكنني أبصرت عددا من أفراد مشبوهين عرفتهم
فورا لأنني كنت قد رأيتهم في حفلة الرقص • واني لأذكر منهم على وجه
الخصوص شاباً طويلاً هزيلاً ، جعد الشعر ، أدكن اللون : انه قفّال
كما عرفت ذلك فيما بعد • لم يكن الشاب سكران ، ولكن على خلاف
الجمهور القاتم الصامت ، كان يبدو خارجا عن طوره • انه لا يني يتكلم
فيقول أمورا مفككة مبشرة ، ويحرك يديه بإشارات كثيرة ، ويستشهد
بالشعب سائلا : « ما معنى هذا أيها الاخوة ؟ هل يجوز لنا أن ندع الأمور
تجرى على هذا النحو ؟ • • • » •

الفصل الثالث

خاتمة رواية



الصالة الكبرى بسفورشنيكى (تلك الصالة نفسها
التي استقبلت فيها فرارا بتروفا صاحبنا ستيفان
تروفيموفتش آخر مرة) ، كان المرء يستطيع
بنظرة واحدة أن يشمل منظر الحريق كله . وفي
الفجر ، في نحو الساعة السادسة من الصباح ، كانت ليزا واقفة قرب النافذة
الأخيرة على اليمين تتأمل الضياء الأحمر الواسع الذي كان يشحب شيئاً
فشيئاً . لقد كانت وحيدة . انها ترتدى ذلك الثوب نفسه الذي كانت
ترتديه أمس ، في الصبيحة الأدبية ، وهو ثوب أنيق جداً ، أخضر كاب ،
مغطى بالدنتيلا ، لكنه الآن مجعد تماماً . واضح أن ليزا قد لبسته بسرعة
لتغطى به جسمها ، حتى أن جزأه الأعلى عند الصدر لم يزرر تماماً . فلما
لاحظت الفتاة ذلك احمرّ وجهها ، وأسرعت تصلح من فوضى هندامها ،
وتناولت خماراً كانت قد ألقته عنها في الليلة البارحة على مقعد حين دخولها ،
فلفت به الآن جيدها . ان شعرها الكثيف يتدلى حلقاتٍ على كنفها اليميني
وان وجهها يبدو منهكاً مهموماً ، ولكن عينيها تلتصمان تحت حاجبيها
المقطبين . وها هي ذى تقترب من النافذة ، وتسند جبينها الملتهب على
زجاجها البارد .

وفُتح الباب ، ودخل نيقولاى فسيفولودوفتش . قال :

— مضى يستطلع الأخبار خادم يركب حصاناً . فما هى الا دقائق حتى نعرف كل شيء . يقول الناس ان جزءاً من « الضاحية » قد احترق ، على طول الشاطئ ، يمينَ الجسر . وقد اشتعلت النار بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل . وهى الآن تنطفئ .

لم يمض ستافروجين الى النافذة ، وانما لبث وراء ليزا . ولم تلفت ليزا .

قالت ليزا غاضبة :

— لو صدق التقويم لكان ينبغي أن يطلع الصبح منذ ساعة . ومع ذلك ما يزال يخيم الظلام كأننا فى الليل .

فقال نيقولاى فسيفولودوفتش ستافروجين بابتسامة لطيفة محببة :

— التقاويم كلها تكذب

ولكنه لم يلبث أن شعر بالخجل من قول كلام مبتذل معاد مكرور ، فأسرع يضيف :

— لشدما تكون الحياة مضجرة اذا عشت وفقاً لحسابات التقاويم يا ليزا !

وغضب ستافروجين مرة أخرى من افلات لسانه بسخافة جديدة ، فسكت ثم لم ينطق . فابتسمت ليزا بمرارة ، وقالت :

— ان مزاجك ليبلغ من الحزن انك لا تدري ما عساك تقول لى . ولكن هدىء نفسك ! لقد صدقت فيما قلت : اننى أعيش دائماً على حسب التقويم . كل خطوة من خطاى مرتبة وفقاً للتقويم . أأنت مدهوش ؟
والتفتت ليزا بقوة وجلست على مقعد . وقالت :

- اجلس أنت أيضا ، أرجوك ! لن نبقي معا مدة طويلة • ويجب أن أقول لك كل ما بنفسى ••• لماذا لا تقول لى أنت أيضا كل ما تود أن تقوله ؟

جلس نيقولاى فسيفولودوفتش الى جانبها ، وأمسك يدها برفق ، أو قل بما يشبه الوجمل •

- ما هذه اللغة يا ليزا ؟ لماذا هذه اللغة ؟ ما معنى قولك : « لن نبقي معا مدة طويلة ؟ » هذه هى المرة الثانية التى تقولين لى فيها هذه الجملة الملفزة خلال نصف ساعة منذ أن استيقظت •

قالت وهى تبسم ابتسامة خفيفة :

- هأت ذا قد أخذت تحصى جملى الملفزة • ولكن هل تتذكر اننى بالأمس ، حين دخلت ، قد قلت لك انك تستقبل ميتة ؟ لقد رأيت من المناسب أن تنسى هذه الجملة ، أن تنساها وأن لا توليها انتباها •

- لا أذكر هذا يا ليزا • لماذا « ميتة » ؟ يجب أن نحا •••

- وهأت ذا تقف • لست اليوم جمّ الفصاحة والبلاغة • لقد دقت ساعتى على هذه الأرض ويكفينى هذا • هل تتذكر كريستوفر ايفانوفتش ؟

أجاب ستافروجين وقد أظلم وجهه :

- لا !

- كريستوفر ايفانوفتش ؟ فى لوزان ؟ كان يضجرك اضجارا رهيبا • كان يقول دائما حين يدخل : « اننى آت للحظة واحدة » ، ثم يمكث يوما بكامله • لا أريد أن أكون مثل كريستوفر ايفانوفتش ، فأبقى يوما بكامله •

- ليزا ، هذه اللغة الساحرة تؤلنى • وهذه التمثيل يؤلك أنت نفسك • علام هذا ؟ لماذا ؟

وسطعت عيناه • وتابع كلامه يقول :

- ليزا ، أحلف لك : اننى أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك بالأمس حين دخلت الى هنا •

- يا له من اعتراف غريب ! لماذا هذه المقارنة بين أمس واليوم ؟ لماذا القياس ؟

واستأنف ستافروجين كلامه فقال بلهجة تكاد تعبر عن اليأس :

- لن تركبني ! سوف نسافر معاً ، فى هذا اليوم نفسه ! أليس كذلك ؟

- اى ! انك توجعنى ! لقد ضغطت يدي ضغطاً شديداً جداً ! نسافر معاً ؟ فى هذا اليوم نفسه ؟ الى أين ؟ « انبعث جديد » مرة أخرى ؟ ... لا • كفى تجارب ! ... ثم اننى عاجزة عن هذا • هذا كله أكبر منى وأعظم منى ! اذا سافرنا ، فسيكون سفرنا الى موسكو ، من أجل أن نستقبل الناس ونزور الناس • ذلك هو مثلى الأعلى • انك تعرفه جيداً • أنا لم أّخف عنك حقيقتى منذ كنا بسويسرا • ولما كان من المستحيل أن نسافر الى موسكو وأن نقوم بزيارات ، مادمت متزوجاً ، فلا داعى الى الكلام على السفر ...

- ولكن ما الذى جرى بالأمس اذن يا ليزا ؟

- جرى ما جرى !

- مستحيل • هذه قسوة !

لا يهم أن تكون هذه قسوة ! احتملها !

فددم ستافروجين يقول باثسامة صفراء :

• - تتقمين منى لنزوتك بالأمس •

• فاحمرت ليزا •

• - بالها من فكرة دنيثة •

• - فلماذا وهبت لى اذن « تلك السعادة كلها » ؟ هل من حقى ان
أعرف جواب هذا السؤال ؟

• - لا ! ... استغن عن هذا الحق • لا تضيف الحماقة الى دناءة
افتراضك • لا حظ لك اليوم ! بالمناسبة : أترك تخشى رأى الناس ، وأن
يدينوك بسبب تلك « السعادة » ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فهديء روعك ،
ناشدتك الله ! أنت لم ترتكب اثماً ، وليس لأحد أن يحاسبك ! حين فتحت
أنا بابك بالأمس ، كنت أنت لا تدري من ذا الذى يدخل عليك • لم يكن
الأمر الا نزوة منى ، كما قلت منذ هنيهة ، ولا شيء غير ذلك • فى وسعت
أن لا تغض الطرف أمام أحد ، وأن تسير فى الناس مرفوع الرأس •

• - ان أقوالك وضحكاتك تجمدنى ذعراً منذ ساعة • ان هذه
« السعادة » التى تكلميننى عنها الآن بهذه اللهجة المبغضة الكارهة ، تكلفنى
... كل شيء ! هل يمكننى فى هذه اللحظة أن أفقدك ؟ أؤكد لك أننى
كنت أحبك أمس أقل مما أحبك اليوم • فلماذا تنتزعين منى اليوم كل
شيء ؟ هل تعلمين ماذا كلفنى هذا الأمل الجديد ؟ لقد دفعت ثمنه حياة ...

• - حياتك أنت أم حياة أحد غيرك ؟

• - فنهض ستافروجين فجأة • وقال يسألها وهو يحدثق اليها بانتباه :
• - ماذا تعنين ؟

• - أردت أن أعرف فقط هل دفعت ثمنه من حياتك أو من حياتى

• • • أنا

ثم هتفت تسأله :

- أتراك أصبحت لا تفهم شيئاً ؟ لماذا نهضت ذلك النهوض المفاجئ ؟
لماذا تنظر الىّ على هذا النحو ؟ انك تخيفنى ! ما الذى تخشاه ؟ انك تبث
الرعب فى نفسى ! لكأنك خائف • اننى ألاحظ منذ مدة طويلة أنك
خائف ، ولا سيما الآن ••• فى هذه اللحظة بالذات ••• رباه ! ما أشد
اصفرار وجهه !

- اذا كنت تعرفين شيئاً يا ليزا ، فاننى أنا لا أعرف شيئاً ••• أحلف
لك • وما عن «هذا» تكلمت حين قلت لك اننى دفعت الثمن •••

دمدمت ليزا تقول خائفة :

- لا أفهمك البتة !

وسرحت على وجه ستافروجين ابتسامة مبهمة بطيئة آخر الأمر •
وعاد يجلس ، وأسند كوعيه الى ركبتيه ، وأخفى وجهه فى يديه •

- حلم سى ••• كابوس ثقيل ••• كنا نتكلم فى أمرين مختلفين •

- لا أدري عمّ كنت تتكلم • هل يُعقل أن لا تكون قد حذرت
بالأمس اننى سأتركك اليوم ؟ أكنت تعلم هذا أم لا ؟ لا تكذب • أكنت
تعلمه ؟

دمدم ستافروجين يقول :

- كنت أعلمه •

- فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ كنت تعلم ، ومع هذا اختلستها ، تلك
« اللحظة » • فعلام هذا الحساب كله الآن ؟

صاح ستافروجين يسألها بلهجة أليمة :

- قولى لى الحقيقة كلها : حين فتحت بابى بالأمس ، أكنت تعلمين أنك لا تفتحينه الا من أجل يوم واحد ؟
فرشقتة بنظرة كره وبغض ، وقالت :

- يتفق لأكثر الرجال جدا أن يلقوا أسئلة سخيفة مضحكة • فيم تقلق هذا القلق ؟ أهى الكبرياء التى تدفعك اليه ؟ أهو تصوورك أن امرأة هى التى تتركك ولست أنت الذى تتركها ؟ هل تعلم يا نيقولاى فيسولودوفتش اننى منذ دخلت هذا المكان لاحظت فيما لاحظت أنك كريم مى غاية الكرم • ذلك بعينه هو ما لا أستطيع أن أحتمله منك •

نهض ستافروجين وسار بضع خطوات فى الغرفة •

- طيب ••• أسلّم بأن الأمر كان لا بد أن ينتهى هذه النهاية •••
ولكن كيف حدث كل هذا ؟

- يا له من اهتمام يشغل بالك ! لا سيما وأنت تعرف الأمر ، وتدركه خيراً مما يدركه أى انسان آخر ، وأنت كنت تتوقع هذه النهاية ! أنا آنسة ، وقد نشأ قلبى وترعرع فى الأوبرا • هكذا بدأت المسألة • ذلك هو السر كله •

- لا •

- لا شئ فى هذا يمكن أن يجرح كبرياءك • هذه هى الحقيقة كلها • بدأ الأمر بلحظة جميلة لم أستطع مقاومتها • أمس الأول ، حين أذيتك بالكلام على مسمع من الناس ، فأجبتى بطريقة تزخر فروسية ، حزرت فوراً أنك تحاشانى وتتجنبينى لأنك متزوج ، لا لأنك تحتقرينى ، وهو أمر كنت أخشاه أكثر مما أخشى أى شئ آخر بصفتى فتاة من فتيات المجتمع • لقد أدركت أنك اذ تتجنبينى انما كنت تحمى هذه المجنونة ، أنا • فانظر كم أقدر لك كرمك ! وفى تلك اللحظة هرع بطرس

ستيغانوفتش ، فشرح لى كل شيء . قال انك ملئك فكرة عظيمة لا نساوى نحن بالقياس اليها شيئاً ، لا أنا ولا هو ، غير أننى مع ذلك حجب عثرة فى طريقك ؟ ثم انه لا يريد أبداً أن يتركنا ، وانما هو يحرص على أن يكون الثالث . قال لى أشياء رائمة عن « سفينة » لا أدري ما هى ، سفينة شراعية لها مجاديف من أشجار القيقب ، وانشدنى أغنية روسية . أزجيت له المديح ، وقلت له انه شاعر ، فقبل ذلك وسلم به على أنه أمر محقق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . واذ كنت أعلم منذ زمن طويل أن قراراتى ليست الا كنار القش ، عزمت أمرى على أن أتصرف فوراً . ذلك كل شيء . وكفى هذا الآن . أرجوك ، لا تسألنى ايضاحات أخرى . والا فقد تتشاجر . لا تخف من شيء . اننى أتحمّل التسعة كلها . أنا شريرة ، ذات نزوات ، انقدت لآغراء سفينة أوبرا . . . أنا آنسة ! ولكن هل تعلم أننى كنت أتخيل ، رغم كل شيء ، أنك تحببى حباً جنونياً ؟ لا تهتقر الحماة ولا تسخر من هذه الدفعة التى سالت من عيني الآن . اننى أحب سكب الدموع على نفسى ، رثاء لمصيرى ، وتألماً لحظى ! ولكن كفى كفى ! اننى غير قادرة على شيء ، ولا أنت قادر على شيء ! فليعزّ كل منا صاحبه بمدّ لسانه له تهكماً وسخرية ! بهذا لا تتألم كبرياؤنا على الأقل .

هتف يقول لى فيسيفولودوفتش وهو يعقف يديه :

— حلم ! جنون ! عزيزتى المسكينة ليزا ، ماذا فعلت ؟

وكان يذرع الغرفة بخطى كبيرة .

حرق اصبعى ، وهذا كل شيء . أرجو أن لا تأخذ فى البكاء .
أصلح وقفنك ، وكن أقل حساسية !

— لماذا جئت ؟

— أتراك لا تدرك أخيراً سخافة الموقف الذى تضعنى فيه أمام الناس
اذ تلقى على هذه الأسئلة ؟

– لماذا ضيّعت نفسك بهذه الطريقة الغبية ، السخيفة ؟ وما العمل الآن ؟

– أهذا هو ستافروجين ، «الدموى ستافروجين» ، كما تسميك سببده ؟
تهواك هوى شديدا ؟ اسمع ، لقد سبق أن قلت الأمر : اننى أعطيت حياتى كلها من أجل ساعة • وأنا الآن هادئة • فافعل مثلى ! ••• على كل حال ، أنت شأنك شأن آخر : ستكون لك « ساعات » أخرى كثيرة ، و « لحظات » أخرى كثيرة •••

– على قدر ما سيكون لك منها ، على قدر ما سيكون لك منها •
أعاهدك على ذلك • لا ساعة واحدة أكثر منك •

كان لا ينفك يمشى • لم يرَ النظرة السريعة الثاقبة التى ألقته عليه ،
والتي سطع فيها على حين فجأة شعاع أملٍ سرعان ما انطفأ •

– ليتك تعرفين بمن « صدقى » المستحيل فى هذه اللحظة ، ليتنى
أستطيع فقط أن أكشف لك يا ليزا •••

– أن تكشف لى ؟ هل تريد أن تكشف لى عن شيء أيضا ؟ وقانى
الله شرّ مكاشفاتك •••

كذلك قاطعته ليزا شبه مذعورة •

فوقف وانتظر قلقاً مهموماً • قالت ليزا :

– يجب أن أعترف لك بأننى منذ كنا فى سويسرا قد رسخ فى ذهنى
أن ضميرك يخفى شيئاً ما ، شيئاً رهيباً ، موحشاً • داميا ••• لكنه فى
الوقت نفسه يجعلك مضحكا الى درجة فظيعة • فحذار أن تكشف لى عن
هذا الشيء ان صحّ تقديرى : والا فسوف أضحكك منك ، وأتهكم على
حياتك كلها ••• آى ! ••• هانت ذا يصفر لونك من جديد ! فلن أقول
بعدُ شيئاً ، لن أقول شيئاً ! هأنذا منصرفة •••

كذلك هتفت تقول وهى تنهض بحركة احتقار واشمئزاز •

قال ستافروجين يائساً :

— عذبنى ! أدينينى ! صبى على غضبك ! من حقت أن تفعلى هذا •
لقد كنت أعلم اننى لا أحبك وأنتى ضيقتك ! نعم ، «لقد انتهزت اللحظة» •
كان لى أمل ••• منذ مدة طويلة ••• أمل أخير ••• ولم أستطع أن
أقاوم الضياء الذى بهرنى حين جئت من تلقاء نفسك ، بمحض ارادتك •
عندئذ ، ظننت فجأة ••• ولعلنى ما زلت أظن •••

— سأجيب على صراحتك النبيلة بصراحة مثلها • لا أريد أن أكون
لك راهبة رحمة واحسان • ان لم أفلح فى أن أموت اليوم — وهذا يجىء
فى حينه اذا جاء — فقد أصبح فى يوم من الأيام راهبة ممرضة ، ولكننى
لن أكون ممرضة لك أنت ، رغم أنك أشبه بكسيح أو أكنع • لقد خيل
الى دائماً أنك ستقودنى فى يوم من الأيام الى مكان يسكنه عنكبوت ضخ
فى حجم انسان ، وأتأ سنقضى حياتنا كلها ناظرين الى العنكبوت مرتعشين
من الخوف ، وأن هذا هو ما سيؤول اليه حبنا • اذهب الى داشا : ان داشا
ستبعك الى حيث تقودها •

— لا تستطيعين أن تنسيها ، حتى فى هذه اللحظة !

— يا للكلبة الصغيرة المسكينة ! سلم لى عليها ! هل تعلم أنك منذ
كنت فى سويسرة ، تدخرها لشيخوختك ؟ يا للتبصر بالمستقبل ! آى •••
من هناك ؟

لقد شقّ الباب الذى فى آخر الصالة ، فأطل من شقه الضيق رأس
سرعان ما اختفى فى تلك اللحظة نفسها •

قال ستافروجين سائلاً :

- أهذا أنت يا ايجورتش ؟

فعاد الرأس يظهر من شق الباب ، فاذا هو رأس بطرس ستيفانوفتش
يجيب عن السؤال قائلاً :

- بل هذا أنا • نعمت صباحاً يا ليزافتا نيقولايفنا • كنت أعلم اننى
سأجداكما كليكما فى هذه الصالة • لم أجدى الا للمحظة واحدة يانيقولاى
فسيفولودوفتش : يجب علىّ حتماً أن أقول لك كلمتين ••• انه أمر
مستعجل جداً ، ولا غنى عنه أبداً • كلمتان فقط !

اتجه ستافروجين نحو الباب • ولكنه ما ان قطع ثلاث خطوات حتى
رجع الى ليزا ، وقال :

- اذا سمعت شيئاً يا ليزا ، فاعلمى أن الجانى هو أنا •
فارتعشت ونظرت اليه مرتاعة • وخرج مسرعاً •

انتقل ستافروجين الى الغرفة المجاورة ، وهى حجرة مدخل كبيرة
بيضوية الشكل • وكان بطرس ستيفانوفتش ، عند دخوله ، قد رأى الخادم
المعجوز ألكسى ايجورتش ، فطلب منه أن يتركه وحيداً •

أغلق نيقولاى فسيفولودوفتش باب الصالة وانتظر • فشملة بطرس
ستيفانوفتش بنظرة سريعة فاحصة •

قال ستافروجين :

- هيه ؟

فأجاب الزائر وما تزال نظراته كأنها تريد أن تنبش أعماق
ستافروجين ، أجاب قائلاً :

- اذا كنت على علم بما جرى ، فيجب أن أقول لك ان أحداً منا ليس

مذنباً طبعاً ، ولا سيما أنت ، ولا يعدو الأمر أن يكون مصادفة ... لا يعدو أن يكون تضافراً عدد من الظروف ... الخلاصة ... من الناحية القانونية لا يمكن أن تُمسّ ، وقد جئت لأثبتك ...

— هل حرقوا ؟ هل قتلوا ؟

— قتلوا ! ولكن أجسامهم لم تمسسها النار. ذلك هو الشيء المؤسف . أقسم لك بشرفى أننى غير ضالع فيما حدث ، مهما تكن شكوكك وشبهاتك . ذلك أن من الجائز أن تشبه فى ، هه ؟ هل تريد أن تعرف الحقيقة كلها ؟ اسمع : فى لحظة من اللحظات ، خطر ببالى فعلاً أن ... وأنت الذى أوحيت الىّ بهذه الفكرة ، لا ايهاءً جاداً بطبيعة الحال ، بل من باب السخرية لا أكثر ... (ذلك أنك لا يمكن أن توحى الىّ بشيء كهذا ايهاءً جاداً) ، ولكننى لم أستطع أن أعزم أمرى ، وما كنت لأعزم أمرى يحال من الأحوال ، بأى ثمن ، ولو كان مائة روبل ... لا سيما وأن ذلك لا يعود علىّ بأى نفع ، علىّ أنا طبعاً ... (كان تدفق كلامه يزداد سرعة) . ولكن انظر الى هذه المصادفة العجيبة ! من مالى الخاص (نعم ، من مالى الخاص ، فليس لك فى هذا الأمر روبل واحد ، وانك لتعرف هذا حق المعرفة) ، أعطيت ذلك الأبله لبيادكين مائتين وثلاثين روبلاً ، مساء أمس الأول . هل تسمع ؟ مساء أمس الأول ، لا أمس ، بعد الجلسة الأدبية . لاحظ هذا . فهو أمر هام . ذلك اننى فى أمس الأول لم أكن قد توقنت بعد من أن ليزافنا نيقولايفنا ستجىء اليك . أعطيت لبيادكين ذلك المبلغ من جيبى ، لأنك فى أمس الأول دبّرت لى مكيدة وكشفت عن سرّك لجميع الناس . لا أدخل الآن فى بحث الأسباب التى ... فهنا من شأنك ... لقد تصرفت تصرف فارس ... ولكننى أعترف لك أن ذلك كان ضربة عصا على ظهرى ... لقد ذهلت وصعقت . لقد طاش صوابى . ومع ذلك فأننى وقد سئمت جميع هذه التراجيديات ، وكان هذا يعرقل

خططى أخيرا فقد عاهدت نفسى على أن أرحل لبيادكين وأخته الى
 بطرسبرج مهما كلف الأمر ، على غير علم منك ، لا سيما وأن الكابتن
 كان لا يحلم الا بهذا • لم أرتكب الا خطيئة واحدة : هى أتى أعطيته
 المال زاعماً أنه منك أنت • أهذا خطأ أم لا ؟ ربما لم يكن هذا خطأ ؟ هه ؟
 ولكن اسمع الآن ، اسمع كيف جرت الأمور •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو فى قمة الحرارة من حديثه ،
 واقرب من ستافروجين فأمسك ثنية رديجوتيه (لعله فعل ذلك عامداً) ،
 فما كان من ستافروجين الا أن هوى على ذراعه بضربة قوية •

قال بطرس ستيفانوفتش :

— ماذا جرى لك ؟ اتبه ••• كدت تكسر ذراعى •••

واستأنف حديثه الأول بمزيد من التدفق ، غير مدهوش للضربة :

— نقدته المال مساء أمس الأول ، وتمّ الاتفاق على أن يسافر هو
 وأخته فى الغداة عند طلوع الصباح • وكلفت ذلك الوغد ليوتين أن يضعه
 فى القطار • ولكن ليوتين كان حريصاً أشد الحرص على أن يدبر للجُمهور
 ذلك « المقلب » القدر فى الصبيحة الأدبية • لعلك سمعت عن هذا ؟ فاسمع
 اذن ، اسمع ! لقد شربا معا ، ونظما أشعارا • وكان نصف الأبيات على
 الأقل من نظم ليوتين • وألبس ليوتين صاحبه الكابتن رداء فراك (مؤكداً
 لى منع ذلك أنه قد اصطحب لبيادكين الى المحطة فى ذلك الصباح نفسه) ،
 وأخفاء لا أدرى أين ، ليدفعه الى المنصة فى اللحظة المنشودة • ولكن
 لبيادكين يسكر بسرعة ، لذلك تولى ليوتين قراءة الأشعار نيابةً عنه •
 وقامت الفضيحة • اقتيد الكابتن لبيادكين الى البيت شبه ميت من فرط
 السكر ، واختلس منه ليوتين مائتى روبل ولم يترك له الا قليلا من نقود
 صغيرة • ولكن كان من سوء حظ لبيادكين أنه فى ذلك الصباح قد تباهى

وأظهر على المائتي روبل أولئك الذين ما كان ينبغي لهم أن يروها . ولا كان فدكا لا ينتظر الا هذه الفرصة ، ولا سيما أنه كان قد سمع بعض الأمور عند كيريلوف (هل تذكر تلميحك) فقد قرر أن ينتهز هذه الفرصة . تلك هي الحقيقة كلها . يسرنى على الأقل أن فدكا لم يجد المال ، بينما كان يعول أن يعثر على ألف روبل حتماً . ولقد كان متعجلاً . فان النيران قد أخافته هو أيضا . . . هل تصدق ؟ لقد كان الحريق أشبه بضربة مطرقة على رأسى . شئ غير مقبول ، هذا الخروج على النظام والانضباط ! اسمع ! اننى أعلق عليك آمالاً كبارا وانتظر منك أموراً كثيرة ، لذلك لن أخفى عنك شيئاً : الحق أن فكرة الحريق هذه تراودنى منذ مدة طويلة . انها وسيلة من وسائل العمل شائعة جداً فى وطننا . ولكننى كنت أحتفظ بهذه الوسيلة للحظة الحرجة ، للدقيقة الرائعة العظيمة التى سنقوم فيها كلنا قومةً واحدة . . . ولكن هاهم أولاء أباحوا لأنفسهم أن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم ، دون أمرٍ يصدر اليهم عنى ، وفى لحظة نحن أحوج ما نكون فيها الى أن نبقى ساكنين . هذا قلة نظام وانضباط ! . . . الخلاصة ، لا أعرف بعدُ شيئاً . . . وانما يجرى الحديث عن عاملين من عمال مصنع شيجولين ! . . . ولكن اذا كان واحد من جماعتنا قد شارك فى اشغال هذا الحريق ، وضيع فى هذه القضية من قريب أو بعيد ، فالويل له ! انك تعرف ما يحدث متى تراخى المرء معهم قليلاً ! لا ، لا ، يستحيل الاعتماد على معونة هذا الوغد الديموقراطى و « حلقائه » . ان ما نحن فى حاجة اليه هو ارادة واحدة عليا طاغية تعتمد على شئ ثابت . . . عندئذ تأتى الجماعات تعلق أحذيتنا ونستطيع عندئذ أن نستعملها . على كل حال ، رغم ما يُذاع فى كل مكان بالمدينة الآن من أن المدينة قد احترقت لأن ستافروجين يريد أن يقتل زوجته . . .

— ماذا ؟ أيزاع هذا منذ الآن ؟

- لا ، لا منذ الآن والحق يقال • وانى لأعترف بأننى لم اسمع شيئاً من هذا القيل • ولكن ماذا يمكن أن يُنتظر من الجمهور ؟ ولا سيما المنكوبين : « صوت الخلق صوت الحق » (باللاتينية) ! هل من الصعب نشر أسخف الشائعات ؟ ولكن ليس هناك ما يجب أن تخشاه على كل حال • انت من الناحية القانونية برىء ، بل أنت برىء فى الواقع حتى من الناحية النفسية ، لأنك لم ترد جريمة القتل هذه ، أليس كذلك ؟ هل كنت تريداه ؟ لا • وليس هناك أى دليل يدينك • • • • • هى مصادفة محض • مع ذلك قد يتذكر فدكا كلماتك الطائشة عند كيريلوف (لماذا قلت تلك الكلمات ؟) • ولكن هذا لا يبرهن على شيء ، وسوف نُسكت فدكا • سأتولى الأمر فى هذا اليوم نفسه •

- ألم تل النيران أجسامهم البتة ؟

- البتة ! ان هذا الوغد لم يحسن حتى القيام بالمهمة • ان ما يبهجنى على الأقل هو أنك هادىء هذا الهدوء كله • • • • • فأنك ، وان تكن بريئاً كل البراءة ، حتى من جهة النية والتفكير • • • • • على كل حال ، لاحظ أن هذا يرتب أمورك على خير وجه : هأنت ذا قد ترملت ، ففى وسعت أن تتزوج على الفور فتاةً أخاذة واسعة الثراء ، عدا أنها بين يديك منذ الآن ! انظر ماذا يمكن أن ينتج عن مجرد تضافر عدد من الظروف • • • • • هه ؟

- أتهددنى أيها الأحمق ؟

- دعك من هذا الكلام • ما أسرع ما تصفى بأننى أحمق ! ما هذه اللهجة ؟ عليك أن تكون راضيا مسرورا ، فإذا أنت ، بدلاً من ذلك • • • • • انظر كيف تكافئنى أنا الذى هرعت أخبرك بالنبا خصيصاً • • • • • بماذا عسانى أهددك ؟ اننى لا أريد أن أملكك بالتهديد • وانما أنا فى حاجة الى ارادتك

الحرّة • أنت الضياء والشمس • وأنا الذى أخاف منك خوفا رهيبا • أنا
لست مافريكى نيقولايفتش ••• بالمناسبة ، تصور : لقد رأيت مافريكى
نيقولايفتش فى قرارة حديقتك قرب السياج حين مررت هناك • لا شك
أنه قضى الليلة كلها فى ذلك المكان • ليس للجنون الانسانى حدود •

- مافريكى نيقولايفتش ؟ صحيح ؟

- هى الحقيقة خالصة ! انه جالس قرب السياج ••• على مسافة
ثلاثمائة خطوة من هنا ، ان لم يخطئ ظنى • مررت أمامه بأقصى سرعة
استطعتها ، ولكنه رآنى • ألم تكن تعلم ؟ يسعدنى اذن أننى أنبأتك •
ان أمثال هذا الرجل يمكن أن يصبحوا خطرين جدا اذا كان فى حوزتهم
مسدس • أضف الى ذلك : الليل والمطر وما يعمل فى نفسه من حق
طبيعى فى مثل هذه الظروف • فعلا : تصور وضعه الآن ! هاها ! •••
ما رأيك ؟ لماذا تُراء بيقى متربصا هناك ؟

- واضح أنه ينتظر ليزافتا نيقولايفنا •

- تماما ! ولكن لماذا عساها تلحق به ؟ ثم ••• فى مطر منهمر كهذا
المطر ••• ياله من أحرق !

- ستلحق به •

- هه هه ••• يا لها من فكرة عجيبة ! معنى ذلك ••• ولكن اسمع :
ان وضعها الآن قد تغير رأساً على عقب : ما حاجتها الى مافريكى نيقولايفتش ؟
أنت أرملة ، وفى وسعك أن تتزوجها منذ غده انها لا تعرف شيئاً بعده دعى
فأتصرف فى الأمر كله • أين هى ؟ يجب أن نزف اليها النبأ الجميل ،
اليها هى أيضا •

- النبأ الجميل ؟

— أظن أنه نبأ جميل • هيّا !

— ألا يدور في خلدك أن هذه الجثث سوف تثير شبهاتها ؟
كذلك سأله ستافروجين وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة •
فأجابه بطرس ستيفانوفتش يقول متغايّاً :

— لا ، أبداً ••• اذ من الناحية القانونية ••• ثم هبها حشرت
شيئاً ما ! ان هذه الأمور تُرتّب مع النساء بسهولة ! انك لا تعرف النساء
بعد ! ••• ومن جهة أخرى فإن من مصلحتها أن تتزوجك ، لأن سمعتها
قد ساءت مهما يكن من أمر • زد على ذلك اننى كلمتها عن السفينة الشراعية
التي لها مجاديف من خشب القيقب ، فلاحظت أن هذه الأشياء تفعل فيها
فعل السحر • هذه فتاة حارة الطبع • لا تخشى شيئاً ، لسوف تخطو من
فوق هذه الجثث حتى تستغرب أنت نفسك ذلك ، لا سيما وأنت برىء ،
ألسنت بريئاً ؟ ولكنها ستدخر لك ذكرى هذه الجثث لتقدمها اليك بعد
ستين من الزواج مثلاً • ان كل امرأة تدّخر لزوجها بعض الخطايا
القديمة لاستعملها في الوقت المناسب • ولكن هل يعلم المرء ماذا يمكن أن
يحدث بعد سنة ؟ هاهاها ! •••

— اذا كنت قد جئت راكباً عربية فاصطحبها فوراً الى مافريكى
يقولايقتش • لقد قالت لى منذ هنيهة انها تكرهنى وانها تتركى • ولن
تقبل عربتى أنا طبعاً •

— عجيب ! تريد أن تنصرف ؟ لماذا ؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش مذهولاً • فأجابه ستافروجين
بقوله :

— لعلها حشرت فى هذه الليلة من بعض العلامات والقرائن اننى
لا أحبها ••• وذلك ما تعرفه منذ زمن طويل على كل حال •

سأله بطرس ستيفانوفتش متظاهراً بالدهشة :

- هل صحيح أنك لا تحبها ؟ ولكن اذا كان الأمر كذلك ، فلماذا احتجزتها بالأمس بدلاً من أن تتصرف تصرف رجل شريف فتعلن لها أنك لا تحبها • هذا جبن من جانبك • وما أدناً الوضع الذى وضعتنى فيه ازاءها !

فانفجر ستافروجين ضاحكاً • ثم أسرع يشرح قائلاً :

- اننى أضحك من قردى •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك مرحاً :

- آ ... حذرت اذن اننى انما كنت أمثل • لقد أردت أن أضحكك • تصور أننى منذ رأيته داخلًا على أدركت من وجهك فوراً أن ثمة « مصيبة » قد حلت • بل ربما اخفاق كامل ، هه ؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم هتف يصيح وقد غمره الفرح :

- أراهن أنكما قضيتما الليلة كلها جالسين أحكما الى جانب الآخر ، على كرسيين ، تضيئان وقتاً ثميناً فى مناقشة أمور رفيعة نبيلة سامية ! ... اغفر لى ! اغفر لى ! ما شأنى أنا على كل حال ... لقد كنت أعلم منذ الأمس أن ذلك كله سينتهى بينكما الى سخافات • اننى لم آتكم بها الا لأسئلك ، ولأبرهن لك على أنك لن تضجر معى • سوف أخدمك خدمات كثيرة من هذا النوع • اننى ، على وجه العموم ، أحب أن أسرّ الناس • اذا كنت قد سممت منها الآن - وهذا ما كنت أتوقعه وأعوّل عليه حين أتيت الى هنا - فاننى فى هذه الحالة ...

- ألم تجيئنى بها اذن الا لتسلينى ؟

- طبعاً •

- وليس لتجعلنى أقرر قتل زوجتى ؟

- ولكن هل أنت الذى قتلتها ؟

- بل أنت ، فكأن ..

- أنا ؟ ألم أقل لك اننى لا شأن لى فى الأمر . لقد بدأتَ تقلقنى ...

- أكمل . لقد قلت لى منذ برهة : « اذا كنت قد سئمت منها الآن ،

فانى فى هذه الحالة ... » .

- نعم ، فانى فى هذه الحالة أتولى كل شيء . سأزوجها مافريكى

نقولاً يفتش بسهولة . يجب أن أذكر لك عابراً أننى لستُ أنا الذى

جعلته يرابط فى آخر الحديقة . فلا ينصرفن بك الخيال الى هذا أيضا .

أؤكد لك اننى خائف منه . لقد جئتَ منذ قليل على ذكر العربية ، فاعلمُ

اننى مررت أمامه بأقصى سرعة ... ذلك لأن معه مسدس . من حسن

الحظ أن معى مسدسى أنا أيضا . هو ذا (هنا أخرج بطرس ستيفانوفتش

المسدس وأراه ستافروجين ثم أسرع يخبئه) . لقد تزودت به احتياطاً

للطوارئ ... على كل حال سأدبر لك الأمر كله فى برهة وجيزة : ان

قلبها يتألم الآن حين تفكر فى مافريكى ... أو على الأقل لا بد أن قلبها

يتألم . وانى لأشفق عليها حقاً . وما ان آخذها الى مافريكى حتى تعود

تفكر فىك ، وتتغنى له بمحاسنك ، وتندّد بعيوبه . ذلك هو قلب المرأة .

آ ... هأت ذا تضحك من جديد . لشدما يسرنى أن أراك مرحاً هذا

المرح كله . طيب . هيتاً بنا ! سأبدأ أولاً بمافريكى ... أما الآخرون

... الذين قُتلوا ... فلعل الأفضل أن لا نذكر عنهم شيئاً الآن ، أليس

كذلك ؟ ستعلم هى بالأمر قريباً .

- أى أمر سأعلم به ؟ من الذى قُتل ؟ ماذا قلت عن مافريكى

نقولاً يفتش ؟

كذلك صاحت ليزا سائلةً وهي تفتح الباب •

— آه ... أكنت تنصتين وراء الباب ؟

— ماذا قلت عن مافريكى نيقولايفتش ؟ هل قُتل ؟

— اذن لم تسمعى • هدئى نفسك • ان مافريكى نيقولايفتش حى ،
وان صحته جيدة ، كما تستطيعين أن تقتنعى من ذلك بنفسك فوراً ، لأنه
مرابط فى الحديقة ، قرب الطريق ... أظن أنه بقى هناك طوال الليل ،
تحت معطفه • لا بد أنه مبلل • وقد رآنى حين وصلت •
— ليس هذا صحيحاً • لقد نطقت بكلمة « قتل » • فمن الذى
قُتل ؟

كذلك ألحت تقول بشك أليم •

فقال ستافروجين بصوت ثابت :

— زوجتى هى التى قُتلت مع أخيها ليادكين وخادمتها •

ارتعشت ليزا ، واصفرت اصفراراً شديداً •

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتدخل فقال :

— مصادفة غريبة ، عجيبة ، ياليزافتا نيقولايفنا • اغتيال من اغبى
وأسخف الاغتيالات • استغل الجناة الحريق ليقتلوا ويسلبوا • انه فدكا
السيجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة • لقد كان هذا الأحق ليادكين
يتباهى فى كل مكان بأن جيوبه ملاءى ملاءاً ... ذلك ما جعلنى أهرع ...
ضربة فظيعة فعلاً • لقد كاد ينقلب ستافروجين حين أبلغته النبأ • وكنا
نتباحث الآن لنقرر أنعلمك بالخبر أم لا !

قالت ليزا تسأل ستافروجين وهي تنطق كل كلمة بمشقة :

— نيقولاى فسيفلودوفتش ، أهو يقول الحقيقة ؟

— لا ، انه لا يقول الحقيقة •

فصرخ بطرس نيقولايفتش يقول :

— كيف ؟ ما هذا أيضا ؟

صاحت ليزا :

— رباه ! أكاد أُجن !

فصرخ بطرس ستيفانوفتش صراخا قويا يقول :

— ألا فأعلمي اذن أن هذا الرجل قد فقد عقله • مهما يكن من أمر ،
فان زوجته هي التي قُتلت • أنظري الى شحوبه الشديد ! ... لقد قضى
الليلة كلها معك ، ولم يتركك • فكيف يمكن الاشتباه فيه ؟

— نيقولاى فسيفلودوفتش • قل لى صادقا كما لو كنت أمام الله •
أأنت جانِ أم لا ؟ يمينا لأصدقنَّ كلامك كأنه كلام الله ، ولا تبغضني الى
آخر الدنيا ! نعم ، نعم ! سأبغضك ، مثل كلب ! ...

زأر بطرس ستيفانوفتش يقول غاضبا غصبا مسعورا :

— ما بالك تعذبها هذا التعذيب أيها الانسان العجيب ! يا ليزافتسا
نيقولايضا • أحلف لك صادقا ، ولتدقيني فى هاون ان كنت أكذب : ان
نيقولاي فسيفلودوفتش برى • والأحرى أن يقال انه هو الذى قُتل
بهذا النبأ • انه يهذى • هأت ذى تريه بعينيك • انه عاجز عن أن يفعل
شيئا من هذا القبيل ، حتى بالخيال ! ... ان الذين فعلوا هذه الفعلة أناس
من قطاع الطريق ، سيُعرفون حتما فى غضون ثمانية أيام ، وسيُجلدون •
هو فدكا السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة وعمال من مصنع
شيجولين • المدينة كلها تتحدث فى الأمر ... وهذا هو السبب فى أنتى
... أنا أيضا ...

قالت ليزا تسأل ملحة :

- أهذا صحيح ؟ أهذا صحيح ؟

وكانت تنتظر الكلام الحاسم واجفة راعشة •

قال ستافروجين :

- لم أقتل ، وكنت أعارض هذا القتل ، ولكننى كنت أعرف أنهم سيقتلونهم ، فلم أنع القتلة من ارتكاب ما ارتكبوا • دعينى يا ليزا •

قال ستافروجين ذلك ، ورجع الى الصلاة •

خبأت ليزا وجهها بيديها وخرجت من المنزل • فأراد بطرس ستيفانوفتش أن يركض وراءها ، ولكنه عدل عن رأيه هذا ، وهرع يعود الى الصلاة •

دمدم يقول وقد جُن جنونه غضباً وأخذ الزبد يخرج من بين شفثيه :

- آآآ... هكذا اذن ! هكذا اذن ! لست خائفاً اذن من شئ •

كان ستافروجين واقفاً فى وسط الصلاة • فظل صامتا ولم يجب بكلمة • وكان يشد شعره بيده اليسرى وقد ألمت بوجهه ابتسامة غامضة •

شدّه بطرس ستيفانوفتش من كمّته بقوة ، وقال له :

- هل فقدت عقلك ؟ ألى هنا وصلت ؟ انك سوف تشى بجميع الناس ثم تمضى تعتكف فى أحد الأديرة ، أو تمضى الى جهنم ! ...
ألا فاعلم اذن أننى سأقتلك ، وان لم تكن خائفاً منى •

دمدم ستافروجين يقول وكأنه لم يلاحظ وجود بطرس ستيفانوفتش
الا فى تلك اللحظة :

– هه ؟ أنت الذى تحدث هذه الجلبة كلها ؟

وبدا عليه فجأة أنه رجع الى وعيه ، فأضاف يقول له :

– اركض وراءها ! خذ العربى ! لا تتركها ! ... ما بالك لا تركض ؟
أعدها الى بيتها ، ولا يعلمن أحد ! ... امنعها خاصة من الذهاب الى
هناك ورؤية الجثث ... الجثث ! أركبها فى العربى قسراً ! ... يا ألكسى
ايجورتش ، يا ألكسى ايجورتش !

– انتظر ! لا تصرخ ! هى بين ذراعى مافريكى منذ الآن ! ... لن
يركب مافريكى عربتك ... انتظر ... ليس الأمر الآن أمر عربى !

وأخرج مسدسه ثانية ، فالقى عليه ستافروجين نظرة رصينة ، وقال
له بصوت هادى :

– اقتلى !

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول مرتعشاً من شدة الغضب :

– عجيب ! هل يمكن المرء أن ينطلى عليه تمثيله هو نفسه ! حقاً
يجب على أن أقتلك ! وقد كان ينبغي لها أن تبصق فى وجهك ! لا ،
ما أنت «سفينة» ! أنت قارب عتيق مثقوب ، لا يصلح فى أكثر تقدير الا
حطباً للموقد . ذلك أنت ! ... هلاً غضبت بعض الغضب على الأقل .
لا شك أن جميع الأشياء تستوى فى نظرك الآن ، ما دمت تطلب بنفسك
أن تقتل !

ابتسم ستافروجين ابتسامة غريبة وقال :

– لولا أنك مهرج لكان يمكن أن أقول لك نعم ... ليتك أذكى
قليلاً على الأقل ...

- أنا مهرّج • ولكننى لا أريد أن تكون أنت مهرجاً ، أنت الجزء الأساسيّ من نفسى • هل تفهمنى ؟

ولقد كان ستافروجين يفهم • ولعله الوحيد الذى كان يستطيع أن يفهم بطرس ستيفانوفتش • انكم تتذكرون دهشة شاتوف حين قال له ستافروجين ان بطرس ستيفانوفتش قادر على أن يتحمس •

- اذهب الآن الى الشيطان ! قد أستطيع من الآن الى الغد أن أتخذ قرارا ما • ارجع غدا •

- فى الغد اذن ؟ أهذا أكيد ؟

- أنّى لى أن أعرف ! اذهب الى الشيطان !

قال ستافروجين ذلك وخرج •

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه قائلاً : « ربما كان هذا أفضل ... من يدرى ! » • وأعاد المسدس الى جيبيه •

٢

اسرع بطرس ستيفانوفتش يلحق بليزافتا نيقولايفنا التى لم تكن قد ابتعدت كثيراً •

كان الكسى ايجورتش قد حاول أن يشيها عن الخروج ، ولكنه لم يفلح ، فهو الآن يتبعها باحترام ، لابساً رداء الفراك ، حاسر الرأس ، على مسافة منها • ان الخادم العجوز مرتاع أشد الارتياح ، يهم أن يبكى من الهلع ، وهو يضرع اليها أن تنتظر العربّة •

قال له بطرس ستيفانوفتش وهو يدفعه :

- ارجع الى البيت • مولاك يطلب شايًا ، وليس هناك من يجيئه بالشاي غيرك •

قال بطرس ستيغافوتش ذلك للخادم العجوز ، وأمسك ذراع ليزا فتا
يقولاً يفتش بسطوة • فلم تسحب ليزا ذراعها • ولم تكن تملك وعيها
كاملاً على كل حال : انها لم تعد الى صوابها بعد •
دمدم بطرس ستيغافوتش يقول لها :

- أولاً : لقد سرت في اتجاه خطأ ؟ فما ينبغي أن نمر أمام الحديقة؟
لنمض من هنا • وثانياً : يستحيل عليك استحالة مطلقة أن تعودى الى
بيتك سيراً على القدمين ، فالمسافة تبلغ ثلاثة فراسخ ، ولست ترتدين
معطفًا • فالأفضل أن تنتظري قليلاً • لقد وصلت أنا بعربة • وهى الآن
فى فناء المنزل • سأستدعيها فتركيينها وأوصلك الى بيتك • فلا يراك أحد •
قالت ليزا بصوت رقيق عذب :

- ما أطيب قلبك ! •••

- ما هذا الذى تقولين ؟ ان كل انسان شريف لا بد أن يفعل
ما أفعل ، فى مثل هذه الحالة •

فنظرت اليه ليزا مدهوشة تقول :

- رباه ! كنت أظنه الخادم العجوز ! •••

- اسمعى • يسرنى أن تأخذى الأمر هذا المأخذ ، فما ذلك كله على
كل حال الا وهم من الأوهام الاجتماعية الباطلة • ولكن ، اذا كان الأمر
كذلك ، أفليس الأفضل أن تأمر العجوز باعداد المركبة ، فما تنقضى دقائق
عشر الا وتكون المركبة مهيأة ؟ وبانتظار ذلك نحتفى بسقيفة الباب ، هه ؟
- أريد قبل كل شىء ••• أين هى الجثث ؟

- يا لها من نزوة غريبة ! ذلك ما كنت أخشاه لا
لا تفكرى فى هذا • لتترك هذه الجلث اللعينة حيث هى • ما بك حاجة الى
رؤيتها •

- أنا أعرف أين هى ؟ اننى أعرف ذلك البيت !

- ليس بالأمر الهام أن تعرفيه • اسمعى • ان المطر ينهمر ، والضباب
يغشى كل شىء - رياه ! ما أغنائى عن هذا العناء كله ! - اسمعى
يا ليزافتا نيقولايفنا ! أحد أمرين : اما أن تركبى فى العربى معى ، وفى
هذه الحالة فلنقف هنا ، ولنتظرنى ، اذ لو سرنا عشرين خطوة أخرى
فسوف نلقى مافريكى نيقولايفتش

- مافريكى نيقولايفتش ؟ أين هو ؟ أين ؟

- اذا كنت تحرصين حرصاً مطلقاً على أن تذهبى اليه ، فاننى أوافق
على أن أسير معك بضع خطوات أخرى ، لأدلك أين هو ، ولكنى أفرّ
بعد ذلك • اننى لا أريد الاقتراب منه الآن •

صاحت ليزا قائلة وهى تقف فجأة :

- رياه ! انه ينتظرنى !

واصطبغ وجهها بحمرة شديدة •

- اذا كان رجلاً متحرراً من الأوهام الاجتماعية ، فلا قيمة للأمر
البتة • تعلمين يا ليزافتا نيقولايفنا اننى لا شأن لى فى هذه القضية كلها •
تعلمين هذا علماً تاماً ولكننى مع ذلك لا أريد لك الا الخير • اذا لم
تنجح « سفيتنا » ، واتضح أنها ليست الا قارباً قديماً بالياً

- آه رائع !

- ها هى ذى تبكى الآن ! يجب أن يتحلى المرء بالشجاعة فى مثل

هذه المناسبات • لا ينبغي للمرأة أن تخضع أمام الرجل • فى أيامنا هذه
••• حين يحدث لامرأة أن •••

هنا كاد بطرس ستيفانوفتش أن يبصق من شدة الغضب • ولكنه
أردف يقول :

- الشيء الرئيسى هو أن لا تأسفى على شيء : ان من الجائز أن
تسوئ جميع الأمور فى النهاية • ان مافريكى نيقولايفتش رجل •••
رجل حساس ••• رغم أنه صموت ••• والصمت صفة ممتازة على كل
حال ••• المهم أن يكون متحرراً من الأوهام الاجتماعية •

- رائع ! رائع !

كذلك هتفت ليزا وهى تضحك ضحكاً عصبياً •

فقال بطرس ستيفانوفتش منزعجاً على حين فجأة :

- هو ! لاحظى يا ليزافنا نيقولايفنا أننى فى سبيلك انما أسمى الآن
هذا السعى كله • ما شأنى أنا ! ••• لقد ساعدتك أمس حين أردت أنت
نفسك ••• واليوم !••• اننا نستطيع أن نرى مافريكى نيقولايفتش من
هنا • انظرى • هو ذا • انه لم يبصرنا • ليزافنا نيقولايفنا ، هل قرأت
« بولين ساكس » •

- ماذا ؟

- « بولين ساكس » • هى رواية • قرأتها حين كنت طالباً • انها
تحدثنا عن موظف ، غنى جداً ، رأى زوجته متلبسةً بالجرم المشهود ، فى
الريف دعيماً من هذا على كل حال ! ماشأنى أنا ؟ ان مافريكى نيقولايفتش
سيعرض عليك الزواج حتى قبل أن تصلى الى البيت • سوف ترين • لم
يبصرك حتى الآن •

هتفت ليزا تقول كالمجنونة :

- آه ... ما يجب أن يرانى • فلنهرب ! فلنهرب ! فى الغابة !
فى الحقول ! ...

وعادت أدراجها راكضة •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يركض وراءها :

.. ليزافتا نيقولايفنا ! ما هذا الضعف !؟ ... لماذا لا تريدان أن
يراك ؟ بالعكس : حدثنى فى عينيه ، بكبرياء ! ... اذا كانت المسألة هى
مسألة ... هى مسألة بكارتك ... فذلك وهم اجتماعى سخيف ...
ذلك تأخر فكرى كبير ! ... ولكن الى أين تذهبان ؟ الى أين تذهبان ؟
انها تركض ! ... لنعد الى سكفورشنيكى ، لتركب عربتى ... ولكن
الى أين تركضين هذا الركض ... فى الحقول !؟ ... ها ... ها ... ها هى
ذى تقع !

وقف بطرس ستيفانوفتش • كانت ليزا تركض كالمجنونة دون أن
تعرف الى أين تمضى • وكان بطرس ستيفانوفتش قد أصبح بعيدا عنها •
وتعثرت أخيراً بتلعة من الأرض فسقطت • وفى تلك اللحظة دوت صرخة
رهيبة : انه مافريكى نيقولايفتش رأى هرب الفتاة وسقوطها ، فهو الآن
يركض لنجدها عبر الحقول •

فسرعان ما رجع بطرس ستيفانوفتش الى منزل ستافروجين ليركب
عربته بأقصى سرعة •

ها هو ذا مافريكى نيقولايفتش يقف بقرب ليزا مرتاعاً • لقد نهضت
ليزا • وها هو ذا يميل عليها ويتناول يدها بيديه • ان الظروف الخارقة
التي تكتنف هذا اللقاء قد بنت فى نفس الفتى اضطراباً شديداً ، وهذه

دموع تسيل غزيرةً على خديه • لقد رأى تلك التي يحبها حباً يبلغ العبادة ،
رآها تركض كالجنونة خلال الحقول ، في هذه الساعة المبكرة من الصباح ،
تحت المطر ، دون معطف ، بثوبها الجميل الذي كانت ترتديه أمس ،
مشعّنة ملطخة بالوحل ••• فلم يملك أن يقول كلمة واحدة ، ولم يزد
على أن خلع عنه معطفه ، ودثّر به كتنفى ليزا بيديه المرتعشتين • وها هو ذا
يهتف قائلاً على حين فجأة ، اذ أحس بشفتى ليزا على يده :

– ليزا ! أنا لا أصلح لشيء • ولكن لا تنبذيني ! لا تطرديني !

فقال له ليزا :

– لنصرف من هنا ! لا تتركني !

وأمسكت ذراعه وجرتّه وراءها • وأردفت تقول بصوت خائف :

– مافريكى يقولوا يفتش ، كنت أظهر الشجاعة هناك ، ولكننى هنا
خائفة من الموت • سوف أموت ، سوف أموت بعد قليل ، ولكننى خائفة ،
خائفة من الموت •••

بهذا دمدت ليزا وهى تضغط على ذراع صاحبها •

فقال مافريكى يقولوا يفتش وهو يلقى من حوله نظرات يائسة :

– ليت أحداً هنا على الأقل ••• قدماك سبتلان ••• سوف •••
سوف تفقدين عقلك •

دمدمت تقول محاولةً أن تبث فيه شيئاً من الشجاعة :

– لا تخف ! ما هذا بشيء ! ما هذا بشيء ! لقد قلّ خوفى منذ
أصبحت أنت بجانبى • أمسك يدى ، قدنى ! ••• الى أين نذهب الآن ؟
الى الدار ؟ لا ••• اننى أريد أن أرى الجثث أولاً • يقال انهم قتلوا
زوجته • ولكنه يقول انه هو الذى قتلها • ليس هذا صحيحاً ، أليس

كذلك ؟ ليس صحيحاً ، هه ؟ أريد أن أرى بعينى *** الأشخاص الذين قتلوهم بسببى أنا ! *** بسببهم انما فقدت حبه هذه الليلة *** سوف أرى كل شئ وأعرف كل شئ . أسرع ! أسرع ! اننى أعرف ذلك البيت . ولقد أشعلوا فيه النار *** مافريكى نيقولا يقتش ، لا تغفر لى ، لقد كان سلوكى غير شريف ! لماذا عسى يُغفر لى ؟ ما بالك تبكى ؟ اصفنى ، واقتلنى ، فى هذا المكان نفسه ، كما يفعل بكلب !

قال مافريكى نيقولا يقتش بصوت ثابت :

— لا أحد يحق له أن يحكم عليك . وأنا آخر من يحق له أن يحكم عليك ! غفر الله لك !

ان الحوار الذى جرى بينهما سيدو للقارىء غريباً عجيباً اذا أنا نقلته . كانا يمشيان يداً بيد ، بخطى وثيدة ، كمجنونين ، سائرين نحو الحريق قدماً لا يلويان على شئ . لم يكن مافريكى نيقولا يقتش قد فقد الأمل ، بعد ، فى أن يلقى عربةً ما ، ولكن الطريق كانت خالية مقفرة . وان رذاذاً من المطر يحجب المنظر ، مديباً الأشكال والألوان ، مفسياً كل شئ بنقاب أشهب . كانت الشمس قد شرقت منذ مدة ، ومع ذلك كان الجو كأنه ليل . وفجأةً ، من هذا الضباب المتجلد ، انبجست قامة غريبة ، شاذة . اننى حين أتصور هذا المشهد أتخيل اننى لو كنت فى محل ليزافتا نيقولايفنا لما صدقت عينى . ولكن ليزافتا نيقولايفنا سرعان ما تعرفت صاحب القامة ، فأطلقت صرخة فرح . انه ستيفان تروفيموفتش . كيف هرب من بيته ؟ كيف استطاع أن ينفذ ذلك المشروع الخيالى الغريب الذى كان يساوره منذ زمن طويل ؟ — ستعرفون كل شئ فيما بعد . وحسبى الآن أن أشير الى أنه كان مريضاً منذ ذلك الصباح : كانت به حى . ولكن لا شئ كان يستطيع أن يشفيه عما عقد النية عليه . انه يسير

فى الطريق الموحلة بخطى ثابتة • ومن يَرَّه يدرك أنه كان قد أعدَّ قراره كما يمكن أن يُعدّه رجل غير ذى خبرة ، وحيداً فى غرفة مكتبه الهادئ الساكن • كان ستيفان تروفيموفتش مرتدياً « لباس السفر » ، أى أن معطفه كان مشدوداً على جسمه بحزام عريض من جلد لامع ، وكان يحتذى جزمتين عاليتين • لعل هذه الصورة هى التى كانت فى خياله عن « المسافر » • أما حزام الجلد وحذاء الفارس اللذين كانا يضايقانه فى سيره كثيراً ، فأغلب ظنى أنه كان قد هبأهما منذ عدة أيام • وكان يكمل هذا اللباس قبة عريضة الحافة ، ولثام مشدود حول عنقه • وكان يحمل بيسراه كيساً للسفر صغيراً لكنه محشو حتى ليكاد ينفجر ، ويحمل بيميناه عصا ومظلة مفتوحة • ان هذه الأشياء الثلاثة - العصا ، والكيس ، والمظلة - كان حملها مزعجاً جداً ، وقد ثقلت على ستيفان تروفيموفتش منذ الفرسخ الثانى •

هتفت ليزا تقول :

- أهذا أنت ؟ هل يُعقل أن تكون أنت ؟

لقد كانت حركتها الأولى فرحاً ، ولكن سرعان ما حلَّ محل الفرح دهش أليم !

وهتف ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً يقول وهو يهرع إليها :

- ليزا ! عزيزتى ! عزيزتى ! هل يُعقل أن ... أن تكونى أنت قد ... فى هذا الضباب المظلم ؟ هل ترين الحريق ؟ « انك شقية ، أليس كذلك ؟ » (بالفرنسية) • اننى أرى هذا • لا تقصى على شيئاً ، ولا تسألينى عن شئ • أيضاً • « نحن جميعاً أشقياء ، ولكن يجب أن نغفر لهم جميعاً ! فلنغفر يا ليزا ! » (بالفرنسية) ولكن أحراراً الى الأبد ! ولكى تنتهى من الناس ونصبح أحراراً « يجب أن نغفر ، وأن نغفر ، وأن نغفر ! » (بالفرنسية) •

- ولكن ما بالك تجنو راکعاً على ركبتك ؟

- لأننى وأنا أودّ ع العالم أريد أن أودّ ع فى شخصك ماضى كله !

وأخذ ستيفان تروفيموفتش يبكى ، وحمل يدي ليزا الى عينيه •
وأردف يقول :

- اسى أجشو راکعاً أمام كل ما كان فى حياتى جميلاً • اننى أقبل
يديك وأقول لك شكراً ! لقد شطرتُ حياتى شطرين : مجنوناً هناك كان
يحلم بأن يرتقى السماء ، « انتين وعشرين سنة » ! وشيخاً هنا ، مسحوقاً ،
متجهداً ، معلماً ••• « عند ذلك التاجر ، هذا اذا وُجد ذلك التاجر »
(بالفرنسية) •

وصاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو ينهض لأنه أحس بالأرض
رطبة تحت ركبتيه :

- ولكنك مبتلة يا ليز ! وكيف يمكن هذا ؟ أبهذه الملابس ؟ •••
وسيراً على القدمين ؟ ••• وسط الحقول ؟ ••• انك تبكين ! « أنت
شقية ؟ » (بالفرنسية) • آ ••• نعم ••• سمعت ••• ولكن من أين
أنت الآن آتية ؟

كان يلقي عليها هذه الأسئلة وجلّ الهيئة ، ملقياً على مافريكى
يقولايقتش نظرات دهشة • وأردف يسأل :

- ولكن هل تعلمين كم الساعة الآن ؟

قالت ليزا :

- ستيفان تروفيموفتش ، هل سمعت عن أولئك الأشخاص الذين
قتلوا ؟ ••• أهذا صحيح ؟ ••• أهذا صحيح ؟ •••

- أولئك الأشخاص ! لقد لبث الليل كله أتأمل حمرة لبيب
جريمته • كان لا يمكن أن ينتهوا الى غير هذا •

وسطعت عيناه من جديد • وواصل كلامه يقول :

- اننى هارب من هديانهم • اننى أترزع نفسى من كوابيسهم • اننى
ماضٍ أبحث عن روسيا • أهى توجد ، روسيا ؟ آه ... هذا أنت أيها
الكاتب العزيز ! لم يساورنى أبدا شك فى أننى سأراك فى يوم من الأيام
تحقق عملاً نبيلاً • ولكن خذى مظلتى • ثم لماذا السير على الأقدام ؟
ناشدتك الله ! خذى مظلتى على الأقل ! وسأجد فى النهاية عربة تقلنى •
لقد رحلت سيراً على القدمين لأن ستازى (يريد أن يقول ناستاسيا) كان
يمكن أن تهيج الشارع كله لو عرفت أننى راجل • لقد تسلكت مجهولاً •
ان جريدة « الصوت » ملأى بقصص عن قطاعى طرق • ولكن يستحيل ،
فيما أظن ، أن أقع على واحد من قطاع الطرق فور سبرى فى الطريق •
عزيزتى ليزا ، يخيل الى أنك قلت منذ هنيهة أن أحداً قُتل ، أليس
كذلك ؟ رباه ! انها يُغشى عليها •

هتفت ليزا تقول بحرارة وهى تجر مافريكى نيقولايفتش من جديد :

- هيا بنا ، بسرعة ! ياستيفان تروفيموفتش ، لحظة ...

قالت ذلك وعادت الى ستيفان تروفيموفتش • وتابعت مخاطبه :

- أريد أن أرسم عليك اشارة الصليب ، أيها الرجل المسكين ! لعل
الأفضل أن توثق بالأغلال ، ولكننى أؤثر أن أباركك • أنت أيضاً صلّ
للمسكينه ليزا ، قليلاً ، دون أن تتعب نفسك •

وعادت تخاطب مافريكى نيقولايفتش فقالت له :

- يا مافريكى نيقولايفتش ، أعد الى هذا الطفل مظلته • أعدها اليه
حالاً • هلم بنا ... فلنمشى !

ووصلا الى المنزل المشؤم بعد أن كان الجمهور الذى يحتشد فى مكان الجريمة قد سمع كلاما كبيرا عن ستافروجين وعن الفوائد التى يجنيها من مقتل امرأته • ومع ذلك ظل أكثر الناس هادئين صامتين • وانما كان يضطرب ويصرخ بينهم عددٌ من السكارى والمندفعين ، كذلك القفّال الذى سبق أن تكلمت عنه • ان هذا القفّال مشتهر بأنه رجل ديع مسالم ، ولكنه يفقد صوابه تماما حين يعصف به انفعال قوى ، فلا يدرك عندئذ ماذا يفعل •

اننى لم أرَ وصول ليزا ومافريكى يقولان يقتش • فما كان أشدّ دهشتى حين لمحتما فى وسط الجمهور المحتشد ، بعيدا عنى ! أما مافريكى يقولان يقتش ، فاننى لم أمتّزه فى اللحظة الأولى • جائز أن يكون الجمهور قد فصله عن الفتاة ، فأصبح متخلفاً عنها قليلاً • كانت ليزا تشق الحشد الغفير دون أن ترى أو أن تسمع ما يجرى حولها ، كأنها مجنونة هاربة من المستشفى • لذلك لم تلبث أن لفتت إليها الأنظار • فدوّت عندئذ صيحات كثيرة ، وصرخ أحدهم يقول فجأة : « هذه آنسة ستافروجين ! » وقال صوت آخر : « لا يكفيهم أن يقتلوا الناس ، وانما يريدون أيضا أن يروا جثثهم ! » •

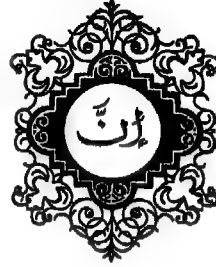
وفجأةً رأيت ذراعاً ترتفع فوق ليزا وتهوى على رأسها • وسمعت فى تلك اللحظة نفسها صيحة رهيبية : انه مافريكى يقولان يقتش يشب لنجدة الفتاة ، ويضرب بجميع قواه الرجل الذى كان يفصله عن ليزا • ولكن القفّال الذى كان وراءه أمسك يديه •

كان الاضطراب والازدحام يبلغان من الشدة اننى خلال بضع نوان لم أستطع أن أرى شيئا • أظن أن ليزا نهضت ، ولكنها لم تلبث أن سقطت مرةً أخرى بضربة جديدة • وابتعد الجمهور فجأة فشكل دائرةً حول

لِيزَا الرافدة على الأرض وما فريكي نيقولا يفتش المسعور النازف دماً ،
الذى كان يميل على الفتاة عاقفاً يديه • لا أتذكر على وجه الدقة ماذا
جرى بعد ذلك • ولكننى أتذكر أن الناس حملوا ليزا • وركضت أنا
وراءهم : كانت ليزا ما تزال تنفس • بل لعلها لم تكن قد أُغمى عليها •
واعْتُقِل القفَّال ومِثْلَة أفراد آخرين • ان هؤلاء الثلاثة ما يزالون الى
اليوم يحتجون ببراءتهم ويؤكدون أنهم اعتُقلوا خطأً • ولعلمهم صادقون •
أما القفَّال فرغم أنه شوهد متلبساً بالجرم ، لم يمكن أن يُستخرج منه
شيء ، بسبب اضطراب أفكاره • وحين دُعيت للشهادة ، رغم أننى لم أَرَ
شيئاً كثيراً ، أفدت بأن هذا القتل كان نتيجة تضافر ظروف سيئة ، وأن
القتلة وقد هاجهم كل ما كانوا قد سمعوه ، عدا أنهم سكارى ، انما تصرفوا
بغير وعى أو شعور ، ولم يدركوا ما كانوا يفعلون • وما يزال هذا رأى
الى اليوم •

الفصل الرابع

فدرافقى



أشخاصاً عدة التقوا ببطرس ستيفانوفتش فى ذلك الصباح • وقد تذكروا فيما بعد أنه بدا لهم مهتاجا
اهتاجا شديداً •

وفى الساعة الثانية بعد الظهر مرَّ بمسكن جاجانوف الذى وصل أمس من الريف • كان البيت مليئاً بالناس ، وكان هؤلاء يناقشون أحداث المدينة بحرارة واندفاع • وقد تحدث بطرس ستيفانوفتش أكثر مما تحدث الآخرون ، واستطاع أن يحملهم على الاصغاء إليه • ان الناس عندنا كانوا دائماً يعدونه « طالباً ثرائراً مختلاً » بعض الاختلال ، ، ولكنه أدار الحديث على جوليا ميخائيلوفنا ، فكان ذلك موضوعاً مثيراً للاهتمام ، فى وسط تلك البلبلة العامة الشاملة • وقد ذكر عن جوليا ميخائيلوفنا ، بصفته من خلصائها المقرَّبين ، عدداً من التفاصيل الجديدة غير المتوقعة • ونقل كذلك (كأنها عن طيش ودون أن يريد ذلك) عدداً من أحكامها على بعض الأشخاص المرموقين ، فكان من شأن هذا طبعاً أن قرص كبرياء الحاضرين منهم • وكان يعبّر عن نفسه بكلام مبهم مقطّع مفكّك • لذلك أشعر الناس بأنه رجل قليل المكر لكنه شريف ، اضطر أن يشرح دفعةً واحدة طائفةً من أنواع سوء التفاهم ، فهو لسذاجته الخرقاء لا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهى • وقد أفلت

من لسانه قوله بغير حذر : ان جوليا ميخائيلوفنا كانت على علمٍ بسرِّ ستافروجين ، وانها هى التى حبكت المؤامرة التى كان بطرس ستيفانوفتش هو نفسه ضحيةً لها ، لأنه كان هو أيضاً مغرماً بحب تلك المسكينة ليزا . وقد بلغت من احكام حبك المؤامرة أنه هو ، بطرس ستيفانوفتش ، قد تولى بنفسه « تقريباً » ايصال ليزا الى ستافروجين بالعربة . « نعم ، يا سادة ، انه لسهل عليكم أن تضحكوا ! ولكن لو اننى عرفت ، لو اننى عرفت ، ما ستؤول اليه الأمور ! » . وجواباً عن الأسئلة القلقة التى ألقوها عليه بصدد ستافروجين صرَّح بقوله انه يعتقد أن مقتل ليادكين لم يكن الا مصادفة محضاً ، وان ليادكين كان ضحية حماقته نفسها ، لأنه راح يتباهى فى كل مكان بأن عنده مالاً . وقد بدت تعليقات بطرس ستيفانوفتش فى هذا الصدد واضحة جداً . ومع ذلك علق أحد مستمعيه على كلامه قائلاً : « هذا تمثيل لا ينطلى على أحد » : لقد شرب وأكل حتى لقد نام عند جوليا ميخائيلوفنا ان صبح التعبير ، وها هو ذا رغم ذلك أول من يقول فيها سوءاً . ليس ذلك بالأمر المستحسن منه كما قد يظن . ولكن بطرس ستيفانوفتش دافع عن نفسه بلهجة وقورة جداً يقول :

— اذا أكلتُ وشربت عندها ، فليس ذلك عن عوز . أأكون مذنباً اذا هى دعتنى دائماً ؟ اسمح لى أن أكون بنفسى حكماً على مايجب لها على من شكر وامتنان !

كان الشعور العام مؤيدا له على وجه الاجمال . « انه لم يخترع البارود طبعاً ، ولكن لا يمكن أن يُعدَّ مسئولاً عن حماقات جوليا ميخائيلوفنا . بالمعكس : كان فيما يبدو يحاول أن يكبح جماحها . . . » .

فى نحو الساعة الثانية سرت شائعة على حين فجأة تقول ان ستافروجين قد سافر الى بطرسبرج فى قطار الظهر . وقد أثار هذا النبأ فضولاً قوياً ، حتى ان بعضهم اكفهر وجهه . أما بطرس ستيفانوفتش

فقد بلغ من الاضطراب للنبا أنه غير سحته فيما يقال ، وصرخ يسأل :
 « من ذا الذى تركه يسافر ؟ » • ولم يلبث أن غادر الحفل فوراً • ولكنه
 رثى فى منزلين آخرين أو فى ثلاثة منازل أخرى •

وفى نحو المساء استطاع أن ينفذ الى عند جوليا ميخائيلوفنا ، بغير
 قليل من العناء ، لأنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تلقاه • اننى لم أعلم
 بهذه الزيارة الا بعد ثلاثة أسابيع ، وذلك من جوليا ميخائيلوفنا نفسها ،
 قبيل رحيلها الى بطرسبرج • وهى لم تطلعنى على التفاصيل ، ولكنها اعترفت
 وهى ترتعش بأنه فى تلك الزيارة قد «أدهشها ادهاشا يفوق كل حد » •
 أظن أنه هدها بأن يشى بها شريكةً اذا هى تكلمت • لقد كان صمت جوليا
 ميخائيلوفنا لا غنى عنه اطلاقاً لمشاريع بطرس ستيفانوفتش التى كانت المرأة
 المسكينة تجهلها طبعاً • ولم تدرك جوليا الا بعد خمسة أيام لماذا كان
 يحرص ذلك الحرص كله على أن تصمت ، ولماذا كان يخشى أن يتجلى
 استياؤها صريحاً •

وفى نحو الساعة الثامنة من المساء ، حين خيم الظلام كاملاً ، كان
 « أصحابنا » يجتمعون كلهم ، هم الخمسة ، فى مسكن الضابط حامل
 الراية ، اركل ، الذى كان يقيم فى منزل صغير بأقصى المدينة يوشك أن
 يتداعى • ان بطرس ستيفانوفتش نفسه هو الذى دعا الى عقد هذا
 الاجتماع • ولكنه تأخر عن الموعد فلم يصل حتى الآن ، فأعضاء الحلقة
 ينتظرونه منذ ساعة كاملة • ان اركل هو ذلك الضابط نفسه الذى لبث
 فى سهرة فرجنسكى جالساً طول الوقت أمام دفتر ملاحظات ، وفى يده
 قلم رصاص • انه مقيم عندنا منذ مدة قصيرة ، وهو يقطن فى شارع صغير
 صامت ، لدى أختين عانسيتين • وكان يقال انه سيغادر مدينتنا بعد وقت
 قصير • لقد عقد الاجتماع فى بيته لأن عقد الاجتماع فى هذا المكان غير
 معرّض لأن يلاحظ كما يمكن أن يلاحظ فى مكان آخر • ولقد كان

هذا الفن الغريب صموتاً صموتاً خارقاً : كان يمكن أن يقضى عشر سهرات متتاليات فى مجتمع يبلغ أقصى درجات الحركة والحماسة ، وأن يستمع الى أحاديث طويلة تبلغ أقصى درجات الجلبة والصخب ، دون أن ينبس بكلمة واحدة ، وانما هو ينصت الى المتحدثين ساكناً ، منقلاً بينهم عينيه اللتين تشبهان عيني طفل ، متفرساً فيهم بانتباه . وكان له وجه جبل لا يخلو من ذكاء . انه ليس واحداً من حلقة « الخمسة » التى كان أعضاؤها يعدونه مكلفاً بمهمة خاصة تنفيذية لا أكثر . ولكننا نعلم الآن أنه لم يكن مكلفاً بأية مهمة . ولعله هو نفسه كان لا يدرك وضعه ادراكاً واضحاً . لقد كان يكفيه أن يعبد بطرس ستيفانوفتش الذى عرفه منذ مدة قصيرة . بينما لو التقى اركل بأى مخلوق شاذ ، فاستطاع هذا المخلوق الشاذ أن يضيف على حديثه اليه ثوباً اشتراكياً رومانسياً ما ، فى سبيل أن يدفعه الى تأليف عصابة من قطاع الطرق ، ثم أمره من أجل وضعه فى موضع الاختبار أن يقتل ويسلب أول فلاح قادم ، لانصاع اركل للأمر الذى صدر اليه ولنفذته بغير أى تردد . كانت أمه المريضة تعيش فى الريف ، وكان يرسل اليها نصف راتبه الهزيل . فما كان أعظم شوق الأم الى تقبل هذا الرأس الأشقر ، وما كان أشد قلقها عليه ، وما كان أقوى حبها له . لا شك أنها كانت تدعو له كثيراً !

كان « أصحابنا » مضطربين اضطراباً شديداً . لا شك أن أحداث الليلة البارحة قد أدهشتهم وروعتهم . ان الفضيحة التى ساهموا فى احداثها راضين قد انتهت الى خاتمة لم تكن فى الحسبان قط . فحريق الليل ، ومقتل ليادكين ، وتهشيم ليزا ، كل ذلك مفاجآت لم تكن جزءاً من برنامجهم . انهم يتهمون بطرس ستيفانوفتش بالاستبداد ، ويأخذون عليه بكثير من المراهة أنه يخفى عنهم الأمور . الخلاصة أنهم بانتظار وصول بطرس ستيفانوفتش قد بلغوا من الحنق أنهم

قرروا أن يسألوه ايضاحات قاطعة ، وأن يطلبوا منه تفسيرات فاصلة •
 فاذا راوغ مرة أخرى ، فسوف يحلون حلقتهم ، وسوف ينشئون بدلا
 منها جمعية سرية جديدة ترمى الى هدف واحد هو « الدعاية للأفكار » ،
 وتقوم على قواعد المساواة والديموقراطية • وكان ليبوتين وشيغالوف
 والشخص الذى يقول انه يعرف الشعب الروسى حق معرفته ، يؤيدون
 هذا المشروع بحرارة وحماسة ، وكان ليامشين صامتا ولكن هيئته تعبر عن
 تأييد وتحييد • أما فرجنسكى فكان ما يزال مترددا ، وكان يلح على
 ضرورة انتظار الايضاح من بطرس ستيفانوفتش • وتقرر أخيرا أن
 يفسح لبطرس ستيفانوفتش مجال الايضاح • ولكن بطرس ستيفانوفتش
 ما يزال متأخرا عن الحضور ، فكان اهماله هذا يصب على النار زيتا • وكان
 اركل صامتا يحضر الشاى ويقدمها بنفسه فى أقداح على صينية حتى
 لا تدخل الخادمة الغرفة •

لم يصل بطرس ستيفانوفتش الا فى الساعة التاسعة والنصف •
 وها هو ذا يتقدم بخطى سريعة نحو المائدة المستديرة التى جعلت أمام
 الديوان وتحلقت حولها الجماعة • وقدّمت اليه قدح من الشاى لكنه
 رفضها • وكان وجهه يُعبّر عن حقن وقسوة وتكبر • لعله أدرك من
 هيئة الحاضرين فورا أن الحلقة « تتمرد » •

قال وهو يتبسم ابتسامة صفراء ويطوف ببصره على الوجوه :

— قبل أن أفتح فمى ، أفرغوا ما فى أنفسكم من كلام !

فانبرى ليبوتين يتحدث « باسم الجميع » فقال بلهجة مستاءة « ان
 الاستمرار على هذا الأسلوب يهدد كل واحد بتحطيم جبهته » • ونحن
 لا نخشى أبداً أن تتحطم جباهنا ، لا ، بل اننا مستعدون لهذا أثم الاستعداد •
 ولكن على شرط أن يكون الهدف هو خدمة العمل المشترك وحده •

هنا قام أفراد الجماعة بحركات شتى تتم عن التأييد • وتابع ليبوتين

كلامه فقال : فيجب اذن أن تكون صريحاً مع أعضاء الجماعة ليعرفوا سلفاً الى أين هم سائرون ، والا فما عسى يحدث ؟ •

هنا أيضاً ظهرت حركات تأييد وقامت دمدمات شتى • وواصل ليوتين كلامه يقول : ان هذا التصرف يشتمل على اذلال ، كما أنه محضوف بالخطر • ليس معنى ذلك أننا خائفون • ولكن اذا عمل فرد واحد بينما الآخرون لا يزيدون على أن يكونوا ييادق شطرنج يحركها كما يشاء ، فانه سيورطهم جميعاً فيما لا يد لهم فيه •

» نعم ، نعم ! • كذلك تعالت أصوات الآخرين مؤيدة •

— ماذا تريدون مني ؟

— ما شأن المكائد الصغيرة التي يدبرها ستافروجين بالعمل المشترك والقضية العامة ؟

كذلك تابع ليوتين كلامه سائلاً باستياء • وأردف يقول :

— ربما كان عضواً في اللجنة المركزية — هذا اذا كان لتلك اللجنة السرية العجيبة وجود حقاً — ولكننا لا نريد أن نعرف عن ذلك شيئاً • غير أن جريمة قتل قد ارتكبت ، والشرطة تبحث القضية ، فاذا تابعت الخيط الى آخره وصلت اليها •

قال تولكاشنكو ، الرجل الذي يعرف الشعب الروسي حق معرفته ،

قال مضيفاً الى كلام ليوتين :

— اذا أخذت مع ستافروجين ، فسوف نؤخذ نحن أيضاً •

وقال فرجنسكي يختم الحديث :

— وسوف نؤخذ بدون أية فائدة تعود على قضيتنا المشتركة •

— يا للحماقة ! ان جريمة القتل هذه لا ترجع الا الى المصادفة • ان فدكا هو الذي فعل هذه الفعلة ليسلب الكابتين ما معه من مال •

قال ليوتين معقّباً ، وهو يحركّ قسمات وجهه بمعنى التهكم :

– همّ ! ... مصادفة عجيبة مع ذلك •

– ثم ان الخطأ خطؤكم على كل حال •

– خطؤنا نحن ؟ كيف هذا ؟

– أولاً : لقد شاركت أنت نفسك في تدبير الحيلة يا ليوتين •
والأخطر من هذا ثانياً أننى أمرتك بترحيل لبيادكين الى بطرسبرج ، حتى
لقد أعطيتك المال اللازم • فماذا فعلت ؟ لو أنك رحّلته لما حدث شيء مما
حدث •

– ولكن ألسنت أنت الذى أوحيت الى فكرة حملته على قراءة أنشعار
فى الصبيحة الأدبية ؟

– اذا أوحيت اليك فكرة فليس معنى ذلك أننى أصدرت اليك أمراً •
ان الأمر الذى أصدرته اليك هو أن ترحّله •

– « الأمر » الذى أصدرته الى ؟ يا له من تعبير غريب ... ان
الواقع هو نقض هذا : لقد أمرت بالتريث ، وارجاء رحيله •

– أخطأت الفهم ، وبرهنت على أنك شديد الحماسة وعلى أنك لاتتقيد
بالنظام • ان جريمة القتل كانت من فعل فدكا • وقد تصرف من تلقاه
نفسه بنية الاستيلاء على مال الكابتن • وأنت سمعت أقاويل فصدّقتها
فوراً ، فخفت • ليس ستافروجين غيباً الى هذا الحد • والبرهان أنه سافر
ظهر هذا اليوم بعد أن قابل نائب الحاكم • فلو كان هناك ما يدعو الى
الاشتباه فيه ، لما أذن له بالسفر فى وضع النهار •

استأنف ليوتين كلامه بلهجة تشتمل الآن على حقسده وتخلو من
التحرج :

- نحن لا نقول البتة ان السيد ستافروجين قتل بيديه • حتى ليتمكن
أن يكون جاهلاً بكل شيء ، مثلى أنا • انك لتعلم علم اليقين أنني كنت
أجهل كل شيء ، وهأنذا مع ذلك قد أقمحت فى الفخ •

- فمن ذا تتهم اذن ؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش مرعباً الوجه •

فأجابه ليويتين :

- أتهم أولئك الذين يحرقون المدن •

- أنكى ما فى الأمر أنك تمكر وتراوغ • على كل حال ، أرجو أن
تحمل نفسك غناء قراءة هذه الورقة ، وأن تنقلها بعدئذ بين الآخرين من
باب العلم بالشيء •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك واستل من جيبه رسالةً غير مذيلة
باسم صاحبها (وهى رسالة كان ليادكين قد كتبها الى لبكه) ، ومدّها الى
ليويتين • فقرأها ليويتين ثم ناولها جاره ذاهلاً الهيئة • ولم تلبث الرسالة
أن طافت على الحضور جميعاً •

سأل شيجالوف :

- أهذا خط ليادكين حقاً ؟

فقال ليويتين وتولكأتشسكو مؤكداً :

- نعم ، هو خط ليادكين •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعيد الرسالة الى جيبه :

- لم أطلعكم على الرسالة الا لتكونوا على علم ، ولأننى رأيت أنكم
تثرون لمصير ايادكين • هكذا يكون فدكا قد خلّصنا اذن من رجل خطر

الى أقصى حدود الخطر • هناك مصادفات غريبة أحيانا • أليس هذا بليغ الدلالة يا سادة ؟

تبادل أعضاء الحلقة نظرة سريعة •

قال بطرس ستيفانوفتش وقور الهيئة :

– والآن يا سادة جاء دورى أنا لأسألكم • كيف أبحتم لأنفسكم أن تشعلوا الحريق فى المدينة بدون اذننى •

– ماذا ؟ نحن أشعلنا الحريق فى المدينة ؟

تابع بطرس ستيفانوفتش يقول دون أن يقيم وزناً لسؤالهم المتعجب :

– أفهم أن تكونوا قد اندفتم فطرتم وأسرفتم • ولكن الأمر ليس أمر فضيحة صغيرة فى هذه المرة • لقد جمعتكم هنا أيها السادة لأريكم مدى الخطر الذى أدت حماقتكم الشديدة الى وضعه فوق رؤوسكم ، والذى يهدد مصالح أخرى غير مصالحكم أنتم •

هتف فرجنسكى يقول مستاءً وكان قد ظل ساكتاً حتى ذلك الحين :

– اسمح لى • نحن الذين كنا ننوى أن نحتج على استبدادك وطفانك اللذين فرضا هذا التدبير الغريب العجيب الخطير !

– اذن أنتم تتكرون • ولكننى أنا أؤكد أنكم أنتم أحرقتم المدينة • لا تكذبوا أيها السادة • اننى أملك معلومات دقيقة • ان عدم انضباطكم يجعل القضية المشتركة والعمل المشترك فى خطر • ما أنتم الا حلقة واحدة فى شبكة واسعة ، فيجب أن تخضعوا للجنة المركزية خضوعاً أعمى • ومع ذلك فإن ثلاثة منكم لم يصدر اليهم أى أمر فى هذا الموضوع هم الذين دفعوا عمال مصنع شيجولين الى اشعال النار فى المدينة ، فشب الحريق •

- من هم هؤلاء الثلاثة ؟ اذكر أسماءهم !

- أمس الأول ، فى الساعة الثالثة من الصباح ، فى كاباريه « ميوزوتس » ، قمتَ أنت يا تولكاتشنكو بتحريض زافيا لوف •

قال تولكاتشنكو منتفضاً :

- اسمح لى • أنا لم أكد أقول الا كلمة واحدة فى هذا الصدد ، ولم أكن أتوى أى شىء معين محدّد ، ولم أتكلم الا لأنه كان قد جُلد فى الصباح • ثم سرعان ما تركته اذ لاحظت أنه سكران • ولولا أنك ذكّرتنى بهذا الحادث الآن ، لما خطر ببالى من تلقاء نفسه فى لحظة من اللحظات • ان كلمة تقال عرضاً ومصادفة لا يمكن أن تشعل النار فى مدينة •

- أنت أشبه بانسان يدهشه كثيراً أن تفجّر شرارة معزن بارود •

هتف تولكاتشنكو يقول :

- لقد كلمته بصوت خافت ، همساً فى أذنه ، وكنا فى آخر الصلاة • فكيف علمت بالأمر ؟

- كنت مختبئاً تحت المائدة • لا تخشوا شيئاً أيها السادة • اننى أعرف كل واحد منكم • أراك تبسم ساخراً يا سيد ليوتين • طيب • أنا أعلم مثلاً أنك منذ ثلاثة أيام ، فى منتصف الليل ، حين رقدت على فراشك ، قرصت زوجتك حتى أدمتها •

ففر ليوتين فاه من الدهشة واصفرّ لونه •

(وقد علّم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش قد علم بفعله ليوتين هذه من آجافيا ، خادمة ليوتين التى كانت منذ البداية تتجسس لبطرس ستيفانوفتش) •

سأل شيجالوف وهو ينهض فجأة :

– هل أستطيع أن أقرر واقعة ؟

– افعل •

فعاد شيجالوف يجلس ، وفكّر لحظةً ، ثم قال :

• اذا كان ما فهمته صحيحا – ومن المستحيل أن لا يكون صحيحا – فانك قد قلت منذ البداية ثم كررت مرة أخرى ، متكلما بكثير من البلاغة والفصاحة ، وان يكن كلامك نظريا ، أن هناك شبكة تغطى روسيا كلها وأن جماعتنا ليست الا حلقة فى هذه الشبكة • فكل جماعة من هذه الجماعات ، وهى جزء من الحزب الذى يتفرع ويتفرع الى غير نهاية ، يجب عليها أن تقوم بدعاية منظمة تقوّض السلطات المحلية ، وتشر الاضطراب فى الأرياف ، وتثير الفضايح ، وتذكى الرغبة فى حال أفضل ، وكذلك تعتمد الى اشغال الحرائق التى هى وسيلة شعبية جدا ، لتغرق البلاد فى وهدة اليأس فى الوقت المناسب • أهذه أقوالك نفسها حاولت أن أحفظها كلمة كلمة أم لا ؟ أهذا هو برنامجك الذى نقلته الينا بصفتك عضواً فى لجنة مركزية لا نعرفها بعد ، وتكاد تبدو لنا قائمة فى عالم الغيب ؟

– هذا صحيح • ولكن ما أطول اسهابك !

– لكل انسان أن يعبر عما بنفسه كما يشاء • انك حين أفهمتنا أن الشبكة التى تغطى روسيا كلها تُعدّ منذ الآن بمئات الحلقات ، وحين أفهمتنا أنه اذا قامت كل حلقة من هذه الحلقات بواجبها ، فان روسيا كلها ، فان روسيا كلها ، باشارة واحدة •••

– شيطان يأخذكم جميعا ! ان على عاتقى أعباء كافية ، بدون أن تنزيدوها أتم •••

كذلك قال بطرس ستيغافوتش وهو يتحرك على مقعده •

قال شيجالوف :

- طيب • سأوجز • وسأكتفى بأن ألقى عليك السؤال التالي : لقد نهضنا هنا فضائح منذ الآن ، ورأينا استياء الأهالي ، وحططنا سلطة الادارة المحلية ، ونهضنا حريقا • فممَّ استياؤك اذن ؟ أليس هذا برنامجك ؟ ما الذى تستطيع أن تأخذه علينا ؟

- آخذ عليكم عدم خضوعكم !

كذلك صرخ يقول بطرس ستيغافوتش • وتابع كلامه فقال :

- ما دمت أنا هنا فانه لمخطور عليكم أن تتصرفوا بدون اذن منى • كفى ! سيوشى بنا غداً بل ربما الليلة ، وسنعتقل جميعا • ذلك ما أردت أن أقوله لكم • معلوماتى أكيدة •

أذهلهم هذا النبأ بل صعقهم •

- سيوشى بنا من حيث أننا مشعلو حرائق ، ومن حيث أننا ثوريون • ان الواشى يعرف جميع التفاصيل • هذه ثمرة حماقاتكم !

صاح ليوتين يقول :

- هو ستافروجين حتماً •

- ستافروجين ؟ لماذا ؟ •••

قال بطرس ستيغافوتش ذلك وجمد • ولكنه لم يلبث الى أن تاب الى نفسه • ثم قال :

- بل هو شاتوف • أظن أنكم تعلمون جميعا أن شاتوف كان فى الماضى عضواً بالجمعية • ويجب علىَّ أن أقول لكم اننى قد كلفت بمراقبته

أناساً لا يرتاب في أمرهم ، فما كان أشد دهشتي حين عرفت أن تنظيم شبكتنا ليس سرّاً خافياً عليه ... وأنه يعلم كل شيء ! ... ومن أجل أن يجعل السلطة تعفو عن اشتراكه في الجمعية ، فانه سوف يثني بالجميع . ولقد كان يتردد حتى الآن ، وكنت أنا أداريه . أما الآن فانكم بالحريق قد أطلقتم يديه ، وحررتموه من التردد ، فعزم أمره ، ولكن يصده عن الوشاية بنا شيء . سنعقل جميعاً في الغد ، بصفتنا مشعل حرائق وبصفتنا مجرمين سياسيين .

– ولكن هل هذا صحيح ؟ كيف يعرف شاتوف ؟

كان الانفعال الذي سيطر على أعضاء الجماعة لا يوصف .

– هذا صحيح كل الصحة . ليس من حقى أن أطلعكم عن الوسائل التي استعملتها ، ولا أن أذكر لكم كيف اكتشفت كل شيء . اليكم مع ذلك ما لا أزال قادراً على فعله لكم : اننى أستطيع ، بواسطة شخص ما ، أن أؤثر في شاتوف دون أن يشبه في الأمر ، فاحمله على ارجاء الوشاية أربعاً وعشرين ساعة . ففى وسعكم اذن أن تعدوا أنفسكم فى مأمن حتى الصباح من بعد غد .

ساد الصمت دقيقة .

ثم صاح تولكاشنكو فجأة يقول :

– فلنرسل شاتوف اذن الى جهنم !

فتدخل ليامشين قائلاً بصوت حائق وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية :

– هذا ما كان ينبغى أن نفعله منذ مدة طويلة .

قدمدم ليويتين سائلاً :

٩ - كيف ؟

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يتلقف الكرة ويعرض خطته ، فيقول ان المطلوب هو استدراج شاتوف غداً عند هبوط الليل الى المكان النائي الذى دفن فيه آلة الطباعة ، بحجة استردادها • فمتى وصل شاتوف الى هناك « تفعلون اللازم » • وقد دخل بطرس ستيفانوفتش فى تفاصيل سأسكت عنها الآن ، وعرض وضع شاتوف فى الجمعية ، وهو وضع ملتبس كما يعرف القارىء •

قال ليوتين بصوت متردد :

- هذا كله حسن ، ولكن حكاية القتل الجديدة هذه سوف تبلى الأذهان

فأجابه بطرس ستيفانوفتش مؤيداً :

- حتماً • ولكن هذا أيضا محسوب • اننا نملك الوسيلة التى تمكنا من أن نصرف عنا الشبهات تماما •

وبذلك الوضع نفسه تكلم عن كيريلوف ، وعن اعتزاه الانتحار ، وذكر أن كيريلوف لن ينتحر الا فى اللحظة المطلوبة ، وأنه سترك رسالة يتهم فيها نفسه بكل ما يطلب اليه أن يتهم به نفسه (ان القارىء مطلع على هذه الأمور كلها) •

وأضاف بطرس ستيفانوفتش معقباً :

- ان اعتزام كيريلوف الانتحار ، وهو اعتزام قاطع يفسره هو تفسيرا فلسفيا ولكنه ليس فى رأى الا محض جنون ، معروف «هناك» • و «هناك» لا يدعون لشيء أن يضع ، لا يتركون لشعرة أن تفلت ، بل لا يسمحون لذرة غبار أن تذهب سدى • ان كل شيء يمكن أن يفيد عملنا

المشترك • وهكذا فإن «اللجنة» اذ تبنّت بالفائدة التي يمكن أن تجني من انتحاره ، واذ اقتنعت بأن نية الانتحار لديه جدٌ لا هزل ، قد أعطته مالا ليعود الى روسيا (ذلك أن كيريلوف - لا أدري لماذا ! - يحرص حرصا مطلقا على أن يموت بروسيا) ، وعهدت اليه بمهمة تكفل بانفاذها ، وهو ينفذها فعلاً ، وتعهّد عدا ذلك بأن لا يطلق الرصاص على رأسه الا حين يصدر اليه الأمر بهذا • لاحظوا أنه يريد أن ينفع المجتمع • لا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك • ففي الغد ، « بعد شاتوف » ، سأملي عليه رسالةً يصرّح فيها بأنه هو الذي قتله • وسوف يظهر هذا الأمر معقولاً : فقد كان الرجلان صديقين ، وقد سافرا معاً الى أمريكا وتشاجرا هناك ••• سوف يذكر هذا كله في الرسالة ••• و ••• حتى لقد يمكننا ، اذا كانت الظروف مواتية ، أن نملئ على كيريلوف أشياء أخرى أيضا ••• فيما يتعلق بالمشورات التحريضية مثلاً ••• بل فيما يتعلق بالحريق كذلك ••• على كل حال ، سأفكر في الأمر مزيداً من التفكير • لا تخشوا شيئاً : انه متحرر من الأوهام الاجتماعية الباطلة ، وسوف يوقع كل شيء يمكن أن نملئ عليه •

أظهر الحضور بعض الشكوك • ان هذا كله يبدو عجيباً كأنه الخيال • ومع ذلك كانوا قد سمعوا جميعاً عن كيريلوف ، ولا سيما ليوتين •

فقال بطرس ستيفانوفتش قاطعاً :

- لا تقلقوا أيها السادة • سوف يقبل • وبمقتضى الاتفاقات التي تمت بيتنا ، يجب أن أبلغه الأمر قبل موعد التنفيذ بيوم ، أي يجب أن أبلغه في هذا اليوم • لذلك اقترح أن يصحبني ليوتين ، ويشهد لقاءنا ، ويقول لكم عند عودته ، في هذا اليوم نفسه ، أننا ذكرنا لكم الحقيقة أم لا •

قال بطرس ستيغافوتش ذلك ثم أسرع يضيف فى خفق ، كأنه أحسّ أنه بمحاولة اقناع هؤلاء الناس الصغار يهب لهم شرفاً عظيماً لا يستحقونه :

- على كل حال ، افعلوا ما تشاءون ! فإذا لم تعزموا أمركم فقد انفرط عقدكم وانفكت رابطتكم ، وكان ذلك كله انما يرجع الى عدم طاعتكم والى خيانتكم . وبعد تلك اللحظة ، يمضى كل منا فى سبيله ولكن اعلموا أنكم مهدّدون عندئذ بالنتائج التى ستترتب على وشاية شاتوف بكم ، وأنكم مهدّدون عدا ذلك بانزعاج سبق أن نبّهتكم اليه عند انشاء هذه الحلقة . اننى ، من جهتى ، لا أخشاكم كثيراً أيها السادة ... لا تظنوا أن مصرى مرتبط بمصيركم ... على كل حال ، ليس لهذا كله من قيمة ...

قال ليامشين :

- نحن عازمون على العمل .

ودمدم تولكاشنكو قائلاً :

- ليس هناك حل آخر ؟ وإذا أكّد ليوتين أفوالك عن كيريلوف ...

هنا صاح فرجنسكى يقول وهو ينهض :

- أنا معارض ! اننى أحتج احتجاجاً شديداً على هذا القرار الدموى .

- ولكن ؟

كذلك سأله بطرس ستيغافوتش . فقال فرجنسكى :

- ماذا « ولكن » ؟

- أنت قلت « ولكن » ، وأنا أنتظر أن تتم كلامك ...

- أظن أننى لم أقل « ولكن » ... وانما قصدت اننى اذا اتخذتم

هذا القرار ، سوف ...

— سوف ماذا ؟

صمت فرجنسكى •

وتدخل اركل فجأة فقال :

— قد لا يكثر الانسان بأمنه وسلامته ، ولكن اذا كان الأمر يضر بالقضية ، فلا يحق للمرء عندئذ أن يهمل أمنه وسلامته ...

وارتبك اركل وسكت • ونظر الجميع اليه مدهوشين ، رغم انشغال بال كل منهم بمصيره الشخصى • ذلك أنهم لم يألّفوا أن يفتح اركل فمه بكلمة أبداً •

قال فرجنسكى :

— فى سبيل القضية ، أنا مستعد لكل شئ •

ونهضوا • وتقرر أن لا يُعقد اجتماع فى الغد ، ولكن أعضاء الحلقة سيُطلعون على الوضع ظهراً ، وسيُتفق عندئذ على التفاصيل • وشرح بطرس ستيفانوفتش أين توجد آلة الطباعة ، ووزّع على الأفراد أدوارهم واحداً واحداً ، ثم مضى الى كيريلوف يصحبه ليويتين •

٢

صحيح أن « أصحابنا » أصبحوا مقتنعين بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم ، ولكنهم مقتنعون فى الوقت نفسه بأن بطرس ستيفانوفتش يحركهم كما تحرك الياق على رقعة الشطرنج • ومع ذلك كانوا يعرفون جميعاً أنهم سيذهبون الى المكان الذى حدده لهم ، وأن مصير شاتوف قد تقرر • كانوا يشعرون أنهم أشبه بذباب سقط فى نسيج عنكبوت ضخمة • فكانوا يشعرون بسخط وحق ، ولكنهم فى الوقت نفسه يرتعشون خوفاً •

لا شك أن بطرس ستيفانوفتش قد أخطأ في حقهم • لقد كان يمكن تدبير الأمور كلها تدبيراً أقرب إلى الكياسة ، وأدنى إلى اليسر والسهولة لو أنه كلّف نفسه عناء تجميل الواقع ولو قليلاً • فبدلاً من أن يعرض لهم الوقائع عرضاً يظهر جانبها النبل ، كأن يحدثهم عن الرومانيين وعن تقيدهم بالنظام وتفانيهم في سبيل الوطن ، عمد إلى التخويف وحده ، فجعل كل واحد منهم يخشى على جلده هو ، وذلك شيء يقتصر إلى اللطف والكياسة حقاً • صحيح أن كل شيء إنما يترد إلى الصراع في سبيل الحياة ، أي إلى تنازع البقاء ، فذلك هو المبدأ الوحيد : هذا أمر يعرفه الجميع • ولكن ، مع ذلك ...

ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته للاستعانة بالرومانيين • لقد كان هو نفسه في حالة تشوش وحيرة • ان اختفاء ستافروجين قد بث في قلبه كثيراً من الاضطراب • كذب بطرس ستيفانوفتش حين قال ان نيقولاى فيسيفولودوفتش قد تحدث مع نائب الحاكم قبل أن يسافر • الواقع أن ستافروجين استقل القطار دون أن يرى أحداً ، حتى أمه • والشيء الغريب أن الشرطة لم تقلقه (حوسبت السلطات على ذلك فيما بعد) • ولقد حاول بطرس ستيفانوفتش أن يستعلم عن ستافروجين ، ولكنه لا يعرف حتى الآن شيئاً • لذلك كان مضطرباً أشد الاضطراب • هل كان يمكنه فعلاً أن يستغنى هذا الاستغناء عن نيقولاى فيسيفولودوفتش ، وأن يذعن لفقده ؟ ذلكم هو السبب في أنه لم يكن رقيقاً مع « أصحابنا » ، لا سيما وأنهم كانوا يكبلون يديه : فلقد كان يريد في الواقع أن ينطلق ساعياً وراء ستافروجين على الفور • ولكن كان عليه أن يهتم بأمر شاتوف ، وكان عليه أن يعزز ارتباط الخمسة بعضهم ببعض : « من يدري ؟ قد أظل أستفيد منهم ! » • ذلك ما لعله كان يحدث به نفسه •

زد على ذلك أن بطرس ستيفانوفتش كان مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن شاتوف

يستعد للوشاية بهم • لقد كذب على « الخمسة » : فالحق أنه لم ير تلك
الوشاية أبداً، ولا سمع عنها في يوم من الأيام، ولكنه كان مقتنعا بوجودها.
كان يُخَيِّل إليه أن شاتوف لن يستطيع احتمال الأحداث الأخيرة - موت
ليزا ، مقتل ماريا تيموفتشنا - وأنه سيعزم أمره أخيراً على أن يفعل • من
يدري ؟ لعل بطرس ستيفانوفتش كان من حقه أن يفكر هذا التفكير •
ولقد عُرِف منذئذٍ أنه يكره شاتوف كرهاً شخصياً : فهما قد تشاجرا مرةً
في الماضي ، وليس بطرس ستيفانوفتش بالذى يغفر اهانةً في يوم من
الأيام • بل اننى لمقتنع بأن هذا هو السبب الرئيسى فى المؤامرة التى دبَّرها
لشاتوف •

ان أُرصفة الأجر ضيقة جداً فى بعض الأماكن عندنا حتى لقد تنوب عنها
الواح خشبية أحيانا • فكان بطرس يسير فى وسط الرصيف فيشغله كله،
غيرَ مكترثٍ بليوتين أى اكتراث ، وكان لبيوتين مضطرا أن يركض
وراءه أو أن تتخطى قدماء فى وحل الشارع اذا هو أراد أن يكلمه •
وتذكر بطرس ستيفانوفتش فجأة كيف كان يحب هو نفسه هذا الخبب
منذ بضعة أيام الى جانب ستافروجين الذى كان هو أيضا (مثل بطرس
ستيفانوفتش فى هذه اللحظة تماما) يسير فى وسط الرصيف فيشغله كله •
فحين وافته ذكرى هذا المشهد كاد يختنق غضبا •

ولكن لبيوتين كان غاضبا هو أيضا : فى وسع بطرس ستيفانوفتش
أن يتصرف مع الآخرين كما يحلو له ، ولكن لا معه هو ، هو لبيوتين ،
الذى يعرف أكثر مما يعرفه الآخرون ، ويرتبط بالنظيم ارتباطا أوثق ،
ويشارك فيه مشاركة أعمق ، وذلك منذ مدة طويلة • صحيح أنه كان
يدرك حق الإدراك أن بطرس ستيفانوفتش يستطيع حتى فى هذه اللحظة
أن يتخلص منه ، بل أن يضيقه اذا لزم الأمر • ولكنه كان قد أخذ يكره
بطرس ستيفانوفتش منذ مدة طويلة ، بسبب موقف العطرسة هذا الذى

يقفه ، وليس بسبب الأخطار التي يقوده إليها • أما الآن وقد تقرر فلن شاتوف ، فانه حانق أكثر من سائر « أصحابنا » مجتمعين ؛ ولكنه يعترف مع ذلك أنه سيشرح غدا في عمله أول واحد ، « كعبد ذليل » ، بل أنه سيحمل عليه الآخرين • لذلك لا يساورني أى شك في أنه لو كان يستطيع أن يقتل بطرس ستيفانوفتش فورا ، دون أن يهلك نفسه طبعاً ، لفعل حتماً بغير تردد •

كان غارفاً في احساساته ومشاعره ، ملتزماً الصمت ، يخبئ وراء جلاده • وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد نسيه تماماً • ولكنه يصدمه بكوعه من حين الى حين ، دون أن ينتبه الى ذلك أى انتباه • وفجأةً وقف في شارع من شوارعنا الصغيرة التي تحفل بالناس ، ودخل أحد المطاعم •

هتف ليوطين يسأله :

— الى أين ؟ ألا ترى أن هذا مطعم ؟

— أريد أن أكل شريحة من اللحم •

— المكان يفص بالناس هنا •

— لا يهمنى •

— ولكن ... سنصل متأخرين • الساعة قد بلغت العاشرة •

— يستطيع المرء أن يذهب الى كيريلوف مهما يكن الوقت متأخراً •

— أنا الذي سوف أتأخر • انهم ينتظرون عودتى •

— فلينتظروا ! ومن النبء أن تعود اليهم • اننى لم أصب غداً

اليوم بسيكم •

دخل بطرس ستيفانوفتش الى حجرة خاصة من المطعم • واضطر

ليوتين أن يجلس متنعياً على مقعد ، غاضباً حانقاً ، ينظر اليه وهو يأكل •

دام ذلك أكثر من نصف ساعة • لم يتعجل بطرس ستيفانوفتش ، وكان واضحاً أنه يتلذذ بتناول طعامه • وقد رنَّ الجرس ينادى الخادم عدة مرات ، فطلب منه بيرة ثم طلب خردلاً من نوع خاص ، كل ذلك دون أن يتوجه الى ليوتين بكلمة واحدة • كان يبدو غارقاً في أفكاره العميقة ؛ انه قادر في الواقع أن يفعل شيئين في آن واحد : يأكل بشهوة ويفكر • وكان ليوتين من فرط ما يشعر به من كره وبفض لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره • شيء مرضى حقاً • كان يعدُّ كلَّ لقمة من لقم شريحة اللحم ، التي كان الأكل يحملها الى فمه • انه يكرهه لطريقته في فتح هذا الفم ، لطريقته في مضغ الطعام ، لتذوقه اللقم الدسمة أكثر من غيرها ؛ انه يكره شريحة اللحم نفسها واضطرب بصره أخيراً وأخذ يشعر بدوار ، وسرت في ظهره رعادات •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يرمى الى ليوتين ورقة :

— ما دمت لا تفعل شيئاً ، فاقراً هذا •

دنا ليوتين من الشمعة • ان الورقة ملأى بكتابة مرصوفة ، خطها لا يكاد يُقرأ وفيها شطب كثير • فلما انتهى ليوتين من قراءة الورقة بغير قليل من الصعوبة ، كان بطرس ستيفانوفتش قد فرغ من طعامه ، ودفع الحساب ، ونهض لينصرف •

وردَّ اليه ليوتين الورقة في الشارع • فقال له بطرس ستيفانوفتش :

— بل احتفظ بها ، سأشرح لك فيما بعد ••• ولكن ما رأيك على كل حال ؟

فارتعش ليوتين •

— رأيي أن منشورا من هذا النوع ••• سخيف ، ومضحك !

لقد أصبح ليوتين عاجزاً عن أن يحتمل أكثر مما احتمل ، وأن يصبر مزيداً من الصبر ، فكان يحس كأن شيئاً ينهضه عن الأرض ويلقيه الى أمام • واستطرد يقول وهو يرتعش حقناً مسعوراً :

– اذا نحن قررنا أن نوزع منشورات من هذا النوع ، فان الناس جميعاً سيحتقرونا لقبائنا وجهلنا بالواقع •
قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة قاطعة وهو ما يزال يتقدم بخطى ثابتة :

– همّ ••• أما رأيى أنا فرأى آخر •••

– ذلك رأيى • هل يُعقل أن تكون أنت الذى كتبت هذا البيان ؟
– لا شأن لك •

– أرى أيضاً أن قصيدة « البطل » قصيدة رديئة جداً كذلك ، ولا يمكن أن يكون هرتسن هو الذى نظم هذه الأشعار •
– أنت تكذب : القصيدة رائعة •

قال ليوتين نافضاً كلَّ ما كان يجيش فى قلبه :

– يدعشنى أن يُقترح علينا أن نعمل على تقويض كل شيء • فى أوروبا طبعاً أن يتمنى المرء أن يتقوض كل شيء ، لأن لديهم طبقة بروليتاريا ، أما نحن فلسنا الا هواة ولا نزيد على أن نثير غباراً • ذلك هو رأيى •

– كنت أظن أنك من أتباع فورييه •

– الأمر عند فورييه مختلف ، مختلف تماماً •

– نعم ، أعرف ا ما آراء فورييه الا سخافات •

– لا ، ليس عند فورييه سخافات *** معذرة ، يستحيل على أن
أصدّق أن الثورة ستقوم في شهر أيار (مايو) •

اضطر ليويتين أن يحل أضراره من شدة ما كان يشعر به من حر •
قال بطرس ستيفانوفتش منتقلاً بهدوء محيّر الى موضوع آخر :
– كفى • والآن – قبل أن أنسى – يجب عليك أنت أن تجمع هذا
البيان وأن تطبعه • سوف نخرج مطبعة شاتوف من مدفنها ، وسلمها لك
غدا • عليك ، بأقصى ما تستطيع من سرعة ، أن تطبع لنا عددا من النسخ
لنوزّعها أثناء الشتاء تنفيذاً للتعليمات الصادرة إلينا • عليك أن تطبع أكبر
عدد ممكن من النسخ ، لأن أقاليم أخرى ستطلب منا نسخاً •

– لا ، معذرة *** لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أن *** اننى
أرفض •

– لكنك ستنفذ مع ذلك ما أقوله لك • اننى أعمل وفق تعليمات
اللجنة المركزية ، عليك أن تطبع •

وأنا أرى أن اللجنة المركزية فى الخارج لا تدرك الواقع الروسى،
وأنها قد قطعت كل صلة لها بالبلاد • انهم هناك يخرفون • بل ان من
رأى أنه لا يوجد الا حلقة خماسية واحدة هى حلقتنا ، وأن الشبكة التى
تحدث عنها ليست الا وهماً ***

هذا ما انطلق به لسان ليويتين وقد نفذ صبره • فقال بطرس
ستيفانوفتش :

– انه لشيء يدعو الى الاحتقار أن تكون قد لاحقت القضية دون
ايمان بها *** وأن تظل تركض الآن ورائى مثل كلب صغير ***

– لا ، لست أركض • ان من حقنا أن نسحب وأن ننشئ جمعية
جديدة •

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة التهديد :

– غبى !

وقدحت عيناه شرراً •

بقى الاثنان متقابلين لحظات • وأتساح بطرس ستيفانوفتش وجهه
أخيراً ، وتابع سيره بخطى ثابتة •

التمعت فى ذهن ليوتين فكرة سريعة كومض البرق فقال يحدث
نفسه : « سأعود أدراجى وأقفل راجعا • ان لم أفعل هذا الآن فلن أفعله
يوما » • وحين قال ذلك لنفسه كان قد سار عشر خطوات • وفى الخطوة
الحادية عشرة شقّت ذهنه فكرة جديدة ، فكرة يائسة ، فلم يعد أدراجة ،
ولم يقفل راجعا •

وكانا قد اقتربا من عمارة فيليوف ، ولكنهما قبل أن يصلا إليها ،
سارا فى شارع صغير بل قل فى ممر لا يكاد يُرى ، مما يحاذى السياج
ويمتد على طول حفرة • انهما لا يتقدمان هناك الا فى مشقة وعناء ،
متشبّين بالسياج فى كل لحظة ، لأن القدمين تنزلقان على المنحدر • فلما
وصلا الى ناصية ذلك السياج ، أزاح بطرس ستيفانوفتش لوحاً من
الخشب ، ودخل من الثغرة • وتبعه اييوتين مدهوشاً بعض الدهشة •
وأعاد لوح الخشب بعد ذلك الى مكانه • هذا هو المدخل السرى الذى
كان يتسلل منه فدكا الى المنزل •

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة قاسية :

– يجب أن لا يعرف شاتوف أننا هنا •

٣

كان كيريلوف ، على عادته فى مثل تلك الساعة ، جالساً على أريكته الجلدية يحترس الشئ • فلما رأى الزائرين لم ينهض ، ولكنه ارتعش وألقى عليهما نظرة قلقة •

قال بطرس ستيفانوفتش :

— لم يخطئ ظنك ، فانما أنا جئت لذلك الأمر نفسه •
— اليوم ؟

— لا ، لا ، بل غدا ••• فى مثل هذه الساعة تقريبا

وأسرع يجلس أمام المائدة متألاً كيريلوف بشئ من القلق • وكان كيريلوف قد استرد هدوءه على كل حال ، واستعاد وضعه المألوف • قال بطرس ستيفانوفتش يسأله :

— انهم لا يريدون أن يصدقونى • هل يسوؤك اننى اصطحبت لبيوتين ؟

— لا ، اليوم لا بأس ••• أما غداً فأريد أن أكون وحدى •

— ولكن الأمر سيتم بحضورى •

— بل أود أن لا تكون حاضراً •

— تذكر أنك وعدت بأن تكتب كل ما سأمليه عليك وأن تمهره بتوقيعك •

— سواء عندى • والآن هل تبقين مدة طويلة ؟

— هناك شخص يجب أن أراه وسأملك عندك نحو نصف ساعة •
— فرتب أمورك كما تشاء ، لكننى سأبقى نصف ساعة •

التزم كيريلوف الصمت • وكان ليويتين في أثناء ذلك قد جلس متحياً تحت صورة الأسقف • ان الفكرة التي ساورته منذ قليل تستولى على فكره الآن أكثر فأكثر • وكان كيريلوف لا يكاد يلقى اليه بالاً ، ولا يكاد ينتبه اليه أى انتباه • ان ليويتين يعرف نظرية كيريلوف ، وكان في الماضى يسخر منها • ولكنه اليوم صامت ينظر حوله مظلم الوجه •

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يقترب من المائدة :

- يسرنى أن أصيب شيئاً من الشاي • لقد أكلت شريحة لحم منذ قليل ، وكنت أعوّل على أن أشرب الشاي عندك •

- اشرب اذا شئت •

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة لاذعة :

- فى الماضى كنت أنت الذى تقدم لى الشاي !

- سيان ! وليشرب ليويتين أيضا •

- لا ••• لا أريد !

- لا أريد أو لا أستطيع ؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش فجأةً وهو يلتفت الى رفيقه •
فأجابه ليويتين بلهجة ذات دلالة :

- لن أشرب عنده •

فقطب بطرس ستيفانوفتش حاجبيه •

- تفوح من هذا الكلام رائحة الغيبة • لا يعرف الا الشيطان أى ناس أتم جميعا !

لم يجبه أحد • ودام الصمت دقيقة كاملة •

عاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم بخشونة وجفاف فقال :

- أنا لا أعرف الا شيئاً واحداً ، هو أنه ما من وهم من الأوهام الاجتماعية سيمنعنا من أن يحقق كل منا واجبه •

سأل كيريلوف :

- هل سافر ستافروجين ؟

- نعم •

- أحسن صنعا •

ألقى بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف نظرة جادة ، ولكنه كظم ما فى نفسه وسيطر على ارادته •

- لا يهمنى كثيراً ما تراه من رأى ، ولكن يهمنى أن يفى كل واحد بما قطعته على نفسه من عهد •

- ساقى بوعدى •

- على كل حال ، كنت أنا دائماً على ثقة بأنك ستفنى بعهديك ، كما يفعل رجل مستقل متقدم •

- أما أنت فرجل مضحك •

- لا مانع • يسعدنى أن أضحك • يسعدنى دائماً أن أسرّ أحداً •

- انك ترغب رغبة شديدة فى أن أتحرر ، وتخشى خشيةً قوية أن أعزف عن ذلك •

- أنت الذى ربطت خطتك بعملنا • لقد شرعنا فى عمل معين على أساس تلك الخطوة ، فلا يمكنك بحال من الأحوال أن تعدل عنها الا وتعرضنا للخطر •

- ليس لكم على أى حق •
- أفهم ، أفهم تماما : هذه ارادتك الحرة ، وما نحن بشيء ، وانسا المهم أن تتحقق هذه الارادة الحرة •
- وسيكون على أن أحمل على عاتقى جميع دناءاتكم ؟
- اسمع يا كيريلوف : أتراك خائفاً ؟ اذا كنت تفكر فى التراجع ، فأعلن هذا فوراً •
- لست خائفاً •
- سألتك هذا السؤال لأننى رأيتك تلقى أسئلة كثيرة •
- أتمسافر قريباً ؟
- أسؤال آخر ؟
- نظر اليه كيريلوف باحتقار •
- وعاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم وقد أخذ حنقه وقلقه يزدادان وأصبح يعجز عن النور على اللهجة المناسبة :
- اسمع يا كيريلوف : انك تريد أن أسافر من أجل أن تبقى وحدك ، من أجل أن تخلص الى نفسك • وهذه كلها أعراض خطرة عليك ، خطرة عليك أنت قبل أى شخص آخر • انك تريد أن تفكر • وفى رأى أن الأفضل أن لا تفكر ، وانما تقدم على العمل ببساطة • لقد أخذت تقلقنى •
- سىء واحد يتير فى نفسى الاشمئزاز ، هو اننى فى لحظة كنتك اللحظه سيكون بقربى حشرة مثلك !
- اذا كان هذا ما تخشاه فالأمر بسيط ! اننى مستعد لأن أخرج

أثناء ذلك الوقت فأتتظر على درجات المدخل • اذا كنت تقيم هذا الوزن كله لأمر كهذه الأمور وأنت تنهياً للموت ، فذلك ... فذلك شيء خطر • سأبقى على درجات المدخل ، ولن يكون عليك الا أن تتخيل أنني لا أفهم شيئاً ، وأنتى دونك الى غير نهاية •

- لا ، لست دونى الى غير نهاية : انك لا يعوزك الذكاء ، غير أن هناك أموراً كثيرة لا تفهمها لأنك انسان فاسد شرير •

- طيب • طيب • أنا مفتون بهذا الكلام • سبق أن قلت لك اننى يسعدنى أن أسرك ... فى مثل هذه اللحظة •
- انك لا تفهم شيئاً •

- أقصد أنني ... على كل حال ، هأنذا أصفى اليك باجلال واعظام ...

- بل أنت غير قادر على شيء البتة • انك لا تستطيع حتى أن تخفى فى هذه اللحظة حنقك الحقيقى وغيظك الدنىء ، رغم أن ذلك يضرك • ستفضبنى أخيراً ، فأرانى أرجىء الأمر ستة أشهر على حين فجأة •

نظر بطرس ستيفانوفتش فى ساعته • ثم قال :

- اننى لم أفهم من نظريتك شيئاً فى يوم من الأيام ، لكننى أعلم أنك لم تتخيلها من أجلنا نحن • معنى ذلك أنك ستنفذ عزمك حتى بدون أن يكون لنا فى الأمر شأن • وأعلم أيضاً أنك لست أنت الذى التهمت الفكرة وانما الفكرة هى التى التهمت • فلن تراجع اذن !

- كيف ؟ الفكرة التهمتى ؟

- نعم •

- ولستُ أنا الذى التهمت الفكرة ؟ هذا كلام ممتاز • ان لك بعض الذكاء • ولكنك تكتفى بالمزاح ، أما أنا فلى كبريائى •

- عظيم ، عظيم • ذلك بعينه هو ما نحن فى حاجة اليه : أن يكون لك كبرياؤك •

- كفى • لقد انتهيتَ من شرب الشاي ، فانصرف الآن !

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض :

- يجب أن أنصرف فعلاً • ولكن ما يزال الوقت مبكراً • اسمع يا كيريلوف : هل أجد ذلك الرجل عند الجزارة ؟ انك تعلم من أعنى ، هه ؟ أم تراها كذبت هى أيضا ؟

- لا ، لن تجده عندها ، لأنه هنا •

- هنا ؟ شيطان يأخذه ! ولكن أين هو ؟

- فى المطبخ • يأكل • يشرب •

- كيف سمح لنفسه بأن •••

احمر وجه بطرس ستيفانوفتش غضباً ، وتابع كلامه فقال :

- لقد أُمِر أن ينتظر ••• يا للحماقة • انه لا يملك لا مالاً ولا جواز سفر •

- لا أدرى • لقد جاء يودّعنى • وهو يستعد للسفر • سيسافر الى غير رجعة • يقول انك رجل وغد ، وانه لا يريد أن ينتظر مالك •

- آه ••• انه يخاف أن أ ••• اذا ••• أين هو ؟ فى المطبخ ؟

فتح كيريلوف باب حجرة صغيرة مظلمة فيها سلم ذو ثلاث درجات يفضى الى المطبخ الذى هو أشبه بزنزانة تسكنها الخادمة فى العادة • ففى

ركن بهذا المطبخ ، تحت الأيقونات ، كان فدكا جالساً أمام قفينة فودكا وطبق لحم بارد مع بطاطس • كان يأكل على مهل بغير تعجل ، ويبدو نصف سكران • وكان يرتدى سترته المصنوعة من جلد الخروف تأهباً للرجل • ان السماور يغلى مأؤه وراء الحاجز ، ولكنه ليس لفدكا • بالعكس : ان فدكا نفسه هو الذى أصبح منذ أسبوع يحضّر الشاي « لألكسى نيلتش لأن ألكسى نيلتش قد ألف أن يشرب الشاي فى الليل ••••• وهناك ما يجعلنى أعتقد أن الخادمة كانت غائبة ، وأن كيريلوف كان قد أمر بطهو اللحم والبطاطس منذ الصباح ، من أجل فدكا •

هتف بطرس ستيفانوفتش سائلاً وهو يهرع الى المطبخ :

— ما هذا أيضاً ؟ لماذا لم تنتظرنى هناك كما أمرتك ؟

وضرب المائدة بقبضة يده ضربة سريعة •

فاصطنع فدكا هيئة قلة الاكثريات ، ثم قال وهو يقطع كل كلمة من كلماته متصنعاً :

— انتظر يا بطرس ستيفانوفتش ، انتظر قليلاً • يجب عليك قبل كل شئ أن تفهم أنك فى زيارة السيد كيريلوف ، ألكسى نيلتش ، الذى يجب عليك أن تلمح له حذائه ، لأنه بالقياس اليك رجل مثقف ، على حين أنك أنمت لست الا •••••

قال ذلك والتفت فبصق بغير لعاب • ان لهجته المتعترسة ، المتفهمة ، الهادئة هدوءاً كاذباً حتى حدوث أول انفجار ، كانت خطرة الى أبعد حدود الخطر • ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته لملاحظة الخطر • هذا عدا أن فكره كان تائهاً بعد أن ذهبت بصوابه أحداث النهار واخفاقاته ••••• وكان ليويتين يراقب المشهد من أعلى السلم •

- أتريد أم لا تريد أن تملك جواز سفر وأن تنال مبلغاً ضخماً
لتمضى الى حيث أُمّرت أن تمضى ؟ أنعم أم لا ؟

- اسمع يا بطرس ستيفانوفتش : لقد حدثتني منذ البداية ، وأنا
لذلك أعدتك وغداً حقيراً كقملة • هذا أنت فى نظرى • لقد وعدتني
بمال كثير لقاء الدم البريء ، وعدتني به باسم السيد ستافروجين • ثم
اتضح أن ذلك كله لم يكن الا كذباً دنيئاً منك • فأنا لم أقبض ألفاً وخمسمائة
روبل ، بل لم أقبض كوبكاً واحداً ؛ كما علمنا أن السيد ستافروجين قد
صفك منذ قليل على خديك • وهأت ذال الآن تستأنف تهديدك لى ،
وتستأنف وعدى بالمال ، ولكنك لا تذكر الغرض من ذلك • ولكننى أحس
أنك ترسلنى الى بطرسبرج معتمداً على سذاجتى وسرعتى فى التصديق ،
لتنقم من السيد ستافروجين ، يقولائى فسيفولودوفتش • فالقاتل حقاً انما
هو أنت • وهل تعلم ماذا ينتظر من جراء انغماسك فى حمأة الرذيلة
الى أن كفرت حتى بالله ، الخالق الحق ؟ أنك أشبه بوثنى ، وانك لا تفضل
تترباً • لقد شرح لك ألكسى نيلتش مراراً ، وهو فيلسوف كبير ، شرح
لك مرارا حقيقة الله ، خالق كل شىء ، وحدتك حديثاً طويلاً عن خلق
العالم والحياة الآخرة ، وعن بعث البشر والحيوان كما جاء فى رؤيا
القديس يوحنا • ولكنك ظللت لا تحس ولا تنطق ، كشخص أبله جامد •
لقد أغويت الضابط اركل ، مثل ذلك المغوى الشرير الذى يسمى
ملحداً •••

- يا للسكير ! يسرق الأيقونات ثم يدعو الى الايمان بالله •••

- هذا صحيح • أعترف لك بذلك يا بطرس ستيفانوفتش • لقد
سلبت أيقونات • لكننى اكتفيت بأخذ الآلىء • ومن يدرى ؟ لعل دموعى
فى هذه اللحظة نفسها تتحول الى آلىء أمام هيكل الرب ، لأننى أُنْهت
وأوذيت ، لأننى يتيم ، حتى اننى كنت لا أعرف أين أُرقد رأسى • هل

قرأت في الكتب القديمة ، أنه حدث في الماضي ، في الأزمنة السحيقة ، أن رجلاً من البائعين قد سرق لؤلؤة من أكليل السيدة العذراء ، أم المسيح ، وهو يصلى ويبكى ؟ وبعد ذلك ، على مرأى من الشعب المحتشد ، سجد أمام الأيقونة ، ووضع المبلغ كله عند قدميها ، فألقت عليه الأم العذراء حجابها تستره عن أعين الناس جميعاً ؟ لقد تحققت في تلك المناسبة اذن معجزة حقيقية ، وأصدرت السلطات أمرها بتدوينها دقيقةً في كتب الدولة . ولكنك أنت قد سلّلت فأراً . وبذلك تكون قد أهنت يد الرب نفسها . ولولا أنك السيد الذي حملته على ذراعيّ مراهقاً ، لقتلتك في هذه اللحظة نفسها ، فوراً .

جنّ جنون بطرس ستيفانوفتش من الغضب .

— أجنبي ، هل رأيت اليوم ستافروجين ؟

— لا أسمح لك بأن تسألني . ان السيد ستافروجين يُدهش من أعمالك . انه لم يصدر إليك أمراً ولا أعطاك مالاً . بل انه لم يشارك في جريمة القتل أى مشاركة ، ولو بالفكر والخيال . لقد كذبت عليّ .

— سوف تنال المال . وسوف تتلقى أيضاً ألفى روبل ببطرسبرج ، في المكان المعين ، بل سوف تتلقى هنالك أكثر من ذلك .

— أنت تكذب ، أنت تكذب يا عزيزي ، بل انني ليضحكني أن أراك واثقاً هذه الثقة كلها . ان ستافروجين هو بالقياس اليك رجلٌ يقف في قمة سلّم ، وأنت في أسفل السلم تنبح نباح كلب صغير ، بينما هو يحس أنه يشرفّك كثيراً اذا ارتضى أن يصبق عليك من أعلى .

أعول بطرس ستيفانوفتش يقول وقد بلغ ذروة الحق :

— ولكن هل تعلم أنني لن أدعك تخرج من هنا أيها الشقي ، وأنني سأسلمك للشرطة فوراً ؟

فنهض فدكا بوثة واحدة وقد قدحت عيناه شرراً • فسرعان ما أخرج بطرس ستيفانوفتش مسدسه • انه لمشهد سريع بشع • وقبل أن يتسع وقت بطرس ستيفانوفتش لاطلاق النار ، كان فدكا ، السريع كومض البرق ، قد هوى على خده بلطمة رهيبة أتبعها بلطمة ثانية فثالثة فرابعة على الخد أيضاً • فدمدم بطرس ستيفانوفتش ببضع كلمات مبهوئاً مصعوقاً ، ثم خر على أرض الغرفة •

صاح فدكا يقول باعتزاز وزهو :

— هو ذا • افعل به ما تشاء •

ثم تناول قبعته وسحب خرجه من تحت الدكة واسل خارجا • كان بطرس ستيفانوفتش يحشرج مششياً عليه ، حتى لقد تخيل لبيوتين خلال لحظة أنه قد مات • وهرع كيريلوف الى المطبخ • وصرخ يقول :

— الى بقاء •

وغرف ماءً من سطل ، وسكب منه على وجه بطرس ستيفانوفتش • فتحرك بطرس بعد لحظة ، وأنهض رأسه ، ونظر أمامه زائع البصر • سأل كيريلوف :

— هيه ! كيف الحال الآن ؟

فتأمله بطرس ستيفانوفتش ملياً ، دون أن يتعرفه فيما يبدو • ولكنه حين أبصر لبيوتين الذى كان ينظر اليه من أعلى السلم ، ابتسم ابتسامته الشريرة تلك ، ثم اذا هو يتناول مسدسه فجأة ، وينهض عن الأرض •

وصرخ قائلاً وهو يهرع نحو كيريلوف كمجنون :

– اذا خطر ببالك غداً أن تهرب كما فعل ذلك الوغد ستافروجين
(كان شاحب اللون وكان صوته يختنق في حلقه) ... فلسوف أجذك
... في الطرف الآخر من العالم ... وسوف أقبض عليك ... كذبابة
... فأسحقك ... هل فهمت ؟ ...

وصوب مسدسه الى جبهة كيريلوف • ولكن في تلك اللحظة نفسها
تقريباً ثاب اليه رشده تماماً ، فخفض يده ، ودسّ المسدس في جيبيه وخرج
راكضاً دون أن يقول كلمة واحدة • وتبعه ليوتين • فسارا في ذلك الممر
نفسه ، محاذيين المنحدر مرةً أخرى ، متشبّثين بالسياج كما فعلا في
المجىء • فلما صارا في الشارع أخذ بطرس ستيفانوفتش يسير بخطى تبلغ
من السرعة أن ليوتين لم يستطع أن يتبعه الا بكثير من العناء • حتى اذا بلغ
مفترق طرق توقف على حين فجأة •

وقال يخاطب ليوتين بلهجة التحدى :

– طيب !

وكان ليوتين ما يزال يرتجف ارتجافاً شديداً من ذكرى المسدس
والمشهد الذي رآه • ولكن الجواب تساقط من شفتيه كأنما من تلقاء نفسه
رغم ارادته ، فقال :

– أظن ... أظن « أنهم من سمولنسك الى طشقند ... لا ينتظرون
الطالب نافدى الصبرى الى هذا الحد » ...

– هل رأيت ماذا كان يشرب فدكا في المطبخ ؟

– ماذا كان يشرب ؟ كان يشرب فودكا ...

– طيب ... فاعلم اذن أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة في حياته •
انى أنصحك بأن تذكر هذا من أجل ماقد تراه من آراء في المستقبل •

سوف يفيدك أن تتذكره • والآن ، اذهب الى الشيطان ! ••• لم أعد في حاجة اليك حتى الغد ••• ولكن حذار : لا ترتكب حماقات !
رجع ليوتين الى بيته سريع الخطى •

٤

كان ليوتين قد صنع لنفسه منذ مدة طويلة جواز سفر باسم مزور
ان هذا الشخص الصغير الحسوب ، هذا الخادم الطاغية ، هذا الموظف
الذى ينتمى الى أتباع فورييه ويتعاطى الربا فى الوقت نفسه ، قد بدت له
منذ زمن طويل هذه الفكرة العجيبة ، وهى أن يحصل على جواز سفر
استعدادا لكل طارىء ، كى يستطيع أن يسافر الى الخارج اذا حدث أن
••• نعم لقد بدت له هذه الفكرة ، مهما يدهشكم ذلك من مثله • لقد
كان يسلم اذن أن ذلك يمكن أن يحدث ، ومع هذا ، لو سألته ماذا تعنيه
هذه العبارة « اذا حدث أن ••• » ، لما استطاع أن يجيبك على وجه الدقة .
ولكن ها قد اتضح اليوم هذا الاحتمال على حين فجأة مكتسباً صورة
هى أبعد ما تكون عن التوقع • ان الفكرة اليائسة التى دخل بها على
كيريلوف والتى كانت قد ومضت فى ذهنه حين وصفه بطرس ستيفانوفتش
بالغباء هى أن يترك كل شيء وأن يهرب الى الخارج فى صباح الغد • ان
الذى يرفض أن يسلم بأن أشياء خارقة من هذا النوع يمكن أن تحدث
فى واقعنا الحالى ، ما عليه الا أن يراجع حياة المهاجرين الروس • ما من
أحد منهم هرب لأسباب معقولة أكثر من ذلك : هذا أفق العجائب ، هذه
رحاب اللاواقع !

فلما رجع ليوتين الى البيت أغلق على نفسه الباب بالمفتاح ، ثم أخذ
يهيئ كيس السفر • وكانت مسألة المال تشغل باله أكثر من أى شيء

آخر : كم يجب أن يأخذ ؟ هل يتاح له أن ينقذ كل ما يملك ؟ نعم ، أن ينقذ . فهو يتصور أنه لم تبق ساعة واحدة يمكن أن يضعيها ، وأن عليه أن يسير عند طلوع الشمس . وكان لا يعرف أيضا أين يجب عليه أن يركب القطار : لعل الأفضل أن يركب القطار بعد محطتين أو ثلاث محطات من مدينتنا ، ولو اقتضى الأمر يمضي الى هناك سيراً على الأقدام . كانت هذه الأفكار كلها تدور في رأسه كالاعصار وهو يرتب أمتعته في كيسه ، حين توقف فجأة ، فترك كل شيء ، وتهاوى على أريكته وهو يشن أنه طويلاً .

لقد أحس إحساساً واضحاً وأدرك على حين فجأة أنه سهرب طبعاً ، ولكنه عاجز عن أن يقرر بنفسه هل يهرب «قبل» مقتل شاتوف أو «بعده» . ذلك أنه الآن ليس الا جسماً عاطلاً عن الحركة ، ليس الا كتلة ساكنة تخرجها قوة غريبة رهبة . انه يملك جواز سفر من أجل أن يرحل الى الخارج ، فيستطيع اذن أن يهرب «قبل» شاتوف (أكان يستعجل لولا أن الأمر كذلك ؟) ، ولكنه مع ذلك يدرك أنه لن يسافر «قبل» شاتوف ، بل «بعده» ، لأن الأمر قد تقرر ، ووُقع ، وخُتم . وها هو ذا يبقى على هذه الحال ، مستلقياً على أريكته ، يعذبه القلق ، ويرتعد لأيسر ضجة ؛ يشن تارة ، ويحبس أنفاسه تارة أخرى ، ولا يفهم هو نفسه ما الذي يحدث في نفسه ، حتى حانت الساعة الحادية عشرة ، فحدثت أخيراً الصدمة التي أطلقت قراره . ففي الساعة الحادية عشرة ، ما ان فتح باب غرفته حتى أخبره ذووه أن فدكا ، الهارب من سجن الأشغال الشاقة ، الذي كان ينشر الرعب والقتل والحرائق في كل مكان ، والذي تلاحقه الشرطة منذ مدة طويلة دون أن تستطع القبض عليه ، قد وُجد مقتولاً هذا الصباح ، على مسافة سبعة فراسخ من المدينة عند تقاطع الدرب الكبير وطريق زاخارينو . ان المدينة كلها لا تتحدث الا عن هذا النبأ . أسرع

ليوتين يتقصى الأخبار فوراً فعرف ما يلي : أن فدكا الذى وُجد مهشم الرأس لا بد أنه قد سُلِب ما كان معه ؛ وأن الشرطة تعتقد ، لأسباب وجهة ، فيما يبدو ، أن القاتل هو قومكا ، أحد عمال مصنع شيجولين ، الذى قتل ليادكين وأخته مشتركاً مع فدكا ، وحاول أن يشعل النار فى بيتهما • ولعل الرجلين ، فدكا وقومكا ، قد تشاجرا فى الطريق على المبلغ الضخم الذى كان فدكا (كما يظن رفيقه) قد سرقه من عند الكابتن ليادكين ••••

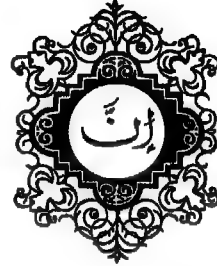
أسرع ليوتين ا لى منزل بطرس ستيفانوفتش فعلم من الخادمة أن مولاه قد رجع الى البيت فى نحو الساعة الواحدة من الصباح ، فنام نوماً هادئاً حتى الساعة الثامنة •

لا عجب طبعاً فى موت فدكا : فعلى هذا النحو انما يموت فى العادة أمثال هؤلاء الرجال • ولكن تحقق نبوءة بطرس ستيفانوفتش (« فاعلم اذن أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة فى حياته ! ») ، بدا له مليئاً بالدلالة ، فوضع حداً لتردده • لكأن صخرة قد سقطت عليه فسحقته الى الأبد •

وحين عاد الى البيت دفع كيس السفر بقدمه حتى جعله تحت السرير • وفى الساعة المحددة من المساء وصل أول من وصل الى المكان الذى كان يجب أن يلتقى فيه بشاتوف • ولكنه كان يحمل فى جيبه جواز السفر •

الفصل الخامس

المسافر



موت ليزا وموت ماريا تيموفتشنا قد سحقا شاتوف سحقاً ، وهدماً نفسه تهديماً • سبق أن قلت اننى لقيته فى ذلك الصباح ، ففوجئت بهيئته التائهة ونظرته الزائفة • وقد ذكر لى ، فيما ذكر ، أنه فى الليلة البارحة ، فى نحو الساعة التاسعة (أى قبل الحريق اذن بثلاث ساعات) كان قد ذهب الى ماريا تيموفتشنا • وفى الصباح مضى يشاهد الجثث ، ولكنه احتفظ بافتراضاته ولم يبع بها لأحد • غير أن عاصفة حقيقية قد ثارت فى نفسه آخر النهار ••• و ••• أظن اننى أستطيع أن أؤكد أنه فى لحظة من اللحظات قد مرّت به لحظة قرر فيها أن يكشف عن كل شيء • أما ما هو « كل شيء » هذا فانه كان هو نفسه لا يعرفه على وجه الدقة • ومن الواضح أن قيامه بهذه الخطوة ما كان يمكن أن يؤدى الى أية نتيجة • كل ما هنالك أن الرجل كان سيعرّض نفسه للخطر • انه لا يملك أية براهين تدين الجناة : انه لا يملك الا ظنونا وتخمينات لا تعدل اليقين الا فى نظره هو • ولكنه كان مستعداً لأن يضحي بنفسه فى سبيل « سحق هؤلاء الأشرقياء » على حد تعبيره هو • فلم يكن بطرس ستيفانوفتش اذن على خطأ حين توقع هذا الانفجار عند شاتوف ، وحين أدرك أنه بارجاه تنفيذ مشروعه الرهيب الى الغد انما

يجازف كثيرا • ومع ذلك قرر الارجاء • غير أنه على عادته كان يمتليء
ثقة بنفسه واحتقارا لجميع هؤلاء « الناس الصغار » ولشاتوف خاصة • انه
يحترق شاتوف منذ مدة طويلة ويحترق « طبيعته الخاصة البكاءة » ، كما
قال عنه حين كان لا يزال في الخارج ؛ لهذا كان مقتنعا بأنه يستطيع أن يتغلب
بسهولة على انسان يبلغ مبلغه من السذاجة والبساطة : يكفيه من أجل هذا
أن يكلف أحداً بمراقبته طول النهار ، فاذا لاحظ شيئا وقف في طريقه
وسدَّ عليه سبيل انفاذ ما يريد انفاذه • ومع ذلك أستطيع أن أقول ان
« الأنقياء » لم ينبجوا وبسلموا في هذه المرة الا بفضل حادث غير متوقع
ما كان لهم أن يتنبأوا به •

ففي الساعة الثامنة من المساء ، بينما كان أصحابنا عند اركل ينتظرون
وصول بطرس ستيفانوفتش ويضطربون ويتحركون ، كان شاتوف ، المثلث
الرأس المصاب بحمى ، كان مستلقيا على سريره في الظلام • وكان في
أثناء ذلك يتقلب بين قرار وقرار ، فينتاظ ويحنق ويتعذب ، ويدمن تردده ،
ويتنبأ بأنه عاجز عن المبادرة الى القيام بعمل • وشيئا فشيئا نام وحلم : حلم
بأنه موثق في سريره لا يستطيع حراكا ، ولكنه مع ذلك يسمع ضجة
رهيبية : ان طرقات قوية تهز باب المنزل ، وجدرانه ، وجناح كيريلوف ،
وان صوتا بعيدا ، مألوفا أليما ، يناديه باسمه شاكيا متوجعا • استيقظ
شاتوف من نومه منتفضا ، وانتصب على سريره • فما كان أشد دهشته
حين أدرك أن الباب ما يزال يُطرق ، وأن الطرقات وان تكن أقل قوة
مما كان يسمعها أثناء الحلم ، متكررة وعنيدة ؛ وأن الصوت الغريب الأليم
ما يزال يرتفع ولكنه ليس شاكيا متوجعا ، بل هو على عكس ذلك نافذ
الصبر شديد الغضب • وكان يختلط به صوت آخر أهدأ منه • وثب
شاتوف عن سريره ، وفتح النافذة الصغيرة ، ومدَّ رأسه ناظرا ، ونادى
قائلا وقد تجمد من الخوف حقاً :

- من هذا ؟

فأجابه من تحت صوت جاف قاطع :

- اذا كنت شاتوف فأرجوك أن تقول لى بصراحة وسُرف وصدق
أُسمح لى بأن أدخل أم لا ؟

« انها هى ! » •

لقد تعرّف صوتها •

- مارى ! ... أهذه أنت ؟

- نعم ، أنا مارى شاتوف ، وأؤكد لك أن الحوذى لا يستطيع أن
بنظر دقيقة واحدة أخرى •

فنادى شاتوف يقول بصوت ضعيف :

- حالاً ... سأشعل الشمعة ...

وأخذ يبحث عن عيدان كبريت ، ولكنه كما يحدث دائماً فى مثل
هذه الأحوال لم يهتد إليها ، حتى لقد قلب الشمعدان والشمعة • غير أنه
ترك أخيراً كل شيء ، استجابةً للنداء المتكرر الذى أطلقه الصوت نافذ
الصبر تحت ، وانطلق على السلم يهبط درجاته أربعاً أربعاً ، وفتح الباب •
قالت مارى شاتوف وهى تمد اليه كيساً خفيفاً من أكياس السفر
المصنوعة من قماش والمزودة بمسامير من نحاس ، مما يُصنع بمدينة
درسدن :

- تناول كيسى لحظةً ، أرجوك ، حتى أدفع لهذا الغبى أجره •

والتفت نحو الحوذى فقالت له بלהجة غاضبة :

- أبيع لنفسى أن أقول لك ان مطالبتك غير عادلة • لقد ظلمت

تجربى بى هنا وهناك ساعة كاملة فى هذه الشوارع الوسخة • فذلك
خطؤك : كنتَ لا تعلم مكان هذا الشارع القبى وهذا المنزل البليد ! خذ
التلاين كوبكأ التى تستحقها وثق أنك لن تنال كوبكأ واحدا آخر غيرها •

- أنت التى سميت لى شارع « الصعود » يا سيدتى • أما هذا الشارع
فهو شارع الايفانيا • ان شارع الصعود بعيد جدا عن هنا • لقد أوشك
حصانى أن يموت تعباً •

- شارع « الصعود » ، شارع « الايفانيا » ! ••• لا بد أن تعرف
هذه الأسماء الحمقاء خيرأ منى أنا ، لأنك من هذه المدينة • ثم انك مخطىء :
أنا انما أسميت لك منزل فيلييوف قبل كل شىء ، فأكدت لى أنك تعرفه •
على كل حال ، تستطيع أن تشكونى غداً الى قاضى الصلح ، أما الآن
فأرجوك أن تدعنى وشأنى •••

تدخل شاتوف قائلاً :

- هذه خمسة كوبكات أخرى •••

وأخرج من جيبه قطعة نقدية مدّها الى الحوذى •

قالت السيدة شاتوف محتجة :

- ما تدخلك أنت ؟ اننى أمنعك •••

ولكن الحوذى كان قد انصرف •

أمسك شاتوف زوجته من يدها وأدخلها فى الدهليز •

- لنصعد بسرعة يا مارى ، بسرعة ••• لا قيمة لهذا البتة ! انك
مبتلة تماما ! انتبهى ••• ههنا درجات • يؤسفنى أننا من شدة الظلام
لا نرى شيئاً ! السلم وعمر ••• تمسكى بالدريزين جيداً • ها نحن

وصلنا • هذه غرفتي • معذرة • ليس عندي ضوء ! ••• حالا •••

وتناول الشمعدان من أرض الغرفة • ولكنه ظل لا يهتدى الى أعواد
الكبريت أيضاً • كانت السيدة شاتوف واقفةً في وسط الغرفة ، جامدةً
لا تتحرك ، تنتظر صامته •

- الحمد لله • ها هي ذى عيدان الكبريت •

كذلك هتف شاتوف فرحاً • وأشعل الشمعة • فطافت ماري شاتوف
ببصرها على المسكن • ثم قالت بصوت مشمشر :

- ذُكر لي أن مسكنك سيء ، ولكنني لم أتوقع كل هذا السوء •
آه ••• ما أشد ما أعانيه من تعب ! •••

وتهالكت على سرير شاتوف ، الخشن القاسي ، خائرة القوى •
وأردفت تقول :

- أرجوك ، ضع الكيس على الأرض ، واجلس على هذا الكرسي •
بل افعل ما يحلو لك • ولكن لا تبق واقفاً هذا الوقوف أمامي • لن أمكث
عندك الا وقتاً قصيراً ، الى أن أجد عملاً ، ذلك أنني لا أعرف أحداً هنا؛
ولا أملك قرشا واحداً • ولكن اذا كان وجودي يضايقك ، فأرجو أن تعلن
لي هذا فوراً ، كما ينبغي أن تفعل اذا كنت رجلاً شريفاً صادقاً • مهما
يكن من أمر ، أستطيع أن أبيع في الغد متاعاً ما ؛ فأدفع أجر فندق ؛ ولكن
سيكون عليك في هذه الحالة أن تقودني الى فندق ••• آه ••• ما أشد
ما أشعر به من تعب وإعياء •

قال شاتوف وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً :

- ماري ، لا يجب أن تتكلمي عن فندق ! ما هذه الفكرة ! لماذا ؟
وضمّ يديه احدهما الى الأخرى •

- اذا كان يمكن تدبير الأمور دون الذهاب الى فندق ، فيجب مع ذلك توضيح الموقف • تذكر يا شاتوف اننا عشنا معا بمدينة جنيف كما يعيش رجل وزوجته ، مدة خمسة عشر يوماً ، قبل ثلاث سنين ، ثم افترقنا ، بغير شجار على كل حال • ولكن لا يذهبن بك الظن الى اننى أعود الآن لأستأنف تلك الحماسة • أنا انما أعود لأعمل ، واذا كنت قد اخترت هذه المدينة ، فلأن الأمور كلها عندي سواء • انى غير نادمه على نىء • أرجو أن لا تخطر ببالك سخافة من هذا النوع •

دمدم شاتوف يقول :

- أوه ! مارى ! هذا كله لا داعى اليه ، لا داعى اليه البتة !

- مادام الأمر كذلك ، ما دمت تملك آراء تبلغ من التقدم هذا المبلغ الذى يتبع لك أن تفهم ما أقول ، فانتى أبيع لنفسى أن أضيف اننى اذا كنت قد اتجهت اليك ، اذا كنت قد جئت اليك رأساً ، فمما يدفعنى الى ذلك أنتى لم أعددك فى يوم من الأيام رجلاً حقيراً ، بل لعلنى عددتك فى جميع الأحيان فوق جميع أولئك ... الأوغاد •

كانت عيناها تلتصمان • واضح أنها لا بد أن تكون قد تأملت كثيراً من بعض أولئك « الأوغاد » •

- وثق أنتى لم أكن أسخر منك منذ قليل حين وصفتك بأنك طيب • لقد تكلمت بصراحة ، دون اصطناع جمل مزوَّقة • ثم اننى أحتقر الجمل المزوَّقة • ولكن كفى عن هذا ! لقد أمَّلت دائماً أنك ستكون ذكياً ذكاء يكفى لأن يجعلك تتركنى هادئة • آه ... كفى ! ما أشد هذا التعب !

ونظرت اليه طويلاً ، بألم • كان شاتوف واقفاً على مسافة بضعة خطوات منها يصغى الى كلامها خجلَ الهيئة • ولكن وجهه كان يسطع

بنور جديد كمن ارتد عمره سنين عدة الى وراء • ان هذا الرجل القوي
القاسى ، المشعث دائما ، قد أحس بعدوبة كبيرة تنفذ فيه فجأة • ان شيئاً
غريباً ، غير متوقع ، قد أخذ يهتز فى نفسه • ثلاث سنوات من الفراق لم
تكن قد محت من قلبه شيئاً • وفى خلال تلك السنوات الثلاث ، لعله لم
يمض يوم واحد دون أن يذكر فيه هذه الانسانة الغالية التى قالت له ذات
مرة : « أحبك » • اننى أعرف شاتوف معرفة كاملة ، فأستطيع أن أؤكد
واقفاً أنه لم يحلم يوماً أن يقول له امرأة « أحبك » • لقد كان قوى العفة
شديد الحياء الى حد التوحش ، وكان يظن فى نفسه بشاعة رهبة ، وكان
يكبره وجهه وطبعه ، ويعد نفسه نوعاً من مسخ مشوه خلى بأن يعرض
فى المعارض • لذلك كان يُنزل الشرف فى أعلى منزلة ، ويعد اسمى
من كل شيء ، وكان مخلصاً لاعتقاداته الى حد التعصب ، فكان يبدو مظلّم
الوجه صموتا متكبّراً فى جميع الأحيان • وها هى ذى الآن ، تلك الانسانة
الوحيدة التى أحبته طوال أسبوعين (من هذا هو على يقين) ، الانسانة
التي كان يضعها فى مقام أعلى من مقامه بما لا نهاية له ، مع ادراكه الكامل
لأخطائها ، الانسانة التى يغفر لها « كل شيء » ، كل شيء على الاطلاق
(حتى ان الأمر نقيض هذا ، فان شاتوف يحمل نفسه جميع الأخطاء) ،
هذه الانسانة ، ماري شاتوف ، ها هى ذى أمامه من جديد ، بقربه •••
ذلك أمر لا يكاد يفهم • ان دهشته تبلغ من القوة ، وان فى هذا الحادث
شيئاً يبلغ من الهول ويبلغ من السعادة فى الوقت نفسه ، أنه كان لا يستطيع
حتماً ، ولعله لا يريد ، أن يثوب الى رشده ، فهو يخاف أن يفعل • هذا
حلم • ولكنه حين لاحظ نظرتها الموجهة المرحقة المضنا أدرك أن هذه
المرأة تألم • فارتعش قلبه عندئذ ، وتأمّل قسمات وجهها بعطف أليم :
كانت نضارة الشباب الأول قد زايلت هذا الوجه المتعب منذ مدة طويلة •
ولكنها مع ذلك ما تزال جميلة ، وهى فى نظر شاتوف ما تزال رائحة

الجمال (انها فى الخامسة والعشرين من عمرها ، ممثلة الجسم ، طويلة القامة بل هى أطول من شاتوف ؛ لها شعر كستنائى غزير ، ووجه شاحب مستطيل ، وعينان سوداوان جميلتان تعانين الآن من حمى) ؛ ولكن حيويتها القديمة التى تشتمل على سذاجة وتسودها قلة الاكثراك ، والتى يعرفها شاتوف جيداً ، قد حلت محلها الآن سرعة الغضب والاهتياج وحل محلها نوع من الاستهتار لم تألفه حتى الآن فلا شك أنه شاق عليها • وهى الآن مريضة بخاصة • رأى شاتوف ذلك واضحاً كل الوضوح • لذلك اقترب منها وأمسك يديها رغم خوفه منها • وقال لها :

– مارى ••• اسمعى ••• لا بد أنك متعبة جداً ••• لا تزعلى ، أتوسل إليك ••• ما رأيك فى أن تجرعى شيئاً من الشاى ، هه ؟ الشاى مفيد دائماً • ليتك توافقين ، هه ؟ •••

– أوافق طبعاً • انك ما تزال طفلاً كما كنت • اعطنى شاياً اذا كان عندك شاى • ما أضيق مسكنك هنا ! وما أشد البرد !

– آه ••• سأجى بحطب فوراً • عندى حطب !

كذلك هتف شاتوف وهو يتحرك ويسعى هنا وهناك • وتابع يقول :

– نعم ••• حطب ••• أى ••• وسأتىك بشاى أيضاً •••

وتناول قبعته عازماً أمره •

– الى أين تذهب ؟ أليس عندك اذن فى البيت شاى ؟

– سيكون عندى شاى ، بعد لحظة واحدة • سوف يكون عندنا كل

ما يجب •

وتناول مسدسه من على الرف •

- سأبيع هذا المسدس ... أو أرهقه .

- يا للغباوة ! وسيستغرق هذا زمناً طويلاً . اليك بعض النقود
ما دمت لا تملك شيئاً . وهنا أربعة وعشرون كوبكا فيما أظن . ذلك كل
ما معي . لكن مسكنك مسكن رجل مجنون .

- لا ، لا ، لست في حاجة الى نقودك . أنا عائد حالاً ، بعد لحظة
... سأدبر أمري حتى بدون المسدس !

وأُسرع الى كيريلوف . حدث هذا قبل زيارة بطرس ستيفانوفتش
وليبيتين بساعتين تقريباً . ان شاتوف وكيريلوف ، وهما يقيمان في مبنى
واحد ، كانا لا يتزاوران أبداً ، واذا اتفق أن التقيا عرضاً لم يكلم أحدهما
الآخر ولم يسلم أحدهما على الآخر : لقد عاشا في أمريكا جنباً الى جنب
مدة أطول مما يجب .

- كيريلوف ، أنت عندك دائماً شاي . فهل تستطيع أن تعطيني شيئاً
من الشاي وأن تعيرني السماور ؟

كان كيريلوف يسير في الغرفة طولاً وعرضاً على عادته (انه يظل
يسير هكذا طول الليل) ، فوقف وتأمل شاتوف باتباه ، ولكن بغير دهشة
كبيرة .

- عندي شاي ، وسكر ، ولكن لماذا السماور ؟ الشاي ساخن :
فاجلس واشرب .

- كيريلوف ، لقد عشنا معاً في أمريكا ... ان زوجتي وصلت الى
بيتى ... وأنا ... اعطيني شايًا ... واني أحتاج أيضاً الى السماور .

- اذا كانت زوجتك قد وصلت فأنت في حاجة الى السماور . لكنك
ستتاله فيما بعد . عندي اثنان . أما الآن فخذ غلاية الشاي من على المائدة .

انها ساخنه ، ساخنة جدا • خذ كل شىء ، خذ السكر ، خذ كل شىء •
الخبز ••• عندى خبز كثير • خذ الخبز كله • وعندى أيضا لحم عجول
وروبل •

- اعطنى الروبل ، سأرده اليك غدا • آه ••• كيريلوف !
- أهى زوجتك التى كانت بسويسرا ؟ هذا حسن • وحسن أيضا
أنك هرت الى ••

صاح شانوف يقول وهو يتأبط غلاية الشاى ويحمل يديه الخبز
والسكر :

- كيريلوف! كيريلوف ! ليتك تستطيع أن تتخلى عن نزواتك الرهيبة
وأن تنبذ الحادك • اذن لصرت انسانا كبيرا ••• يا كيريلوف !

- واضح أنك تحب امرأتك بعد الذى حدث بسويسرا • حسن جدا •
اذا احتجت الى مزيد من الشاى فارجع الى • فى أية ساعة تعال • اننى
أسهر الليل كله • سيكون السماور مهياً • خذ الروبل • هذا هو • عد
الى زوجتك • سأبقى هنا وسأفكر فيك وفى زوجتك •

انقضت مارى شاتوف على الشاى بشرهة ، مسرورة سروراً واضحاً
بسرعة زوجها • ولكنهما لم يحتاجا الى السماور : فانها لم تشرب الا
نصف فنجان من الشاى ولم تزدرد الا قطعة صغيرة من الخبز • أما لحم
العجل فقد نبذته مسمثرة حانقة الهيئة •

قال شاتوف خجلاً وجلاً مع استمراره على التحرك حولها :

- أنت مريضة يا مارى • فيك شىء مريض •

- طبعاً أنا مريضة • اجلس اجلس • من أين جئت بهذا الشاى ؟
لم يكن عندك شاى •

شرح لها شاتوف ، بضع كلمات ، من هو كيريلوف • وكانت قد
سمعت عنه على كل حال •

- أعرف أنه مجنون • كفى ، أرجوك • لا ينقصنا أغبياء • اذن
ذهبت الى أمريكا ؟ أنا أعلم أنك كتبت من هناك •

- نعم ••• كتبت ••• الى باريس •

- كفى عن هذا الموضوع ! لتحدث عن شيء آخر ! هل أنت من
دعاة السلافية •

- أنا ••• ليس معنى هذا أنني ••• ولكن لأننى لم أستطع أن
أكون روسياً ، فقد أصبحت من دعاة السلافية •

قال شاتوف ذلك وهو يجبر نفسه على ابتسامة هي ابتسامة انسان
يعلم أنه يمزح فى غير موضع المزاح •

- ألسنت اذن روسياً ؟

- لا •

- هذه كلها سخافات • اجلس ، أرجوك • ما بالك تركض هذا
الركض يميناً ويسرة ؟ ألعلك تظن أنني أهذى ؟ ربما هذيت بعد قليل •
هل قلت انكما فى هذا المنزل اثنان لا أكثر ؟

- نعم ، اثنان ••• وتحت •••

- وكلاكما ذكى كصاحبه ؟ وتحت ؟ لقد قلت منذ لحظة : «تحت»
••• فعاذا تحت ؟

- لا ، لا شيء •

- كيف لا شيء ؟

– أردت أن أقول اننا الآن اثنان لا أكثر ، وتحت كانت تقيم أسرة
ليادكين •

– التي ذُبحَت في هذه الليلة ؟

أَلقت ماري شاتوف هذا السؤال وهي تنتصب فجأة • وتابعت تقول :
– سمعت عن القتل منذ وصولي • وشبت عندكم حرائق أيضا ؟

– نعم يا ماري • ولعلني ارتكب دناءة كبيرة في هذه اللحظة لأنني
أغمر لأولئك الأوغاد •••

قال شاتوف ذلك ونهض وأخذ يسير شاهراً قبضتي يديه في انتفاضة
غضب •

ولكن ماري لم تفهمه • لقد كانت تسأل زوجها ، غير أنها لا تصنى
الى أجوبته • قالت ماري :

– تحدث أشياء جميلة في مدينتكم ! آه ••• ما أحقر هذا كله !
ليس هؤلاء جميعهم الا أوغادا • ولكن لماذا لا تجلس ؟ لشدما تضايقني •••
ولم تطلق صبراً على ما بها ، فهوت برأسها على الوسادة •

– ماري ، سوف أجلس • تحسينين صناعا اذا نمت يا ماري ،
ما رأيك ؟

لم تعجب ماري شاتوف وأغمضت عينيها • انها بوجهه الشاحب أشبه
بميتة • واستولى عليها الندم في تلك اللحظة نفسها تقريبا • نظر شاتوف
حواليه • وقوّم الشمعة • وبعد أن ألقى نظرة قلقة أخيرة على المرأة
الشابة ، ضمَّ يديه احدهما الى الأخرى وخرج الى فسحة السلم بخطى
رفيقة لا يسمع لها وقع • ولبت هنالك واقفا قرابة عشر دقائق ، ساكنا
لا يتحرك ، ملتقياً بوجهه الى الجدار • وكان يمكن أن يمكث مدة أطول

- لولا أنه سمع خطي خفيفة : ان أحداً كان يصعد السلم ببطء وحذر •
- تذكر شاتوف أنه نسي أن يغلق باب فناء المنزل •

قال يسأل بصوت خافت :

— مَنْ هنا ؟

- فلم يجب الزائر المجهول • حتى اذا وصل الى فسحة السلم توقف •
- ان المرء لا يستطيع في هذا الظلام أن يميز وجهه • وها هو ذا يسأل
- مدمداً على حين فجأة :

— ايفان شاتوف ؟

- فأجابه شاتوف بنعم ، وأسرع يمد يده ليمنعه من الدخول • ولكن
- الزائر أمسك باليد الممدودة اليه ، فارتعش شاتوف كأنه لامس حية •
- وقال بصوت مختق :

- ابق هنا • لا أستطيع أن أستقبلك الآن • لقد وصلت زوجتي •
- ساجي • بشمعة •

فلما عاد حاملاً الشمعة رأى ضابطاً شاباً لا يعرفه الا وجهاً •
عرّف الآخر بنفسه قائلاً :

— أنا اركل • لقد التقينا عند فرجنسكي •

— أذكر هذا • كنت تدوّن ما يدور من نقاش •

وظل شاتوف يتكلم بصوت خافت ، وهو يقترب من الفتى خارجاً

عن طوره :

— اسمع ••• أراك رسمت على راحة كفي إشارة • فاعلم اذن انني

أحتقر هذه الاشارات جميعاً وابصق عليها جميعاً • انني لا أقبل •••

لا أريد ••• انني أستطيع أن أرميك الى أسفل السلم ، هل تعرف هذا ؟

فقال الزائر بسداجة :

- لا ، انتى لا أعرف شيئاً • هناك شيء علىَّ أن أبلغك اياه • وهذا هو السبب فى انتى جئت بغير ابطاء • ان عندك آلة مطبعة ليست لك ، ويجب عليك أن تردها الى أصحابها كما تعلم ذلك أنت نفسك • لقد تلقيت أمراً بأن أقول لك ان عليك أن ترد الآلة غداً ، فى الساعة السابعة من المساء ، الى ليوطين • وأنا مكلف عدا هذا بأن أعلن لك أنك بعد ذلك لن يُطلب منك أى شيء •

- لن يُطلب منى أى شيء ؟ أصبح هذا حقاً ؟

- لن يُطلب منك شيء على الاطلاق • ستتحقق رغبتك ، ستكون حراً • ذلك بعينه ما كُلِّفْتُ بأن أنقله اليك •

- من أمرك بهذا ؟

- الذين أبلغونى الاشارة •

- أأنت آتٍ من الخارج ؟

- يخيّل الىَّ ، يخيّل الىَّ ••• انك يجب أن لا تكثرث بهذا •

- طيب • ولكن لماذا لم تأت قبل الآن ، منذ صدر اليك الأمر ؟

- تقيدت بالتعليمات الصادرة الىَّ ، ولم أكن وحدى •

- أفهم ••• أفهم أنك لم تكن وحدك • ولكن لماذا لم يجرى ليوطين

بنفسه ؟

- سأجىء اليك غداً فى الساعة السادسة من المساء ، وسنمضى الى

هناك معاً ، ولن يكون ثمة أحد غيرنا نحن الثلاثة •

- وفرخوفنسكى ؟

- لن يكون هناك • ان فرخوفنسكى يسافر غدا فى الساعة الحادية عشرة من الصباح •

دمدم شاتوف يقول محنقا مفتاظا وهو يلطم فخذه بقبضة يده :

- قدّرت هذا • انه بهرب ، هذا الشقى !

وشرد ذهنه • وكان اركل ينتظر صامتاً ، وهو يلاحظه بانتباه •

- ما عساكم تصنعون بالمطبعة ؟ لا يمكنكم أن تحملوها فى خلال المدينة على مرأى وعلم من جميع الناس •

- لن نأخذها • سندلنا على المكان المدفونة فيه ، فتأكد من أنها موجودة حقا • اننا نعرف الجهة ولكننا لا نعرف الموضع على وجه الدقة • هل سبق أن دلت أحداً على المكان ؟
حدّثى اليه شانوف متفرساً •

- صبي مثلك ••• أحقق صغير ••• ها أنت ذا قد وقعت فى الفخ كخروف ! انهم فى حاجة الى شباب مثلك فعلاً ! طيب • انصرف الآن •
ان ذلك الوجد قد ورّطكم جميعاً ، ولاذ بالفرار •

كانت هيئة اركل ، المسالمة الساذجة ، تدل على أنه لا يفهم •
وردّد شاتوف يقول كازاً أسنانه :

- نعم ، لقد هرب فرخوفنسكى ، نعم ، فرخوفنسكى !
فل اركل بلهجة محببة مقنعة :

- ولكنه لا يزال هنا • انه لم يسافر • لقد طلبت منه أن يحضر استرداد المطبعة شاهداً ، كما تقتضى ذلك التعليمات التى صدرت الى •••
فما كان أنشد أسفى حين رفض ذلك بحجة السفر •

قال اركل ذلك مصطنعا السذاجة • وأضاف :
- والحق أنه يتعجل السفر ، لا أدري لماذا !
ألقي شاتوف نظرة شفقة على الغر المسكين ، مرةً أخرى ، ثم رفع
منكبیه كأنما ليقول : « هل يستحق أن أرثي لحاله ؟ » •
ثم أعلن قائلاً :
- طيب ، سأجىء ! والآن ، هياً انصرف !
قال اركل وهو يحيى تحيةً مهذبة :
- سأتى اذن لاصطحبك فى الساعة السادسة تماماً •
وهبط السلم بشير تعجل • ولم يطق شاتوف أن يكظم ما بنفسه ،
فهتف يقول له من أعلى :
- مغفل !
وكان اركل قد وصل الى تحت ، فالتفت يسأله :
- ماذا ؟
- لا سىء ! هياً انصرف !
- ظننتك تريد أن تقول لى شيئاً •

٢

ان اركل واحد من أولئك « المغفلين الصغار » الذين يعجزون عن
التفكير بأنفسهم فينفذون أوامر غيرهم أحسن تنفيذ ، حتى لقد يبرهنون
فى تنفيذها على شىء من حسن الحيلة والمكر • انه مخلص « للقضية »
أو قل هو مخلص لفرخوفنسكى اخلاصا متعصبا ، اخلاصا طفوليا ، فهو

يتصرف وفق التعليمات التي أصدرها إليها فرخوفنسكى عند «أصحابنا»، حين وزّعوا فيما بينهم أدوار العمل في الغد • حتى ان بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى قد انتحى به جانباً قبل الافتراق ، وتحدث معه بضع دقائق • ان الطاعة حاجة ملحة من حاجات هذه الطبيعة الغبية، الشرهة الى الخضوع، باسم «فضية كبرى» أو «فكرة عظيمة» طبعاً • ولكن الهدف ليس له على وجه الاجمال من شأن في هذه الحالة ، لأن الشباب المتعصين مثل اركل لا يفهمون الاخلاص لقضية الا بمقدار ما تكون هذه القضية متجسدة في شخصية تمثلها في نظرهم • ان اركل ، على أنه حساس ورقيق وطيب ، قد يكون أبعد هؤلاء المتأمرين عن الرأفة والرحمة ، وسوف يساهم في مقتل شاتوف ربما دون أى كره شخصى ، ولكن دون أى تردد أيضاً • لقد أوصى مثلاً بأن يلاحظ وضع شاتوف باتباه ؟ وحين أفلتت من لسان شاتوف (ربما دون أن يشعر بذلك) أن امرأته قد عادت اليه ، كان اركل ماكرأ مكرأ كافيا من أجل أن يدرك أن عليه أن لا يُظهر أى فضول بهذا الصدد • ومع ذلك حزر فوراً أن عودة مارى شاتوف يمكن أن يكون لها شأن كبير في نجاح ما عقدوا النية على تنفيذه •

والحق أن هذا الحادث وحده هو الذى كان له الفضل في نجاة هؤلاء «الأوغاد» ، وأن عودة امرأة شاتوف هي التي أتاحت لهم أن ينخلصوا منه • ان عودة امرأة شاتوف قد قلبت شاتوف رأساً على عقب ، وأخرجته عن عاداته ، وجردته مما عهد فيه من محاذرة ونفاذ بصيرة • لقد عُرف في مشاغله الجديدة ، فأصبح الآن عاجزاً عاجزاً مطلقاً عن التفكير في الخطر الذى كان معرضاً له • بالعكس : صار يحلو له أن يصدق حكاية هرب فرخوفنسكى التي تأتي مؤيدة لجميع شكوكه أكبر تأييد •

عاد شاتوف الى الغرفة ، وجلس في ركن من الأركان ، وأسند كوعيه الى ركبتيه ، وخبأ وجهه في يديه • ان خطرات مرة تعذبه •

وكان ينهض من حين الى حين ، فيمضى الى السرير ماشياً على
 رموس الأصابع ليتألمها ، فيقول محدثاً نفسه : « يا الهى ! لا شك أن حمى
 خبيثة ستلتم بها غدا ؟ بل لعل الحمى قد بدأت ! واضح أنها قد أصابها
 برد . انها لم تألف هذا الجو الفظيع . ثم ... الدرجة الثالثة بالقطار ...
 والرياح فى الخارج والأمطار ! ... ان معطفها خفيف جدا ! ... ولا
 تكاد تكسوها ثياب ! كيف أتركها وأمنع عنها أية نجدة ؟ وهذا الكيس ...
 هذا الكيس الصغير ، الخفيف ، الذى لا يزيد وزنه على عشرة أرطال ...
 فى أكثر تقدير ! مسكينة ... كم تعذبت ! كم احتملت من آلام ! ولكنها
 ذات كبرياء ، لذلك لا تتشكى ! غير أنها غاضبة محتقة ! ما أشد حنقها !
 الذنب فى هذا ذنب مرضها ! المرض يجعل حتى الملائكة شديدي الحنق !
 لا بد أن جبينها محترق جاف . ويا لهذه الهالة الزرقاء حول عينيها ! ...
 ومع ذلك ما أجمل استدارة وجهها المستطيل ! وهذا الشعر الرائع ! ...
 قال ذلك محدثاً نفسه ثم حوّل عينيه بأقصى سرعة ، وابتعد سراً عما
 من مجرد أن يرى فيها أكثر من انسانة شقية معنّاة مضناة يجب اسعافها .
 » هل يمكن أن تساور المرء آمال فى مثل هذه اللحظة ؟ ! ... ما أدنأ
 الرجل وما أسفله ! » .

ورجع الى ركنه ، وجلس ثانية ، ودفن وجهه فى يديه من جديد ،
 واسترسل فى الأحلام ، والذكريات ... وعادت الأحلام تتبعث فى
 نفسه .

» آه ... ما أشد ما أشعر به من تعب ! « تذكر شاتوف هذه الصبيحة ،
 وتذكر الصوت الضعيف المحطم . « رباه ! كيف يمكننى أن أتركها فى
 مثل هذه اللحظة ! انها لا تملك الا أربعة وعشرين كوبكاً . وقد مدت
 الى محفظة نقودها ، الصغيرة ، العتيقة الرثة ! انها تبحث عن عمل ...
 ماذا تعرف عما يجرى هنا ، بل ماذا يعرفون جميعا عن روسيا ؟ أطفال

سَدَجَ أغرار يستطيعون الاسترسال في الأخيلة والأوهام ! يا للمسكينة !
انها تغضب لأن روسيا لا تشبه الفكرة التي قامت في ذهنها عنها وهي في
الخارج ! مساكين ! سَدَجَ أبرياء ! ولكن ... حقاً ان البرد هنا
شديد ! « ... »

تذكر أنها اشتكت من البرد ، وأنه وعد بايقاد المدفأة • « عنسدى
حطب • فى وسعى أن أضعده • بشرط أن لا أوقظها ! سأحاول • وما
المعمل بلحم العجل ؟ قد تأكل منه حين تستيقظ ... سوف نرى ! ان
كيريلوف يظل ساهرا طول الليل ! بأى شيء يمكننى أن أعطيها ؟ انها
نائمة نوما عميقا ، ولكن لا شك فى أنها تحس ببرد ، ببرد شديد ... »

دنا من السرير مرة أخرى • كان ثوب المرأة الشابة مشمورا بعض
الشيء فكانت ساقها اليمنى مكشوفة حتى الركبة • فتقهقر شاتوف بحركة
مفاجئة ، كأنه أحس برعب ، ونضا عن جسمه معطفه (محتفظاً بردنجوته
وحده) ، فغطى به ساقها مشيحاً بعينه عن النائمة •

هذه الأمور كلها - الاسترسال فى الأحلام ، التأمل ، ايقاد المدفأة ،
السير فى الغرفة ذهابا وإيابا على رءوس الأصابع - قد استغرقت ساعتين
أو ثلاث ساعات جاء فرخوفنسكى وليبوتين فى أثناءها الى عند كيريلوف •
ونام شاتوف أخيرا فى ركنه • وانطلقت من صدر مارى أنه على حين
فجأة ؛ لقد استيقظت من نومها ونادته • فانتفض كما ينتفض مجرم •

- مارى ... لقد نمت ... ما أشقانى يا مارى !

نهضت مارى ، ونظرت حولها مدهوشة ، فلعلمها كانت لا تدرك أين
هى ! وها هى ذى تضطرب على حين فجأة ، مستاءة غاضبة ؛ وصاحت
تقول له :

- لقد اسنوليت على سريرك • وغلبنى النوم فمت ، ولكن لماذا ام

توقظني ؟ كيف أبحت لنفسك أن تظن أنني أريد أن أكون عالة عليك ؟

- هل كان يمكنني أن أوقفك يا ماري ؟

- نعم ، كان يمكنك أن توقظني ، بل كان يجب عليك أن توقظني .
ليس عندك الا سرير واحد استوليت أنا عليه ، فما ينبغي لك أن تضعني
في موقف خطأ ! أتراك تظن أنني أتوى استغلال حسنتك ؟ استرد
سريرك فوراً ، وسأرقد أنا على كراسي ...

- ماري ، ليس عندي كراسي كافية . ثم ليس عندي ما أضعه عليها .

- اذن سأرقد على أرض الغرفة . والا سيكون عليك أنت أن ترفد
على أرض الغرفة . سأنام على أرض الغرفة حالاً .

ونهضت ، وتقدمت خطوة ، الا أن آلام مفص شديد قد جردتها
فورا من كل قوة ، ومن كل عزيمة ، فعدت تتهالك على الكرسي في آني .
فهرع شاتوف اليها ، ولكن ماري أمسكت يده ، وشدت على هذه البسد
شدأ قوياً يكاد يهشمها ، وهي تدفن رأسها في الوسادة .

- ماري ، عزيزتي ، ان الدكتور فرتزل قريب جدا من هنا . وأنا
أعرفه جيداً ... فمى وسعى أن أستدعيه .

- دعني وشأني !

- أين أملك يا ماري ، قولي لي ! في امكاننا أن نضع لك كمادات
ساخنة ... على البطن . لا حاجة الى طبيب من أجل هذا ... أم تؤثرين
قليلاً من دواء الخردل .

سألته بصوت غريب :

- ما هذا الكلام ؟

ورفعت رأسها ونظرت اليه مرتاعة .

قال شاتوف مدهوشا :

- ماذا تعنين يا ماري ؟ رياه ! لقد فقدت عقلى تماما • ماري ،
سامحينى • ولكننى لا أفهم شيئاً البتة •
- دعنى • ليس هذا شأنك • بل انه ليكون أمراً سخيفاً مضحكاً من
جهتك أن ...

وابشمت بمرارة •

وأردفت تقول :

- اقصص علىَّ شيئاً • امش وتكلم • اننى أطلب منك هذا للمرة
المائة •

أخذ شاتوف يسير فى الغرفة طويلاً وعرضاً ، محاولاً أن لا يرفع
عينيه نحو المرأة الشابة •

- يوجد هنا - لا تزعلى يا ماري ، أرجوك - يوجد هنا شيء من
لحم العجل وقليل من الشاى • انك لم تأكلى الا قليلاً جداً ...
فحركت ماري يدها بإشارة اشمزاز وتقزز • فعصَّ شاتوف على
شفتيه •

قالت ماري :

- اسمع • اننى انتوى أن أفتح هنا ورشة تجليد أقيمها على أسس
الاشتراك المبنى على العقل • فقل لى : ما رأيك ؟ أأنجح أم أخفق ؟
- لكن الناس عندنا لا تقرأ يا ماري • ولا توجد كتب • أننى له
«هو» أن يفكر فى تجليد الكتب ؟

- من «هو» ؟

- القارى • ساكن هذه المدينة يا ماري •

– هلاًّ تكلمت بوضوح • ما معنى قولك «هو» ؟ من هو ؟ ألا تعرف قواعد النحو ؟

دمدم شاتوف يقول متلعثماً :

– هذا فى روح اللغة يا مارى •

– دعنى من الروح هذه • أرحنى من كلامك • لقد سئمت • ولماذا لا يجلد القارىء هنا كتبه ؟ لماذا لا يجلد ساكن هذه المدينة كتبه ؟

– لأن قراءة كتاب وتجليده مرحلتان من مراحل الحضارة تضم كل منهما فترة طويلة • ففى البداية يتعلم الانسان القراءة ، شيئاً فشيئاً ، خلال عدة فرون ، ولكنه لا يعتنى بكتبه أى اعتناء ، بل يعاملها معاملة شىء ليس له أية قيمة • أما تجليد الكتاب فهو علامة على أن الكتاب أصبح يحظى باحترام ، وهو يدل على أن الانسان أصبح لا يحب أن يقرأ فحسب ، بل على أنه أصبح يعرف ما للقراءة من عظيم الشأن • ان روسيا لم تبلغ هذه المرحلة حتى الآن • أما أوروبا فانها تجلد الكتب منذ مدة طويلة •
قالت مارى :

– رغم لهجتك المتعالة المتفihقة ، فان ما تقوله ليس غيباً ، وهو بذكرنى بالأحاديث التى كانت تقوم بيننا منذ ثلاث سنين • لقد كنت لمأح الفكر أحياناً قبل ثلاث سنين •

نطقت مارى هذه الكلمات بتلك اللهجة نفسها التى تكلمت بها حتى تلك اللحظة ، وهى لهجة فيها اشمئزاز ، وفيها جموح ونزوة •

عاد شاتوف يتكلم فقال فى حنان :

– مارى ، مارى ! أوه ! مارى ! ليتك تعرفين جميع التغيرات التى حدثت منذ ثلاث سنين حتى الآن ! لقد سمعت عنك أنك تحترقيننى لأننى

مخلبت عن اعتقاداتي السابقة ! وهل تعلمين ما الذي أصبحت أبذو وأرفضه ؟ لقد أصبحت أبذو أعداء الحياة الحية ، صرت أرفض اللبراليين الصغار المتخلفين الذين يختنون استقلال أنفسهم ، صرت أبذو العبيد من أعداء الفكر ، وصرت أبذو أعداء الحرية والشخصية ، وصرت أبذو أولئك المنحطين من دعاة التحلل والفساد والتفسيخ . ماذا نجد عند هؤلاء ؟ اننا نجد عندهم التردى ، والتفاهة ، والسخف في أحقر أشكاله وأكثرها بورجوازية ؟ ونجد مساواة الحسد ، المساواة الخالية من الكرامة الشخصية ، المساواة كما يتصورها خادم أو كما كان يتصورها فرنسي عام ٩٣ والأنكى من ذلك أنهم جميعاً ليسوا إلا أوغادا ، أوغادا ، أوغادا !

دمدمت ماري تقول بصوت فيه ألم :

– نعم ، هناك أوغاد كثير

كانت مستلقية استلقاء تاماً ، على الجنب قليلاً ، كأنها تخاف أن تتحرك ، محدقةً الى السقف بنظرة ثابتة محمومة . وكان وجهها شاحباً ، وكانت شفتاها يابستين محترقتين .

قال ساتوف :

– أنسلمين اذن بهذا يا ماري ؟ أنسلمين به ؟

فهمت أن تحرك يدها بإشارة انكار ، غير أن منصفاً جديداً عقف جسمها فجأة ، فهرع اليها ساتوف كالمجنون من الذعر ، فشدت على يده بكل ما تملك من قوة ، دافئةً وجهها في الوسادة ، كما فعلت في المرة الأولى .

– ماري ، ماري ! قد يكون مرضك خطيراً ! ماري !

فصرخت تقول بما يشبه الغضب الحائق وهي تدير ظهرها :

- اسكت ... لا أريد ! لا أريد ! اننى أمنعك من أن تنظر الى
هكذا • اننى لا أريد شفقتك • اننى أرفض هذه الشفقة • امش ، تكلم ،
قل أى شىء ! ...

كان شاتوف كمن ضاع عقله تماما ، فدمدم ببضع كلمات غير متميزة •
فقاطعه سائلةً بصوت منزعج :

- ما الذى تعمله هنا ؟

- أعمل فى مكاتب تاجر من التجار • ولو شئت يا مارى لكسبت هنا
مالاً كثيراً •

- هنيئاً لك به ...

- لا تتخيلي يا مارى أننى ... أنا لم أقصد شيئاً البتة ...

- وماذا تعمل أيضاً ؟ الى ماذا تدعو ؟ انك لا تستطيع الامتناع عن
الدعوة الى شىء ما : ذلك فى طبيعتك •

- أدعو الى الله يا مارى •

- الذى لا تؤمن به أنت نفسك • اننى لم أستطع أن أفهم هذه
الفكرة فى يوم من الأيام •

- دعينا من هذا يا مارى • سوف نتحدث عنه فيما بعد •

- ماذا كانت ماريا تيموففنا تلك ؟

- هذا أيضاً ندعه الآن ونتحدث عنه فيما بعد •

- أمنعك من أن تكلمنى بهذه الطريقة ! هل صحيح أن جريمة
القتل هذه انما هى من صنع أولئك ... الأوغاد •

- بدون أى شك يا مارى •

قال شاتوف ذلك كازاً أسنانه • فأنهضت ماري رأسها ، وهتفت
تقول له :

— أ منعك من أن تحدثني عن هذه الأمور أبداً ••• أبداً •••
وتهاكت على السرير وقد وافتها آلام أخرى عنيقة • هذه ثالث نوبة •
غير أن الأنثى في هذه المرة قد أصبحت صرخات •

قالت :

— آه ••• انك لا تطاق ! لا تطاق !

وكانت تتخبط وتدفع عنها شاتوف الذي مال عليها •
قال لها شاتوف :

— ماري ، سأفعل ما تريدن ، سأمشي وأتكلم •••
— ولكن ألا ترى اذن أن الأمر بدأ ؟
— الأمر بدأ ؟ أي أمر بدأ ؟

— لا أعرف ! لا أفهم شيئاً ! آه ••• لعنة الله على ••• لعنة الله على
كل شيء !

— ماري ، ليتك تقولين لي ما هو الأمر الذي بدأ ••• اذا ماذا أستطيع
أن أفعل ؟ ••• انني لا أفهم •••

— أنت رجل ثرثار لا فائدة منه ، أنت مغرور • تفيهق ••• آه •••
ألا لعنة الله عليكم جميعاً ! •••

— ماري ! ماري !

وأخذ يمتقد أنها جُنَّت •

فنهضت ماري نصف نهوض ونظرت اليه ، وقالت له :

- أأست ترى اذن أنتى فى مخاض ؟
وكان الكره والألم قد قلبا وجهها • وأردفت تقول :
- ألا فلتحل اللعنة على هذا الولد !
هتف شاتوف يقول وقد أدرك أخيراً ما يحدث :
- مارى ! مارى ! لماذا لم تقولى لى قبل الآن ؟
وتناول قبعته بحركة حازمة • قالت مارى تجيبه :
- وهل كنت أعرف ذلك حين دخلت الى هنا ؟ أأنت أأجىء اليك لو
كنت أعلمه ؟ لقد قيل لى اننى لن ألد الا بعد عشرة أيام • الى أين تذهب ؟
الى أين تذهب ؟ اننى أأمنك •••
- سأأجىء بمولدة • سوف أأبيع مسدسى • نحن الآن فى حاجة الى
المال قبل كل شىء •
- أأمنك من أن تفعل أى شىء • لا أأريد مولدة ••• تكفينى أية
امراة عجوز • ما يزال معى أربعة وعشرون كوبكاً فى محفظة نقودى •••
الفلاحات يستغنين عن المولدة • واذا فطست ، كان ذلك أأفضل •••
- سأأجىء بامراة عجوز ، وبمولدة أيضا • ولكن كيف أأتركك
وحيدة يا مارى ؟
لكنه وقد قدّر أن تركها الآن وحيدة خير من تركها وحيدة بعد
حين ، هرع يهبط السلم مسرعا ، لا يلتفت الى أنأتها وصرخاتها •

٣

دخل شاتوف أولاً على كيريلوف • كانت الساعة قريبة من الواحدة •
ان كيريلوف واقف فى وسط غرفته •

- كيريلوف ، امرأتى تلد •
– كيف ؟
– تلد • سوف تلد ولدا •
– أأنت متأكد ؟
– نعم • الآلام بدأت • هى فى حاجة الى امرأة عجوز ما ••• فورا
••• هل يمكننا العثور على واحدة ؟ كان هنا عجائز كثيرات •••
قال كيريلوف :
– يؤسفنى أنى لا أ”حسن التوليد ••• أقصد لا أعرف كيف يكون
التوليد ••• أوه ! أنى لا أهدى الى الكلمات التى تعبّر عن قصدى •
– تريد أن تقول انك لا تستطيع أن تساعد امرأة تلد • ولكن ليس
هذا هو الأمر • ما نحن فى حاجة اليه انما هو امرأة عجوز ، خادمة ،
ممرضة •••
– سنأتى بواحدة • ولكن قد لا نستطيع احضارها فورا • أستطيع أن
أحلّ محلّها اذا شئت •
– أوه ! مستحيل • أنا ذاهب فورا الى عند المولّدة فرجنسكى •
– حقيرة !
– نعم يا كيريلوف ، لكنها خير مولّدة • صحيح أن كل شىء سيجرى
معها بغير رافة ، وبغير فرح ، وبغير حب ، صحيح أنها فظة غليظة القلب •
آه ••• ما أكبره من سرّ مع ذلك أن يولد كائن جديد ! وما أعجب مارى
اذ تلعه منذ الآن ! •••
– اذا شئت فأتنى •••
– لا ، لا ، ولكن أثناء غيابى (نعم ، سأجىء بها هذه الفرجنسكى)

اصعدُ أنت الى غرفتي من حين الى حين ، وتنصت من خلال الباب على ما يجري . ولكن لا تدخل ، لأنك سترعبها اذا دخلت . لا تدخل أبدا . تنصت فقط . لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يحدث . فاذا سمعت شيئا رهيباً يحدث ، فادخل عند ذاك .

- فهمت . اليك هذا الروبل أيضا . كنت أريد أن آكل في الغد دجاجة . أما الآن فقد صرفت النظر عن ذلك . أركض بسرعة ، اركض بكل ماتملك من قوة . سيظل السماور يغلى طول الليل .

كان كيريلوف يجهل كل شيء عن المؤامرة المبيتة لشاتوف . بل انه كان لا يخطر بباله الخطر الذي يتعرض له شاتوف . كل ما كان يعرفه هو أن بين « هؤلاء الناس » وبين شاتوف حسابات قديمة . ومع ذلك كان قد أقحم بعض الاتهام في هذه القضية ، على أثر تعليمات تلقاها في الخارج (وهي على كل حال تعليمات مبهمه وسطحية ، لأن كيريلوف قد ظل دائما في خارج الجمعية) ، ولكنه في الآونة الأخيرة كان قد ترك كل شيء ، وتحرر من جميع المهمات ، ونأى بنفسه عن كل أمر من الأمور ، ولا سيما « العمل المشترك » ، وانصرف انصرافا تاما الى حياة التأمل وحدها . لذلك فرغم أن فرخوفنسكى قد جاء الى كيريلوف مع ليوتين بغية أن يقتنع ليوتين بأن كيريلوف سيرضى أن ينسب الى نفسه مقتل شاتوف ، فان بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى لم يقل لكيريلوف كلمة واحدة عن هذه القضية ، مقدراً أن ذلك خطر ، لأن كيريلوف ليس بالرجل الذي يوثق به ويطمأن اليه . وهكذا آثر أن يرجئ الايضاحات الى الغد ، وأن يضع كيريلوف أمام الأمر الواقع . كان فرخوفنسكى يقول لنفسه : ان كيريلوف ستستوى عنده جميع الأمور في تلك اللحظة . وقد لاحظ ليوتين جيدا أن فرخوفنسكى لم يجيء على ذكر شاتوف عند كيريلوف ، رغم الوعد الذي

بذله « لأصحابنا » • ولكن ليوئين كان عندئذ أكبر اضطرابا وأشد انفعالا
من أن يعترض أو يحتج •

ركض شاتوف الى شارع « النملة » بسرعة الريح ، لاعنا طول الطريق
ساعرا بأنه لن يصل الى نهايته •

وكان أفراد أسرة فرجنسكى قد ناموا جميعا منذ مدة طويلة حين
طرق شاتوف بابهم • فلما لم يتلق أى جواب أخذ يضرب مصراع الباب
بقبضة يده ضربات قوية • فأخذ كلب من كلاب الحراسة فى فناء المنزل
ينبح نباحا شديدا حائقا ، وهو يجر سلسلته • وطفقت كلاب الشارع كلها
ترد على نباحه بنباح مثله فورا • فكانت جلبة رهيبة •
وفتحت كوة النافذة أخيراً •

— ما بالك تطرق الباب هذا الطرق ، وماذا تريد ؟

انه فرجنسكى نفسه ، الذى يتعارض صوته الرقيق تعارضا واضحا مع
هذه الضوضاء الشديدة •

وعلا صوت صارخ غاضب حائق يسأل منسجما فى هذه المرة مع
الظروف ، هو صوت أخت زوجة فرجنسكى ، العانس :

— من الطارق ؟ من هذا الوغد ؟

— أنا شاتوف • امرأتى عادت ، وقد جاءها المخاض فهى تلد •••

— طيب • مع السلامة •

— جئت ساعيا الى آرينا بروخوروفنا أريد اصطحابها ، ولن أنصرف
بدون آرينا بروخوروفنا •

— انها لا تستطيع أن تذهب الى أى بيت • ولا يحق لجميع الزبائن
أن يوقظوها فى الليل • اذهب الى ماكشايفنا ، ودعنا وشأننا •

كذلك صرخت العانس الساخطة • وكان يُسمع مع ذلك أن
فرجنسكى كان يحاول أن يسكتها ، ولكنها كانت تدفعه عنها ولا تدع له
أن يتكلم •

صرخ شاتوف يقول مكرراً :

- لن أنصرف •

فأجابه فرجنسكى الذى استطاع أخيراً أن يبعد أخت زوجته عن كوة
النافذة :

- انتظر ! انتظر ! أرجوك يا شاتوف ، انتظر خمس دقائق ، وسوف
أوقف آرينا بروخوروفنا ••• ولكن كفك طرقاتاً ونداءً • هذا فظيع !
وبعد دقائق خمس أحسها شاتوف دهنًا ، ظهرت آرينا بروخوروفنا
فى النافذة •

قالت له من الكوة تسأله :

- أرجعت زوجتك اليك ؟

فما كان أسدَّ دهشته من أن صوتها لم يكن غاضبًا ، بل كان صارماً
فحسب : الحق أن آرينا بروخوروفنا لا تستطيع أن تتكلم بغير هذه
الطريقة •

قال يجيبها :

- نعم رجعت • وهى الآن تلد •

- ماريا اجناتيفنا ؟

- نعم ، ماريا اجناتيفنا طبعًا •

وساد صمت • كان شاتوف ينتظر • وسمع تهامس وراء الزجاج •

سألت السيدة فرجنسكى :

— هل وصلت منذ مدة طويلة ؟

— هذا المساء ، الساعة الثامنة • تعالى بسرعة ، أرجوك •••

واستؤنف التهامس : لعلهم يتشاورون •

— أأست مخطئاً ؟ أهى التى أرسلتك ؟

— لا ، لم ترسلنى اليك • لقد طلبت أية امرأة عجوز ، حتى لا تتكلف

نفقات • ولكن لا تخافى • سأدفع لك •

— طيب • سأجىء ، سواء أدفعت أم لم تدفع • لطالما قدرت العواطف

الاستقلالية لدى مايا اجنايفنا ، رغم أنها لا تذكرنى فى أغلب الظن • هل
عندك الأشياء الضرورية فى البيت ؟

— لا ، ليس عندى شىء • ولكن يمكن احضار أى شىء •••

حدث شاتوف نفسه قائلاً وهو يتجه الى بيت ليامشين : « هؤلاء

الناس قادرون على الكرم مع ذلك • ان الانسان وأفكاره سيئان مختلفان

اختلافاً كبيراً ، فيما يخيّل الى • اعلنى مخطئاً كنيزاً فى حقهم ••• جميع

البشر مذنبون ••• جميعهم يخطئون ••• ولكن ليتهم يدركون

ذلك ! ••• »

لم يحتج شاتوف الى أن يطرف باب ليامشين مدة طويلة • وما كان

أشد دهشته حين رأى ليامشين يفتح الكوة على الفور تقريباً : لقد ففز من

سريره حافى القدمين متعرضاً للاصابة بالبرد ، رغم انه رهيف العناية بنفسه

شديد الاهتمام بصحته • غير أن تعجله كان له فى تلك اللحظة سبب خاص :

انه منذ الاجتماع الذى عقده أصحابنا يحس باضطراب شديد وقلق عنيف

فلا يستطيع أن ينام • كان يرتعد خوفاً ، وينتظر فى كل لحظة ظهور زوار

لا يرغب في زيادتهم • وكان الشيء الذي يعذبه خاصةً هو وشاية شاتوف التي كان لا يشك في أن شاتوف مقدم عليها لا محالة • وهذا بابه يُطرق طرقاً قوياً •

فلما لمح شاتوف بلغ من الرعب أنه أوصد الكوة ورجع الى سريره •
وعاد شاتوف يطرق الباب ويصرخ •
صاح ليامشين يقول بصوت مهدّد متوعّد ولكنه كان يرتعد خوفاً ،
صاح يقول بعد دقيقتين حين قرر أن يفتح الكوة واستطاع أن يقتنع بأن شاتوف وحيد ليس معه أحد :

– كيف تعجرو أن تحدث هذه الجلبة كلها في الليل ؟

– هذا مسدسك • خذه واعطني خمسة عشر روبلاً •

– ما معنى هذا ؟ أأنت سكران ؟ هذا عمل خليك باللصوص وفُطّاع الطرق • سوف يصيبني زكام • انتظر قليلاً ، ريثما أتدثر بمعطف •

– اعطني خمسة عشر روبلاً على الفور • والا ظلت أصرخ وأطرق الباب الى الصباح • لسوف أحطم النافذة •
– وأنا سأصرخ مستنجداً ، فتُسجّن •

– أظن أنني سأظل أخرس فلا أستدعي الشرطة ؟ من منا نحن الاثنين أخرى بأن يخاف الشرطة ، أنا أم أنت ؟

– كيف يمكن أن تراودك أفكار دنيئة هذه الدناءة كلها ! ... انني أعرف الى ماذا تلمح • انتظر • انتظر • لا تطرق الباب • رحماك ! هل يمكن أن يملك المرء في بيته ليلاً مبالغ ضخمة كالتي تطلبها ؟ وما حاجتك الى المال اذا لم تكن سكران ؟

– ان امرأتى رجعت • لقد خفّضت لك عشرة روبلات • ولم أطلق

من المسدس رصاصة واحدة • استردّ المسدس • استردّه فوراً ، فى هذه اللحظة !

مدّ ليامشين يده من الكوة بحركة آلية وأخذ المسدس • ولكنه بعد لحظة تفكير أطلّ برأسه مرة أخرى ودمدم يقول زائغ الهيئة مرتعشاً كل الارتعاش :

- أنت تكذب • لم ترجع امرأتك ... كل ما هنالك أنك تريد أن تهرب •

- يالك من غبى أبله ! لماذا عسانى أهرب ؟ ان صاحبك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى هو الذى يهرب ، لا أنا • لقد ذهبت الى زوجة فرجنسكى ورضيت أن تأتى • اسأل • ان زوجتى تلد • أنا فى حاجة الى مال • أعطنى خمسة عشر روبلاً •

ها هى ذى نيران من أفكار متناثرة تنتشر فى رأس ليامشين • ان الموقف يبدو له فى ضوء جديد كل البجة على حين فجأة • ولكن الخوف زاد عقله ظلاماً •

- ولكن كيف هذا ؟ ... انك لم تكن تعيش مع امرأتك !

- سأحطم رأسك اذا ألقيت أسئلة كهذه !

- أوه ! سامحنى • فهمت • ولكن ذلك النبأ قد أدهشنى ... فهمت ... فهمت ... ولكن هل رضيت آرينا بروخوروفنا أن تجىء حقا ؟ لقد زعمت فى البداية أنها عندك منذ الآن • ألم يكن ذلك صحيحا اذن ؟ أرايت كم تكذب فى كل لحظة ؟

- لا شك أنها الآن عند امرأتى • لا تؤخرنى • ليس ذنبى أنا أنك غبى أبله •

- لا ، لست غيباً • هذا غير صحيح • معذرة ، يستحيل علىّ تماماً
أن ...

قال ليامشين ذلك ، وفقد صوابه من جديد ، فماد يفلق الكوة •
ولكن شاتوف أطلق صرخات بلغت من القوة أن ليامشين ظهر ثانية •

- هذا اعتداء علىّ ... لا أكثر ولا أقل ! ماذا تريد مني ؟ هيّا ،
قل ، ماذا تريد مني ؟ أفصح عن مرادك • ولاحظ ، لاحظ أن الوقت
ليل •

- أريد خمسة عشر روبلاً يا حمار !

- ولكن ربما كنت لا أريد استرداد المسدس • ليس هذا من حقك
انك قد اشتريت وانتهى الأمر ، فليس من حقك أن ترد ما اشتريت • لست
أملك مبلغاً كهذا المبلغ ليلاً • أين لي بمثل هذا المبلغ الآن ؟ من أين
عساني أجيئك به ؟

- لا يخلو بيتك من مال أبداً • لقد تنازلت لك عن عشرة روبلات ،
ولكن جشعك أمر معروف جداً •

- تعال بعد غد • هل فهمت ؟ بعد غد صباحاً ، عند الظهر تماماً ،
فأرد اليك كل شيء ، كل شيء ، هه ؟

عاد شاتوف يضرب بقبضة يده اطار النافذة ضربات قوية • ثم قال :

- اعطني عشرة روبلات حالاً ، ثم تعطيني الباقي غداً في الصباح •

- لا بل خمسة روبلات بعد غد في الصباح • أما غداً ، فمستحيل •
مستحيل كل الاستحالة • لا فائدة من مجيئك غداً ، لا فائدة البتة !

- هات عشرة روبلات يا حقيير !

.. لماذا تشتمنى وتهيننى ؟ انتظر حتى أشعل شمعة • لقد كسرت
مربع الزجاج • يالها من فكرة أن يجيء المرء الى الناس ليلاً لاهاتهم !
خذ !

قال ليامشين ذلك ومدَّ الى شاتوف ورقة نقدية •
تناول شاتوف الورقة • انها خمسة روبلات •
قال له ليامشين •

— أحلف لك اننى لا أستطيع أن أعطيك أكثر من هذا • اقتلى اذا
شئت • ولكن هذا كل ما أملك أن أعطيك • بعد غدٍ ، ممكن • أما الآن ،
فلا ...

أعول شاتوف قائلاً :

— لن أنصرف !

— طيب • خذ أيضاً • هاتان ورقتان • ولكن ذلك كل شيء • اصرخ
ما شئت أن تصرخ ، فلن أعطيك شيئاً آخر ... لا ... لا ... لا ! ...

كان يشعر بكرب رهيب ، وكان العرق يتصبب منه •

نظر شاتوف فى الورقتين النقديتين • ان كلاً منهما روبل واحد •
فمجموع ما قبضه اذن سبعة روبلات •

قال شاتوف :

— شيطان يأخذك ! سأعود غداً يا ليامشين ، ولأقتلك اذا لم تكن قد
أعددت لى التمانية روبلات الباقية •

فحدث ليامشين نفسه قائلاً : « وأنا لن أكون غداً فى البيت أيها
الغبي ! » •

وصاح يقول لشاتوف الذى كان قد أخذ يركض مسرعاً :
 - انتظر لحظة ، انتظر • ارجع • قل لى : هل رجعت اليك زوجتك
 حقاً ؟

فأجابه شاتوف قائلاً :
 - غبى !

٤

كانت آرينا بروخوروفنا لا تعلم شيئاً عن القرارات التى اتخذت
 أمس فى الاجتماع • ذلك أن فرجنسكى ، حين عاد الى البيت ، وكان
 مصعوقاً ، لم يجرؤ أن يحدث امرأته فى الأمر • لكنه فى صباح الغد لم
 يطق صبراً فروى لها جزءاً مما يعرف أى قال لها ان المعلومات المتوفرة لدى
 فرخوفنسكى تشير الى أن شاتوف يستعد لأن يشى بالجميع • ولكن
 فرجنسكى حرص على أن يضيف الى ذلك قوله انه من جهته لا يصدق
 هذه الدعوى كثيراً • ومع هذا شعرت آرينا بروخوروفنا برعب شديد •
 وذلك هو السبب فى أنها ، رغم تعبها الشديد كل الشدة بسبب اشراقها
 فى الليلة البارحة على ولادة عسرة ، قد قررت أن تذهب الى شاتوف بلا
 ابطاء حين سعى اليها شاتوف طالباً معوتها • لقد كانت دائماً مقتنعة بأن
 رجلاً امّعة مثل شاتوف لا يتورع أى تورع عن ارتكاب دناءة من هذا
 النوع ، ولكن وصول ماريا اجناتيفنا يبدل الوضع تبديلاً كاملاً • ان ذعر
 شاتوف ، وكرهه ، وبأسه ، وتوسله ، وضراعه ؛ ان ذلك كله يدل على
 أن عواطف الخائن قد تغيرت : ان رجلاً يقرر تسليم نفسه لا لشيء غير
 تضيق الآخرين ، لا يمكن أن يكون وجهه هذا الوجه ، ولا يمكن أن
 تكون لهجته هذه اللهجة • كذلك كانت تقول لنفسها آرينا بروخوروفنا •

الخلاصة : لقد قررت أن ترى كل شيء بعيني رأسها ، وأن تعرف كل شيء بنفسها . وقد سرَّ فرجنسكى كثيراً من قرارها هذا . حتى لقد شعر بأنه يتخفف من حمل ثقيل ، بل انه أخذ الآن يأمل خيراً : ان وضع شاتوف يتعارض تعارضاً تاماً مطلقاً مع شكوك فرخوفنسكى .

لم يخطئ شاتوف : فحين وصل الى البيت كانت آرينا بروخوروفنا قد سبقته اليه . وقد بادرت آرينا بروخوروفنا منذ وصولها الى طرد كيريلوف الذى كان يترقب عند أسفل السلم . ولم تشأ المريضة أن تتعرف المولدة على أنها من قدامى الأصحاب . كانت فى حالة نفسية سيئة جداً ، فهى شريرة شرسة ساخطة قد استبد بها وسيطر عليها « بأس فيه جبن لا منيل له » ، على حد تعبير آرينا بروخوروفنا . ولكن آرينا لم تلبث أن طوّعتها بعد خمس دقائق فى أكثر تقدير .

وحين دخل شاتوف كانت تقول لها :

— ما بالك تكررين أنك لا تريدين مولدة باهظة الأجور ؟ هذه سخافات ، هذه آراء فاسدة ناشئة عن حالتك التى ليست حالة طبيعية سليمة . اذا جاءتك امرأة عجوز ما ، فمن الجائز أن تجرى الأمور مجرى سيئاً . هذا أحد احتمالين متساويين قوة . ثم انك قد تدعين فى مشاكل وتدفعين نفقات ضخمة اذا لم تتمهذك مولدة ماهرة تزعمين أنها باهظة التكاليف . ثم من قال لك ان أجورى غالية ؟ سوف تدفعين لى فى المستقبل ، ولن أطلب منك كثيراً . وأنا من جهة أخرى أضمن لك النجاح والسلامة . لن تموتى بين يدى . ما أكثر ما رأيت من حالات كهالتك ! أما الولد فسأحمله منذ الغد الى ملجأ ، ثم نعهد به الى مرضع فى الريف ، فينتهى كل شيء . حتى اذا شُفيت وجدت عملاً ، فما هو الا وقت قصير حتى تكونين قد عوّضت شاتوف أجور الإقامة والنفقات التى لن تكون ضخمة الى الحد الذى تتصورين ...

– لا يحق لى أن أكون عالة عليه •••

– هذه عواطف معقولة ومشاعر نبيلة • ولكن نقى أن شاتوف لن يتكبد أية نفقة اذا هو رضى أن يترك أوهامه وأخيلته وأن يعتقد آراء أسلم وأصح • يكفى أن لا يرتكب حماقات، أن لا يجرى فى المدينة مدلباً لسانه نافخاً فى بوق • ان شاتوف ، اذا لم يحتجز بالقوة ، لن يتورع عن الذهاب منذ الغد الى جميع أطباء المدينة بغية اصطحابهم اليك • عندى أنا ، أهاج جميع كلاب الحى • لست فى حاجة الى طبيب • قلت لك اننى أضمن كل شىء • على أنك تستطيعين أن تستعينى بامرأة عجوز لخدمة البيت • هذا لا يكلف نفقة ذات بال • ثم ان شاتوف يمكن أن يفيد فى شىء ما أيضا • ان له ذراعين وساقين • فسيذهب اذن الى الصيدلية دون أن يعرج هذا كرامتك • ما هذا منه ومنه وكرم • أليس هو الذى جعلك فى هذا الوضع ؟ ألم يوقع شقاقاً بينك وبين تلك الأسرة التى كنت تعملين عندها مربية ، ولم يكن له من ذلك الا هدف أنانى هو أن يتزوجك ؟ لقد سمعنا عن هذا ••• ثم انه قد هرع الينا كالمجنون وأحدث جلبة كبيرة • اننى لا أريد أن أقرض حضورى على أحد • واننى لم أجىء الا من أجلك أنت تقيداً بالبدأ ، لأن جماعتنا يجب أن ينصر بعضها بعضاً • قلت له هذا حتى قبل أن أخرج من بيتى • فاذا كان وجودى فى نظرك نافلاً فوداعا اذن ! بشرط أن لا يقع لك سوء ، وهو سوء ليس تحاشيه بالأمر السهل •

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا ، حتى لقد قامت لتتصرف •

وكانت مارى قد بلغت من الضعف والألم ، وبلغت من الخوف ما ينتظرها فى الواقع أنها لم تجسر أن تدع آرينا بروخوروفنا تتصرف • ولكن آرينا بروخوروفنا أصبحت كريمة فى نظرها فجأة : ان كل ما قالته آرينا كان متعارضا أشد التعارض مع ما كان يحدث فى نفس مارى • غير أن خوفها من أن تموت بين يدى مولدة ليست بذات خبرة قد جعلها

تغلب على نفورها من آرينا وكرهها لها • وكذلك أصبحت تجاه شاتوف منذ تلك اللحظة أكثر شدةً وأقل رحمةً ، حتى لقد حظرت عليه فى النهاية لا أن ينظر اليها فحسب ، بل أن يلتفت بوجهه نحوها •

وتفاقت الآلام مزيدا من التفاقم ، واشتدت اللعنات والشتائم التى تطلقها مارى مزيدا من الاشتداد •

قالت آرينا بروخوروفنا :

– سنطرده الى الخارج • انه بوجهه المنقلب يثبت فى نفسك الخوف والرعب • انه شاحب كميث •

والتفتت تقول لشاتوف :

– ولكن فيم يعينك أنت هذا ؟ ألا انك لرجل غريب شاذ حقاً ! ماهذه المهزلة !

لم يجب شاتوف • لقد قرر أن يلتزم الصمت •

– رأيت فى مثل هذه الأحوال آباء بلهاء يفقدون عقولهم تماما • ولكن أولئك على الأقل ...

– اسكتى ، أو دعينى أفتس ! لا يقل أحد كلمةً بعد الآن ، لا أريد • لا أريد •

كذلك صرخت مارى •

– يستحيل على المرء أن لا يفتح فمه • لا بد أن يكون المرء قد فقد عقله حتى يفرض مثل هذه المطالب • ولكنك فى حالة غير طبيعية • لتكلم فى أمور جدية على الأقل • قولى لى : هل أعسدت كل شيء ؟ أجب يا شاتوف • هى فى حالة لا تمكنها من الاجابة •

– قولى لى ما هى الأشياء اللازمة تماما •

– ألم تهىء اذن شيئاً ؟

كذلك أجابته آرينا بروخوروفنا ، ثم أخذت تحصى له ما هى فى حاجة اليه • يجب أن نذكر لها هذا الفضل ، وهو أنها لم تطلب الا ما هو لازم كل اللزوم • وقد اتضح أن بعض الأشياء المطلوبة متوفر عند شاتوف • وأخرجت مارى مفتاحها ومدته اليه ليفتح الكيس الذى حملته فى سفرها • واذ كانت يدها ترتعشان فقد استغرق ادخال المفتاح فى القفل وقتاً أطول من الوقت اللازم ، فأثار هذا حنق مارى وأغاضها غيظاً شديداً • ولكن حين هرعت آرينا بروخوروفنا لتأخذ المفتاح من يدى شاتوف لم تشأ المريضة أن تنظر آرينا فى كيسها وأصرّت باكية صارخة على أن يكون شاتوف هو الذى يتولى فتح الكيس •

وكان لا بد من الذهاب الى كيريلوف لاحضار بعض الأشياء • ولكن ما ان غادر شاتوف الغرفة حتى أخذت مارى ناديه بصرخات كبيرة ، ثم لم تهدأ نائرتها الا حين رجع شاتوف مسرعاً ليشرح لها أنه لا يخرج الا لحظة واحدة ، وأن خروجه لا غنى عنه ، وانه عائد على الفور •

قالت آرينا بروخوروفنا ضاحكة :

– ما أصعب ارضاءك يا سيدتى الصغيرة ! فتارة تطلين أن يلصق أنفه بالحائط فلا ينظر اليك ، وتارة تنفجرين باكية اذا هو اضطر أن يغيب لحظة • لا بد أن يتخيل شيئاً فى النهاية • هيّا ، هيّا ! لا تضطربى • أنا أمزح طبعاً •

– ليس من حقه أن يتخيل شيئاً •

– لولا أنه هائم بك حباً لا ركض فى الشوارع كالمجنون ، ولما هاج جميع كلاب المدينة • لقد حطم اطار نافذة بيتى •



كان كيريلوف مستمراً في ذرع غرفته جيئةً وزهاباً ، وقد بلغ من فرط الاستغراق في تأمله أنه نسي حتى وصول امرأة شاتوف ، فكان يصفى الى شاتوف دون أن يفهم عنه •

قال أخيراً وكأنه ينتزع نفسه انتزاعاً شاقاً من فكرة جذابة فاتنة :

— آ ... نعم ... امرأة عجوز ... أكنت تتكلم عن زوجتك أم عن حاجتك الى امرأة عجوز • آ ... نعم ، عن زوجتك وعن امرأة عجوز ، أليس كذلك ؟ تذكرت الآن • لقد بحثت وسألت : فالعجوز ستأتى ، ولكنها لن تأتى فوراً • خذ الوسادة • ماذا أيضاً ؟ نعم ... انتظر ... هل اتفق لك يا شاتوف في يوم من الأيام أن شعرت بلحظات انسجام كلى شامل ؟

— اسمع يا كيريلوف ، يجب عليك بعد الآن أن لا تسهر كل ليلة ... بدا على كيريلوف أنه تاب الى نفسه • والشئ الغريب أنه أخذ يتحدث حديثاً فيه من اليسر والسهولة والراحة والمنطق أكثر مما عهد فيه • واضح أنه كان قد صاغ هذه الأفكار لنفسه منذ مدة طويلة ، بل لعله أيضاً قد سطرها على الورق • قال :

— هناك لحظات تدوم خمس ثوان أو ستاً تحس أثناءها فجأة بحضور الانسجام الأبدى ، وبأنك بلغت هذا الانسجام الأبدى • ليس ذلك شيئاً أرضياً : لا أقول انه سماوى ، ولكننى أقول ان الانسان من جانبه الأرضى عاجز عن احتمالاه • فيجب أن يتغير جسم الانسان أو يموت • انه شعور واضح ، لا جدال فيه ، مطلق • تدرك الطبيعة كاملة على حين فجأة ، وتقول لنفسك : نعم ، هذا هو ، هذا حق • حين خلق الله العالم كان يقول في

آخر كل يوم : « نعم ، هذا خير ، هذا عدل ؛ هذا حق » . ليس ذلك نوعاً من ترقق العاطفة والحنان . انه شيء آخر . انه فرح . وأنت عندئذ لا تغفر شيئاً ، اذ لا يبقى ثمة ما تغفره . وليس ذلك حتى حباً . آه . . . انه فوق الحب . الأمر الرهيب هو أنه واضح وضوحاً مخيفاً مروّعاً . غير أن فرحاً واسعاً يغمر كل شيء ! لو دام أكثر من خمس ثوانٍ ، لما استطاعت النفس أن تتحملة ولكن عليها أن تزول . في هذه الثواني الخمس أحيا حياة بكاملها ، وانى لمستعد في سبيلها أن أحب حياتي كلها . . . لأن هذه الثواني الخمس تساويها . من أجل أن يستطيع المرء احتمال ذلك عشر ثوانٍ يجب أن يتغير جسمه . وأظن أنه يجب على الانسان أن يكف عن التناسل . لماذا الأطفال ، لماذا نمو الانسانية ، اذا كانت لغاية قد بلغت ؟ لقد جاء في الانجيل أن البشر لن يلدوا بعد البعث في الحياة الآخرة ، وانهم سيكونون جميعاً كملائكة الله . هذه اشارة . هل امرأتك تلد ؟

- هل يحدث لك هذا كثيراً يا كيريلوف ؟

- كل ثلاثة أيام ، كل أسبوع . . .

- أأنت مصاباً بمرض الصرع .

- لا .

- ستصاب بهذا المرض . انتبه يا كيريلوف : لقد سمعت أن مرض الصرع انما بهذا يبدأ . وقد حدثني أحد المصابين به فوصف لي المشاعر التي تسبق نوبات الصرع تفصيلاً . لقد تكلم هو أيضاً عن ثوانٍ خمس ، فكان يقول ان المرء يستحيل عليه أن يتحمل هذا مدة أطول . تذكر جرة النبي محمد ، التي لم تكن قد فرغت من مائها حين عاد من معراجه الى السماء . ان الجرة هي هذه الثواني الخمس التي تحدث عنها ، وان

المعراج هو هذا الانسجام الكلى الذى تحس به • ولقد كان محمد يصاب
بغيبوبة •

انتبه الى الصرع يا كيريلوف •
قال كيريلوف وهو يتشم ابتسامة وادعة :
- لن يتسع الوقت لاصابتي بهذا الداء •

٦

كان الليل ينقضى بطيئاً • وكان شاتوف يُطرد ويُشتم ثم يُستدعى •
لقد بلغت مارى ذروة الهلع • كانت تصرخ قائلةً انها تريد أن تعيش
« حتماً ، حتماً » ، وانها خائفة من الموت ، فهي ما تنفك تكرر « يجب أن
لا أموت ، يجب أن لا أموت ! » • ولولا أن آرينا بروخوروفنا كانت هناك
لكان يمكن تجرى الأمور مجرى شيئاً جداً • ولكن آرينا بروخوروفنا قد
استطاعت أن تسيطر على المريضة شيئاً فشيئاً ، فأصبحت المريضة فى النهاية
تخضع لأمر تصدره اليها ، كما يخضع طفل • لقد عمدت آرينا
بروخوروفنا الى الشدة والقسوة لا الى الرفق واللين ، ولكنها كانت خبيرة
فى فنّها • وأخذ الصبح يطلع • وتخلت آرينا بروخوروفنا فجأةً أن
شاتوف ، وقد خرج الى فسحة السلم ، هو الآن يصلى ويدعو الله ،
فانفجرت تضحك • فأخذت مارى تضحك هى أيضاً ، ضحكا خبيثاً ،
ضحكا ساخراً ، فكان هذا الضحك كان يخفّف عنها بعض التخفيف
وأخيراً أخرج شاتوف من الغرفة • فبقى على فسحة السلم ، مستنداً الى
الجدار ، فى الوضع الذى فاجأه فيه اركل بالأمس • كان يرتعش كورقة
فى مهب الزيع ، وكان يخشى أن يفكر • ولكن ، كما يحدث للمرء فى
الحلم ، كان فكره يتابع الصور التى تتشكل فى خياله وتقطع فى كل لحظة •

لم يعد يسمع أنات ، بل أصبح يسمع احوالات رهيبة ، وصرخات كصرخات وحش ، صرخات لا تطاق تصل اليه من الغرفة • أراد أن يسدّ أذنيه ، ولكنه لم يستطع أن يعزم أمره على ذلك ، وجثا على ركبتيه مكرراً بغير شعور : « ماري ! ماري ! » وفجأة سمع صرخة جديدة أرعشته وأنهضته بوثة واحدة ، هي صرخة طفل صغير ، صرخة ضعيفة ، كأنها مصدوعة • فرسم على نفسه اشارة الصليب وهرع الى الغرفة • كانت آرينا بروخوروفنا تمسك كائناً صغيراً أحمر مجسداً ، لا حول له ولا قوة ، يستدر الشفقة ، يمكن أن تعصف به نسمة خفيفة كأنه ذرة من غبار ، ولكنه يصرخ ويحرك ذراعيه وساقيه الصغيرة كمن يريد أن يطالب بحقه في الحياة • وكانت ماري كالمغمى عليها ، لكنها فتحت عينيها بعد دقيقة ، وألقت على شاتوف نظرة غريبة ، نظرة جديدة كل الجدة ، نظرة كان لا يستطيع أن يفهمها بعد ، ولا رآها أبداً قبل الآن •

سألت بصوت فيه ألم :

— صبي ؟ صبي ؟

فأجابتها آرينا بروخوروفنا وهي تقمط الطفل :

— نعم ، صبي بدين •

وقبل أن تضعه بين وسادتين على السرير ، ناولته شاتوف لحظة ، فاذا بماري ، وكأنها تخشى أن تراها آرينا بروخوروفنا ، توميء الى زوجها ، فيسرع يقرّب منها الطفل •

دمدمت تقول بصوت ضعيف وهي تبسم :

— ما أجمله !

فهمت آرينا بروخوروفنا تقول وقد أدهشها ما رأته في وجه شاتوف من تهلل الأسارير :

- انظروا اليه قليلاً ! انظروا الى وجهه العجيب !
فجسم شاتوف قائلاً وقد أسكره الكلام الذى قالته ماري عن
الطفل :

- ابتهجي يا آرينا بروخوروفنا ... انها فرحة كبرى !
فصاحت آرينا بروخوروفنا تقول مرحة وهى تذهب وتجيء فى
الغرفة لترتبها :

- فرحة كبرى ؟ ما هذا الذى تقول ؟
فقدم شاتوف يقول كالسكران :
- ان اثنائى كائن جديد سر كبير ، سر لا يفهم يا آرينا بروخوروفنا
خسارة أنك لا تفهمين هذا .

كان شاتوف كمن فقد عقله ، وكانت الكلمات كأنها تخرج من فمه
رغم ارادته . وتابع كلامه يقول :

- كانا اثنين ، فاذا بكائن انسانى جديد يظهر : روح جديدة ، تامة .
مكتملة ؟ لم تخلق مثلها يد انسانية قط ؟ فكر جديد ، حب جديد . هذا
أمر يكاد يكون رهيباً . لا شيء أعظم من هذا فى العالم .
- أمواج من الكلام ! ليس الأمر كله الا نموّ الجسم ، ولا شيء غير
هذا . لا سر !

كانت آرينا بروخوروفنا تضحك ضحكاً مرحاً صريحاً . وتابعت
كلامها تقول :

- على هذا الأساس يكون نشوء أحقر بموضة سراً من الأسرار .
ولكن اسمعى ما سأقوله لك : الأجدر أن لا يولد فى العالم بشر لا فائدة

منهم • قبل أن تلدوا أطفالاً ابدأوا بتغيير كل شيء ، بحيث لا يكونون
بغير فائدة منهم • أما الآن فيجب عليك أن تحملي الوليد بعد غدٍ الى ملجأ
اللقطاء •

قال شاتوف مطرقاً الى الأرض :

– لن أحمله الى ملجأ اللقطاء بحال من الأحوال !

– أتبناه ؟

– هو ابني منذ الآن !

– طبعاً • انه يحمل اسم شاتوف ؟ ان القانون نفسه يوجب أن يكون
اسمه شاتوف • فلا تمثل دور محسن الى الانسانية • انك لا تستطيع
الاستغناء عن الألفاظ الكبيرة ! هذا كله حسن جداً • ولكن آن لى أن
أنصرف •

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا وقد فرغت من ترتيب الغرفة •
وأردفت تقول :

– سأرجع فى هذا الصباح مرةً أخرى ، وسأعود أيضاً فى المساء
اذا وجب الأمر • أما الآن وقد تمَّ كل شيء على ما يُرام ، فيجب أن أزور
نساءً أخريات ينتظرننى • لقد عثرتَ على امرأة عجوز يا شاتوف ، ولكن
لا تتكل عليها وابق هنا • قد يُحتاج اليك • أعتقد أن ماريا اجنايفنا لن
تطردك ... هيباً ، هيباً ، أنا أمزح •

وبقرب البوابة التى رافق اليها شاتوف المولدة مشيعاً ، أضافت
تقول :

– لقد أضحكتنى الى آخر أيام حياتى • لن أتقاضى منك أجراً ...
لسوف أضحك من هذا حتى فى المنام • حسبى ذلك • لم أر فى حياتى
رجلاً أبعث على الضحك منك هذه الليلة •

وانصرفت مرتاحة أشد الارتياح ، راضية كل الرضى • كانت تحدث نفسها قائلة : « انه لواضح من منظر شاتوف ومن أقواله أن هذا الرجل قد صبر نفسه أباً منذ الآن ، وأنه ليس الا امعة ضعيف الشخصية » • ورغم أنها كان عليها أن تزور امرأة أخرى على الفور فقد ذهبت أولاً الى بيتها لتبلغ فرجنسكى انطباعاتها •

بدأ شاتوف يكلم ماري خجلاً وجلاً فقال لها :

– ماري ، انها تقول ان عليك أن لا تنامي حالاً • لكنني أرى مع ذلك أن هذا سيكون شاقاً جداً عليك • سأجلس هنا ، قرب النافذة ، أسهر عليك ، هل تريدین ؟

قال ذلك وجلس قرب النافذة وراء الديوان ، بحيث لا تستطيع أن تراه • ولكنها نادته بعد دقيقة ، وسألته بلهجة احتقار أن يرتب وسائدها • وبينما كان شاتوف ينفذ أمرها ، كانت هي تحدق الى الجدار باصرار •

– ما هكذا ! ما هكذا ! ••• يا لخرافة يدك !

كان شاتوف يبذل كل ما فى طاقته • وأمرته على حين فجأة قائلة له بصوت أجش ، جاهدة أن لا تنظر اليه :

– ملّ على •

فارتعد ولكنه مال عليها •

– مزيداً من الميل ••• ما هكذا ••• اقرب أكثر ! •••

وفجأة أمرت يدها اليسرى حول عنق شاتوف • وأحسّ شاتوف على جبينه بقبلة حارة مخضلة •

— ماري !

كانت شفتا المرأة الشابّة تختلجان • وكان واضحاً أنّها تحاول أن تسيطر على نفسها ، ولكنها أنهضت جسمها فجأةً ، وقالت متقدة العينين :

— ان يقولاي ستافروجين رجل شقي !

وبارحتها قواها بفتةً فعادت تنهالك على السرير ، دافئةً رأسها في الوسائد ، وانفجرت باكياً وهي تضغط بيديها يد شاتوف •

ومنذ تلك اللحظة لم تفلت زوجها • وطلبت إليه أن يجلس الى جانب سريرها • وكانت لا تستطيع أن تتكلم ، فهي تتأمله ملياً ، وقد أَلَّت بوجهها ابتسامة افتتان ، ابتسامة طفلة صغيرة بلهاء • كل شيء كان يبدو لهما متغيراً • أخذ شاتوف يبكي بكاء طفل ، ثم طفق يتكلم فيما هبّ ودبّ • بلهجة الملهم كأنه سكران ، ويقبل يديها من حين الى حين مرةً تلو مرة • وكانت هي تصغي اليه نشوى ، ربما دون أن تفهم ما كان يقوله ، ولكنها تمسّد شعره بيد ضعيفة واهنة ، وترتبه وتصففه وهي تتأمله بحب ووجد • كلّمها عن كيريلوف ، وعن الحياة الجديدة التي ستبدأ بالنسبة اليهما ، وعن وجود الله ، وعن طيبة البشر • ومن فرط حماستهما أخرجا الطفل من أقماطه ليُعجبا به مزيداً من الاعجاب •

هتف شاتوف قائلاً وهو يمسك الطفل في ذراعيه :

— ماري ! لقد اتھينا من الهديان القديم ، من الخزي ، من الموات القذر • ألا فلنبداً العمل نحن الثلاثة ! ان حياة جديدة تفتح ذراعيها لنا ! نعم ، نعم ! ولكن ماذا نسميه يا ماري ؟

فأجابت تكرر سؤاله بدهشة :

— ماذا نسميه ؟

وارتسم على وجهها فجأة ألم شديد •

وضمت يديها احدهما الى الأخرى ، ونظرت الى شاتوف عاتبه
الهيئة ، ودفت وجهها فى الوسائد •

هتف شاتوف يسألها مرتاعا :

— ماذا ؟

— كيف أمكنك أن ••• كيف أمكنك أن ••• آه ••• عقوق !

— عفوك يا مارى ، عفوك يا مارى ! ••• أنا انما سألت ماذا نسميه
••• لست أفهم •••

قالت وهى تُنهض رأسها المحترق المبلل بالدموع :

— سنسميه ايفان ، ايفان • كيف أمكنك أن تتصور أن فى وسعنا
أن نسميه باسم آخر ، باسم « فطيع » ؟

— مارى ، هدئى نفسك • ان أعصابك محتاجة !

— وهذه فظاظة أخرى منك • لماذا تنسب دموعى الى احتياج أعصابى؟
••• يميناً لو اقترحتُ أن نسميه بذلك الاسم ••• ذلك الاسم الفطيع •••
لوافقت أنت فوراً ، حتى لقد لا تتنبه الى الأمر أى ابتباه • آه ••• ما أشد
عقوقكم ••• ودناءتكم ••• جميعاً ، جميعاً ! •••

وبعد دقيقة ، ساد بينهما السلام طبعاً ، وألح عليها شاتوف أن تنام
نليلاً • فنامت ، ولكن دون أن تدع يده التى كانت تقبض عليها يديها •
وكانت تستيقظ من حين الى حين ؛ فتتظر اليه كأنها خائفة أن ينصرف ،
نم تغفو ثانية على الفور •

وصلت المعجوز التى أرسلها كيريلوف حاملةً « تهنئاته » ، وحاملة
كذلك شايّاً ساخناً وشرايح لحم ومرقاً وخبزاً أبيض « لماريا اجناتيفنا » •

فشربت المريضة المرق بشراهة ؟ وقمطت العجوز الطفل • وأجبرت ماري زوجها شاتوف على أن يأكل شريحة لحم أيضا •

وكان الوقت يمضي • وأخذ التعب من شاتوف كل مأخذ فغفا على كرسى مستنداً برأسه الى وسادة زوجته • وعلى هذه الحال انما وجدتهما آرينا بروخوروفنا حين جاءت برأاً بوعدها • فأيقظتهما مرحةً ، وألقت الى ماري بتعليماتها ، وفحصت الطفل ، وحظرت على شاتوف مرةً أخرى أن يترك زوجته • ثم بعد أن مازحت الزوجين بشيء من الازدراء والتعالي ، انصرفت راضية مسرورة كما فعلت في الصباح •

حين استيقظ شاتوف ، كان الظلام قد خيم • فأشعل الشمعة ، وأسرع يبحث عن العجوز ، فما كان أشد دهشته حين هبط السلم فادا هو يسمع وقع خطوات خفيفة محاذرة • كان هناك رجل يتقدم نحوه : انه اركل •

همس شاتوف يقول له :

— لا تدخل •

ثم أمسك يد الزائر وقاده نحو البوابة • وقال له :

— انتظرني هنا • سأرجع فورا • نسيك تماما • لقد عرفت كيف

تذكّرني بك !

بلغ شاتوف من الاستعجال أنه لم يدخل على كيريلوف واكتفى بنبادة المرأة العجوز • وقد غضبت ماري أشد الغضب واستاءت أشد الاستياء من أنه « أمكن أن يخطر بباله أن يتركها وحيدة » •

فهتف يقول لها متحمساً :

— هذه آخر مرة • ان طريقا جديدة تنشق أمامنا ؟ ولن نفكر أبدا ،

أبدا ، في هول الأيام الماضية •

واستطاع أن يهدئها بعض التهذئة ، ووعدا أن يرجع في الساعة
التاسعة تماما ، وقبلها و قبَّل الطفل ، وأسرع يدرك اركل •

اتجه الرجلان نحو حديقة آل ستافروجين ، في سكفورشنيكى ،
حيث كان شاتوف ، قبل سنة ونصف سنة ، قد دفن في موضع ناء ، على
حدود الحديقة ، عند غابة صنوبر ، المطبعة التى عُهد بها اليه • ان المكان
موحش ، مقفر ، بعيد عن مسكن آل ستافروجين • والمسافة بينه وبين منزل
فيليبوف تُقدَّر بثلاثة فراسخ ونصف ، وربما بأربعة فراسخ •

قال شاتوف سائلاً :

- هل نقطع الطريق كله سيراً على الأقدام ؟ اننى أفضِّل كراء
عربة •

فقال اركل :

- بل يجب أن نقطع الطريق سيراً على الأقدام • لقد أصرروا على
هذا كثيراً • ان الحوضى يمكن أن يُتخذ شاهداً •

- طيب • لا بأس • المهم أن أُنهى ، أن أنتهى !

وكانا يسيران بخطى سريعة •

هتف شاتوف يسأل صاحبه :

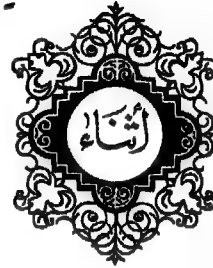
- اركل ، بنى ، هل سعدت فى حياتك يوماً من الأيام ؟

فقال اركل متعجباً :

- يبدو لى على كل حال أنك الآن سعيد •

الفصل السادس

ليلى مشقات ومخاوف



النهار طاف فرجنسكى على بيوت جميع «أصحابنا» لينبئهم بأن شاتوف لن يشى بهم حتماً ، وذلك بسبب عودة امرأته التى ولدت عنده منذ قليل : كان يستحيل على فرجنسكى أن يسلم بأن شاتوف يمكن أن يكون خطراً فى هذا الأوان ، « لمعرفته بالقلب الانسانى » . ولكن ما كان أسدً حسرة فرجنسكى حين لم يجد أحداً منهم فى بيته ، الا اركل وليامشين . ولقد أصفى اركل الى كلامه صامتا رقيق الهيئة . ولكن حين ألقى عليه هذا السؤال المباشر : « أأنت ذاهب اليوم الى الموعد فى الساعة السادسة ؟ » أجابه اركل وهو يتسم : « طبعاً ! » .

أما ليامشين فقد كان فى سريره ، دافنا رأسه تحت الغطاء ، وكان يبدو عليه أنه مريض فعلاً . وحين رأى فرجنسكى خاف خوفاً شديداً ، ومنذ أن أخذ فرجنسكى يتكلم تضرع اليه ، محرراً يديه ، بأن يترك هادئاً مرتاحاً . غير أن المعلومات التى ذكرها فرجنسكى عن شاتوف بدت له هامة فأصفى اليها بانتباه . حتى اذا علم أن زائره لم يجد أحداً من «أصحابنا» فى بيته ، أزعجه ذلك كثيراً . وقد اهتز فرجنسكى هو أيضاً حين قص عليه ليامشين ، بكلام مفكك ، ما وقع افدكا (وكان قد علم ذلك من ليوتين) . فلما ألقى عليه فرجنسكى هذا السؤال المباشر : « هل

يجب الذهاب الى الموعد ؟ » ، عاد ليامشين يضطرب وأعلن « أن ذلك كله لا شأن له هو به ، وأنه لا يعرف شيئاً ، وأن عليهم أن يتركوه هادئاً . »

رجع فرجنسكى الى بيته قلقاً مرهقاً . ولقد كان يصعب كثيراً أن يخفى عن أسرته ما يعمل في نفسه ، لأنه اعتاد أن لا يكتف عن امرأته شيئاً . ولقد كان يمكن أن يرقد أخيراً في سريرته مثل ليامشين لولا أن فكرة جديدة قد نبتت فجأة في ذهنه المحموم ، فكرة بدا له أنها يمكن أن تدبر الأمور بما يرضى الجميع . وقد نبتت هذه الفكرة في نفسه شجاعة ، حتى انه أصبح ينتظر الساعة المحددة نافذ الصبر ، وانطلق يسير الى مكان الموعد المضروب في وقت أبكر من اللازم .

كان المكان خزيناً كثيباً على حدود حديقة آل ستافروجين الواسعة . لقد ذهبت اليه خصباً فيما بعد ، واني لأتخيل مدى ما كان يبدو عليه ذلك المكان من جهامة وشؤم في ذلك المساء الحزين من أماسي الخريف . كانت أشجار الصنوبر الضخمة الطاعنة في السن تشكل في ظلمات الغابة بقعاً سوداً مبهمه . وقد بلغت الظلمة من الحلك أن المرء لا يكاد يرى قدأمه أكثر من خطوتين . ولكن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين واركلك قد تزودا بمصابيح . ان مغارة من حجارة غير مقدودة ، مغارة مضحكة ، كانت قد بُنيت في ذلك المكان لا يدرى أحد متى ، ولا يدرى أحد لأى غرض بُنيت . والمائدة والكراسى الموجودة في داخل المغارة كانت منحورة مسوئة متأكلة تتساقط غباراً . ان بين منزل السادة أصحاب الأرض وبين الغابة غدراناً ثلاثة تتعاقب على مسافة فرسخ . والغدير الثالث يقع يميناً على بعد نحو مائتى متر من المغارة . يصعب على المرء أن يفترض أن ضجة ما ، كصرخة أو حتى طلقة رصاص ، يمكن أن يسمعها سكان المنزل الذى هجره أصحابه ولم يبق فيه ، منذ سفر نيقولاى فيسيفولودوفتش بالأمس وسفر ألكسى ايجورتش ، الا خمسة خدم عجائز أو ستة . ومن

الجانز جدا على كل حال ، حتى لو سمعوا صرخات ألم أو نداءات استغاثة ،
أن لا يزعجوا أنفسهم بالانطلاق الى مكان الصوت اغاثة للضحية •

فى الساعة السادسة وعشرين دقيقة كان الجميع قد اجتمعوا ، الا
اركل الذى كان عليه أن يقود شاتوف • فى هذه المرة لم يتأخر بطرس
ستيفانوفتش • لقد وصل مع تولكاتشنكو • وكان تولكاتشنكو قائم الوجه
مهموم النفس • لقد بارحته وقاحته المهدودة فيه ، وبارحته رباطة جأشه
وثقته بنفسه • انه لا يترك بطرس ستيفانوفتش ، ويبدو مخلصاً له بغير
تحفظ • وهو الآن كثير الحركة والسعى ، لا يكف عن الهمس فى أذن
صاحبه ، ولكن صاحبه لا يكاد يجيبه أو هو يجمع منزعج الهيئة ببضعة
كلمات تخلصاً منه •

ولقد وصل شيجالوف وفرجنسكى قبل بطرس ستيفانوفتش بقليل •
فلما أبصراه اسحباً متحيين ، ملتزمين الصمت • فرفع بطرس ستيفانوفتش
مصباحه وتفرس فيهما باتباه فيه استهانة واحتقار ، قائلاً لنفسه : « انهما
يستعدان للكلام » •

سأل مخاطباً فرجنسكى :

— ألم يجيء ليامشين ؟ من قال انه مريض ؟

أجاب ليامشين قائلاً وهو يخرج من وراء شجرة :

— أنا هنا •

كان يرتدى معطفاً ضخماً ، وقد أحاط عنقه وكتفيه بنطاء ، فلا يكاد
يميز المرء وجهه الا بكثير من العناء ، ولو سلط عليه ضوء الصباح •

— لا ينقص اذن الا ليويتين •

وخرج ليويتين من المغارة دون أن يقول كلمة واحدة •

رفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه من جديد • وقال له :

— لماذا تختبئ ؟ لماذا لم تخرج في الحال ؟

فقدمم ليوتين يقول ، ربما دون أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول على كل حال :

— افترض أننا محتفظون بحرية ••• حر كاتنا ••

قال بطرس ستيفانوفتش رافعاً صوته ، محدثاً بذلك جواً يناقض جو
الهمس الذي يسود منذ قليل :

— أبها السادة ••• أظن ••• أنكم تدركون أنه لا فائدة الآن من
الافاضة في الكلام • اقد قبل أمس كل شيء ، وكُرِّر كل شيء ، بوضوح ،
وبجلاء • ولكنني أرى في الوجوه أن بعضكم يودون أن يتكلموا •
فليتكلموا ، بأقصى سرعة • ليس لدينا متسع من الوقت : من الممكن أن
يجيء به اركل بين لحظة وأخرى •••

تدخل تولكاشنكو قائلاً لا يدرى أحد لماذا :

— لسوف يجيء به حتماً •

وقال ليوتين يسأل دون أن يعرف أيضاً لماذا يلقي هذا السؤال :

— اذا لم يخطيء تقديري ، فان أول شيء نفعله هو استلام المطبعة ،
!ليس كذلك ؟

— حتماً • علام نضّيع مطبعة ؟

بهذا أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو يقرّب المصباح من وجه ليوتين •
واستطرد يقول :

— لكننا اتفقنا بالأمس على أن استلام المطبعة ليس الا خدعة • سوف

بدلنا على المكان الذى دفن فيه المطبعة ، فتتولى نحن اخراجها من الأرض فيما بعد • اننى أعلم أنها على مسافة عشر خطوات من احدى زوايا هذه المغارة • كيف أمكن أن تنسى هذا يا لبيوتين ؟ شيطان يأخذك ! لقد تم الاتفاق على أن تمضى الى لقائه وحدك ، ثم لا تظهر نحن الا بعد ذلك ••• ان أسئلتك غريبة • اللهم الا أن يكون لكلامك دافع واحد هو الرغبة فى الكلام لا أكثر •••

كان وجه لبيوتين مرعباً ، ولم يجب بكلمة • ولبت الجميع صامتين بضع لحظات • وقامت الريح تهب على ذرى أشجار الصنوبر فتزهوا •

أضاف بطرس ستيفانوفتش يقول نافذ الصبر :

– آمل أيها السادة أن يقوم كل منكم بواجبه •

دمدم فرجنسكى يقول منعلاً انفعلاً شديداً ، وهو يجرى بيديه حركات عريضة :

– أعرف أن زوجة شاتوف قد رجعت اليه هذه الليلة ، وأنها ولدت • ومن يعرف القلب الانسانى ••• يدركُ بداهةً ••• أنه لن يشى بناءً ••• لأنه سعيد ! ••• لقد سميت الى الجميع ركضاً فى هذا اليوم ••• لكننى لم أجد أحداً ••• فلعلنا نستطيع أن نعدل الآن عن •••

وتوقف عن الكلام منقبضاً الحلق •

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يتقدم منه :

– اذا أصبحت سعيداً على حين فجأة ، فهل تراجع لا عن وشاية (لأن الأمر ليس أمر وشاية) ، بل عن القيام بواجب محضوف ببعض الأخطار ، واجب تصوريته قبل أن تعرف سعادتك ، واجب تعدُّه واجبك ، رغم مخاطره ورغم ضياع سعادتك ؟

– لا ، لا أراجع • لا أراجع بحال من الأحوال !

كذلك صرخ فرجنسكى مرتعشاً أشد الارتعاش ، بحماسة تكاد تكون مضحكة •

– أنت تؤثر اذن أن تعود شقياً تعيساً على أن تكون جانا رعيدا !

– نعم ، نعم ؟ بالعكس ••• أؤثر أن أكون جانا ••• لا ، ليس هذا ما أريد أن أقوله ••• أريد أن أقول اننى أؤثر أن أكون شقياً على أن أكون جانا •

– فاعلم اذن أن شاتوف يعدُّ هذه الوشاية واجباً مقدساً ، ويعدها عملاً متفقاً ومبادئه كل الاتفاق • والبرهان على ذلك أنه يخاطر كثيراً حين يسلمنا للسلطات • صحيح أن السلطات ستغفر له أشياء كثيرة ، مراعاةً لوشايته ، واكراما لها • ولكن رجلاً مثله لا يتقهقر فى يوم من الأيام عن القيام بما يعده واجباً • ما من سعادة تبقى وتدوم • لسوف يثوب الى نفسه منذ الغد ، فيلوم نفسه لوماً مرأ ، ثم ينفذ ما عقد العزم عليه • ثم أين السعادة فى رجعة امرأته اليه بعد غياب ثلاث سنين لتلد فى بيته ولدأحلت به من ستافروجين ؟

قال شيجالوف :

– ولكن ما من أحدٍ رأى تلك الوشاية على كل حال !

فصرخ بطرس ستيفانوفتش يقول :

– أنا رأيته • انها موجودة • وهذا الكلام كله غباء مطلق أيها السادة •

فانفجر فرجنسكى فجأةً يقول :

– وأنا أحتج ، أحتج بكل قواى ••• اننى أريد ••• اليكم ما أريد :

حين يصل نهب الى لقائه جميعا ، ونسأله عن حقيفة الأمر • فاذا صحَّ أن هناك وساية طلبنا اليه أن يعدل عنها وأن يحلف على ذلك ••• وعندئذ ندعه ينصرف • على كل حال يجب أن نحكم عليه ، لا أن نخبئ • ثم نقض عليه •

– انتهى الغباء أن نفسد عملنا كله بالركون الى يمين يحلفه • أيها السادة ، ان ما تفعلونه الآن لهو البلاءة بعينها ! أهذا هو اذن موقفكم في ساعة الخطر ؟

كان فرجنسكى ما يزال يردد قوله :

– أحتج ••• أحتج •••

– على كل حال ، سُدَّ بوزك ! والا لم تتمكن من سماع الاشارة • ان شاتوف (أوه ! ما هذا الغباء كله !) سبق أن قلت لكم ان شاتوف من دعاة السلافية ، أى انه من أغبى الناس طراً ••• على كل حال ، لا يهمنى هذا ••• لا يعينى هذا فى شيء ••• انكم بمقاطعتكم لى لا تزيدون على ارباك فكرى ، وتشويش ذهنى ••• ان شاتوف ، أيها السادة ، كان رجلاً ساخطاً ؟ ولما كان عضواً فى الجمعية رغم كل شيء ، سواء أأراد ذلك أم لم يردده ، فلقد كنت أمل حتى آخر لحظة أن نستطيع الاستفادة منه بصفته ساخطاً • وكنت أهتم به وأداريه وأراعيه رغم التعليمات القطعية التى صدرت الىَّ بشأنه • ومع ذلك قرر أخيراً أن يشى بنا ! الى جهنم على كل حال ! ••• ولكن فليجرؤ واحد منكم أن ينسحب الآن ! ما من أحد يحق له أن يترك « القضية » • تستطيعون أن تقبلوا شاتوف اذا شاء قلبكم ذلك ، ولكن ليس من حقكم أن تعرّضوا كل شيء للخطر ركونا الى عهدٍ يقطعه على نفسه ، أو يمين يحلفه • وليس يتصرف هذا التصرف الا خنازير أو أناس باعوا أنفسهم للحكومة •••

أسرع ليوتين يسأل قائلاً :

- من الذى باع نفسه للحكومة هنا ؟

- ربما أنت • خير لك أن تسكت يا ليوتين • انك لا تتكلم الا بحكم العادة • الذين باعوا أنفسهم للحكومة هم جميع الذين يخافون فى لحظة الخطر • لن تخلو صفوف الجناء يوماً من غبى يهرب فى آخر دقيقة صارخاً : « المغفرة المغفرة ! اننى أسلمكم اياهم جميعاً » • ولكن اعلموا أيها السادة أنه ما من وشاية يمكن أن تجعلكم تحصلون على العفو • قد يُخفف العقاب درجتين ، ولكنه سيظل نفيًا الى سيبيريا • هذا عدا أنكم لن تفلتوا عندئذ من سيف آخر أقطع من سيف الحكومة •

كان بطرس ستيفانوفتش غاضباً فى حديثه أشد الغضب • وهنا تقدم شيجالوف نحوه بخطى ثابتة حازمة ، وقال بثقة هادئة ومنطق منظم على عادته (وانى لأعتقد أنه لو تزلزلت الأرض من تحته ، لما رفع صوته ولما غير ترتيب كلامه أى تغير) :

- اننى ألقب المسألة على وجوهها المختلفة منذ مساء الأسس ، ولقد وصلت بعد طول التفكير الى نتيجة واضحة هى أن قتل شاتوف ليس فقط تضييعاً لوقت ثمين يمكن أن يستعمل استعمالاً أجدى وأجل شأنًا ، بل هو كذلك انحرافات من تلك الانحرافات المشؤمة التى طالما أضرت بالقضية وأخرت نجاحها عشرات السنين ، باخضاعها لتأثير أناس خفاف سياسيين ليسوا اشتراكيين صرفاً • لقد جئت الى هنا لغرض واحد هو أن احتج على هذا المشروع ، آملاً أن يؤثر عملي هذا فى العقول ؛ وهأنذا أنسحب لا خوفاً من الخطر ولا حباً بشاتوف الذى لا أشتبه أن أقبله البتة ، بل لأن هذا الأمر ، من بدايته الى نهايته ، يناقض برنامجي • أما عن الوشاية بكم ، ففى وسعكم أن تكونوا مطمئنين كل الاطمئنان : فلن أشئ بكم !

- قال شيجالوف ذلك ثم استدار وانصرف •
- هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يخرج مسدسه من جيبه :
- شيطان يأخذه ! لسوف يلقاهما فيحذّر شاتوف •
- وسُمع صوت ديك المسدس وهو 'يرفع' •
- قال شيجالوف وهو يلتفت :
- ثق اننى اذا لقيت شاتوف فقد أحييه ولكننى لن أأحذّره •
- هل تعلم أن هذا يمكن أن يكلفك غالياً يا سيد فورييه ؟

- أرجوك أن تلاحظ أنتى لست فورييه • انك اذ تخلط بينى وبين ذلك التراث العاطفى المجرد ، تبرهن على أنك تجهل مخوطتى جهلاً تاماً ، رغم أنها كانت بين يديك • أما عن تهديدك ، فأننى أقول لك انك قد أخطأت اذ رفعت ديك مسدسك : فان هذا لا يمكن الا أن يضرك فى اللحظة التى نحن فيها • واذا نوبت أن تنتقم منى غداً أو بعد غد ، فانك ستجلب لنفسك بقتلى هموماً جديدة : سوف تقتلنى ، ولكنك ستعود الى مذهبي عاجلاً أو آجلاً • الوداع !

فى تلك الدقيقة دوّت صفرة صفارة على مسافة مائتى متر ، فى الحديقة ، من جهة الغدير • وكما انشقق بالأمس ردّ ليوتين على الصفرة فوراً بصفرةٍ مثلها • (كان قد اشترى فى ذلك الصباح نفسه من السوق صفارة من تلك الصفارات الصغيرة التى يستعملها الأطفال ، لأنه لا يستطيع الاعتماد فى الصفر على فمه الأثرم) • وكان اركل قد أبلغ شاتوف فى أثناء الطريق انه سيتبادل اشارات مع ليوتين ، حتى لا يراود شاتوف أى اشتباه •

قال شيجالوف وهو يخفض صوته :

— لا تخش شيئاً • سوف أتجنبهما ، فلا يبصراني •
 وبدون أن يسرع ، قفل راجعا الى بيته عبر الحديقة المظلمة •
 ان الناس يعرفون الآن أدق التفاصيل من حادثة مقتل شاتوف •
 واليكم ما جرى :

فى البداية تقدم ليوتين يستقبل شاتوف واركل عند باب المغارة •
 فبادر شاتوف يقول له ، دون أن يحويه ، ودون أن يمد له يده ، رغبةً
 منه فى الانتهاء من الأمر بأقصى ما يمكن من سرعة ، قال له بصوت قوى :
 — هيه ، اين معولك ؟ أليس معك مصباح آخر ؟ لا تخف ! ليس
 فى المكان مخلوق • ولو أطلقت قبلة من مدفع لما سمع أحد فى
 سكفورشنيكى شيئاً ! المطبعة هنا ، فى هذا المكان تماما •••

قال شاتوف ذلك وهو يضرب بقدمه موضعاً من الأرض يقع على
 مسافة عشر خطوات من زاوية المغارة فعلاً ، من جهة النابة •

فى تلك اللحظة نفسها وثب تولكاشنكو على شاتوف من خلف ،
 وانقض اركل على كوعيه يمسكهما ، وهرع ليوتين ينقض عليه من أمام •
 واستطاع الثلاثة أن يقلبوه فوراً ، وأن يهشموه على الأرض • وعندئذ
 تدخل بطرس ستيفانوفتش مسلحاً بمسدسه •

يقال ان شاتوف قد التفت الى جهته حينذاك ، فاستطاع أن يتعرفه •
 ان مصابيح ثلاثة كانت تثير المشهد • أطلق شاتوف صرخة قصيرة ، يائسة ،
 غير أن بطرس ستيفانوفتش أطبق مسدسه على جبهة شاتوف بيد ثابتة
 وثيقة ، وضغط الزناد ، فانطلقت الرصاصة فى رأس شاتوف ، ولم يكن
 صوت انطلاقها قوياً فيما يقال • مهما يكن من أمر ، فان أحداً لم يسمع
 صوت انطلاق الرصاصة فى سكفورشنيكى • لكن شيجالوف الذى لم يكن

بعيدا بعداً كبيراً قد سمع الصرخة وصوت انطلاق الرصاصة حتماً ، ومع ذلك لم يتوقف ، وقد اعترف هو نفسه بهذا فيما بعد .

مات شاتوف تواء ، على وجه التقريب . وأظن أن بطرس ستيفانوفتش كان الشخص الوحيد الذى احتفظ لا بهدونه فيما اعتقد ، بل بحضور ذهنه . فها هو ذا يجلس القرفصاء ، ويأخذ ينبش جيوب القتل بيدٍ متعجلة لكنها ثابتة . فلم يجد مالا (كانت محفظة نقود شاتوف قد بقيت تحت وسادة ماريا اجناثينا) ، ولم يعثر الا على ثلاث وريقات لا قيمة لها : رسالة تتعلق بأعمال ، وعنوان كتاب ، وفاتورة مطعم فى الخارج كان شاتوف يحتفظ بها منذ ستين لا يدرى الا الله لماذا ! دس بطرس ستيفانوفتش هذه الوريقات فى جيبه . واذا لاحظ حيث أن رفاقه المتجمعين حول الجثة كانوا يتأملونها دون أن يفعلوا شيئاً ، أخذ يشتمهم شتماً فظاً غليظاً . فسرعان ما تاب اركل وتولكاشنكو الى رشدهما ، فأسرعا ينفذان أوامره ، فهرعا الى المغارة ، وعادا منها بصخرتين كبيرتين تزن كل واحدة منهما نحو عشرين رطلاً . ولما كانت النية منصرفة الى القاء الجثة فى الغدير الأقرب (الثالث) ، فقد ربطت الصخرتان بقدميها وعنقها . ان بطرس ستيفانوفتش هو الذى تولى القيام بهذا العمل ، أما تولكاشنكو واركل فلم يزدا على أن أمسكا الصخرتين ، ونقلها اليه . مدّ اركل صخرته أولاً . وبينما كان بطرس ستيفانوفتش يوثق قدمي الجثة متذمراً ويربطهما بالصخرة مدمماً ، وقد دام هذا وقتاً طويلاً ، كان تولكاشنكو مائلاً الى أمام ، على وضع يشبه أن يكون وضع الاحترام ، ممسكاً الصخرة الثانية بيديه الممدودتين لينقلها الى بطرس ستيفانوفتش بلا ابطاء متى أمره بذلك ، حتى انه لم يخطر بباله أن يضع حملة على الأرض بانتظار صدور الأمر . فلما فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله نهض وتأمل الوجوه التى

تحيط به ، تأملها بانتباه • وعندئذ انما حدث حادث غريب ، لم يكن يتوقعه أحد قط ، حادث أدهش الجميع •

سبق أن قلنا ان اركل وتولكاشنكو هما اللذان عملا ، وان الآخرين لبثوا في أماكنهم لا يفعلون شيئاً • وحين هجم الجميع على شاتوف فان فرجنسكى هرع هو أيضاً ، ولكنه لم يمسس شاتوف ولا ساعد في طرحه على الأرض • أما ليامشين فانه لم ينضم الى الآخرين الا بعد أن أطلق فرخوفنسكى الرصاصة • وبينما كان فرخوفنسكى يربط الصخرتين بالجثة ، أى خلال عشر دقائق تقريبا ، كان من ينظر الى وجوه هؤلاء الناس يخيل اليه أنهم أشبه بمن لا يشعر بما يحدث ، ويحس أنهم الى الدهشة والاستغراب أقرب منهم الى القلق والاضطراب • ان ليوطين مائل الى أمام ، قرب الجثة • ووراءه ينظر فرجنسكى من فوق كتفه مستطعماً ، حتى انه منتصب على رموس الأصابع ليرى رؤية أحسن • أما ليامشين فقد اختبأ وراء فرجنسكى ، يختلس نظرة سريعة الى المشهد من حين الى حين ، ثم ما يلبث أن يعود الى الاختباء فوراً • ولكن حين فرغ بطرس ستيفانوفش من عمله ونهض واقفاً ، أخذ فرجنسكى يرتعش ارتعاشاً شديداً من قمة رأسه الى أخمص قدميه على حين فجأة ، ثم ها هو ذا يضم يديه احدهما الى الأخرى ، ويصرخ خائفاً :

— ليس هذا أبداً ! لا ، لا ، ليس هذا أبداً !

ولعله كان سيضيف الى هذا الكلام شيئاً جديداً لو أن ليامشين أمهله • غير أن ليامشين لم يلبث أن قبض عليه من الخلف فجأة ، وشده متشبهاً به تشبهاً قوياً ، وطلق يطلق صرخات حادة رهبة • انه يتفق لرجل أصابه جزع مباغت وهلع عنيف ، أن يأخذ يصرخ بصوت ليس صوته المألوف ولا يمكن أن يفترضه له أحد أبداً فى الأحوال العادية • ان الأثر الذى يحدثه هذا الصوت فى النفس احساس لا يحتمل ولا يُطاق فى

بعض الأحيان • فكذلك كان ليامشين يصرخ بصوت ليس صوتاً إنسانياً بل هو صوت حيواني • وظل ليامشين قابضاً على عنق فرجنسكى من خلف ، وظل يصرخ صراخاً ما ينفك يشد بلا توقف ، محملاً العينين فاغراً الفم ، ضارباً الأرض بقدميه فكأنه يقرع طبلًا • فبلغ فرجنسكى من فرط الخوف أنه أخذ يصرخ هو أيضاً ، محاولاً أن ينتزع نفسه من عنق ليامشين ؟ وأخذ يتخبط ويجهد أن يضربه من خلف ما أمكنه أن يفعل ، وقد استبد به واستولى عليه حنق مسعور ما كان لأحد أن يتوقعه منه • وساعده اركل أخيراً في التخلص من ليامشين • ولكن حين استطاع فرجنسكى المرتاع أن يتخلص من ليامشين ، نظر ليامشين حوله فأبصر بطرس ستيفانوفتش فهجم عليه وهو يطلق صرخات جديدة • وتعتبر بالجنة فسقط فوقها ، فتشبث ببطرس ستيفانوفتش تشبثاً بلغ من القوة أنه في اللحظة الأولى لم يستطع لا بطرس ستيفانوفتش نفسه ولا تولكاتشكو ولا ليويتين أن يحملوه على تركه • فكان فرخوفنسكى يصرخ ويشتم ويضربه على رأسه بقبضتي يديه • حتى إذا أفلح في الإفلات منه أخيراً ، أمسك مسدسه وصوبه على فم ليامشين الفاغر • ولكن ليامشين ظل يصرخ رغم التهديد ، بينما كان تولكاتشكو واركل وليويتين ممسكين بذراعيه امساكاً قوياً •

وأخيراً لفَّ اركل منديله حتى جعله كالكرة ، فأدخله في فم ليامشين بحذق ، فأوقف بذلك صراخه ، بينما كان ليويتين وتولكاتشكو يوثقان يديه وراء ظهره بحبل •

دمدم بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر الى المجنون قلقاً :
- غريب !

لقد كان مدهوشاً أشد الدهشة •
وأردف يقول حالم الهيئة شارد الذهن :

— كنت أتصوره غير ذلك !

وترك ليامشين في حراسة اركل مؤقتاً • لقد كان ينبغي الاسراع • انهم قد صرخوا وأسرفوا في الصراخ حتى ليتمكن أن يكونوا قد نبهوا أهل سكفورشنيكى • أخذ بطرس ستيفانوفتش وتولكاشنكو مصباحيهما ، وأمسكا جثمان القتل من تحت الرأس ؛ كما رفعه ليبوتين وفرجنسكى من القدمين • كان الجثمان ثقيلًا بالصخرتين المربوطتين به • وكان ينبغي قطع مسافة مائتى خطوة بل أكثر • ان أقوى هؤلاء الرجال هو تولكاشنكو • وقد نصح بأن يكون المشى منتظماً ، ولكن أحداً لم يصنع اليه ، وساروا كيفما اتفق • كان بطرس ستيفانوفتش يسير على اليمين • انه مقوس الظهر تقوساً شديداً ، يسند بكفه رأس الميت ، ويمسك الصخرة من تحتها باليد اليسرى • واذ لم يخطر ببال تولكاشنكو أن يساعده طوال نصف المسافة ، فقد ناداه بطرس ستيفانوفتش شاتما • فدوت صرخته القصيرة فى الصمت • ظل الرجال يتقدمون دون أن يقولوا كلمة • حتى اذا صاروا على حافة الغدير صرخ فرجنسكى يقول من جديد ، وقد ثاه حملة وأرهقه ثقله ، صرخ يقول بصوت قلق خائف :

— ليس هذا أبداً ؟ لا ، لا ، ليس هذا أبداً !

ان المكان الذى ينتهى عنده هذا الغدير الثالث ، وهو غدير كبير ، مكان خالٍ لا يرتاده أحد ، ولا سيما فى هذا الأوان المتقدم من السنة • والماء قرب الحافة قد اجتاحت الحشائش •

ووضعت المصابيح على الأرض • ورجمت الجثة بضع لحظات ثم رميت فى الغدير ، فكان لسقوطها فى الماء دوى أصم طويل •

رفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه يحاول متابعة سقوط الجثة ؛ وكذلك فعل الآخرون مستطعين • ولكنهم لم يروا شيئاً : فان الجثة الثقيلة

بالصخرتين قد هوت الى القاع رأساً ، وسرعان ما امّحت الدوائر التي
ظهرت على سطح الماء حين سقوطها فيه • انتهى كل شيء •
قال بطرس ستيفانوفتش مخاطباً الجميع :

- أيها السادة ، ليس يخامرني أى شك فى أنكم تشعرون الآن
بذلك الزهو المرتبط دائماً بتحقيق واجب ارتضى المرء أن يقوم به حراً
من تلقاء نفسه • وإذا كنتم الآن ، وا أسفاه ، أشد اضطراباً من أن تحسوا
ذلك الشعور ، فلسوف تحسونه فى غدٍ حتماً ، والا كان عاراً وخزياً أن
لا تحسوه • أما السلوك المشين الذى سلكه ليامشين ، فانتى أريد أن
لا أرى فيه الا نوبة مرض ، ولا سيما أنه كان مريضاً بالفعل هذا الصباح
فيما قيل لى • وأما أنت يا فرجنسكى ، فتكفيك لحظة تفكير حتى تدرك أن
مصلحة القضية تجعل من المستحيل علينا أن نركن الى عهد يقطعه شاتوف
على نفسه ، وأن ما فعلناه هو ما كان ينبغي فعله • سوف ترى فيما بعد أن
الوشاية كانت مهياة كل التهيئة • انتى أوافق على نسيان صيحاتك ! واعلموا
أن لا شيء يهددنا الآن • فما من أحد سيخطر بباله أن يشتبه فى أحد
منكم ، وخاصةً اذا أحسنتم التصرف • أى أن كل شيء على وجه الاجمال
رهن بكم ومتوقف على اقتناعكم بأنكم أحسنتم عملاً ، وهو اقتناع آمل أن
يكون راسخاً فى أنفسكم منذ الغد • من أجل هذا الغرض وأغراض
أخرى انما اجتمعتم • ولأنكم تؤمنون بأفكار واحدة انما أنشأتم بحرييتكم
هذا التنظيم ليساعد بعضكم بعضاً ، وليكون كل منكم رقيقاً على الآخر اذا
اقتضى الأمر ذلك • ان كلاً منكم يقع على عاتقه عبء كبير يجب أن
يحملة ، وتقع على عاتقه مهمة ضخمة يجب أن يحققها • انكم مدعون
الى تجديد مجتمع منهوك فاسد عفن : فلتكن هذه الفكرة حافزاً يث فيكم
الشجاعة ويحضكم على العمل باستمرار ! ان جميع جهودكم يجب أن
ترمى الى انهيار كل شيء : الدولة وأخلاقيها • سنظل وحدنا واقفين ،

نحن المهثين منذ مدة طويلة لأن نستلم السلطة • فأما الأذكاء فسوف نجعلهم ملحقين بنا ؛ وأما الأغبياء فسوف نركب على ظهورهم • ما ينبغي أن يقلقكم هذا • يجب علينا أن نعيد تربية الجيل الحالي ، لنجعله جديراً بالحرية • ما يزال هناك ألوف من أمثال شاتوف • سوف ننظم صفوفنا من أجل أن نقود الحركة : انه لعار علينا أن لا نستولى على ما يقدم نفسه اليانا ان صح التعبير • أنا ذاهب توأ الى كيريلوف • وفي صباح غد سنكون معي الرسالة التي يصرّح فيها قبل موته بأنه مسئول عن كل شيء • وسيدور الأمر معقولاً جداً • أولاً لأنه كان على خصام شديد مع شاتوف : لقد عاشا في أمريكا جنباً الى جنب ، فاسع وقتهما لأن يكونا عدوين • وثانياً لأن شاتوف قد هجر عقائده القديمة وهذا أمر معروف ، فلا بد أن يكرهه كيريلوف لحياتته ولا مكان وشاية شاتوف به ، فهذه اذن عداوة من العداوات التي لا سبيل فيها الى صلح • ذلك كله سيذكر في الرسالة • وسيعترف كيريلوف أيضاً بأنه آوى فدكا • وهكذا لن يستطيع أولئك الحمير أن يفهموا من الأمر شيئاً ، بل لن يخطر ببالهم أن يشبهوا فيكم • غداً لن نلتقى أيها السادة • ان على أن أقوم بجولة في المقاطعة • ولكنكم ستعرفون أخباري بعد غد • أنصحكم بأن تقضوا نهار غد في منازلكم • والآن يجب أن نسلط في العودة طرقاً مختلفة • اليك أعهد بليامشين يا تولكاتشنيكو • ارجع به الى بيته • وتستطيع أن تؤثر في فكره ، وأن تشرح له خاصة أن خوفه يمكن أن يكون خطراً أشد الخطر عليه • ولا أريد أن أشك في قريبك شيجالوف ، ولا فيك أنت يا سيد فرجنسكي : انه لن يشي بنا • ولا يبقى علينا الا أن نأسف لوضعه • على أنه لم يعلن أنه ترك الجمعية • لذلك لم يحزن حين دفنه • ولكن فلنسرع يا سادة : الحذر واجب ، ولو كان الآخرون حميراً •••

انصرف فرجنسكي مع اركل • وقبل أن يعهد اركل بليامشين الى

تولكاتسنيكو ، اقتاده الى قرب بطرس ستيفانوفتش وأعلن أن ليامشين قد
تاب الى رشده ، وأنه نادم ، وأنه يستغفر ، حتى انه لا يتذكر ما حدث
له تذكراً واضحاً •

انصرف بطرس ستيفانوفتش وحيداً ، وسلك الطريق الأطول ، وهو
الطريق الذي يدور حول الغدران • فما كان أشد دهشته حين بلغ منتصف
الطريق فإذا هو يرى ليويتين ساعياً وراءه لاحقاً به ، سائلاً اياه :

— بطرس ستيفانوفتش ، هل تعلم ان ليامشين سوف يشي بنا ؟

— لا بل شينوب الى صوابه فيدرك أنه اذا وشى بنا كان هو نفسه
أول من يذهب الى سبيريا • ما من أحد سيشي بنا الآن • وأنت أيضاً
لن تشي •

— وأنت ؟

— سأسلمكم جميعاً بطبيعة الحال متى انتهت أيسر اشتباه فقدّرت
أنكم مقبلون على خيانة • انك لتعلم ذلك • ولكنك لن تخون • أمن أجل
أن تقول لي هذا انما ركضت ورائي مسافة فرسخين ؟

— بطرس ستيفانوفتش ، بطرس ستيفانوفتش ! قد لا نلتقي بعد
اليوم أبداً !

— من أين تأتي بهذا الكلام ؟

— قل لي شيئاً واحداً لا أكثر •••

— ما هو ؟ أنا شخصياً أوتر أن تنصرف •••

— كلمة واحدة ، ولكن بشرط أن تكون صادقة : هل حلقتنا التي
تتألف من خمسة أعضاء هي الحلقة الوحيدة في العالم ، أم هل هناك

حلقات أخرى تبلغ عدة مئات ؟ اننى ألقى هذا السؤال من ناحية رفيعة
بمعنى عالٍ يا بطرس ستيغافوفتش •

- أرى ذلك من فرط احتياجك • ولكن هل تعلم أنك أشد خطراً
من ليامشين ؟

- أعلم ، أعلم ! ولكن أجبني •

- ما أكبر حماقتك ! اننى لأسأل : فيم يهتك الآن أن تعرف أنحن
حلقة واحدة أم مائة ؟

صاح ليوتين يقول :

- معنى هذا أنه ليس هناك الا حلقة واحدة • كنت أقدر ذلك •
بل كنت واثقاً منه منذ مدة طويلة •••

وبدون أن ينتظر جواباً آخر استدار وغاب فى الظلام •

لبث بطرس ستيغافوفتش حالماً شارد الذهن لحظة • ثم قال يحدث
نفسه فجأة : « لا ، لن يخون أحد منهم • ولكن يجب أن يبقوا معاً وأن
يطيعوا ، والا فلسوف ••• على كل حال ما أحقرهم من ناس ! » •

٢

ذهب بطرس ستيغافوفتش أولاً الى بيته وهياً حفيته باعتناء دون
تعجل • ان القطار السريع يسافر فى الساعة السادسة من الصباح • وهذا
القطار الذى لا يسير الا مرة كل أسبوع يعمل منذ مدة قصيرة على سبيل
التجربة • وكان بطرس ستيغافوفتش قد أبلغ « أصحابنا » أنه سيجول
قليلاً فى المنطقة ، ولكن نياته كانت غير ذلك فى الواقع ، كما ظهر هذا
فيما بعد •

فلما فرغ من اعداد حقييته ، دفع أجرة مسكنه لصاحبة المنزل التي كان قد أبلغها أمر رحيله ، وذهب بعربة الى اركل الذي يسكن غير بعيد عن المحطة . ثم لم يتجه الى بيت كيريلوف الا في الساعة الواحدة ، وقد دخل اليه من الممر الذي كان يسلكه فدكا .

كان بطرس ستيفانوفتش معتكر المزاج جدا . وعدا المزيجات الكبيرة التي كانت آخذة بخناقها (من ذلك مثلاً أنه ما يزال لا يعرف شيئاً عن ستافروجين) ، كان قد بلغه فيما أظن (لكننى لست واثقاً من هذا) نبأً جاءه سراً من بطرسبرج في أغلب الظن ينبهه الى خطر كبير يهدد أن يحدث به بعد مدة قصيرة . ان أساطير كثيرة تروج الآن في مدينتنا عن هذا الموضوع طبعاً . ولكن لا يستطيع أن يعرف الحقيقة الا أولئك الذين مهتمهم أن يعرفوا كل شيء . أما أنا فأعتقد أن بطرس ستيفانوفتش لا بد أنه كان له عملاء في خارج مدينتنا . فمن الجائز جداً أن يكون قد تلقى تيسبهاً . بل اننى لمقتنع ، رغم الشك الشديد المستخف الذي عبّر عنه ليوتين في ذروة كربه ، أن بطرس ستيفانوفتش يمكن أن يكون له حلقتان أو ثلاث حلقات ، في بطرسبرج أو في موسكو مثلاً ؛ ولا بد أن يكون له على كل حال عدد من المنضوين ، وأن تكون له علاقات لعلها غريبة كل الغرابة . انه بعد رحيله بثلاثة أيام وصل الى مدينتنا أمرٌ بالقبض عليه فوراً ، لا أدري هل للجرائم التي ارتكبها عندنا أو لجرائم أخرى أيضاً . وقد جاء هذا الأمر في حينه ، ليقوّى الرعب الرهيب الذي يكاد يكون رعباً غيبياً ، أعنى الرعب الذي استولى على السلطات في المدينة وعلى المجتمع كله ، بعد أن كان هذا المجتمع مصراً على عدم الاكتراث ، وذلك حين اكتُشفت جريمة قتل شاتوف العجيبة التي أوصلت اضطرابنا الى آخر مداه بملاساتها السرية الغريبة . ولكن الأمر بالقبض على بطرس ستيفانوفتش قد وصل بعد فوات الأوان ، فحين وصل هذا الأمر الى مدينتنا،

كان بطرس ستيفانوفتش قد وصل الى بطرسبرج واستقر فيها باسم مستعار •
حتى اذا أحس أن الأمور تجري مجرى سيقاً ، تسلك هارباً الى خارج
البلاد على الفور • ولكننى أستبق الأحداث •

حين دخل بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف كان خبيث الوجه
نرس الهبئة ، حتى وكأنه حاقّد على كيريلوف حقداً شخصياً فهو يريد أن
يبتقم منه • وبدا على كيريلوف أنه سرّ برؤيته • واضح أنه كان ينتظره
منذ مدة طويلة ، وأنه كان ينتظره على حالة من نفاد الصبر تكاد تكون
مرضية • كان وجهه ساحباً أكثر مما عهد فيه من شحوب • وكانت نظرة
عينيه السوداوين ثقيلة ساكنة •

قال وهو ينطق بألفاظه فى مشقة :

— كنت أظن أنك لن تجيء •

ولكنه لم ينهض لاستقبال الزائر ، وظل جالساً فى ركن الديوان •
فتفرس بطرس ستيفانوفتش فى وجهه صامتاً لا ينبس بكلمة • ثم قال له
أخيراً :

— هيا ! كل شئ على ما يرام ! لم نعد عن خطتنا ! مرحى !

وابتسم ابتسامة حمائية وقحة ورعاية مؤذية • ثم أسرع يقول
بمرح خبيث :

— اسمع • لقد تأخرتُ عن الموعد • وليس عليك أن تلومنى • لقد
أهديت اليك ثلاث ساعات •

— لا أريد أن تهدى الى ساعات اضافية • وليس فى امكانك أن
تهدى الى هدية ••• يا غبى !

فارتعش بطرس ستيفانوفتش وسأله :

- كيف ؟

ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه • فقال له وهو على تلك الهيئة
نفسها التي تعبر عن رعاية وقحة :

- ما أسرع تأذيك ! أوه ! أوه ! أراك غضبت ! ان الهدوء أفضل
في مثل هذه اللحظة • وخير شيء هو أن تعد نفسك مثل كريستوف
كولومب وأن لا تعدني إلا فأرة لا يمكنها أن تهينك • سبق أن نصحتك
بهذا أمس •

- لا أريد أن أعدك فأرة !

- أياكون هذا مديحاً ! أوه ! الشاي بارد ! كل شيء مقلوب رأساً
على عقب • ما هذا الذي أراه هناك في صحن ؟

واقرب من النافذة • وأضاف يقول :

- دجاجة بالرز ! ••• ولكن لماذا لم يؤكل منها شيء ؟ أنت اذن في
حالة تبلغ من الغرابة أن دجاجة لا •••

- أكلت • ليس هذا شأنك • اسكت !

- طبعاً ليس هذا شأنى • ولكن الأمرين في نظري لا يستويان •
هل تتصور أنني لم أكد أتغدى ؟ فإذا صبح تخميني ، وهو أنك لست في
حاجة الى هذه الدجاجة ، كان في وسعي أن ••• هه ؟

- كل ان استطعت •

- شكراً ، وسأشرب شاياً •

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجلس الى المائدة فوراً ، على الركن
الآخر من الديوان ، وجعل يأكل بشراهة ، مع استمراره على مراقبة

ضحيته بطرف عينه • وكان كيريلوف يحدّق اليه بحق يمازجه اشمّزاز،
وكأنه لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره •

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول دون أن يكف عن الأكل :

- يجب علينا مع ذلك أن نتكلم في موضوعنا • لم تراجع ، هه ؟
والرسالة ؟

- قررت اللبلة أن الأمرين عندي سواء • سوف أوقّع الرسالة •
وعن المنشورات التحريضية أيضا ؟

- نعم ، أيضا • سأملئ عليك النص على كل حال • ما اهتمامك
بهذا ؟ هل يُعقل أن يهملك مضمون هذه الرسالة في مثل هذه اللحظة ؟
- ليس هذا شأنك •

- طبعاً • لا يبدو الأمر بضعة أسطر تقول فيها انك أنت وشتاوف
قد وزعتما منشورات بمساعدة فدكا الذي كنت تؤويه • ان هذه النقطة
الأخيرة ، أعنى فدكا واقامته عندك ، أمر هام • هي أهم شيء • هأنت ذا
تري أنني صريح معك •

- تقول شتاوف ؟ لماذا شتاوف ؟ لن أتكلم عن شتاوف •
- يا للفكرة العجيبة ! فيم يهملك هذا ؟ انك لا تستطيع أن تلحق به
ضرراً بعد الآن !

- رجعت زوجته • ولقد استيقظت وأرسلت تسألني أين هو •
- أرسلت تسألك أين هو ؟ همّ ••• هذا شيء ! قد تسأل مرة
أخرى ••• يجب أن لا يعرف أحد أنني هنا •••
بدا القلق على بطرس ستيفانوفتش •

- لن تعرف شيئاً • لقد نامت ثانية • وان آرينا فرجنسكى ، مولدتها ،
هى الآن بقربها •

- أظن ... أنها لن تسمع • ولكن من الأفضل ، كما ترى ، أن
يُفعل الباب بالمفتاح •

- لا ، لن تسمع • أما شاتوف ، فسوف أخبثك فى الغرفة الأخرى
إذا جاء •

- شاتوف لن يجرى • وسوف تكتب أنكما تشاجرتما لأنه كان يستعد
للوفاة بك هذا المساء ... وأنت قتلت •

هتف كيريلوف وهو يتب عن الديوان :

- مات ؟

- اليوم ، فى الساعة الثامنة من المساء ، بل قل أمس ، لأن الساعة
الآن هى الواحدة من الصباح •

- أنت الذى قتلت ... لقد تنبأت بذلك منذ أمس •

- لم يكن التنبؤ بذلك أمراً صعباً • قتلت بهذا المسدس نفسه ...

قال ذلك وأخرج مسدسه كمن يريد أن يريه كيريلوف ، ولكنه
لم يعده الى جيبيه ، بل ظل قابضاً عليه باليد اليسرى ، استعداداً لكل
احتمال ...

وأردف يقول :

- انك لانسان غريب يا كيريلوف : ألم تكن تعرف أنت نفسك أن
الأمر لا يمكن أن تنتهى الى غير هذه النهاية مع هذا النبى ؟ لقد كان
التنبؤ بذلك أمراً سهلاً • كم مرة شرحته لك ! لقد كان شاتوف يستعد

لوشاية ، وكنت أراقبه • ولم يكن يمكننا أن ندعه يفعل • أنت نفسك
تلقيت تعليمات بهذا الشأن • وقلت لى منذ ثلاثة أسابيع •••

— اسكت • أنت قتلته لأنه بصق فى وجهك بمدينة جنيف •

— لهذا الأمر ولأمر آخر أيضا ، بل لأمر أخرى كثيرة • ولكن
بدون كره على كل حال • ما لك ؟ لماذا هذه الهيئة ؟ أوه ! أوه ! علام هذه
النظرة الى الأمور ! •••

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ، وهبَّ يقف بوئبة ، ممسكاً
مسدسه بيده لأن كيريلوف كان قد أمسك مسدسه الذى هبَّه وألقمه منذ
الصباح • وصوبَ بطرس ستيفانوفتش سلاحه نحو كيريلوف • فضحك
كيريلوف ضحكة صفراء وقال له :

— اعترف أيها الوغد أنك تناولت مسدسك علماً بأننى كنت سأقتلك
••• ولكننى لن أقتلك ••• رغم أن ••• رغم أن •••

وصوبَ الى بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى كأنه يجرب نفسه ،
ولا يستطيع العدول عن المدة التى يمكن أن يتمتع بها اذا هو قتله •

وكان بطرس ستيفانوفتش ما يزال ينتظر متأها ، مصمماً على الانتظار
الى آخر دقيقة دون أن يضغط الزناد ، متعرضاً بذلك لخطر تلقى الرصاصة
الأولى : ان كل نية يمكن توقعه من هذا « المهووس » • ولكن المهووس
خفض ذراعه أخيراً ، وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً ، ويمعز عن النطق
بكلمة واحدة •

وقال بطرس ستيفانوفتش خافضاً سلاحه هو أيضا :

— كفى عبثاً ! كنت أعلم أنك انما تتسلى • ولكن هل تعلم أنك كنت
تخاطر مخاطرة كبيرة ؟ لقد كان يمكن أن أضغط على الزناد •

وعاد يجلس على الديوان هادئاً ، وصبّ نفسه الشاي بيدٍ ترتجف
بعض الارتجاف •

وضع كيريلوف مسدسه على المائدة ، وجعل يسير في الغرفة طويلاً
وعرضاً •

- لن أكتب أنتى قتلت شاتوف ••• لن أكتب شيئاً ••• لن أوقع
الرسالة •

- لن تكتب ؟

- لا !

- يا له من جبن ! وياله من غباء !

كذلك هتف يقول بطرس ستيفانوفتش وقد اخضر لونه غضباً •
وأردف يقول :

- على كل حال ، كنت أتنبأ بذلك • ولكنك لا تفدر بى وأنا عاجز
عن كل حيلة • افعل ما يحلو لك • اذا استطعت أن أجبرك اجباراً فسوف
أفعل • مهما يكن من أمر ، فأنت جبان !

لقد فقد بطرس ستيفانوفتش صوابه •
واستطرد يقول :

- طلبت منا مالاً ، وبدلت انا وعوداً كثيرة ••• لكننى لن أدعك
هكذا : سوف أرى بمعنى على الأقل كيف ستطلق الرصاص فى رأسك •

قال كيريلوف بلهجة حازمة وهو يقف أمامه :

- أريد أن تصرف فوراً •

فأجابه بطرس ستيغافوفتش وهو يتناول مسدسه مرة أخرى :

— أما هذه فلا ! أبداً !... من يدري ؟ لقد تُقرر أن تؤجل كل شيء الى غد ، خبئاً أو جنباً ، ثم تمضي تشي بنا في الغد لتقبض بضعة قروش أخرى . ذلك أنهم سيدفعون لك مبلغاً طيباً اذا أنت وشيت بنا . نسيطان يأخذك . ان أمثالك لا يتورعون عن شيء . ولكن اطمئن . لقد تنبأت بالأمر : لن أنصرف قبل أن أهشم رأسك بهذا المسدس ، كما فعلت بذلك الحقيقير -اتوف ، اذا أنت خفت وأرجأت تنفيذ مشروعك . فلتذهب الى جهنم !

— أتصبرُ حتماً على معرفة لون دمي ؟

— اعلم انني لا أفعل هذا كرهاً بك أو بغضاً لك . أنت لا تعينني . وانما أنا أعمل في سبيل « القضية » . انك لترى أنه لا يمكن الاعتماد على أحد . استأفهم من فكرتك شيئاً . لست أنا الذي أوحيت اليك بهذه الفكرة . حتى قبل أن تعرفني ، كنت قد أطلعت أعضاء جمعيتنا على خطتك . لاحظ أن أحداً منهم لم يدفعك الى ذلك ، بل ان أحداً منهم لم يكن يعرفك . ولقد أسررت اليهم بكل شيء من تلقاء نفسك ، في نوع من سورة عاطفية . فما ذنبنا اذا نحن وضعنا ، بالاتفاق معك ، وتلبيةً لاقتراح منك ، (نعم ، تلبيةً لاقتراح منك ، لاحظ هذا) ، أقول ما ذنبنا اذا نحن وضعنا خطه عمل يستحيل علينا أن نغيّر منها الآن شيئاً ؟ لا ، لا ، انك قد ارتبطت والتزمت . لقد قطعت على نفسك عهداً ، وقبضت مالا . هذا لا تستطيع أن تنكروه ...

لقد تحمّس بطرس ستيغافوفتش وهو يتكلم ، ولكن كيريلوف كان قد انقطع عن الاصغاء اليه منذ مدة طويلة . كان يذرع الغرفة حالم الهيثة ، شارداً الذهن !

قال وهو يقف أمام بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى :

- اننى آسف على شاتوف •

- وأنا أيضاً آسف عليه ، ولربما ••

- اسكت أيها الشقى ••• سوف أقتلك •

كذلك أعول يقول كيريلوف وهو يحرك يده بإشارة تهديد لا لبس فيها •

فنهض بطرس ستيفانوفتش بوثة واحدة ، ورفع يده كمن يريد أن يحمى نفسه ، وقال :

- طيب ، طيب ، أنا كاذب ••• اننى غير آسف عليه البتة ! ولكن كفى ، كفى !

فصمت كيريلوف واستأنف سيره فى الغرفة • ثم قال :

-- لن أراجع • أريد أن أتحرر الآن • الجميع أوغاد •

-- فكرة عظيمة : ليس هناك الا أوغاد فى كل مكان ، ولما كان الانسان الشريف لا يستطيع الا أن يشعر من ذلك بامتزاز ، فان الأفضل أن •••

- غبى ! أنا أيضا وغد ، مثلك ، ومثل جميع الناس ! لم يوجد رجل سريف فى يوم من الأيام •

- أخيراً وضع اصبعه على الحقيقة • كيف لم تدرك حتى الآن ، وأنت رجل ذكى ، ان جميع البشر سواء ، وأنه لا أحد خير أو شر من أحد • وانما هناك أذكاء وأغبياء ، وأنه اذا كان الجميع أوغاداً (وذلك خطأ على كل حال) فليس هناك اذن أناس شرفاء ؟

سأل كيريلوف وهو ينظر الى بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً بعض
الدهشة :

— أليست تمزح ؟ انك تتكلم بحرارة وبساطة • هل يُعقل أن يكون
لأمثالك اقتاعات ؟

— كيريلوف ، أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم لماذا تريد أن
تنتحر • كل ما أعرفه أن انتحارك نابع من افتناع واعتقاد ••• ولكن اذا
كنت تشعر بحاجة الى أن تفضى بما في نفسك ، ان صح التعبير ••• فأنا
مستعد للاستماع ••• ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الوقت
يجرى •••

— كم الساعة الآن ؟

أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر في ساعته :

— هي الثانية تماماً منذ الآن •

وأشعل سيجارة • وحدث نفسه قائلاً لها : « أظن أن التفاهم بيننا
ما يزال ممكناً » •

ودندم كيريلوف يقول :

— ليس لدىّ ما أفضى به اليك •

قال بطرس ستيفانوفتش :

— اننى أنذكر تذكراً غامضاً أن مدار المناقشة على الله ••• لقد سبق
أن ترحت لى هذا مرة ، بل مرتين • فقلت لى : اذا أنت انتحرت أصبحت
الهأ ، أليس هذا ما قلته ؟
— نعم ، أصبح الهأ •

حاذر بطرس ستيفانوفتشس أن يتسهم • وانتظر • فرشفه كيريلوف
بنظرة مأكرة • وقال له :

— ما أنت الا ماكر محتال وسياسى كاذب • انك تريد أن تستدرجنى
الى مجال النقاش الفلسفى وأن تورى حماسى من أجل أن تحلّ السلام
والوئام ، من أجل أن تبدّد غضبى ، حتى اذا تصالحنا انتزعت منى الورقة
التي تريدها بشأن شاتوف •

فقال بطرس ستيفانوفتشس يعجبه بصراحة وبراءة توشكان أن تكونا
طبيعتين :

— لنسلّم جدلاً بأننى وغد ، ولكن فيم يهيك هذا الآن يا كيريلوف !
لماذا تتشاجر ؟ هلاً قلت لى لماذا تتشاجر ؟ أنت لك طبيعتك ، وأنا لى
طبيعتى ، ثم ماذا ؟ ثم اتنا كلينا •••

— من الأوغاد •••

جائز ••• ولكنك تعلم أنت نفسك أن هذه كلها كلمات لا أكثر •

— لقد ظللت طول حياتى أرغب فى أن لا تكون كلمات ، بل شيئاً
آخر • انتى ما عشت الا من أجل هذا ••• من أجل أن تكون شيئاً آخر
غير الكلمات • وما زلت الى الآن أريد فى كل يوم أن لا تكون كلمات
فحسب •••

— كل امرئ • يبحث عما يناسبه ، ويسعى الى ما يوافقه ! ••• ان
السمة ••• أقصد ان كل انسان ينشد رخاءه بمعنى من المعانى • هذا
كل سى • وهو معروف منذ زمن طويل •

— تقول ينشد رخاءه ؟

- لا داعى الى الجدل فى الألفاظ •
- لا بل لقد أحسنت التعبير • الرخاء • صحيح • الله ضرورى ،
اذن لا بد أن يوجد •
- تماما •
- لكننى أعلم أنه غير موجود ، ولا يمكن أن يوجد •
- ذلك أرجح •
- هل يُعقل أن لا تفهم أن انسانا من الناس لا يمكن أن يستمر
فى الحياة حاملاً فكرتين كهاتين ؟
- فليس عليه اذن الا أن يطلق فى رأسه الرصاص •
- هل يُعقل أن لا تدرك أن المرء يمكن أن ينتحر لهذا السبب
وحده ؟ انك لا تفهم أن من الممكن أن يوجد رجل ، رجل واحد بين
ملايين الرجال ، قد لا يحتمل هذا التناقض فيمزف عن الحياة !
- لا أفهم الا شيئاً واحداً ، هو أنك تبدو متردداً ... وذلك سيء
جداً •
- قال كيريلوف وهو ما يزال يمشى طولاً وعرضاً ، مظلم الهيئة ،
حتى انه لم يسمع الجملة الأخيرة التى قالها بطرس ستيفانوفتش :
- ان ستافروجين ، هو أيضاً ، قد التهمته الفكرة ...
- كيف ؟
- كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يصيح بسمعه • وتابع
كلامه :
- أية فكرة ؟ هل حدثك عن نفسه ؟

- لا بل حزرت : حين يؤمن ستافروجين ، فانه لا يؤمن بأنه يؤمن •
وحين لا يؤمن ، فانه لا يؤمن بأنه لا يؤمن •

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول :

- هم ••• ان لستافروجين أمراً آخر ، أذكى من هذا •

وكان يقلق للمجرى الجديد الذى يجرى فيه الحديث ، ويلاحظ وجه كيريلوف الشاحب • قال يحدث نفسه : « شيطان يأخذه • انه لن يتحرر • لقد أوجست دائماً هذا • انه يتلذذ بتخيلاتة • يا لهذه الزمرة من الناس ما أحطها ! » •

- انك آخر من يبقى معى • فلا أحب أن نفترق افتراقاً سيئاً •

فتردد بطرس ستيفانوفتش لحظة قبل أن يجيب ، قائلاً لنفسه :
« ما هذا أيضاً ؟ » • ثم قال يجيبه :

- ثق كل الثقة يا كيريلوف اننى لا أحمل لك أية عداوة من حيث أنا انسان ، ولا أضمر لك أى حقد شخصى ، ولكننى كنت دائماً •••

- أنت رجل شقى وفكر زائف ، ولكننى مثلك • وسوف أموت أنا ، وتحيا أنت •

- هل تريد أن تقول اننى أبلغ من السوء والرداءة والخبث ما يضمن لى البقاء على قيد الحياة ؟

كان لا يعلم بعد هل يفيد أنه يستمر فى الحديث أو لا يفيد • وقرر أن « يدع الأمر للظروف » • غير أن لهجة الاستعلاء والاحتقار التى يستعملها كيريلوف فى مخاطبته ، والتى طالما أزعجته وأغاطته فى الماضى ، تحنقه الآن أكثر من أى وقت مضى • لعل ذلك يرجع الى أن

كيريلوف سوف يموت بعد ساعة (ولقد كان بطرس ستيفانوفتش لا يحول بصره عنه رغم كل شيء) ، فكان ذلك يهوّن شأنه ويطفف قيمته في نظره ، فهو انسان نصف حتى نصف ميت ان صح التعبير ، انسان لا يطبق بطرس ستيفانوفتش أن يحتمل كبرياءه وزهوه بنفسه •

– بخيّل الى أنك تسحقني بتفوقك لأنك ستتحرر ، هه ؟

قال كيريلوف الذي لم يسمع في هذه المرة أيضا ما قاله بطرس ستيفانوفتش :

– بدهشني أكبر الدهشة أن الناس يستمرون في الحياة •

– هم ! ... طيب ... لنسلّم جدلاً ... هذه فكرة ... ولكن ...

– قرد ! انك تسارع الى قول « نعم » لتستولى على • اسكت • أنت لا تفهم شيئاً • اذا كان الله غير موجود فأنا الله •

– هذه بعينها هي النقطة التي لم أستطع أن أفهمها منك في يوم من الأيام : لماذا أنت الله ؟

– اذا كان الله موجوداً ، كانت الارادة كلها له ، وكنت أنا عاجزاً عن كل شيء في خارج ارادته • أما اذا لم يكن موجودا فالارادة كلها ارادتي ، وعلى أن أنادى بارادتي الخاصة •

– ارادتك الخاصة ؟ ولماذا عليك أن تنادي بها ؟

– لأن الارادة كلها الآن انما هي ارادتي • هل يُعقل أن لا يوجد على وجه الأرض كلها شخص يجرؤ أن ينادى بارادته الخاصة في صورتها القصوى بعد أن قتل الله وآمن بتلك الارادة الخاصة التي له • ان مثل من يعجز عن ذلك كمثل فقير ورث مالا ولكنه لا يجرؤ أن

يقرب من الكيس لأنه يعد نفسه أضعف من أن يحق له الاستيلاء عليه •
أريد أن أنادى بأرادتى أنا • سأفعل ذلك ولو فعلته وحدى •

— أحسنت ! افعله !

— يجب علىَّ أن أطلق الرصاص فى رأسى لأن الصورة القصوى
التي تتجلى فيها ارادتى هي الانتحار •

— ولكنك لا تنتحر وحدك • كثيرون انتحروا قبلك •

— لأسباب أخرى • أما للمناداة بالارادة الشخصية وحدها ، لا لى
سبب آخر ، فأنا الوحيد الذى ينتحر •

حدث بطرس ستيغانوفتش نفسه قائلاً : « لا ، لن ينتحر » •

وقال منزعباً مغتاضاً :

— هل تعلم ؟ لو كنت فى مكانك لجعلت ارادتى تتجلى فى أن أقتل
شخصاً آخر ، أما أن أقتل نفسى فلا • فذلك يمكنك أن تكون نافعا •
سأدلك على من تقتله ، اذا كنت لا تخاف • فى هذه الحالة تستطيع أن
لا تطلق الرصاص على نفسك اليوم • يمكننا أن نتفاهم •

— أن أقتل شخصاً آخر فذلك أدنى شكل من أشكال تجلى ارادتى •
هذا تفعله أنت • هذا أنت • أما أنا فلست أنت : أنا أريد الشكل الأعلى ،
أريد الصورة القصوى • فسأنتحر •

جميع بطرس ستيغانوفتش يقول لنفسه ساخطاً : « اكتشف هذا
وحده ! » •

واستأنف كيريلوف كلامه وهو ما يزال يذهب ويجيء فى الغرفة :
— يجب أن أنادى بأننى غير مؤمن • ان أعلى فكرة فى نظرى هي

أن الله غير موجود • تاريخ الإنسانية بأسره يشهد لى • حتى الآن كان الإنسان يخلق الهأ يعيش دون أن يتحرر • أنا وحدى ، لأول مرة فى تاريخ العالم ، أرفض أن أخترع الهأ • ألا فيعلم جميع الناس هذا ، مرة إلى الأبد •

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه وقد ازداد قلقه : « لن يتحرر » •

وقال يحرقه :

– من الذى سيعلم هذا ؟ لسنا هنا الا اثنين • ربما ليوتين ؟
– سيعلمونه جميعا ، جميعا ! لا شىء يخفى ! « هو » الذى قال ذلك •
وأشار بنوع من الحماسه الى صورة المسيح التى كان يشتعل أمامها
سراج •

ثارت نائرة بطرس ستيفانوفتش • قال :

– اذن ما زلت تؤمن « به » وتشعل سراجاً • ربما من باب الاحتياط
لكل شىء ، هه ؟

لزم كيريلوف الصمت • وأضاف بطرس ستيفانوفتش قوله :

– فى رأى أنك ما تزال تؤمن به أكثر مما يؤمن به كاهن !

– بمن ؟ به « هو » ؟ اسمع •••

قال كيريلوف ذلك وتوقف محمداً الى أمام كأنه فى حاله نشوة
ووجد ؟ وتابع كلامه :

– اسمع • فكرة عظيمة : فى ذات يوم نُصبت ثلاثه صلبان • كان أحد المصلوبين يبلغ من قوة الايمان أنه قال للذى كان الى يمينه : « فى

هذا اليوم نفسه ستكون معى فى الجنة ، • وانتهى اليوم ومات الانسان ، ولم يجدا لا جنة ولا بعثاً • لم يتحقق قول المصلوب • اسمع • ان ذلك الرجل كان أعظم رجل فى الأرض • بسببه انما وُجدت الأرض • فالأرض كلها وجميع ما عليها لا تكون بغيره الا جنونا • لم يوجد قبله ولن يوجد بعده انسان يشبهه ولو تحققت معجزة • والمعجزة انما هى أن هذا الانسان لم يوجد أحد مثله ولن يوجد أحد مثله فى يوم من الأيام • فاذا كان الأمر كذلك ، اذا كانت قوانين الطبيعة لم تدار حتى « ذلك الانسان » ، اذا كانت لم تراعى حتى معجزتها ، واضطرته أن يجيد فى وسط الكذب ، وأن يموت بسبب كذبة ، بينما الأرض كلها ليست الا أكذوبة ، ولا تقوم الا على الكذب والضلال ، فان قوانين هذه الأرض نفسها ليست الا كذبا ، وليست الا مهزلة شيطانية ! فعلام يحيا المرء ؟ أجب اذا كنت رجلاً !

— هذه مسألة أخرى تماما • اخال أنك تخلط بين شيئين مختلفين ، وهذا لا ينبئنى بأى خير • ولكن اسمح لى : ماذا اذا كنت الله ؟ ماذا اذا انتهى الكذب فأدركت أن الكذب كان يصدر عن ذلك الاله القديم ؟

صاح كيريلوف يقول خارجاً عن طوره :

— هأنت ذا أخيراً فهمت ! الفهم اذن ممكن ، ما دام واحد مثلك قد فهم • هل تدرك الآن أن سلامة الجميع انما تكون بالبرهان على هذه الفكرة للجميع ؟ ومن الذى سيرهن عليها ؟ أنا ! اتنى لا أتصور كيف يستطيع ملحدٌ يعلم أن الله غير موجود ، كيف يستطيع أن لا يتحجر فوراً • لأن يدرك المرء عدم وجود الله ، ثم لا يدرك فى الوقت نفسه أنه هو الله ، فذلك استحالة ، والا وجب على المرء أن يتحجر • اذا كنت تشعر بذلك فأنت ملك ، ولن تتحجر ، بل ستعيش فى المجد • واحد لا بد حتماً

أن ينتحر أول من ينتحر • والا فمن عسى يبدأ وبرهن ؟ اننى أنا الذى سأنتحر لأبدأ وأبرهن • لست بعدُ الهأُ الا بالرغم منى ، وأنا سقى لأننى « مضطر » أن أنادى بارادتى الخاصة • جميع الناس أشقياء لأنهم يخافون أن يادوا بارادتهم • كان الانسان دائماً حتى الآن فقيراً وشقياً ، لأنه كان يخشى أن يحقق الصورة القصوى لارادته • كان لا يستعمل ارادته الا خفيةً وسراً ، كتلميذ فى مدرسة • اننى بائس بؤساً رهيباً لأننى خائف خوفاً فظيماً • الخوف لئمة الانسان ... لكننى سأنادى بارادتى ! أنا مضطر أن أؤمن بأننى لا أؤمن • سأبدأ ، وسأنهى • سأفتح الباب • وسأقذ • ذلك وحده سينقذ جميع البشر ، وسيدلهم تبديلاً جسيماً من الجيل المقبل • اذ ما ظل الانسان فى حالته الجسمية الراهنة - ولقد فكرت فى هذا ملياً - فسيستحيل عليه استحالةً مطلقة أن يستغنى عن الاله القديم • لقد ظلمت أسمى ثلاث سنين الى صفة ألوهيتى ، حتى وجدتُها : ان صفة ألوهيتى هى حرية ارادتى ! ذلك كل شيء ! فبفضل ارادتى انما يمكن أن تنجلي الصورة القصوى لعدم خضوعى ، ولحرىتى الجديدة ، حرىتى الرهية • ذلك انها رهية • اننى أنتحر لأبرهن على عدم خضوعى وعلى حرىتى الجديدة •

كان وجهه شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت نظرتُه ثقيلة • كان يبدو أنه يعانى حمى • خيَّل الى بطرس ستيفانوفتش أنه سيقع على الأرض • هتف كيريلوف يقول فجأةً بوحى مباغت :

– أعطنى الريشة ! آمَلْ علىَّ ما شئت ، وسأوقِّع على أننى قتلت شاتوف • آمَلْ علىَّ ما دام هذا يسلينى حتى الآن • لا أخشى ما قد يقوله العبيد المتطرسون • لسوف ترى بنفسك أن كل ما كان خافياً سيُعلم • وستسحق أنت ... أظن ! أظن !

انتهر بطرس ستيفانوفتش اللحظة المواتية مرتعشاً من فرحه بالنجاح،

فنهض بوثبة واحدة ، وأسرع يضع الحبر والورق أمام كيريلوف فوراً ،
وأخذ يملأ عليه :

« أصرّح أنا ألكسى كيريلوف » •

— قف ! لا أريد ! لمن أصرّح ؟

كان كيريلوف يرتعش كأن به حمى • ان هذا التصريح والفكرة
التي أوحاها اليه فجأة ، يستغرقان كل انتباهه ويفتحان مخرجاً موقناً لنفسه
المرهقة التي أسرع تدفع فيه فوراً •

— لمن أصرّح ؟ أريد أن أعرف لمن أصرح !

— لا تصرّح لأحد ، بل للجميع ، لأول من سيقرأ • لماذا التحديد ؟

هل تريد أن تصرّح للعالم كله ؟

— للعالم كله ؟ مرحى ! وبدون أى ندم ! لا أريد ندماً ! لا أريد

أن أخطب السلطات •

— لا ! فلتذهب السلطات الى جهنم ! هيّا اكتب اذا كنت جاداً !

كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش ، نائراً الأعصاب •

— انتظر • أريد أن أرسم فى أعلى الصفحة فماً ماداً لسانه •

— سخافة ! لا داعى الى الرسم • يمكن التعبير عن كل شىء باللهجة

وحدها •

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يكاد يستطيع كظم غيظه •

قال كيريلوف :

— باللهجة ؟ حسن جداً • نعم ، باللهجة ، باللهجة • أمثل على

اللهجة !

أخذ بطرس ستيفانوفتش يملأ عليه بصوت ثابت صارم ، مائلاً على

كتف صاحبه ، متابعاً بانتباه شديد كل حرف من الأحرف التي كان

كيريلوف يرسمها بيد مرتعشة من الانفعال :

« أصرّح أنا ألكسى كيريلوف ، بأننى فى هذا ... من شهر
تشرين الأول (أكتوبر) ، عند الساعة الثامنة مساءً ، قد قتلنا الطالب
ساتوف فى الحديقة ، بسبب خيائته ووشائته عن المنشورات التحريضية
وعن فدكا التى أقام عندنا بعمارة فيلييوف عشرة أيام . وائنى انتحر الآن
بطلقة مسدس لا لأن ضميرى يعذبنى ، أو لأننى خائف منكم ، بل لأننى
قد وضعت مشروع الانتحار هذا منذ كنت فى خارج البلاد . »
سأله كيريلوف مدهوشاً مستاءً :

— أفهذا كل شىء ؟

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يحاول أن ينتزع منه الرسالة :

— لا تزد كلمة واحدة !

هتف كيريلوف يقول :

— فف !

ووضع يده على الورقة . واستطرد :

— ما هذا السخف ! أحب أن أقول مع من قتلنا . لماذا فدكا ؟

والحريق ؟ أريد أن أقول كل شىء ، وأن أشتهم فوق ذلك ! اللهجة !
اللهجة !

قال بطرس ستيفانوفتش متوسلاً الى صاحبه ، خائفاً أن يمزق

كيريلوف الورقة :

— هذا كاف يا كيريلوف . أوكد لك أن هذا يكفى ! من أجل أن

يصدّقوك يجب أن يكون كلامك أغمض ما يمكن ، يجب أن لا يشمل
الا على اشارات . يجب أن لا تبدى الا طرفاً من الحقيقة ، طرفاً صغيراً
هو القدر اللازم لجذبهم واغرائهم . مهما نقل نحن ، فلسوف يكذبون هم
أكثر منا ، ولسوف يصدّقون طبعاً ما يكونون قد لفّقوه أكثر مما يصدّقون

ما نلّفقه نحن ، وهذا أفضل • أعطني الورقة • هي هكذا كاملة • هيّا !
أعطنيها !

كان بطرس ستيفانوفتش يحاول أن يستولى على الرسالة • وكان
كيريلوف يصغى اليه محمّل المنيّن ، وكأنه يبذل جهداً من أجل أن
يفهم ، ولكن كان واضحاً أنه أصبح لا يفهم شيئاً •

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً على حين فجأة :
- ما هذا يا رب ! لم بوقع حتى الآن • ما بالك تحمّل هكذا ؟
هلاًّ وقّعت !

فدمدم كيريلوف يقول :

- أريد أن أشتهم ...

- اكتب : عانت الجمهورية ! هذا كاف •

فاقتن كيريلوف بهذا الاقتراح أعظم الافتّان ، وزأر يقول :

- أحسنت ! « غاشت الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية الشاملة

أو الموت ! ، لا ، لا ، لا هكذا ! بل : « حرية ، مساواة ، أخوة ؛ أو

الموت ! » • هذا أفضل ! هذا أفضل كثيراً •

وبلذة واضحة كتب تلك الجملة تحت توقيعه •

كرر بطرس ستيفانوفتش يقول :

- كفى ! كفى !

- انتظر قليلاً أيضاً ! اسمع ، أريد أن أوقع مرة أخرى باللفة

الفرنسية « من كيريلوف ، السيد الروسي ، المواطن في العالم » •
ها ها ها ! بل انتظر ، وجدت ما هو أفضل من ذلك أيضاً ! أوريكا !

« طالب روسي ، مواطن في العالم المتمدّن » • عظيم !

ووثب عن الديوان ، وتناول مسدسه الموضوع على النافذة بحركة

سريعة ، وهرع الى الغرفة المجاورة وأغلقها وراءه بالمفتاح • لبث بطرس

ستيفانوفتش لحظةً حالمًا ، متجهًا ببصره الى الباب • وخاطب نفسه قائلاً :
 « اذا عزم أمره فوراً فقد ينتحر ، أما اذا أخذ يفكر فلن يحدث شيء ! » •
 وبانتظار ما سيقع ، تناول الرسالة وجلس وأعاد قراءتها ، فأعجبته
 كثيراً • وجعل يحدث نفسه قائلاً :

« ما الذى نحن فى حاجة اليه جملة ؟ نحن فى حاجة الى أن
 نشوشهم فترةً من الوقت ، وأن ندفعهم فى طريق خطأ • الحقيقة ؟
 لا حقيقة هنا ، وسينتهون اذن الى ادراك أن الحقيقة المقصودة فى هذه
 الرسالة انما هى حقيقة سكفورشنيكى • ولكن يكون قد انقضى بعض
 الوقت قبل أن توافيهم هذه الفكرة • وبعد ذلك يستغرق البحث فى الحقيقة
 وقتاً آخر • فاذا اكتشفوا الجثة أخيراً ، أدركوا أن الرسالة كانت صادقة
 فيما قالته ، ولا بد أن يكون سائر ما قالته صادقا ، ومنه قصة فدكا • ولكن
 ما فدكا ؟ ان فدكا هو الحريق الذى أُشعل ، وليادكين الذى قتل • كل
 شيء اذن قد صدر عن هنا ، عن عمارة فيلييوف • بينما هم لم يروا شيئاً
 ولا خطر بالهم شيء ! لسوف يفقدون صوابهم حقاً • ولن يدور فى خلدكم
 أن يكون « لأصحابنا » شأن فى هذه الأمور كلها • سوف يدورون حول
 شاتوف وكيريلوف وفدكا وليادكين • ولكن علام هؤلاء القتل جميعاً ؟
 ذلك سر سيظل يصعب عليهم أن يجدوا حلاً له ! • • • غريب • • • ما باله
 لم يطلق على نفسه النار حتى الآن ! • • • » •

كان بطرس ستيفانوفتش يقرأ النص الذى أملاه ويعجب به ، ومع
 ذلك كان يصيح بسمعه شاعراً بقلق يعذبه تعذيباً شديداً • واعتزته نوبة
 حنق مسعور على حين فجأة • ونظر فى ساعته : كان الوقت قد تقدم كثيراً •
 ان كيريلوف قد حبس نفسه فى الغرفة المجاورة منذ أكثر من عشر دقائق •
 تناول بطرس ستيفانوفتش الشمعدان واقترب من الباب • وخطر بباله فى
 تلك اللحظة نفسها أن الشمعة ستكون قد ذابت كلها بعد عشرين دقيقة ،

وأنه لا يملك شمعة أخرى غيرها • وضع يده على قبضة الباب ، ومدّ أذنه : لم يسمع شيئاً • وفجأة فتح الباب ورفع الشمعة ، غير أن شيئاً ما قد وثب عليه معولاً • فأسرع بعيد اغلاق الباب ، واستند اليه بكل ثقله • لم يعد يُسمع شيء • صمت كصمت الموت •

لبث بطرس ستيفانوفتش مدة طويلة واقفاً ، متحيراً ، والشمعة بيده • انه حين فتح الباب لم يستطع أن يميز شيئاً كثيراً • ولكنه لمح كيريلوف في آخر القاعة بسرعة كومض البرق ، لمح واقفاً قرب النافذة ، وأدهشه كثيراً ونوب المهندس عليه ذلك الوثوب الذي يعبر عن حنق حيواني وحشي • ارتعش بطرس ستيفانوفتش ، ووضع الشمعة على المائدة ، ورفع ديك المسدس ، ومضى بخطى كخطى الذئب تترص في آخر الغرفة : هكذا يكون لديه متسع من الوقت لأن بصوب ويشد الزناد قبل كيريلوف ، اذا فتح كيريلوف الباب وهجم عليه •

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يصدّق أن كيريلوف سوف ينتحر • كان يحدث نفسه قائلاً : « انه واقف في وسط الغرفة يفكر • في وسط غرفته المظلمة المشحومة • • • ولقد وثب الى أمام وهو يزأر • • • هناك احتمالان : فاما اننى أزعجه في اللحظة التي همّ أن يضغط فيها زناد مسدسه لينتحر • واما انه يتساءل ما السبيل الى قتلى • نعم ، هذا هو الأمر • انه يفكر • هو يعلم أنه اذا جبن عن الانتحار ، فلن أنصرف أنا قبل أن أقتله • اذن يجب عليه أن يقتلني حتى لا أقتله • وهذا الصمت المستمر ! • • • أنكى ما في الأمر أنه يؤمن بالله ، بل انه يؤمن بالله أكثر مما يؤمن بالله كاهن من الكهان • • • لا لن ينتحر ! ما أكثرهم الآن ، هؤلاء « الشاذين » ! وغد ! سافل ! ولكن الشمعة ! الشمعة ! بعد ربع ساعة ستكون قد ذابت حتماً • • • يجب انهاء الموضوع • يجب انهاء الموضوع مهما كلف الأمر • • • ثم اننى أستطيع أن أقتله الآن • الآن

وقد وقّع الرسالة ابن يظن أحد اننى أنا القاتل : يمكننى أن أضع البجّة
وضعاً يوهم بأنه انتحر انتحاراً • سأضع المسدس فارغاً فى يده •••
ولكن كيف أقتله ؟ اذا فتحت الباب هجم على مرة أخرى وأطلق قبل أن
أطلق ••• نعم ، ولكنه لن يصينى • هذا مؤكد • • •

هكذا كان بطرس ستيفانوفتش يترجع متخطّطاً بين ضرورة المبادرة
وبين التردد عن العمل ، وهو يرتعش من نفاد الصبر • وأخيراً تنساول
الشمعة واقترّب من الباب جاعلاً مسدسه أمامه • وحاول باليد اليسرى
التي تحمل الشمعدان أن يمسك قبضة الباب وأن يديرها بغير صوت ،
ولكن قبضة الباب صرّت صريراً مسموعاً • فسرعان ما قال بطرس
ستيفانوفتش لنفسه : « سوف يطلق النار » • ودفع الباب بضربة قوية من
قدمه ورفع الشمعدان وصوّب المسدس • لا صرخة ، ولا انفجار • الغرفة
خالية •

ارتعش بطرس ستيفانوفتش • لم يكن للغرفة الا باب واحد هو
الباب الذى دخل منه • لم يهرب اذن كيريلوف • رفع بطرس ستيفانوفتش
الشمعة الى أعلى ، وُجال ببصره على الغرفة : لم ير أحداً • نادى كيريلوف ،
بصوت خافت أولاً ، ثم بصوت قوى • لا جواب •

« أياكون قد هرب من النافذة ؟ » •

وكانت الكوة مفتوحة • « سخف • لايمكنه أن يهرب من الكوة ••• »
مضى بطرس ستيفانوفتش الى النافذة رأساً • « لا ، مستحيل » • وفجأة
التفت بحركة قوية ، وجمد فى مكانه •

عند الجدار المقابل ، توجد خزانة على يمين الباب • وعلى يمين هذه
الخزانة ، فى الزاوية التى تتشكل من التقائها بالجدار ، كان كيريلوف
واقفاً على وضع غريب كل الغرابة : فهو جامد ، ساكن ، مسبلٌ يديه على
طول جذعه ، قائم الرأس ، ملتصق الظهر بالجدار ، يبدو كأنه يريد أن

بمّحى ، وأن يختفى أكبر اختفاء ممكن • كان يريد قطعاً أن يتقى نظرة بطرس ستيفانوفتش • أمر يصعب تصديقه • وكان بطرس ستيفانوفتش ، من المكان الذى هو فيه ، لا يرى الا الأجزاء البارزة من هذه القامة ، ولا بجروء أن يقترب ليرى كيريلوف رؤية أوضح ، وليلحظ اللغز ويكشف السر • ان قلبه يخفق خفقاناً ثقيلاً • وفجأة ، استولى عليه حنق مجنون : فها هو ذا يصرخ صراخاً شديداً ، ويضرب بقدميه الأرض ، ويهجم على كيريلوف •

ولكن حين صار على مقربه منه ، حتى كاد يلمسه ، توقف بفته وقد استبد به ارتياح • ان الشيء الذى شدهه خاصة هو أنه رغم صرخاته ووثوبه المسعور ، ظل الرجل ساكناً سكناً مطلقاً ، لا يختلج اختلاجة واحدة ، فكأنه تمنال من صخر أو لعبة من شمع • وكان وجهه مصطبغاً بصفرة غريبة ، وكانت عيناه السوداوان تحدقان ثابتتين الى نقطة فى الفضاء أمامه • خفض بطرس ستيفانوفتش الشمعدان ورفع ، فأثار بذلك جميع أجزاء ذلك الوجه المتجمد • ولاحظ على حين فجأة أن كيريلوف ، رغم تحديقه الثابت الى أمام ، كان ينظر اليه بطرف عينه ، ولعله كان يرصده • فخطر بباله عندئذ أن يقرّب الشمعة من وجه « ذلك السافل » ، فيحرقه ليرى ما عساه يفعل • ولاح له فى تلك اللحظة نفسها أن ذقن كيريلوف تتحرك ، وأن ابتسامة ساخرة تلمّ بشفتيه ، كأنه قد اكتشف غرضه • فجئن جنون بطرس ستيفانوفتش خوفاً وغضباً وأمسك كيريلوف من كتفه •

ان ما حدث بعد ذلك قد بلغ من الهول والسرعة أن بطرس ستيفانوفتش لم يستطع بعد ذلك فى يوم من الأيام أن يتذكر تسلسل الحوادث على وجه الدقة • انه ما ان أمسك كيريلوف حتى خفض كيريلوف جسمه بفته ، ثم اذا هو بضربة من رأسه يسقط الشمعة على

الأرض • لقد تدرج الشمعدان بضجه قوية ، وانطفأت الشمعة • وفي تلك اللحظة نفسها أحس بطرس ستيفانوفتش بألم شديد في خصر يده اليسرى • فصرخ صرخة طويلة • لقد تذكر فيما بعد أنه وقد فقد صوابه تماماً ، قد ضرب جمجمة كيريلوف بأخمص المسدس ثلاث ضربات ، فكان كيريلوف ما يزال يعص أصبعه • واستطاع بطرس ستيفانوفتش أخيراً أن بحمله على ارجاء أصبعه ، وهرع يخرج من الغرفة متلمساً طريقه في الظلمات ، بينما كانت تلاحقه صرخات رهيبه تكررت عشر مرات :

– فوراً ! فوراً ! فوراً ! ...

ولكن بطرس ستيفانوفتش ظل يركض ، وحين دوت طلقة المسدس كان قد وصل هو الى الدهليز • فلما سمع دوى الرصاص توقف ، ولبت ساكناً بضغ دقائق ، يفكر فيما يجب عليه أن يفعله • وأخيراً قرر أن يعود الى الغرفة التي كان فيها كيريلوف • كان عليه قبل كل شيء أن يعثر على الشمعة التي أسقطها كيريلوف من يديه ، والتي لا بد أنها ملقاة على يمين الخزانة • ولكن كيف يشعلها ؟ وهذه صورة غمضة تعود الى ذهابه بالأمس ، حين ركض الى المطبخ حيث كان فدكا يأكل ، فدلمح في أغلب الظن عليه كبريت فوق لوح كبير من خشب أحمر • فهاهو ذا يتجه الآن الى باب المطبخ نلماً ، فيفتحه ، ويتبع الممر الصغير ، ويهبط الدرجات الثلاث ، ويمد يده الى ذلك الموضع نفسه من لوح الخشب ، فاذا هو يقع على عليه كبريت ملأى فعلاً ، فيأخذها ، ويعود صاعداً الى فوق ، في الظلام أيضاً • حتى اذا صار قريباً من الخزانة ، حيث ضرب كيريلوف بأخمص مسدسه ، تذكر أصبعه المعضوضه فجأة ، تذكرها حينئذ فقط • وفي تلك اللحظة نفسها أحس بألم لا يكاد يُطاق • فكز أسنانه ، وأشعل الشمعة ، وأعادها الى الشمعدان ، وألقى على ما حوله نظرة دائره : كان جثمان كيريلوف راقداً على الأرض ، قرب النافذة المفتوحة كوثها ، متجه

القدمين نحو الزاوية القائمة من الغرفة • ان الرصاصة التي انطلقت من المسدس فى الصدغ الأيمن قد خرجت من الجهة اليسرى نحو أعلى الجمجمة ، فبذلك اخترقت الرأس من طرف الى طرف • وهذه الطلعات من الدم والدماغ قد انتشرت هنا وهناك • وكان المنتحر ما يزال ممسكاً سلاحه بيده • لا بد أنه قد مات على الفور •

فحص بطرس ستيفانوفتش كل شىء بعناية ، ثم نهض وخرج ماشياً على رموس الأصابع • وأغلق الباب وراءه • ووضع الشمعدان على المائدة فى الغرفة الأولى ، وفكر لحظةً ، فقرر وأن لا يطفىء الشمعة ، اذ قال لنفسه انها لا يمكن أن تسبب حريقاً • وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الرسالة التي كانت موضوعة فى مكان بارز ، ابتسم على غير ارادة منه ، وترك الجناح سائراً على رموس الأصابع أيضاً ، لا ندرى لماذا !

حتى اذا تسلل الى الخارج من الممر الذى كان يسلكه فدكا ، حرص على أن يسده وراءه بعناية واهتمام •

٣

فى الساعة السادسة الا عشر دقائق تماما ، كان بطرس ستيفانوفتش واركل يذهبان ويحيّتان على رصيف المحطة أمام صفٍ طويل من حافلات القطار السريع • ان بطرس ستيفانوفتش مسافر ، وقد رافقه اركل مودعاً • كانت الأمتعة قد سُجِّلَتْ ، وكانت حقيبة السفر قد وُضعت على مقعد فى احدى حجرات الدرجة الثانية ايذاناً بأن المكان محجوز • وقد انطلقت الاشارة الأولى التي تؤذن برحيل القطار ، فالمسافرون ينتظرون الآن قرع الجرس بالاشارة الثانية • وكان بطرس ستيفانوفتش ينظر يميناً ويسرةً لا يحاول أن يختبئ عن الأبصار ، وكان يلاحظ الناس الذين يدخلون

حافلات القطار ، باتباه شديد • ولكنه لم ير أى صديق ، ولم يُنَج له أن يحيى بحركة من الرأس الا تاجرا كان يعرفه معرفة غامضة ، وكاهناً شاباً كان ذاهباً الى أبرشيته التى تبعد عن المدينة محطتين •

واضح أن اركل كان بود فى هذه المحطات الأخيرة لو يتكلم فى أمور هامة ، رغم أنه ربما كان لا يعلم على وجه الدقة ما الذى يود لو يتكلم فيه ، ولكنه لا يجرؤ أن يكون هو البادئ بالكلام • وكان يبدو له أن بطرس ستيفانوفتش قد ضاف ذرعاً بوجوده ، وأنه ينتظر انطلاق الاشارة النايه من الجرس مؤذنة بتحريك القطار •

قال اركل على خجل ووجل ، وكأنه يريد أن ينبّه بطرس ستيفانوفتش الى خطر ما :

– انك تنظر الى الناس بطلاقة وحرية •••

– لم لا ؟ ما المانع ؟ لا ينبغي لى بعدُ أن أختبئ • لم يحن الأوان بعد • اطمئن • كل ما أخشاه هو أن يرسل الشيطان الينا ليوتين : انه اذا سمع شيئاً فسيهرع الينا فوراً •

قال اركل وقد عزم أمره آخر الأمر على أن يتكلم جاداً :

– بطرس ستيفانوفتش ، انهم ليسوا بمضمونين •

– من ؟ ليوتين ؟

– هو والآخرون •

– سخف ! بعد الذى جرى أمس ، أصبحت قابضاً على زمامهم جميعاً • لا أحد منهم سيخون • لا بد أن يفقد واحدهم عقله حتى يخاطر هذه المخاطرة •

– بطرس ستيفانوفتش ، سيفقدون عقولهم •

لعل هذه الفكرة قد سبق أن خامرت فكر بطرس ستيفانوفتش ،
لذلك أزعجته ملاحظة اركل مزيداً من الازعاج •

- أترك خائفا أنت أيضا يا اركل ؟ اننى أعتمد عليك أكثر من
اعتمادى على جميع الآخرين • أنا أعرف الآن ما قيمة كل واحد منهم ،
اننى أعهد بهم اليك ، فأطلبهم على ما حدث ، بل اذهب اليهم فى هذا
الصباح نفسه • أما تعليماتى المكتوبة فاقراها عليهم غدا أو بعد غد حين
يكونون قد ثابوا الى أنفسهم وعاد اليهم رشدهم ••• ولكن ثق أنهم
سيكونون ، حتى منذ الغد ، قادرين على أن يسمعوها وأن يفهموها • ذلك
أنهم خائفون خوفا رهيبا ، وسيصبحون كالشمع ليونة ! ••• أنت خاصة
لا تفقدن شجاعتك •

- آه يا بطرس ستيفانوفتش ، الأفضل أن لا تسافر !

- ولكننى لن أغيب الا عدة أيام • سأعود قريبا •

قال اركل بحذر ولكن بلهجة ثابتة :

- بطرس ستيفانوفتش • هبك ذهبت حتى الى بطرسبرج •••
أتظن أننى لا أدرك أنك انما تعمل فى سبيل « القضية » وحدها ؟

- لم أكن أنتظر منك أقل من هذا يا اركل • اذا كنت قد حزرت
اننى مسافر الى بطرسبرج ، فلا بد أنك أدركت أيضا أمس أننى لم أكن
أستطيع ، فى مثل تلك اللحظة ، أن أقول لهم اننى مسافر الى بعيد ، وذلك
حتى لا أفرعهم • لقد رأيت بنفسك صنف هؤلاء الناس • ولكنك تدرك
اننى مسافر لأمر خطير ، خطير أقصى الخطورة ، أمر يعنينا جميعا ويتعلق
بنا جميعا ، ولا أسافر هربا كما يفترض شخص مثل ليوتين •

- بطرس ستيفانوفتش ، هبك سافرت حتى الى الخارج ، فلسوف
أفهم ذلك • أنا أدرك أن المفروض فيك والمطلوب منك أن تكون حذرا ،

حريصا على شخصك ، لأنك أنت كل شيء ، أما نحن فلسنا شيئا . اننى أفهم يا بطرس ستيفانوفتش .

وكان صوت الشاب المسكين يتهدج ويختلج .

- شكراً يا اركل ! آى ... لقد لمست خنصرى المريضة ...

كان اركل قد صافح بطرس ستيفانوفتش بخراقة ، فلمس اصبعه الجريحة المضمدة بضماد من قماش التافتاء الأسود .

وأردف بطرس ستيفانوفتش يقول :

- أكرر لك مرةً أخرى اننى لا أسافر الى بطرسبرج الا التماساً للأخبار . وقد لا أمكث فيها الا أربعاً وعشرين ساعة أعود بعدها الى هنا ومن أجل أن أحوّل عنى الشبهات سوف أقيم فى الريف ، عند جاجانوف . اذا تخيلوا أنهم معرّضون لخطر فسأضع نفسى فى مقدمتهم ، فأكون أول من يصاب . على كل حال ، اذا أطلت اقامتى ببطرسبرج ، فسأعلمك فوراً ... بالطريقة التى تعرفها ... فتتولى أنت ابلاغهم .

وانطلقت الاشارة الثانية التى تؤذن بتحريك القطار بعد قليل .

- لم يبق لنا الا خمس دقائق . اسمع . اننى لا أريد أن تتفرق الحلقة التى هنا وأن تبشر . لا لأننى خائف ... فلا تخش على شيئا . ان حلقات شبكتنا كثيرة ، ولست أحرص على هذه حرصا خاصا . ولكنها تزيد حلقات الشبكة حلقةً على كل حال . ثم اننى أعلم أن فى وسعى أن أعتد عليك ، رغم اننى أتركك هنا وحيدا فى وسط هؤلاء الحمقى الأغبياء . لا تخش شيئا . لن يخونوا ، لن يجسروا أن يخونوا ...

هنا رأى بطرس ستيفانوفتش فتى كان مقبلاً عليه بفرح ، فصاح

بطرس يسأله بصوت مرح ، صوت يختلف كل الاختلاف عن صوته في حديثه مع اركل :

- آ ... أأنت مسافر اليوم ؟ أتركب القطار السريع ؟ لم آكن أعرف ذلك • الى أين أنت ذاهب ؟ الى عند امك ؟
- لا بل اننى ذاهب الى أبعد من ذلك ، الى « ر ... » • ثماني ساعات فى القطار ! وأنت ؟ الى بطرسبرج ؟

كذلك سأله الفتى ضاحكاً . فأجابه بطرس ستيغافوفتش وهو يضحك ضحكاً صريحاً طلقاً :

- لماذا تفترض اننى مسافر الى بطرسبرج ؟
فرفع الفتى له اصبعه مهدداً • وكان الفتى يلبس قفازين •
وتابع بطرس ستيغافوفتش كلامه فقال خافضاً صوته خفضاً يحمل معنى السر :

- نعم • حزرت • أنا مسافر الى بطرسبرج ومعى رسائل من جوليا ميخائيلوفنا • يجب علىّ أن أرى ثلاث شخصيات أو أربعا ... بصراحة :
شیطان يأخذهم ! يا لها من مهنة لعينة كريهة !
فسأله الفتى هامساً :

- ولكن قل لى : لماذا دب الذعر فى نفسها فجأة ؟ لقد رفضت حتى استقبالى أمس • وفى رأيى أنها يجب أن لا تقلق على زوجها • ليس هناك ما يوجب القلق • بالعكس : لقد وثب وثبة رائعة أثناء الحريق • جازف بحياته تقريباً •

عاد بطرس ستيغافوفتش يضحك وقال :
- ومع ذلك ... المسألة هى أنها تخشى أن يكون أحد قد كتب من

هنا ... هناك أشخاص تشبّه فيهم • ثم هناك ستافروجين خاصة ، أو قل الكونت « ك » ... • هذه قصة طويلة ... قد أروى لك طرفاً منها أثناء الطريق ... إذا سمحت لي بذلك مشاعر الفروسية طبعاً ! ... أعرفك بالضابط اركل • هو قريب لي •

لم يكن الفتى قد انقطع عن التفرس في اركل بطرف عينيه • فلما عرفه به بطرس ستيفانوفتش وضع يده على قبعته محيياً ، فردّ اركل التحيّة •

- هل تعلم يا فرخوفنسكى أن قضاء ثمانى ساعات في القطار أمر فظيع ؟ عندنا هنا ، في الدرجة الأولى من القطار ، الكولونيل بيرستوف ؟ رجل مسل جداً ، هو جارى في الريف • لقد تزوج فتاة اسم أسرتها جارين • فتاة لائقة جداً • حتى ان عنده أفكاراً ... لقد قضى هنا يومين ، انه يعشق لعب الورق عشقاً جنونياً (الويست) فما رأيك في أن ننظم لعبة « ويست » ؟ هه ؟ هناك شخص رابع يمكن أن يشاركنا اللعب : انه بريوخلوف ، تاجر من « ت » ... ، له لحية طويلة ، مليونير ، ، مليونير فعلاً ... أنا أقول لك ذلك ... سأعرفك به • كيس دنانير ، مسل جداً ! سنضحك كثيراً !

- يحلو لي كثيراً أن أَلعب «الويست» ، ولا سيما في القطار ، لكننى راكب في الدرجة الثانية !

- لا قيمة لهذا ! تعال الى حجرتنا • سأنبئ رئيس القطار • انه يطعننى بدون أن يقول كلمة واحدة • ماذا معك ؟ حقيّة سفر ؟ غطاء ؟

- هيّا بنا ! نذهب الى هناك •

تناول بطرس ستيفانوفتش حقيته وغطاءه وكتابه بمساعدة اركل ،

ومضى يستقر فى الدرجة الأولى ، راضيا عن هذا التغير كل الرضى ،
سعيدا به كل السعادة •

ورنَّ جرس المحطة مرة ثالثة • فقال بطرس ستيفانوفتش يخاطب
اركل منشغلاً أشد الانشغال ، ماداً يده الى الضابط من خلال الباب :

- طيب يا اركل • هانت ذا ترى أن علىَّ أن ألعب بالورق معهم •

- لا داعى الى أن تشرح لى يا بطرس ستيفانوفتش • انتى أفهم حق
الفهم يا بطرس ستيفانوفتش ، أفهم كل شىء •

- طابت أيامك ! ...

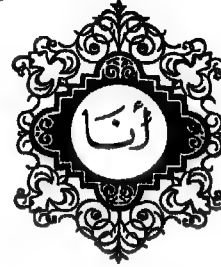
فال بطرس ستيفانوفتش ذلك مودّعاً اركل ، والتفت على حين فجأة
يستجيب لنداء الفتى الذى كان يريد أن يعرفه بصاحبيه • ولم ير اركل
صاحبه بطرس ستيفانوفتش بعد ذلك قط •

رجع الى بيته حزينا كل الحزن • ليس رحيل بطرس ستيفانوفتش
بغثة هو الذى يبت الاضطراب فى نفسه ، لا ... ولكن ... ولكن
بطرس ستيفانوفتش قد تحول عنه بسرعة كبيرة استجابة لنداء هذا الفتى
الأنيق ... ثم ... ثم لقد كان فى وسعه أن يقول له فى وداعه شيئاً آخر
غير هذا التعبير « طابت أيامك » ، أو أن يصفحه مصافحة أقوى على
الأقل •

ان تلك المصافحة التى تشتمل على قلة الاكتراث هى التى تحدث
أكبر ألم • غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً قد بدأ يعذب قلبه الصغير ، شيئاً
كان هو نفسه لا يفهمه ، شيئاً له علاقة بالليلة البارحة •

الفصل السابع

آخر رحلة السيفان تروفيموفتش



وائق بأن ستيفان تروفيموفتش كان يزداد خوفاً كلما اقتربت ساعة تنفيذ مشروعه الجنوني . أنا وائق بأنه تألم كثيراً ، ولا سيما عشية رحيله ، أثناء الليلة الرهيبة التي شب فيها الحريق . لقد روت ناستاسيا فيما بعد أنه اضطلع في سريره متأخراً ونام . ولكن هذا لا يدل على شيء : ألا يروى عن المحكوم عليهم بالاعدام أنهم ينامون نوما عميقاً عشية تنفيذ الحكم فيهم ؟ ورغم أن ستيفان تروفيموفتش قد غادر مسكنه في الفجر ، أى حين يكون الناس العصبيون في حالة من فرط الاحتياج عادةً (تذكرون أن الميجر ، قريب فرجنسكى ، كان يكف عن الإيمان بالله متى طلع النهار) ، فأنا وائق بأنه ما كان له في يوم من الأيام قبل الآن أن يتصور بغير جزع أنه سيمضى وحيداً في الطرقي ، وسيجد نفسه في مثل هذه الحال . ولكن يجب أن نفترض أن الكرب الشديد قد بثّ في نفسه شعاعة ، وأضعف - في البداية - فطاعة ذلك الاحساس بالوحدة الكاملة الذي غزاه فجأة منذ ترك « ستازى » وبارح العش الدافئ الذي عاش فيه عشرين عاماً . ومهما يكن من أمر ، فإن ستيفان تروفيموفتش ما كان له إلا أن يرحل ، ولو أحس احساساً واضحاً بكل ما كان ينتظره . لقد كان في هذه الرحلة نوع من بطولة يثير حماسه

رغم كل شيء • كان يمكنه طبعاً أن يقبل الشروط الرائعة التي وضعتها له فرفاراً بتروفاً ، وأن يرتضى آلاها « كرجل عامي » طفيلي ، ولكنه رفض تلك الصدقة ورحل • فيها هو ذا الآن يترك كل شيء ، ويرفع « راية الفكرة العظيمة » عالية كل العلو ، الفكرة العظيمة التي سيموت من أجلها في الطريق العام ! ••• لا بد أن حالته النفسية كانت هي هذه • ولا بد أن مشروعه قد بدا له في هذه الصورة •

ولقد أُلقيت على نفسي مراراً كثيرة هذا السؤال الآخر أيضاً : لماذا رحل ماشياً ؟ لماذا لم يركب عربة ؟ وأجبت نفسي عن ذلك السؤال في أول الأمر بأن هذا يرجع الى ما عُرف في الرجل من ضعف الحس العملي ، والى ما كان عليه من اضطراب فكري بتأثير العاطفة العنيفة التي كانت تسيطر عليه آنذاك • لقد تراءى لي أن الحصول على جواز طريق واكتراء عربة (ولو كانت ذات جرس) كانا يبدوان له أمرين مبتذلين عاميين • فالأجمل والأوقع في النفس أن يسافر ماشياً مشى الحاج (ولو كان هذا الحاج مزوداً بمظلة) ، ولا بد أن يكون لهذه البادرة شأن أكبر في نفس فرفاراً بتروفاً • أما اليوم ، بعد أن انتهى كل شيء ، فأنسى أتصور أن الأمور جرت مجرى أبسط من هذا : لقد كان يخشى أن يكتري عربة لأن فرفاراً بتروفاً قد تعلم الأمر فتمنعه من السفر بالقوة (لا شك أنها كانت ستفعل ذلك) ، ويخضع هو ، فأين تصير « الفكرة العظيمة » حينذاك ؟ هذا عن اكتراء العربة ، وأما عن جواز الطريق ، فمن الواضح أنه لكي يحصل المسافر على جواز طريق يجب أن يعرف الى أين هو مسافر • ولم تكن تلك حال ستيفان تروفيموفتش • حتى ان هذا بعينه هو ما يعذبه في هذه الساعة أكثر من أي شيء آخر : لقد استحال عليه استحالة مطلقة أن يعزم أمره على تحديد مكان من الأمكنة • ذلك أنه لو اختار هذه المدينة أو تلك من المدن لبدا له مشروعه على الفور

سخيلاً ومستحيلاً • انه يحس ذلك سلفاً • ما عساه فاعلاً في تلك المدينة التي يختارها ؟ لماذا يختار هذه المدينة دون سواها ؟ أبحثاً عن ذلك «التاجر» ؟ ولكن أى «تاجر» ؟ عندئذ انما كان ينبغي في ذهنه ذلك السؤال الرهيب • الواقع أنه لا شيء في نظره كان مريباً مثل « ذلك التاجر » الذي يسرع هو الى البحث عنه ويخاف أشد الخوف أن يثر عليه طبعاً • لا ، الأفضل أن يمشى في الطريق العام ، الأفضل أن يمشى دون أن يفكر في شيء ما ظل ممكناً أن لا يفكر في شيء • الطريق العام ... شيء طويل ، طويل جداً ، لا يرى المرء له نهاية ، كالحياة الإنسانية ، كالأحلام الإنسانية • الطريق العام يتضمن فكرة • أما جواز السفر في الطريق فأية فكرة يمكن أن يتضمن ؟ جواز السفر نهاية كل فكرة ... « عاش الطريق العام » ، وعلى بركة الله ...

بعد أن التقى بليرزا ذلك اللقاء غير المتوقع ، وهو اللقاء الذي سبق أن وصفته ، استأنف ستيفان تروفيموفتش مشيه وقد اتابته سورة من حماسة أشد • ان الطريق العام يبعد عن سكفورشيكي مسافة نصف فرسخ • أمر غريب : ان ستيفان تروفيموفتش لم يلاحظ في البداية أنه سلك الطريق العام • ما كان له في تلك اللحظة أن يحتمل أن يفكر تفكيراً منطقياً ، أو على الأقل أن يشعر شعوراً واضحاً بما كان يفعله • وهذا رذاذ من المطر يتساقط من حين الى حين ، ولكن ستيفان تروفيموفتش لا يفتن حتى الى هطول المطر ؛ وهو لم يفتن أيضاً الى أنه رمى كيسه وراء كفه ، وأن ذلك قد سهل مشيه كثيراً • ولعله كان قد مشى فرسخاً أو فرسخاً ونصف فرسخ ، حين توقف فجأة ونظر حوله • ان الطريق الأسود ، المحفر ، المحفوف بأشجار مائية ، يمتد أمامه الى غير نهاية • وعلى يمينه حقول عارية قد حُصدت منذ مدة طويلة • وعلى شماله حراج مقطوعة نمت على جذوع أشجارها فروع صغيرة ، ثم غابة بعد ذلك •

وهناك ، هناك فى بعيد ، خط السكة الحديدية الذى لا يكاد يرى ،
وانما يدل عليه دخان فطار لا يُسمع له صوت من شدة البعد • شعر
ستيفان تروفيموفتش بخوف ، ولكن الخوف لم يدم الا لحظة واحدة •
وتنهذ ستيفان تروفيموفتش على غير ارادة منه ، ووضع كيسه على الأرض ،
وجلس ليستريح قليلاً • وشعر برعدة تسرى فى جسمه حين جلس ،
فأحكم تلففه بمعطفه • واذا لاحظ أيضا أن المطر يهطل فتح مظلته •
ولبت جالسا على هذه الحال مدة طويلة ، وهو يحرك شفثيه من حين الى
حين ، ويمسك قبضة المظلة امساكا قويا • كانت صورة مبشرة أشد التبشر
تدور فى ذهنه وتلاحق وتتوارد بعضها وراء بعض • « ليز ، ليز ، ومعها
مافريكى ذاك ••• ما أغربهم من ناس ! ••• ولكن ما ذلك الحريق
الذى تحدثوا عنه ؟ ••• وتلك الجثث ؟ ••• أعلن أن « ستاى » لم تعلم
بشئ بعد ••• لا بد أنها ما تزال تنتظرنى مع القهوة ••• بالورق ؟ هل
حدث لى أن خسرت رجلاً أثناء اللعب بالورق ؟ هم ••• فى بلادنا ،
فى روسيا ، فى العهد الذى يقال له عهد العبودية ••• آه ••• رباه ! •••
وفدكا ؟ ••• » •

ارتعش ستيفان تروفيموفتش مرتاعا ، ونظر حوله : « ماذا اذا كان
فدكا مخبئاً هنا فى مكان ما ، وراء بعض الشجيرات مثلاً ؟ ••• يقال انهم
عصابة كاملة تهاجم المارة فى الطريق العام • آه ••• يا رب ! وأنا الذى
••• لأقولنَّ له الحقيقة كلها • سوف أقول له اننى مذنب ••• واننى
تأملت له خلال عشر سنين ، أكثر مما تألم هو حين كان جنديا ••• و •••
وسوف أعطيه محفظة نقودى • هم ! ••• « معى أربعون روبلاً • سوف
يأخذ المال ثم يقتلنى مع ذلك » (بالفرنسية) •

بهذا حدث ستيفان تروفيموفتش نفسه جزءاً ، ثم اذا هو أثناء هذا
الجزع يطوى مظلته - لا تدرى لماذا - ويضعها على الأرض الى جانبه •

وفى بعيد ، على الطريق ، ظهرت عربية • انها آتية من المدينة •
أخذ ستيفان تروفيموفتش يراقبها قلقاً بعض القلق • وجعل يحدث نفسه
قائلاً : « الحمد لله ••• هذه عربية • انها تسير بطيئة • لا يمكن أن يكون
هذا خطراً • هذه أفراس من هنا ، أفراس بليدة مسكينة ••• لظالما قلت
ان هذه السلالة من الأفراس ••• لا بل ان بطرس ايلتش هو الذى
تكلم فى النادى عن السلالة ، بينما كنت أنا أجمع الحصىلة ، ثم •••
ولكن ماذا وراء العربية ؟ ••• أظن أن فى العربية امرأة قروية ••• قروى
وقروية • هذا مطمئن • المرأة فى خلف ، والرجل فى أمام • هذا
مطمئن جدا • ووراء العربية بقرة مربوطة من قرنيها • هذا مطمئن الى
أبعد حدود الطمأنينة • » •

ووصلت العربية الى حيث كان ستيفان تروفيموفتش • انها عربية
من عربات الفلاحين ، متينة وجديدة • كانت المرأة جالسة على كيس
كبير ، وكان الفلاح راكبا فى الأمام على حافة العربية متسدى الساقين •
وكانت بقرة حمراء مربوطة من قرنيها تتبع العربية فعلاً • تأمل الرجل
وامراته ستيفان تروفيموفتش محملقين ، ونظر اليهما ستيفان تروفيموفتش
أيضا • ولكن ما ان تجاوزا عشرين خطوة حتى أسرع ينهض ليلحق
بهما • ان مجاورة العربية تبدو له مطمئنة حتما • ولكنه ما ان وصل الى
العربية حتى كان قد نسي كل شيء ، وعاد يفرق فى أحلامه • وأغلب
الظن أنه كان يتقدم فى سيره دون أن يخطر بباله أنه فى نظر الفلاح
وامراته فى هذه اللحظة أعجب وأغرب ما يمكن أن يلتقى به المرء فى
الطريق العام •

ولم تطق الفلاحة صبراً ، فسألته وهو يرفع نحوها نظرة ذاهلة :

— من أنت ، اذا جاز لى أن ألقى هذا السؤال ؟

انها امرأة في نحو السابعة والعشرين من عمرها ، ممثلة الجسم ،
سوداء الشعر ، زاهية اللون ، كانت ابتسامتها اللطيفة التي ترسم على
شفتيها الحمراوين تكشف عن صفين رائعين من الأسنان البيض •

دمدم ستيفان تروفيموفتش يسألها بدهشة أليمة :

— أتكلميني أنا ... أنا ؟

قال الفلاح بثقة :

— لا شك أنه تاجر •

هو فلاح قوى الجسم ، في نحو الأربعين من عمره ، له لحية غزيرة
تضرب الى حمرة وتحف بوجهه العريض • وما هو بالرجل القبي •

قال ستيفان تروفيموفتش مدافعا عن نفسه كيفما اتفق :

— لا ... لست تاجراً ... أنا ... أنا ... « أنا شيء آخر »

(بالفرنسية) •

وأبطأ خطوه ، فصار وراء العربدة يسير محاذيا البقرة •

عاد الفلاح يتكلم فقال بعد أن سمع كلمات أجنبية :

— لا بد أنه سيد من السادة •

وشدَّ الأزمّة •

وقالت المرأة تكمل كلامه :

— ونحن كنا نقول لأنفسنا : لعله يتنزّه •

— هل ... هل عنى تتكلمين ؟

— الأجنب يصلون عادةً بالقطار • وعدا هذا ، لا يبدو على حذاءيك

أنهما من هنا •

قال الفلاح بلهجة الوائق بنفسه أيضا :

— هذان حذاء رجل عسكري •

— لا ، لست عسكريا ، اننى •••

وحدث ستيفان تروفيموفتش نفسه منزعجا يقول : « ما أغرب هذه المرأة ! وما أعجب تفرسها فى ! ••• » على كل حال « (بالفرنسية) ••• الخلاصة : أشعر بأننى مذنب فى حقهم ، ومع ذلك لست بمذنب » •
فأخذت « المرأة » تكلم زوجها هامسة •

— اذا كان هذا لا يسوؤك ، فنحن يسرنا أن نركبك معنا •••
لا لشيء غير ارضائك •

فتاب ستيفان تروفيموفتش الى نفسه فجأة • وأسرع يقول :

— نعم نعم يا صديقى • يسرنى هذا كثيرا • لأننى متعب جدا •
ولكن كيف أتسلى اليكما •

وأضاف يحدث نفسه : « شيء غريب جدا ••• مشيت الى جانب البقرة هذه المدة الطويلة كلها ولم يخطر ببالى أن أركب عربتهما • حقاً ان « الحياة الراقية » شيء خاص جدا ••• » •

ومع ذلك لم يوقف الفلاح حصانه • وأخيراً قال يسأله بشيء من عدم الثقة :

— ولكن الى أين أنت ذاهب ؟

فلم يفهم ستيفان تروفيموفتش فورا •

— هل الى خاتوفو مثلا !

— الى خاتوف ؟ لا ••• وأنا لا أعرفه ، وان كنت قد سمعت عنه •

– خاتوفو ، خاتوفو ، هذه قرية ، قرية !

– قرية ؟ « رائع » (بالفرنسية) • أعرف هذا الاسم فعلاً ...

وظل ستيفان تروفيموفتش يمشى ، ولا يدعو أحد أن يركب •
وفجأة خطرت بباله فكرة عبقرية • قال :

– لعلكم تتخلون أننى ... ولكن معى جواز سفر ، وأنا أستاذ ،
أو قولوا ان شتتم معلم ، ولكننى معلم رئيسى ، « نعم ، هكذا يمكن أن
يُترجم عملى » • أود كثيراً لو أركب معكم ، وسوف أشتري لكم ...
سوف أشتري لكم نصف زجاجة من الخمر •

قال الفلاح :

– خمسون كوبكاً يا سيدى ... الطريق شاقة •

وقالت المرأة :

– والا كنا مغبونين •

– خمسون كوبكاً ؟ موافق على خمسين كوبكاً • و « هذا أفضل ،
ان مجموع ما معى أربعون روبلاً ، ولكن ... » (بالفرنسية) •

أوقف الفلاح الحصان ، ورُفِع ستيفان تروفيموفتش الى العربة
بجهد مشترك ، فجلس على الكيس الى جانب المرأة • وسرعان ما عاد
يغرق فى أحلامه • كان يدرك هو نفسه ، فى بعض اللحظات ، أنه مسرف
فى الذهول وأنه لا يفكر فى حاله • وكان يعجب لذلك • بل ان هذا
الاحساس بالضعف العقلى كان يؤلمه ويجرح كرامته •

قال يسأل المرأة الشابة :

– وما ذاك ... فى الخلف ؟

فقالت الفلاحة ضاحكة :

- كأنك يا سيدى لم تر فى حياتك بقرة !
وتدخل الفلاح فقال :

- اشتريناها من المدينة • لقد فطست بهائمنا فى الربيع الماضى •••
بالطاعون • هلكت الماشية فى كل مكان ، عند جميع الجيران ، هلك أكثر
من نصفها • كارثة حقاً •

وضرب الحصان بسوطه •

فقال ستيفان تروفيموفتش مدمماً :

- نعم ، هذا يحدث عندنا ، فى روسيا ••• ونحن على وجه العموم ،
معشر الروس ••• نعم ••• هذا يحدث •••

- اذا كنت معلماً فما ذهابك الى خاتوفو ؟ اللهم الا أن تكون ماضياً
الى أبعد من خاتوفو •••

- أنا ••• لا ••• لن أمضى الى أبعد منها • على وجه الاجمال •••
أقصد ••• أنا ذاهب الى أحد التجار •

- ربما الى سباسوف ؟

- نعم ، تماماً ، الى سباسوف • لا قيمة لهذا على كل حال •
قالت المرأة ضاحكة :

- اذا كنت ذاهباً الى سباسوف ، مشياً على القدمين ، وبهذين
الحذاءين ، فسوف تصل اليه بعد أسبوع •••

- تماماً ، ولكن ما قيمة هذا « يا أصدقائى » (بالفرنسية) ، ما قيمة
هذا ؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش مقاطعاً • وأردف يحدث نفسه :

« ما أعجبهم ! المرأة تتحدث خيراً من زوجها على كل حال • وائى
لألاحظ بوجه الاجمال أن أسلوبهم قد تبدل بعض التبدل منذ الغاء القنائة •
ولكن فيم يهمهم أن يعرفوا اننى ذاهب الى سباسوف أو الى مكان آخر ؟
ما دمت أدفع أجر ركوبى فلماذا لا يدعونى وشائى ؟ » •

تابع الفلاح كلامه فقال :

– اذا كنت ذاهباً الى سباسوف ، فيجب ركوب السفينة •
وأسرعت المرأة تتدخل فقالت :

– هذا صحيح • اذ لو تبعت الشاطىء بالعربة لدرت دورة طولها
ثلاثون فرسخاً •

– بل أربعون •

واستأنفت المرأة كلامها فقالت :

– غداً ، فى الساعة الثانية ، ستجد السفينة فى أوستيفو •
ولكن ستيفان تروفيموفتش أصرّ على التزام الصمت •

وصمت رفيقه • كان الرجل يحرك الزمام ، وكانت المرأة تبادل
ملاحظات قصيرة من حين الى حين • وغفا ستيفان تروفيموفتش ، فما كان
أشد دهشته حين هزته المرأة ضاحكة ، فاذا هو يرى نفسه فى قرية من
القرى الكبيرة ، أمام باب « عزبة » ذات ثلاث نوافذ •

– غفوت يا سيدى ؟

– ما هذا ؟ أين أنا ؟ آآآ نعم ••• لا بأس •••

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش متهدأ ، ونزل من العربة •
وألقي حوله نظرة حزينة مكتئبة • وبدأ له منظر القرية عجيباً ،
وأحسّ بغربة شديدة • وأسرع يقول للفلاح :

– كدت أنسى أن أنقذك الخمسين كوبكاً !

لقد كان واضحاً أنه منذ الآن يخشى أن يتركهما •

قال له الفلاح :

– ستدفع فى العزبة • ادخل ، ارجوك •

فصعد ستيفان تروفيموفتش درجات الباب المرتجة • ودمدم يقول
لنفسه متحيراً قلقاً : « كيف يمكن هذا ؟ » • ولكنه مع ذلك دخل • «هى
التي أرادت ذلك » (بالفرنسية) • وطعنت هذه الفكرة قلبه • ولكنه
سرعان ما نسى كل شيء • نسى حتى كونه دخل العزبة •

تتألف العزبة من غرفتين ، وهى منزل مضى نظيف • لم يكن فندقاً
ولكن معارف صاحبه قد ألفوا أن يتلبثوا عنده • وأن يبيتوا فيه •

اتجه ستيفان تروفيموفتش الى الركن تحت الايقونات • بدون تخرج
أو خشية • ناسياً أن يسلم • فجلس هناك واسترسل فى أحلامه • وفى
أثناء ذلك انتشر فى جسمه • على حين فجأة • احساسٌ لذيذ بالدفع •
أعقب برد الطريق ورطوبته ؟ فسرت فيه رعدة • ولكن هذه الرعدة
القصيرة التى يعرفها الأشخاص العصبيون حين تتأهبهم الحمى وينتقلون فجأة
من البرد الى الدفء • كانت لذينةً له الى أقصى الحدود • وها هو ذا يرفع
رأسه • ان الرائحة الشهية التى تفوح من فطائر كانت ربة البيت مشغولة
باعدادها قد دغدغت أنفه •

فنهض نصف نهوض • وتمتم يقول مبتسماً ابتسامة طفل :

– ما هذه ؟ فطائر ؟ «شئ عظيم» (بالفرنسية) •

فسأله ربة البيت بأدب :

– هل تريد أن تصيب شيئاً منها يا سيدى ؟

– نعم ، أريد • هذا ما أريده • أريد فطائر ••• وأسألك شيئاً من الشأى كذلك •

– السماور ؟ بسرور كبير •

وقدّمت اليه الفطائر فى طبق كبير عليه رسوم أزهار ضخمة زرقاء ، وهى فطائر من قمح وشلت ، مصنوعة بالطريقة القروية ، رقيقة جداً ، مرشوشة بالزبدة الطازجة المحمية • انها فطائر لذيدة ، ذاقها ستيفان تروفيموفتش متمتعاً بمذاقها أكبر التمتع •

– ما أؤسمها ! وما أطيبها ! ليت المرء يستطيع أن يشرب معها « اصبعاً من خمرة » (بالفرنسية) •

– أليست الفودكا هى ما يرغب فيه سيدى ؟

– هى بعينها • قليلاً من الفودكا • قليلاً جداً •

– بخمسة كوبكات ؟

– نعم ، بخمسة ، بخمسة ••• قليلاً جداً •

كذلك كان يردد ستيفان تروفيموفتش وهو يتسّم ابتسامة سعيدة •

إذا سألت شخصاً من الشعب أن يفعل من أجلك شيئاً ، فانه يخدمك بسرور وعناية إذا أراد واستطاع • ولكن اذا سألته أن يجيئك بفودكا ، فان استعداد الهادى للخدمة ما يلبث أن يحل محله تعجل قرح ، واعتناء يوشك أن يشتمل على عاطفة وحنان • ان الذى يجيئك بالفودكا يعرف حق المعرفة أنك أنت الذى ستشربها لا هو ، ولكنه مع ذلك يشاطرك اللذة التى تنتظرك نوعاً من المشاطرة •••

ما انقضت ثلاث أو أربع دقائق (وكان الكاباريه على مسافة خطوتين)

حتى وضعت أمام ستيفان تروفيموفتش زجاجة وقّح كبيرة •

سأل مدهوشاً :

— أهذا كله لى أنا ؟ لطالما شربت فودكا فى البيت ، ولكننى لم أكن أعلم أنه يمكن الحصول على هذا المقدار كله بخمسة كوبكات •
وملاً القدح ونهض واتجه بشئ من الأبهة صوب رفيقة رحلته ،
القروية الشابة ذات الحاجين الأسودين التى شدّ ما أرهقه فضولها ، والتى
كانت جالسة الآن فى الركن المقابل من الغرفة • رفضت القروية فى أول
الأمر مضطربةً الهيئة كل الاضطراب ، لكنها لم تلبث أن سايرت
المواضعات الاجتماعية فنهضت وشربت الكأس ثلاث جرعات ، كما تفعل
النساء عادة ، مصعّرةً وجهها كأن الشراب قد حرق فمها ، ثم ردت
الكأس الى ستيفان تروفيموفتش وهى تنحنى أمامه • فانحنى ستيفان
تروفيموفتش هو أيضاً ، برصانة ووقار ، ثم رجع الى مكانه مرفوع
الرأس •

لكأنه انقاد لالهام مفاجئ : هو نفسه كان لا يعرف قبل ثانية واحدة
أنه سيقدم فودكا الى المرأة الشابة •

قال يحدث نفسه راضياً عن سلوكه أشد الرضى : « اننى أعرف
معرفة كاملة ، نعم ، معرفةً كاملة ، كيف يجب أن يكون سلوك المرء مع
الشعب • لطالما قلت لهم هذا » •

وسكب لنفسه باقى الفودكا ، ورغم أن هذا الباقي كان لا يملأ كأساً
كاملة ، فقد بثت الخمرة دفئاً وحرارة فى جسمه ، حتى لقد أثرت فى
رأسه •

قال يخاطب نفسه بالفرنسية : « أنا مريض تماماً • ولكن ليس شراً
كبيراً أن يكون المرء مريضاً » •

وهنا سمع صوتاً عذبا ، هو صوت امرأة ، يسأله :

– ألا تريد أن تشتري كتابا ؟

فما كان أشد دهشته حين رفع عينيه فرأى سيدة – « سيدة حقا ، ان هيئتها هيئة سيدة » – بسيطة المظهر فى نحو الثلاثين من العمر • انها ترتدى ثيابا على زى سكان المدن : ثوبا أسود وشالاً أشهب كبيراً على الكتفين • وان فى وجهها لشيئاً محبباً الى القلب سرعان ما أعجب به ستيفان تروفيموفتش • لقد عادت فى هذه اللحظة الى العزبة التى تركت فيها أشياءها على دكة ، ومنها محفظة نقود كان ستيفان تروفيموفتش قد تأملها مستطلعا حين دخل ، ومنها كيس من قماش مشمّع •

استلت المرأة من الكيس كتابين صغيرين مجلّدين تجليدا جميلاً ، وعلى غلاف كل منهما صليب ، ومدّتهما الى ستيفان تروفيموفتش •

– « آآآ أظن أنه الانجيل ! » (بالفرنسية) ••• بسرور عظيم ••• آآآ فهمت الآن ••• أنت من تسمى بائعة متجولة • سمعت عن هذا •• خمسون كوبكاً ؟
أجابت البائعة :

– خمسة وثلاثون كوبكاً •

– بكل سرور • « لا اعتراض لى على الانجيل » (بالفرنسية) •
و ••• اننى أريد منذ مدة طويلة أن أعيد قراءته •

وتذكر فى تلك اللحظة أنه منذ ثلاثين عاما على الأقل لم يفتح هذا الكتاب ، وأنه قبل سبع سنين قد تذكر بضع عبارات بمناسبة كتاب رينان « حياة يسوع » • واذا لم يكن معه نقود صغيرة ، أخرج ورقاته الأربع ، ورقات العشرة روبلات التى كانت كلّ ثروته • فأقبلت ربة البيت تعرض عليه أن تبذل له احدى هذه الورقات بنقود صغيرة ، وعندئذ فقط انما لاحظ ستيفان تروفيموفتش أن العزبة كانت ملأى تقريبا بأناس يلاحظونه

باتباه ويبدو عليهم أنهم يتكلمون عنه • وكانوا يتكلمون كذلك عن حريق الضاحية • وكان صاحب البقرة الذى وصل من المدينة متدفقا فى الحديث تدفقا خاصا • وكان المتكلمون يتهمون عمال مصنع شيجولين •

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه : « أمر غريب • انه لم يفتحنى أنا بكلمة واحدة عن الحريق ، وكان مع ذلك يتكلم طول الوقت ! » •

- ستيفان تروفيموفتش ، أنت من أرى يا سيدى ؟ حقا لم أكن أتوقع أن ألقاك هنا ! ... ألم تعرفنى ؟

هكذا هتف على حين فجأة رجل متقدم فى السن يرتدى دثارا فضفاضا له ياقة عريضة مقلوبة • انه بوجهه الحليق يبدو خادما قديما • خاف ستيفان تروفيموفتش حين رأى أنه عُرِف • وجمجم يقول :
- معذرة ... لا أتذكر ...

- لا تذكرنى ؟ أنا آيسيم ، آيسيم ايفانوفتش • كنت فى خدمة المرحوم السيد جاجانوف • كم من مرة رأيتك مع فرفارا بتروفنا عند المرحومة آفدوتيا سرجيفنا ! كنت أحمل اليك كتباً على الدوام ، بل لقد جئتك أيضا مرتين بمربيات من بطرسبرج •

قال ستيفان تروفيموفتش مبتسما :

- آ ... نعم ... الآن عرفتك ... آيسيم ... أنت تسكن

هنا ؟

- قرب سباسوف ، فى دير « ف ... » ، عند مارفا سرجيفنا ، أخت آفدوتيا سرجيفنا • لعلك تذكر أن ساقها كانت قد كُسرت : وثبت من العربطة حين كانت ذاهبة الى حفلة رقص • انها تسكن الآن قرب الدير ، وأنا فى خدمتها • واليوم أذهب الى المدينة كما ترى لألقى أهلى •

- نعم ، نعم ...

تابع آيسيم كلامه فقال بابتسامة مفتونة :

- اننى سعيد جدا برؤيتك • لقد كنت تحسن معاملتى دائماً • ولكن الى أين تذهب هكذا وحيدا يا سيدى ؟ ... ما كنت تسافر وحيدا قبل اليوم قط ، فيما يبدو لى •

نظر اليه ستيفان تروفيموفتش بارتياح •

- ألسنت ذاهباً الينا ، الى سباسوف ؟

- نعم ، الى سباسوف • يخیل الى أن الجميع مسافرون الى

سباسوف ...

- ربما الى عند فيدور ماتفئتش ؟ ما أعظم السرور الذى سوف يملأ قلبه حين يراك ! لقد كان يحمل لك أعظم التقدير دائماً ! وكثيراً مايتكلم عنك حتى الآن •

- نعم نعم ، سأذهب أيضاً الى عند فيدور ماتفئتش •

- تحسن صنعاً يا سيدى • ان الفلاحين هنا مدهوشون كل الدهشة • يقولون انك قد وجدت فى الطريق العام وحيدا ماشياً : انهم بلهاء !

- اننى ... المسألة ... اسمع يا آيسيم : لقد راهنت ، على طريقة الانجليز فى الرهان ، وسوف أقطع المسافة ماشياً ، وسوف ...

- نعم ، هذه هى المسألة ... هذه هى المسألة •

كان آيسيم يصنى اليه باستطلاع لا يرحم • وأصبح ستيفان تروفيموفتش لا يطيق صبراً ، وبلغ من الاضطراب والقلق أنه أراد أن ينهض وأن يخرج من العزبة • ولكن جىء بالسماور ، وفى تلك اللحظة نفسها عادت البائعة المتجولة الى الغرفة • فهبَّ ستيفان تروفيموفتش يقدم

اليها شايًا بوثبة انسان لاح له خلاصه ، فغلب آيسيم على أمره ، وتراجع منسحباً .

كان حضور ستيفان تروفيموفتش قد أيقظ دهشة الفلاحين وقلقهم فعلاً . كانوا يتساءلون : « من هذا الرجل ؟ » . لقد وجد ماشياً فى الطريق العام . وهو يقول انه معلم . وهو يرتدى ملابس رجل أجنبى . وعقله عقل طفل يخط فى أجوبته خبط عشواء . لكأنه هارب . وهو عدا ذلك يملك مالاً ! » . وخطر ببالهم أن يبلغوا السلطات . « لا سيما وأن المدينة يسودها الاضطراب » . ولكن آيسيم رتب الأمور بسرعة : خرج الى الدهليز وشرح للفلاحين أن ستيفان تروفيموفتش ليس معلماً وانما هو « عالم كبير يعنى بجميع أنواع العلوم . وأنه كان هو نفسه يملك فى البلد أرضاً ولكنه منذ اثنتين وعشرين عاما يسكن عند الجنرالة ستافروجين التى يحتل لديها المقام الأول . وان المدينة كلها تحترمه . وأنه كان يتفق له أن يخسر فى « نادى النبلاء » خمسة وعشرين روبلاً بل مائة روبل فى ليلة واحدة . أما رتبته فهى رتبة مستشار ، وهى تعادل لدى العسكريين رتبة ليوتنان كولونيل . وأما المال فلا غرابة فى أن يملك منه قدراً كبيراً ، لأن الجنرالة تعطيه ما يشاء بغير حساب » ، الخ ، الخ .

قال ستيفان تروفيموفتش يحدث نفسه وقد أسعده أن يتخلص من آيسيم وأخذ ينظر بدهشة ممتعة الى جارته البائعة المتجولة : « ألا انها لسيدة حقاً ، سيدة كما يجب تماماً . وكانت البائعة فى أثناء ذلك تشرب الشاي من صحن الفنجان عاضة على قطعة السكر بأسنانها . فتابع ستيفان تروفيموفتش حديثه مع نفسه معلقاً : « لا ضير ، لا ضير فى أن تعض على قطعة السكر . . . ما هذا بذى قيمة (بالفرنسية) » ان فيها شيئاً نبيلاً ، مستقلاً ، وادعاً فى الوقت نفسه . « سيدة كما يجب تماماً » (بالفرنسية) ، ولكنها من نوع خاص . » .

ولم تلبث أن أعلمته أن اسمها صوفيا ماتنفقنا أوليتنا ، وأنها تقيم عادةً في « ك . . . » ، عند اختها الأرملة . وقالت له انها هي أيضاً أرملة . فان زوجها الذى كان مساعداً ورُقّع الى رتبة ملازم ثانٍ تكريماً لخدماته قد قتل في سباستوبول .

– ولكنك ما تزالين في ريعان الشباب ، « لم تبلغى الثلاثين من العمر »
(بالفرنسية) .

ف قالت صوفيا وهي تبسم :

– بل عمرى أربعة وثلاثون عاماً .

– كيف ؟ أتفهمين الفرنسية ؟

– قليلاً . لقد عشت أربع سنين في أسرة من أسر المالكين ، فتعلمت الفرنسية قليلاً بفضل الأولاد .

وقصّت عليه أنها ترمّلت في الثامنة عشرة من عمرها ، فدخلت بعض الوقت في سلك « راهبات المحبة » بسباستبول ، ثم عملت عند أشخاص كثيرين ، وهي الآن تباع أناجيل .

– « ولكن يا الهى ! » (بالفرنسية) ، ألسنت أنت التى وقعت لها تلك القصة العجيبة ، بل تلك القصة التى لا يكفى أن توصف بأنها عجيبة ؟

فاحمرت المرأة . نعم . انها هي التى وقعت لها تلك القصة .

قال ستيفان تروفيموفتش بصوت يختلج من شدة الاستياء والاستنكار :

– « هؤلاء الحفراء ، هؤلاء الأشقياء » ! (بالفرنسية) .

ولكن حين وافته هذه الذكرى انقبض قلبه ، وهوى غارقاً في أفكاره

وخواطره من جديد • حتى اذا تاب اليه وعيه ، فلاحظ أنها ليست معه ، قال لنفسه : « غريب ! لقد انصرفت ثانية ! انها تخرج باستمرار ، وان هناك ما يشغلها دائماً • حتى ليدو أنها مهمومة ••• » آه لقد أصبحت أنانيا » (بالفرنسية) •

ورفع عينيه فأبصر آيسيم ، ولكنه أبصره هذه المرة فى جو يندر بشر مستطير • كانت العزبة ملأى بفلاحين أتى بهم آيسيم طبعاً • كان هناك صاحب العزبة ، والفلاح الذى اشترى البقرة من المدينة ، وفلاحان آخران (هما من سائقي العربات) ، ورجل قصير نصف سكران ، يرتدى ثياب الفلاحين لكنه حليق فلمله أحد سكان المدن ، وكان صوته يعلو فى الكلام على صوت سائر المتكلمين • كان هذا الجمع كله يتناقش فى أمر ستيفان تروفيموفتش • أما صاحب البقرة فكان يؤكد أن اتباع طريق شاطئ البحيرة بالعربة يرسم دورة لا تقل عن أربعين فرسخاً بل تزيد ، فيجب حتماً ركوب السفينة • وكان الرجل القصير الثمل وصاحب العزبة يحتججان على هذا احتجاجاً حاراً :

– اذا قطع سيادته البحيرة بالسفينة فلا شك أن هذا أسرع • ولكن من الممكن فى هذا الطقس أن لا تستطيع السفينة الرسو على الشاطئ •

فيقول آيسيم راداً بحرارة شديدة :

– بل سترسو ، سترسو خلال أسبوع آخر •

– صحيح ، ولكنها لا تسير سيراً منتظماً مطرداً لأن الجو قد سبق أوانه • فقد يتفق لك أن تنتظر ثلاثة أيام فى أوستيفو •

ويزأر آيسيم قائلاً :

– ستكون السفينة هنا غداً ، فى الساعة الثانية تماماً • وستصلون الى سباسوف قبل الليل يا سيد • الأمر كما أقول لك •

تساءل ستيفان تروفيموفتش بينه وبين نفسه وهو يرتعش منتظراً أن يقرروا مصيره : « ولكن من هذا الرجل ؟ » (بالفرنسية) •

وتقدم السائقان هما أيضاً يشاركان في الحديث ويعرضان خدماتهما .
انهما يطلبان ثلاثة روبلات للوصول الى أوستيفو • فصاح الآخرون قائلين
هذا أجر معتدل معقول ، هو الأجر نفسه الذى كان يُطلب طوال فصل الصيف •

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول محاولاً الدفاع عن نفسه :

– ولكن حالتى هنا جيدة ••• ولا أريد أن •••

– حالتك هنا حسنة ••• هذا صحيح ••• ولكنها ستكون عندنا
فى سباسوف أحسن أيضاً ، وسيساعد فيدور ماتفتش برؤيتك أكبر
السعادة !

– يا أصدقائى ، كل هذا لم أكن أتوقعه •••

ودخلت صوفيا ماتفتشنا ثانية ، فجلست على الدكة حزينة منهارة ،
وقالت لربة البيت :

– لن أستطيع الذهاب سباسوف •

فصاح ستيفان تروفيموفتش يقول وكأن هذا النبأ قد رده الى الحياة
وأعشه :

– ماذا ؟ أنت أيضاً ذاهبة الى سباسوف ؟

فذكرت له أن ناديجدا ايجورفنا سفتلتسينا ، وهى من مالكات
الأطيان فى هذه النواحي ، قد طلبت منها أمس أن تنتظرها فى خاتوفو
لتقلها الى سباسوف ، ثم لم تجىء هذه السيدة •

وكررت البائسة المتجولة تقول :

– فماذا أعمل الآن ، فماذا أعمل الآن ؟

– « ولكن يا صديقتي العزيزة والجديدة » (بالفرنسية) ، يمكنكى
أنا أيضا أن أفلّك الى تلك القرية ... ما اسمها ؟ لقد اكرتت عربية ،
وغداً ... نعم غداً ، سنكون فى سباسوف •

– أأنت ذاهب الى سباسوف أيضا ؟

– « وما العمل ، بل اننى سعيد جداً بهذا ! » (بالفرنسية) ، سأقلّك
الى هناك مسرورا كل السرور •
والتفت يسأل السائقين :

– من منكما اتفقت معه على السفر الى سباسوف ؟

لقد أصبح ستيفان تروفيموفتش يتعجل السفر الى سباسوف نافد
الصبر فجأة •

وبعد ربع ساعة كانا قد استقرا بمساعدة آنيسيم فى قرية مغطاة •
أما ستيفان تروفيموفتش فكان مغتبطاً كل الاغتباط نشاطاً كل النشاط ، وأما
المرأة فكانت وقد جلست الى جانبه مع كيسها المصنوع من قماشٍ مشمّع ،
تطوف بشفتيها ابتسامةً تعبر عن الاعتراف بالجميل •

صاح آنيسيم يقول منهمكا حول العربية :

– سفرأ ميمونا • ما كان أسعدنا بلقائك !

– استودعك الله ، استودعك الله يا صديقى ، استودعك الله !

– سترى فيدور ماتففتش ياميدى ...

– نعم يا صديقى ، نعم ، فيدور ماتففتش ... ولكن استودعك الله •

ما ان سارت العربية حتى بدأ ستيڤان تروفيموفتش الكلام فقال :

— اسمعى يا صديقتى •• اسمحين لى بأن أعدّك صديقةً لى ؟ •••
 اذن اسمعى يا صديقتى ••• « أنا أحب الشعب • هذا ضرورى لا غنى عنه
 ولكن يبدو اننى لم أر الشعب يوماً عن كتب • لا شك فى أن ستازى من
 الشعب أيضاً ••• ولكن الشعب الحقيقى » (بالفرنسية) ، الشعب الحقيقى
 الذى نلقاه على الطريق العام ، ليس له من هم فيما يبدو لى الا أن يعرف
 الى أين أنا ذاهب ••• ولكن فلنسامحه ••• أظن أننى أهرف هرفاً •••
 ولكن ذلك يرجع الى اننى متعجل •

قالت صوفيا ماتفتنا وهى تنظر اليه بانتباه ولكن باحترام :

— أنت مريض فيما أرى •

— لا ، لا ؛ يكفى أن أعطى جسمى جيداً • الهواء بارد مع ذلك ،
 بل هو بارد جداً • ولكن فلندعُ هذا الآن • أريد أن أتكلّم فى أمر
 آخر • « أيتها الصديقة العزيزة التى ليس لها نظير » (بالفرنسية) ،
 بخيلٌ الى أننى سعيد تقريبا • وهذا بفضلك أنت • والسعادة تضرنى ،
 لأننى سرعان ما أغفر لجميع أعدائى •

— ولكن هذا حسن جداً •

— ليس دائماً ، « أيتها العزيزة البريئة » • اسمعى ••• « من الآن
 سندعو الى الانجيل ونبشر به معاً » (بالفرنسية) ، ويسمرنى أن أبيع
 كتبك الصغيرة الجميلة هذه • نعم « بخيلٌ الى أن هذه فكرة ربما كانت
 رائعة » ، شئ جديد جداً فى بابه « (بالفرنسية) • ان الشعب متدين ،
 « هذا أمر مسلّم به » ، ولكنه لا يعرف الانجيل بعد • فسوف أشرحه

له • وحين يشرح المرء هذا الكتاب الممتاز ، حين يشرحه بصوت عال ، فانه يستطيع أن يصحح أخطاءه • اننى مستعد لأن أولى هذا الكتاب أعظم الاحترام • هكذا أستطيع أن أكون نافعا حتى فى الطريق العام • لقد كنت نافعا فى جميع الأحيان ، قلت لهم ذلك ، « وقتله لتلك العقوق العزيرة » (بالفرنسية) • آه • • • فلنغفر ، فلنغفر قبل كل شيء ، فلنغفر للجميع ، ولنغفر دائما ! • • • ولنأمل أن يغفر لنا الآخرون أيضا • نعم ، لأن كل واحد منا مذهب فى حق الآخرين • الجميع مذنبون •

– لقد أحسنت القول فيما يبدو لى •

– نعم ، نعم ، أحس أننى أحسن القول ، وأجيد الكلام • سأحسن مخاطبتهم ، ولكن • • • ماذا كنت أريد أن أقول ؟ ماذا كانت فكرتى الرئيسية ؟ اننى أرتبك دائما ، لم أعد أتذكر • • • هل تسمحين لى بأن لا أترك الآن أبدا ؟ اننى أحس أن نظرتك • • • بل اننى مدهوش من آدابك فى السلوك • انك بسيطة ، وانك تستعملين تعابير شعبية ، وتشربين من صحن الفنججان ، عاضة على تلك القطعة اللعينة من السكر ، ومع ذلك فيك شيء ساخر ؛ وانى لأرى فى قسما وجهك • • • أوه ! لا تحمرى ولا تخافى منى خوفك من رجل • « أيتها العزيرة التى لا تضاهى ، المرأة عندى هى كل شيء » (بالفرنسية) • لا أستطيع أن أعيش الا الى جانب امرأة ، ولكن الى جانبها فقط • • • أوه ! اننى أرتبك ارتباكا رهيبا • • • لا أفصح فى تذكر ما كنت أريد أن أقوله • سعيد ذاك الذى تبعث اليه السماء بامرأة دائما • • • و • • • وأعتقد اننى متحمس كثيرا • فى الطريق العام أيضا يمكن أن تتحقق فكرة عظيمة • نعم ، ذلك ما كنت أريد أن أقوله بصدد الفكرة ، تذكرت الآن • منذ قليل عجزت عن وضع يدي على ما كنت أريد أن أقوله • أوه ! كنا هناك فى خير حال ، بينما « البرد يشتد هنا اشتدادا فظيحا » (بالفرنسية) • بالمناسبة : ان مجموع ما معى

هو أربعون روبلاً ، فإليك المال ، خذيه ، خذيه ، اننى لا أحسن تدبير
أمرى ؟ قد أضيعه ؟ قد يسرق منى ، و ... يخيّل الى أننى أريد أن
أنام . رأسى يدور ، يدور ، يدور . أوه ! ما أطيب قلبك ، ما أكرم
نفسك ! بماذا تغطيتنى ؟

— لا شك أنك تعاني حمى ، وقد أعطيتك غطائى . أما عن المال ،
فاننى أفضل أن ...

— ناشدتك الله ! « لا تتكلمن » عن هذا بعد الآن . لأنه يؤلمنى ،
(بالفرنسية) . ما أنبل نفسك !

وكفّ عن الكلام فجأة ، ولم يلبث أن نام نومَ المحموم . كانت
رعدات تهزه من حين الى حين .

ان الطريق المواردب المختصر الذى سلكاه لقطع سبعة عشر فرسخاً
لم يكن بالطريق الجيد . وقد ارتجت العربة ارتجاجاً شديداً . فكان
ستيفان تروفيموفتش يستيقظ من حين الى حين ، فيرفع رأسه عن الوسادة.
الصغيرة التى دسها صوفيا ماتفتننا تحت عنقه ، ويمسك يد المرأة الشابة ،
ويسأل : « أنت هنا ؟ » كأنما هو يخشى أن تتركه . وكان يقول لها
أيضا انه يرى فى المنام فكاً عريضاً مكشراً عن أسنان ، وان هذا يشير
اشمئزازه . فكانت صوفيا ماتفتننا تقلق قلقاً شديداً .

وتوقفت العربة أخيراً أمام عربة كبيرة لها أربع نوافذ ، ولها ملحقات
كثيرة فى الفناء . وها هو ذا ستيفان تروفيموفتش ، المتعجل كثيراً ، يدخل
الغرفة الثانية رأساً ، وهى أجمل الغرف وأوسعها . وسرعان ما اكتسى
وجهه الوسنان تعبيراً عن الهم على حين فجأة . أعلن لربة الدار فوراً ،
وهى امرأة بدينة طويلة فى نحو الأربعين من عمرها ، سوداء الشعر ،

حتى ان شفتها العليا يظللها شارب صغير ، أعلن لها أنه يريد أن تُحجز
الغرفة كلها له وحده ، وأن يُغلق الباب ، وأن لا يدخل أحد «لأن هناك
كلاما كثيرا يجب أن يتبادلاه . نعم ، هناك أمور كثيرة يجب أن أقولها لك
يا عزيزتى » (بالفرنسية) . وعاد يقول لربة البيت وهو يحرك يده
بإشارات عريضة « سأدفع لك ، سأدفع لك » .

كان يتكلم فى تعجل . ومع ذلك كان لسانه لا يطاوعه . وأصغت
إليه ربة المنزل بغير بشاشة ولكنها لزمّت الصمت علامة الموافقة ، وهى
موافقة زاحرة بمعانى التهديد على كل حال . لم يلاحظ هو هذا ، بل
أسرع يأمرها بأن تخرج وأن تجيئها بالعشاء من غير أى إبطاء (كان يبدو
متعجلاً أكبر التعجل) .

فما كان من ذات الشارب الا أن قالت له وقد نفذ صبرها وفقدت
سيطرتها على نفسها :

— ليس هذا نُزْلاً يا سيدى . اتنا لا نقدم للمسافرين هنا غداء .
كل ما أستطيع أن أفعله لك هو أن أسلق لك بعض السلطمان وأن أحضّر
السماور . ولن يكون عندنا سمك طازج الا فى الغد .

حرك ستيفان تروفيموفتش ذراعيه نافذ الصبر وهو يكرر بلهجة
غاضبة حاققة : « سأدفع ، سأدفع ، ولكن أسرعى ! » . وتم الاتفاق على
اعداد حساء بالسّمك ودجاجة مقلية . وقد أعلنت صاحبة البيت فى أول
الأمر أن القرية كلها ليس فيها دجاجة واحدة ، ولكنها قبلت مع ذلك أن
تحاول العثور على دجاجة ، متظاهرة فى الوقت نفسه بانها تخدم الرجل
خدمة كبيرة .

وما ان خرجت حتى جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان ،

وأجلس صوفيا ماتفتفنا الى جانبه • ان الديوان والمقاعد التي تؤثت الغرفة كانت فى حالة يرثى لها • وفى وسعنا أن نقول عن هذه الغرفة الواسعة بعض السعة انها كانت بسربرها المخبأ وراء حاجز فى داخل فجوة ، وبورق جدرانها الأصفر الممزق المهترى ، وبصورها الليتوغرافية الأسطورية الفظيعة ، وبأيقوناتها المصطفة صفاً طويلاً ، وبأثاثها غير المتجانس ، كانت مزيجاً كريها من أذواق القرية والمدينة • غير أن ستيفان تروفيموفتش لم يلق نظرة واحدة على ذلك كله ، بل انه لم يلق حتى نظرة من النافذة على البحيرة الواسعة التى تمتد على بعد ثلاثين خطوة من العزبة •

– ها نحن أصبحنا وحيدين ! لن يؤذن لأحد بالدخول • أريد أن أحكى لك كل شئ ، كل شئ ، من البداية •

ارتسم على وجه صوفيا ماتفتفنا قلق شديد ، وقاطعته تقول :

– هل تعلم با ستيفان تروفيموفتش ...

فسألها وهو يتسم ابتسامة افتتان :

– « كيف ؟ أتعرفين اسمى منذ الآن » ؟ (بالفرنسية) •

– عرفته منذ قليل ، حين كنت تتكلم مع آنيسيم • ولكن اليك ما أريد أن أقوله لك اذا أذنت ...

ومالت عليه وألقت نحو الباب نظرات قلقة خشية أن تسمع ، وأخذت تهمس قائلة له ان هذه القرية خطيرة على المرء أشد الخطر : فالفلاحون هنا صيادون ، ولكنهم يعيشون خاصة من استغلال المسافرين اذ يجبرونهم على أن بدفوا لهم فى الصيف ما يشاءون • والناس لا يجيئون الى هذه القرية التى لا تقع فى طريقهم الا لأن السفينة تتلبت فيها • فاذا تأخرت السفينة – لأنها حين يسوء الجو لا تستطيع الرسو على الشاطئ – كثر

الناس كثرة كبيرة فاذا جميع الدور مشغولة • والفلاحون لا ينتظرون
الا هذا : اذ يحملون المسافرين على أن يدفعوا ثلاثة أضعاف ما يجب دفعه
فى أيسر أمر من الأمور • وصاحب هذا المحل أكثر أهل القرية كبرياء
وغروراً ، لأنه أغناهم • انه يملك شبكة لا يقل ثمنها عن ألف روبل •

كان ستيفان تروفيموفتش ينظر الى وجه صوفيا المتوقد ، بما يشبه
أن يكون عبثاً • حتى اقد حاول عدة مرات أن يوقفها عن الكلام بحركة
من يده • ولكنها كانت حريصة على فكرتها وأنهت ايضاحاتها : لقد سبق
لها أن جاءت الى هذه القرية فى الصيف الماضى مع « سيدة من أسرة
ممتازة » ، فأمضتا معا فيها يومين بانتظار السفينة • الا ان الأفضل أن
لا تتكلم عما قاستاه : لقد كان ما قاستاه رهيباً فظيعاً • « انك قد حجرت
الغرفة لك وحدك يا ستيفان تروفيموفتش ... وما أقوله الآن انما أريد
به تنبيهك ... ان الغرفة المجاورة فيها منذ الآن مسافرون : رجل مسن ،
وشاب ، وسيدة مع طفلين • ولكن العزبة ستكون فى الغد غاصة بالناس ،
لأن السفينة لم تصل ، فلا بد اذن أن ترسو فى الغد حتماً • ان أصحاب
الدار سيطلبون منك مبلغاً باهظاً لو طُلب حتى فى بطرسبرج لكان
فضيحة • غرفة مستقلة ، وغداء كالذى أمرت به ، وازعاج تسببه لسائر
المسافرين ، ذلك كله سيكلفك كثيراً ... » •

كان ستيفان تروفيموفتش يتألم • كان يتألم فعلاً •

— أرجوك يا بنيتى ! « كفى ، كفى ! ان معنا مالاً ، وبعد ذلك يفعال
الله ما يشاء » (بالفرنسية) • بل اننى ليدھشنى أن أراك ائت صاحبة
الأفكار العالية الرفيعة تقولين هذا الكلام ... « كفى ، كفى ! انك
تعذبنينى » ! (بالفرنسية) •

كذلك صاح يقول ثائر الأعصاب • وأردف :

— ان أمانا المستقبل كله ، وأنت ... أنت تحاولين أن تخيفيني من المستقبل ...

وسرعان ما شرع يحكى لها قصته كلها ، ولكنه بلغ فى كلامه من فرط التعجل أنه كان يصعب حتى فهمه فى البداية . ودامت قصته مدة طويلة . لقد جرى بحساء السمك ، ثم جرى بالدجاجة المقلية ، وجرى أخيرا بالسماور ، والرجل ما يزال يتكلم ... كان يعبر بطريقة غريبة ، بطريقة مرضية . ولكنه كان مريضا بالفعل . ان توترأ مفاجئا فى جميع قواه العقلية كان لا بد أن يؤدي — كما تنبأت بذلك صوفيا ماتفتننا قلقه — الى وهن شديد فى جسمه المصاب اصابة بالغة . بدأ بالكلام عن طفولته حين « كان يجرى فى الحقول عارى الصدر » . وبعد ساعة كاملة من الكلام وصل الى الحديث عن زواجه ببرلين . لا أريد أن أسخر منه ، وهيات أن يخطر ببالي الضحك عليه . ولكننى أذكر أنه تحدث عن زواجه حديثه عن شيء عظيم حقا ؟ لقد كان فى نظر نفسه يناضل من أجل الوجود ، على حد التعبير الحديث . انه يرى أمامه المرأة التى اصطفاه لتكون رفيقة طريقه ، فيها هو ذا يعلمها ان صح التعبير . ماينبغى أن تكون عبقرية ستيفان تروفيموفتش سرا مكتوما عنها . لعله كان يعقد على صوفيا ماتفتننا آمالا فيها كثير من المبالغة الشديدة ، ولكنه كان قد اختارها . انه لا يستطيع أن يستغنى عن امرأة . هو نفسه ، على كل حال ، كان يحزر من تعبير وجهها أنها لا تكاد تفهم عنه ، أن أهم ما فى كلامه لا تفهمه . فكان يقول لنفسه : « لا ضير ، ليس لهذا قيمة ، سوف تنتظر . سوف تفهمنى الآن بقلبها ... » .

وصاح يقول قاطعا حديثه عن قصة حياته :

— صديقتى ! ما أنا فى حاجة الا الى قلبك ، والى هذه النظرة الساحرة التى تلقينها على ... لا تحمري ! سبق أن قلت لك ...

وغمضت الأمور في عقل صوفيا المسكينة خاصة حين أخذ يشرح لها بافاضة واسهاب أن أحداً لم يفهمه حتى الآن ، وأن « الموهبة عندنا في روسيا مألها الى الذبول والضياح لا محالة » • لقد اعترفت صوفيا فيما بعد قائلة : « كان كلامه أذكى من أن أستطيع فهمه » • وكانت تصغى باجتهاد شاق محمقة العينين • فلما اندفع ستيفان تروفيموفتش في « التثكيت » ، فأخذ يتهكم على « العقول التقدمية التي تقودنا » حاولت أن تستبدل بالحزن مرحاً وأن ترد على ضحكها بابتسامة ، ولكن محاولتها بلغت من الاخفاق أن ستيفان تروفيموفتش شعر هو نفسه بشيء من الاضطراب ، فأخذ عندئذ يتهجم بعنف وقسوة على « العدميين » ، و « الناس الجدد » ، فارتاعت المسكينة ارتياحاً شديداً • ثم لم يهدأ بالها قليلاً - وكان هدوءاً خداعاً على كل حال - الا حين وصل ستيفان تروفيموفتش من حديثه الى تلفيق رواية حب ، بالمعنى الأصلي لكلمة الرواية • ان المرأة مرأة ولو كانت راهبة • فيها هي ذى الآن تبسم ، وتهز رأسها ، ثم تحمر وتخفض عينيها ، فيزداد ستيفان تروفيموفتش افتتانا ، ويزداد الهامه انتقاداً ، فتكاثرت أكاذيبه في الرواية مزيدا من التكاثر • فإذا بفرقاراً بشروفاً تستحيل الى سمراء فاتنة (« سبت الأفتدة في بطرسبرج وعواصم أوروبا ») ، وكان زوجها قد « قُتل برصاصة في سياستوبول » ، لأنه كان يحس بأنه غير جدير بحب زوجته ، وبأن عليه أن يدع الميدان خالياً لمنافسه ، أى لستيفان تروفيموفتش • « لا تضطربى يا عزيزتى الرقيقة العذبة ، لا تضطربى يا عزيزتى المسيحية الفاتنة ! لقد كان حبنا يبلغ من الروعة ومن اللطافة أننا لم نتصارح عن عواطفنا في يوم من الأيام » • كذلك صاح يقول وقد صدق أكاذيبه هو نفسه • وتابع يقول ان سبب ذلك الموقف انما هو فتاة شقراء (ان لم تكن داريا بافلوفنا ، فمن عسى تكون ؟ حقاً لا أدري !) • فلقد كانت تلك الفتاة الشقراء تدين للسيدة السمراء

بكل شيء ، فالسيدة السمراء هي التي عُنيت بتربيتها وتعليمها من حيث انها تمت اليها بقرابة بعيدة ؛ فلما حزرت السيدة السمراء ما تحمله الفتاة الشقراء له من حب انطوت على نفسها . ولما أدركت الفتاة الشقراء من جهتها ما تحمله السيدة السمراء لستيفان تروفيموفتش من حب انطوت على نفسها هي أيضا . وهكذا انطوى الثلاثة على أنفسهم وظلوا يتألمون صامتين طوال عشرين عاما يعدّ بهم نبل نفوسهم ويرهقهم من أمرهم عسراً . « آه ... يا له من هوى ! يا له من هوى ! » . كذلك صاح يقول وهو يكاد يبكي في سورة من حماسة صادقة . « كنت أراها (السيدة السمراء) في كمال تفتح جمالها ، أراها جريح القلب ، تخطر أمامي خجلة من جمالها (ومرة قال : « خجلة من بدانتها ») . وهرب في النهاية ، مودعاً الى الأبد ذلك الحلم الحار الذي دام عشرين عاما . » عشرون عاما ! والآن ، في الطريق العام ... » . بذلك ختم روايته . ثم ازدادت حمى رأسه فأخذ يشرح لصوفيا ماتفتنا ما دلالة « لقائهما العارض الحاسم الى آخر عصور الدهر أبد الأبدين ! » . فاضطربت صوفيا ماتفتنا أشد الاضطراب ، ونهضت أخيراً عن الديوان . وهمّ عندئذ أن يرتمي جانبا على ركبتيه ، فلفت المرأة المسكينة من الارتياع أن الدموع سالت من عينيها . وكان الليل يهبط ، وهما مختليان في هذه الغرفة المغلقة منذ عدة ساعات .

ددمت تقول :

— لا . الأفضل أن تدعني أذهب الى الغرفة المجاورة . ما عسى يقول هؤلاء الناس جميعا ؟؟؟

وأفلتت أخيرا . وتركها تنضى واعداً اياها أنه سينام فورا . وكان يشكو من صداد شديد على كل حال . ان صوفيا ماتفتنا ، حين دخلت

الغرفة منذ قليل ، قد تركت كيسها وأمتعتها في الغرفة المجاورة ، عاقدة عزمها على أن تبيت ليلتها مع ربة الدار . ولكنها لم تستطع أن ترتاح .

ففي أثناء الليل أصيب ستيفان تروفيموفتش بنسوبة من نوبات الكوليرين التي يعرفها فيه أصدقاؤه والتي كانت تعقب عنده كل توتر عصبي قوى وكل هزة انفعالية . فكذلك قضت صوفيا ماتفثنا ليلتها كلها بغير نوم . واضطرت كأنما لتعتنى بالمريض أن تذهب وتجيء مارةً بالغرفة التي كان ينام فيها رب الدار وزوجته وسائر المسافرين ، فأخذ هؤلاء أخيراً يدمدمون متذمرين ، حتى لقد جعلوا في النهاية يشتمونها حين أرادت في الفجر أن تحضّر السماور . وكان ستيفان تروفيموفتش في شبه غيبوبة ، يحس في بعض الأحيان أنه جئء بالسماور ، وأنه يُجرّع شيئاً ما (هو شراب التوت ساخناً) ، وأن كمادات ساخنة توضع على بطنه وصدره . وكان يحس طوال الوقت «أنها» قرية منه ، وأنها «هى» التي تذهب وتجيء ، وتنهض ثم ترقده ؛ وفي نحو الساعة الثالثة من الصباح شعر بتحسّن . فجلس على سريره ، ثم وضع قدميه على الأرض ؛ وفجأة ، دون أن يحس بما يفعل ، سجد أمام صوفيا ماتفثنا : ولم يكن سجوده اليوم كركوعه بالأمس ، فهو الآن يهوى على قدميها ويقبّل حافة نوبها . فدمدمت المسكينة تقول وهى تحاول أن تنهض وأن تعيده الى سريره :

— ماذا تفعل ؟ اننى لا أستحق .

فقال وهو يضم يديه احدهما الى الأخرى بحركة عبادة :

— أنت مخلصى . « انك نبيلة كمركية ! » (بالفرنسية) وأنا ...
أنا رجل شقى ، انسان بائس ! آه ... اننى لم أكن طوال حياتى الا رجلاً
غير شريف ...

فقلت صوفيا ماتفتنا ضارعةً اليه :

- هدىء نفسك !

- لقد كذبتُ منذ قليل ، كذبتُ غرورا وتبجحا ، كذبتُ كسلاً وبطالةً • كل ما قلته لم يكن الا كذباً ، كل ما قلته ، الى آخر كلمة !
آه ما أشقاني !

هكذا أعقبت نوبة الكوليرين نوبة مذلة • لقد سبق أن أتيح لي أن تكلمت عن تلك النوبات بصدد الرسائل التي كان يكتبها الى فرفاراً بتروفنا • وفجأة تذكر ليز ، ولقاءهما بالأمس فهتف يقول : « فطيع ! لا بد أن شقاء قد حلَّ » ، ولم أسألها عما وراءها ! لم أفكّر الا فى نفسى !
ماذا حلَّ بها ؟ ألا تعرفين ماذا أصابها ؟ •

ثم أخذ يحلف أنه « لن يخون أبداً » وأنه « سيعود اليها » (يقصد فرفاراً بتروفنا) • قال : « سنمر كلَّ يوم أمام بابها (يقصد هو وصوفيا ماتفتنا) ، ساعة تركب عربتها لتقوم بنزعتها الصباحية ، وستأملها بعصمت ... آه ... أريد أن تضربنى على خدى ! ما ألدَّ أن تضربنى على خدى ! وسأمد لها خدَّى الأيسر ، « كما يقول كتابك ! » (بالفرنسية) •
الآن فقط فهمت ما معنى مدَّ الخد الأيسر ... ولم أكن قد فهمته قبل
الآن فى يوم من الأيام ... •

قضت صوفيا ماتفتنا يومين رهيبين • انها ما تزال حتى هذا اليوم لا تتذكرهما الا وترتعد • لقد بلغ ستيفان تروفيوفتش من شدة المرض أنه كان عاجزاً عن ركوب السفينة حين وصلت السفينة فى الساعة الثانية تماماً من بعد الظهر ، فى هذه المرة • ولم تستطع صوفيا ماتفتنا أن تقرر أن تذهب وتتركه وحده ، وعدلت عن السفر الى سباسوف • وقد روت

فيما بعد أن المريض كان سعيدا جدا حين علم أن السفينة سافرت • لقد دمدم يقول وهو راقد على سريره :

- رائع ! حالتى هنا حسنة ، أحسن منها فى أى مكان آخر • لن تركينى ، أليس كذلك ؟ آه ••• لا ••• لم تركينى !

ولكن الواقع أن حالته لم تكن حسنة "هنا" • لقد كان رأسه مليئاً بالأحلام ، فكان لا يريد أن يعرف شيئاً عن المصاعب التى تجتازها صوفيا ماتفتنا • كان يعد مرضه وعكة عارضة • حتى ان فكره كان لا يتلبث عليه ، لانشغاله بشئ آخر : كيف سيسافران معا من مدينة الى مدينة • يبعان هذه الكتب الصغيرة ، • وطلب منها أن تقرأ له الانجيل •

- منذ مدة طويلة لم أقرأ ••• فى النص الأسمى • فاذا سألتى أحد كان يمكن أن أخطئ • فالأفضل أن يكون المرء مستعدا •

جلست صوفيا الى جانبه وفتحت الكتاب • وأخذت تقرأ ، فاذا هو يقطعها منذ أول آية قائلاً لها :

- انك تجيدين القراءة اجادة عظيمة • لقد أخطأ ظنى •••

قال هذه الجملة الغامضة بحماسة • ولقد كان شديد الحماسة دائما على كل حال •

قرأت له خطبة الجبل •

قال لها :

- " كفى كفى يا بنيتى ! " (بالفرنسية) • اتحسين أن هذا غير كاف ؟

وأغمض عينيه منهوكا • لقد كان خائر القوى جدا • لكنه لم يفقد

شعوره بعد • نهضت صوفيا ماتفتفنا ، مفترضةً أنه يريد أن ينام • لكنه استوقفها بحركة من يده :

– صديقتى • لقد ظلمت أكذب طوال حياتى ، حتى حين كنت أقول الحقيقة • لم أتكلم يوما فى سبيل الحقيقة ، بل فى سبيل نفسى • اننى أعلم هذا من قبل ، ولكننى لم أر الا الآن أن ••• آه ••• أين هم أصدقاؤى الذين طالما آذتهم صداقتى ؟ لقد آذيتهم جميعا ، جميعا ! « هل تعلمين ؟ » (بالفرنسية) أننى ربما كنت أكذب حتى فى هذه اللحظة ؟ نعم ، اننى أكذب ، هذا أكيد • المهم اننى أصدق ما أقوله حين أكذب • وأعسر الأمور أن يحيا المرء بدون أن يكذب • نعم ، نعم ، ذلك هو أعسر الأمور قاطبة !

قال هذه الجملة الأخيرة بحماسة شديدة •

قالت صوفيا ماتفتفنا تقترح فى وجل وخشية :

– ستيفان تروفيموفتش ، ألا يحسن أن نستدعى طبيبا من المدينة ؟ فأدهشه هذا الاقتراح الى أقصى حدود الادهاش • وقال لها :

– لماذا ؟ « أنا مريض الى هذا الحد ؟ لا ، ليس هذا بمرض ذى بال ! » (بالفرنسية) • ما حاجتنا الى غرباء ؟ والا علم أننى هنا ، وعندئذ ••• لا ، لا ، لا حاجة الى غرباء ، بل نبقى وحدنا • وحدنا • وحدنا •••

وقال بعد لحظة صمت :

– اسمعى • اقترئى لى شيئا آخر فى كتابك ، دون اختيار ، على المصادفة ، ما يقع تحت بصرك •••

ففتحت صوفيا ماتفتفنا الكتاب وأخذت تقرأ • فكان ستيفان تروفيموفتش يردد :

- على المصادفة ، دون اختيار ، أى شئ ...

« واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكيين » .

- ما هذا ؟ من أين هذا ؟

- من رؤيا يوحنا .

- « آ ... نعم ... تذكرت ... رؤيا يوحنا ... اقرئ ... اقرئ »

(بالفرنسية) . قلت لنفسى اننا اذا فتحنا الكتاب على المصادفة سنكتشف مستقبلا . أريد أن أعرف ما الذى وقعت عليه من الرؤيا . اقرئ بعد كلمة « الملاك » ، « الملاك » ...

« واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكيين : هذا يقوله الأمين الصادق ، الأمين الشاهد بداءة خليفة الله . أنا عارف أعمالك . لست بارداً ولا حاراً . ليتك كنت بارداً أو حاراً . فلأنك فاتر ، ولست بارداً ولا حاراً ، أنا مزعج أن أتيأك من فمى . أنت تقول انى أنا غنى وقد استغنيت ولا حاجة بى الى نىء . ولا تعلم أنك شقى وبائس وفقير وأعمى وعريان ! » . هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أنهض رأسه متقد العينين :

- هذا ... وهذا فى كتابك . لم أعرف فى حياتى هذه الصفحة الرائعة . أسمعين : لأن تكون بارداً ، بارداً ، خير من أن تكون فاتراً ، من أن تكون فاتراً « فحسب » . آه ... لسوف أبرهن ... ولكن لا تتركينى ، لا تهجرينى ! لسوف أبرهن لهم ، لسوف أبرهن لهم ! قالت وهى تمسك يديه وتشدهما وتحملهما الى قلبها :

- لا يخطر ببالى أن أتركك ياستيفان تروفيموفتش . لن أتركك أبداً .

وكانت تنظر اليه بعينين مليتين بالدموع . « كنت أشعر نحوه باشفاق شديد فى تلك اللحظة » . كذلك روت تقول فيما بعد .

• وأخذت شفتا ستيفان تروفيومفتش تحتلجان •

– ولكن ما العمل الآن يا ستيفان تروفيومفتش ؟ يجب أن نبلغ
أصدقاءك أو أقربائك ...

ولكنه بلغ من شدة الذعر حين سمع هذه الكلمات أنه ندم على إثارة
هذه المسألة من جديد • فتوسل إليها أن لا تستدعي أحدا ، وأن لا تشرع
فى القيام بأى شئ ، توسل إليها وهو يرتعش ارتعاشا شديدا • وكان يلح
الحاحاً قوياً ويصر على أن تعاهده بأن « لا تبلغ أحداً ، أن لا تبلغ أحدا
البتة ، فبقى وحدنا ، و « ناسف معا » (بالفرنسية) •

وأسوأ من ذلك أن صاحب الدار وامرأته أخذا يقلقان ، وأخذا
يتذمران ، وأخذا يعدّان صوفيا ماتفقنا • فدفعت لهما وأرتهما أنها
ما تزال تملك مالا • فهدهما ذلك بعض الوقت ، ولكن الرجل طلب
جواز سفر ستيفان تروفيومفتش • فأشار المريض بيده الى حقيته الصغيرة
وهو يتسم ابتسامة تعالٍ واحتقار ، فوجدت صوفيا فى الحقيبة قرار احالته
على التقاعد أو ورقة أخرى من هذا النوع ، وهى الورقة التى أقام بها فى
المدينة حتى ذلك الحين • ومع ذلك ظل صاحب البيت يلح على ضرورة
نقله الى مكان آخر « لأن بيتنا ليس مستشفى ، ولأننا سوف نلقى ازعاجات
كثيرة اذا مات • فاستشارته صوفيا ماتفقنا فى أمر طيب تستدعيه ، فقال
ان استدعاء الطبيب من المدينة يكلف نفقات باهظة لا قبل لها بها ، فعدلت
عن فكرتها • وعادت الى قرب المريض الذى انهارت قواه انهيارا شديدا •
لقد كان ستيفان تروفيومفتش يضعف مزيدا من الضعف ساعة بعد
ساعة •

قال لها المريض :

– والآن اقرئى لى تلك الصفحة ... عن الخزائير •

فقلت له مرتاعة :

— كيف ؟

— عن الخنازير ... « أولئك الخنازير ، ... أذكر أن الشياطين دخلت فى خنازير هلكت جميعا . أقرئى لى تلك الصفحة حتما . سأقول لك السبب فيما بعد . أريد أن أتذكر تلك الصفحة كلمة كلمة . يجب أن أتذكرها .

وكانت صوفيا ماتفتنا تعرف الانجيل جيدا ، فسرعان ما وجدت تلك الصفحة من انجيل لوقا ، التى صدرت بها نصتى هذه . وهأنذا أكررها هنا :

« وكان هناك قطع كبير من الخنازير يرعى فى الجبل ، فنضرعت الشياطين الى يسوع أن تدخل فى الخنازير . فأذن لها . فخرجت من ذلك الانسان ودخلت فى الخنازير . فاندفع القطيع من أعلى الجرف الى البحيرة ، وغرق فيها . فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ فى المدينة وفى القرى . فخرج الناس ليروا ما جرى ، فلما وصلوا الى قرب يسوع وجدوا الانسان الذى كانت الشياطين قد خرجت منه ، وجدوه لابساً ثيابه ، مالكا عقله ، جالسا عند قدمى يسوع . وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون . »

قال ستيفان تروفيموفتش متأثراً متأثراً قوياً :

— اسمعى يا صديقتى ... ان هذه الصفحة الرائعة ... الخارقة ... كانت لى دائماً حبر عشرة ... « فى هذا الكتاب » (بالفرنسية) ... لذلك احتفظت بها فى ذاكرتى منذ طفولتى . غير أن فكرة وافتنى الآن ، فكرة هى تشييه أو « مقارنة » . ان أفكاراً كثيرة توافينى الآن . اسمى : هذه هى روسيا تماما . ان هؤلاء الشياطين الذين يخرجون من المريض

ليدخلوا فى الخنازير هم جميع الجراح والعفونات والقذارات والشياطين الصغيرة والكبيرة التى تراكمت خلال القرون فى مريضنا الغالى العظيم ، فى روسيا ! « نعم ، فى روسيا هذه التى أحبتها دائماً » (بالفرنسية) . غير أن فكرة رائعة ، وإرادة جبارة ستهبطان عليها من السماء ، كما هبطتا على ذلك المجنون . وستخلص من جميع الوساخات والتانات التى ستطلب هى نفسها أن تدخل فى الخنازير . بل لعلها قد دخلت منذ الآن ... انها نحن ، نحن وأولئك ، بتروشا ... « والآخرون معه » (بالفرنسية) ، وربما أنا أيضاً فى طليعتهم . سوف نهوى من أعلى الجرف الى البحر كمجانين مسجورين ، وسوف نهلك جميعا . وهذا خير . اتنا لا نصلح لغير ذلك . ولكن المريض سوف يشفى ، وسيجلس عند « قدمى يسوع » ، سينظر الجميع اليه مدهوشين ... عزيزتى ... « سوف تفهمين فيما بعد ... سوف نفهم معا » (بالفرنسية) .

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك وأخذ يهذى ، وأُغمى عليه أخيراً . فأخذت صوفيا ماتمفنتنا تبكى جالسةً بقربه . انها لم يغمض لها جفن منذ ثلاث ليال ، وهى تتحاشى صاحب البيت وامراته اللذين كان يهينان شيئاً كما تحس بذلك صوفيا . ولم يأت الخلاص الا فى اليوم الثالث . وفى الصباح عاد الى ستيفان تروفيموفتش شعوره ، وتعرفت المرأة ومدت اليها يده . فرسمت اشارة الصليب ، واستردت أملها . وأراد أن ينظر من النافذة ، فقال : « هه ! هذه بحيرة ! يا الهى ! لم أرها من قبل ؛ وانه ليقول هذا الكلام اذ سمعت قرقة عربة وقفت أمام الباب . فسرعان ما أثار وصولها هرجاً خارقاً فى المنزل كله .

انها فرفارا بتروفنا بشخصها تصل على عربة ذات أربعة أحصنة مع خادمين وداريا بافلوفنا . لقد حدثت هذه المعجزة ببساطة تامة . فان آتيسيم كان غداة وصوله الى المدينة يعذبه حب الاطلاع والفضول ، فمضى

يروى لخدم فرقارا بتروفا أنه رأى ستيفان تروفيومفتش وحيداً في قرية من القرى ، وأن الفلاحين قد لقوه ماشياً في الطريق العام ، وانه سافر الى سبا سوف . واذ أن فرقارا بتروفا كانت من جهتها شديدة القلق منذ ذلك الحين ، وكانت قد أرسلت تبحث عن الهارب في كل مكان ، فقد قادوا اليها آنيسيم . فلما سمعت ما رواه ، ولا سيما التفاصيل المتعلقة بسفر ستيفان تروفيومفتش الى أوستيوف بعربة مع امرأة اسمها صوفيا ماتفتننا ، أسرعّت تستعد فوراً ، واندفعت في اثر الهارب الذي ما تزال تجهل أنه مريض .

حين دوى صوتها القاسي الصارم ، خاف حتى صاحب البيت وامراته . انها لم تتوقف هناك الا سائلة ، لاقتناعاً بأن ستيفان تروفيومفتش لا بد أن يكون قد سافر الى سبا سوف منذ مدة طويلة . فلما علمت أنه ما يزال هنا وأنه مريض دخلت العزبة منفعةً أشد الانفعال .

وصاحت تسأل حين رأت صوفيا ماتفتننا التي ظهرت لحظتها في عتبة الغرفة الثانية :

— أين هو ؟ لقد حزرت فوراً من هيتك الوقحة أنك أنت . اخرجني من هنا أيتها الوعدة ! أخرجوها من هنا ، اطردوها ، والا فسأجملك تسجنين الى آخر حياتك يا عزيزتي . لقد سبق أن سُجنت في المدينة ، وستعود الى السجن . لا يسمح أحد لنفسه بأن يدخل الى هنا ما بقيت أنا أيها السيد . أنا الجنرالة ستافروجين ، واني أستأجر البيت كله . وأنت يا عزيزتي ، ستُحاسِن على كل شيء .

اضطرب ستيفان تروفيومفتش عند سماع هذا الصوت الذي يعرفه جيداً . وأخذ يرتعد . ولكن فرقارا بتروفا كانت قد دخلت الى ماوارء الحاجز . وجسرت بقدمها كرسيّاً وهي متقدة العينين ، وجلست ، ثم ارتدت بجذعها الى المسند وصرخت تقول لداثنا :

– اذهبي الى الغرفة الثانية ، ابقى قليلاً مع صاحب البيت وامراته •
ما هذا الفضول ؟ وأحكى اغلاق الباب وراءك •

وظلت خلال بضع لحظات تتفرس صامتةً بنظرة صقر في وجه
ستيفان تروفيموفتش المذعور • ثم قالت أخيراً تسأله بسخرية حائقة
ساخطة :

– هيه ، ستيفان تروفيموفتش ، كيف صحتك الآن ؟

فأجابها يقول طائش اللب :

– « أيتها العزيزة » (بالفرنسية) ... لقد تعلمت معرفة الواقع
الروسي ... وسأعود الى الانجيل •

فصرخت تقول مفتاة ضامة يديها :

– آه ... أيها الرجل الفاسق ، أيها الرجل الذى لا نبل له ! لم
يكفك أن جلمتني بالعار ، بل كان لا بد لك من الارتباط أيضا ... آه
... أيها المعجوز الداعر !

– « عزيزتى » (بالفرنسية) •

واختنق صوته فى حلقه • فلم يستطع أن يضيف كلمة واحدة ،
واكتفى بأن نظر اليها مستدير العينين من الرعب •

– من هذه ؟

– « هذه ملاك ... هذه أكثر من ملاك عندى » (بالفرنسية) ...
لقد ظلت طوال الليل ... لا تصرخى ، لا تخيفها ، « عزيزتى ، عزيزتى ،
(بالفرنسية) ...

وثبت فراراً بتروفاً عن كرسيها ودفعته عنها بقرعة ، وصاحت

تقول مروّعة : « ماء ! ماء ! » • وثاب المريض الى نفسه ، ولكنها ظلت ترتعش من الخوف ، وتتنظر في وجهه المتشنج شاحبة اللون • انها في تلك اللحظة انما أدركت مدى خطورة مرض ستيفان تروفيموفتش •

قالت بصوت خافت تخاطب داريا بافلوفنا :

- داريا • استدعى الدكتور سالزفيش حالاً • فليسافر ايجور على الفور ، فليستأجر حصاناً • وليركب في المدينة عربية أخرى ليصل الى هنا مع سالزفيش قبل الليل •

خرجت داريا راكضة • وكان ستيفان تروفيموفتش ما يزال ينظر تلك النظرة الثابتة الجامدة المرتاعة ، وكانت شفقاء الصفراوان تحتلجان •

قالت فر فاراً بتروفا تخاطبه ملحةً كما يخاطب طفل :

- هدى نفسك ياستيفان تروفيموفتش • هيا • عليك بشيء من الصبر • سترجع داريا ••• وعندئذ ••• يا الهى ! يا ريّسة ••• يا ريّسة ••• تعالى ••• تعالى حالا !

كذلك نادى صاحبة البيت • ثم هُرعت تبحث عنها بنفسها من نفاد صبرها •

- أرجعوا « الأخرى » حالاً • نادوها • بسرعة • بسرعة •

من حسن الحظ أن صوفيا ماتفتنا لم تكن بعيدة : لقد رحلت منذ لحظة قصيرة بكيستها وحزمتها الصغيرة • أعادوها • كانت يداها وساقاها ترتعش خوفاً • وكما بنقض باز على صوص أسسكتها فر فاراً بتروفا من ذراعها وجرتّها الى عند ستيفان تروفيموفتش :

- هى ذى • لم أكلها ! كنت تظن أننى أكلتها •

تناول ستيفان تروفيموفتش يد فرفارا بتروفنا ، وحملها الى عينه ،
وأخذ يبكى طائش العقل •

— طيب ، طيب ، هدىء نفسك يا عزيزى • رباه ! ولكن هلاّ هدأت
نفسك ! آه جلاد جلاد

كذلك زعقت على حين فجأة •

قدمم ستيفان تروفيموفتش يقول ملتفتا نحو صوفيا ماتفتفنا :

— عزيزتى ، اذهبي لحظة الى هناك ، الى الغرفة الثانية أريد أن
أقول بضع كلمات

فأسرعت صوفيا ماتفتفنا تخرج •

— « عزيزتى عزيزتى » (بالفرنسية) •

كان يختنق • فقالت له فرفارا بتروفنا !

— لا تتكلم يا ستيفان تروفيموفتش ، انتظر قليلا • استرح الآن •
اليك ماء • ولكن انتظر ! قلت لك انتظر !

وجلست الى جانبه من جديد ، وحظرت عليه أن يتكلم • كان
ستيفان تروفيموفتش يضغط يدها بيديه ضغطا قويا • وها هو ذا يحمل هذه
اليد فجأة الى شفتيه ويقبلها • فكانت فرفارا تحدّق الى ركن من الغرفة
كأزة أسنانها •

وأقلت منه أخيرا قوله :

— « لقد أحبتك » (بالفرنسية) •

لم يسبق أن قال لها فى يوم من الأيام كلمة كهذه الكلمة ، وبهذه
اللهجة أيضا •

فهمهمت تقول :

— هم ؟ ...

— « لقد أحبيتك طوال حياتي ... عشرين عاما ! » (بالفرنسية) •

فلزمت الصمت دقيقتين أو ثلاثا • ثم قالت فجأة بصوت مختق ولكنه مهدد :

— ومن أجل أن يمثل أمام داشا تعطر وتطيب •

فصعق ستيفان تروفيموفتش •

— ... ووضع رباط عنق جديدة ...

صمتا مرة أخرى •

— والسيجار ، هل تتذكره ؟

حاول أن يحتج فقال مثاثا :

— صديقتي ...

— السيجار ، مساء ، قرب النافذة ... في ضوء القمر ... بعد

العريشة ... بسكفورشنيكى ؟ هل تتذكر ؟ هل تتذكر ؟

كذلك همست وهى تهض فجأة ، وأمسكت طرفى الوسادة التى كان
يرقد عليها رأس ستيفان تروفيموفتش وأخذت تهزهما • وتابعت تقول :

— ... هل تتذكر أيها الرجل الطائش ، الخفيف ، الذى لا حشمة

فيه ولا حياة له ، أيها الرجل التافه ، التافه كل التافهة !

أصبح صوتها من فرط الغضب صافراً ، ولكنها حاولت أن تخفقه •
وتركت الوسادة أخيراً ، وتهالكت على الكرسي وغطت وجهها بيديها • ثم
قالت وهى تهب واقفة :

- كفى ! عشرون عاما مضت ولن تعود • ما أنا الا حمقاء !

قال هو يضم يديه :

- « لقد أحبتك » (بالفرنسية) •

- ما بالك تكرر هذا الكلام « أحبتك ، أحبتك » •

وهبتت تقف مرة أخرى • وقالت له :

- اذا لم تتم فوراً فاننى ... انك فى حاجة الى هدوء • نَمْ ، نَمْ
حالا ، أغمض عينيك • رباه ! لعله يريد أن يعصب شيئاً من الطعام ؟ ماذا
تأكل ؟ ماذا يأكل ؟ رباه ! أين الأخرى ؟ أين هى ؟

وعاد الاضطراب • لكن ستيفان تروفيموفتش قال بصوت ضعيف انه
يريد فعلاً أن ينام « ساعة » ، وبعد ذلك يشرب « مرقاً ساخناً أو شاياً...
وانه حقا سعيد » (بالفرنسية) • وتمدد ، وبدأ عليه أنه نام (لعل ذلك
لم يكن الا تظاهرا) • فانتظرت فرفارا بتروفا لحظة ، ثم خرجت ماشية
على رموس الأصابع •

واستقرت فى الغرفة الأولى ، وأخرجت صاحب البيت وامراته ،
وفالت لداشا أن تأتيا بالأخرى التى شرعت فرفارا بتروفا تستجوبها
استجوابا كاملاً حسب الأصول •

- حدثينى الآن عن كل شىء • اجلسى هنا ، الى جانبى ، هيه ؟

- لقيت ستيفان تروفيموفتش ...

- قفى ، اسكتى • اعلمى أنك اذا كذبت أو أخفيت شيئاً فلن تغفلتى
من قبضتى ولو ذهبت الى آخر ركن فى العالم • هيه ؟

- ... لقيت ستيفان تروفيموفتش ... منذ وصولى الى حاتوفو ...
كان صوت صوفيا ماتفنفا يهتق •

- انتظري ، اسكتي ! يا لها من ثرثرة ! أولاً ، من أنت ؟

روت المرأة سيرة حياتها منذ سياستوبول بكلمات قليلة كيفما
اتفق • وكانت فرفارا تجلس منتصبه القامة ، وتصفي اليها صامته ، محدقة
بعينها الى عيني محدثتها •

- مالي أراك وجلة هذا الوجل كله ؟ ما بالك تطرقين الى الأرض ؟
أحب الذين ينظرون الىّ مواجهةً ويناقشونني مناقشة • أكمل •

وصلت صوفيا ماتفتشنا من حديثها الى لقائهما ، والى «الكتب الصغيرة» ،
والى الفودكا التي قدمها ستيفان تروفيموفتش الى الفلاحة • فقالت لها
فرفارا بتروفا لتشجعها :

- أحسنت ، أحسنت ! لا تهمل أي تفصيل من التفاصيل •
وتابعت صوفيا كلامها :

- وكان ستيفان تروفيموفتش لا ينقطع عن الكلام ، ولكنه كان
مريضاً منذ ذلك الوقت • وهنا روى لى سيرة حياته كلها منذ البداية ، خلال
عدة ساعات •

- ماذا قال لك عن حياته ؟

ارتج على صوفيا ماتفتشنا • ثم دمدمت تقول أخيراً وهى تكاد تبكى :

- لا أدري • ثم اننى لم أكد أفهم من كلامه شيئاً •

- غير صحيح : يستحيل أن لا تكونى قد فهمت شيئاً •

قالت صوفيا وقد احمر وجهها احمراراً شديداً اذ لاحظت أن فرفارا
بتروفا شقراء ، وأنها لا تشبه السيدة السمراء التى تحدث عنها ستيفان
تروفيموفتش أى شبه :

- تكلم كثيراً عن سيدة سمراء عالية المقام •
- سيدة سمراء ؟ من عساها تكون ؟ أكملى •
- قال ان هذه السيدة السمراء كانت مولّهةً بحبه طوال عشرين
عاما ، ولكنها لم تجسر أن تصارحه بذلك يوما ، وانها كانت تستحي من
فرط بدانتها •
- يا للغبى !
كذلك قالت فرفارا بتروفا بلهجة قاطعة ، وشرذ ذهنها مع ذلك •
لم تستطع صوفيا ماتفتنا أن تحبس دموعها أكثر مما حبستها الى
الآن ؟
- لا أستطيع أن أروى لك مزيداً ، لأننى كنت خائفة عليه
خوفا شديدا فلم أستطع أن أفهم عنه... انه ذكى جدا ...
- ليس لحقاء مثلك أن تحكم على ذكائه • هل خطبك للزواج ؟
ارتجفت صوفيا ماتفتنا •
- هل أحبك ؟ تكلمى ! هل طلب أن يتزوجك ؟
قالت صوفيا ماتفتنا من خلال دموعها :
- تقريبا •
ثم أضافت تقول بصوت ثابت وهى ترفع رأسها :
- لكننى لم انتبه الى هذا كله ، بسبب مرضه •
- ما اسمك ؟
- صوفيا ماتفتنا •
- طيب • اعلمى يا صوفيا ماتفتنا أن هذا رجل تافه كل التفاهة ...
رباه ! لا بد أنك تنظرين الى نظرتك الى امرأة شقية ، هه ؟

حملت الأخرى • وتابمت فرفارا :

- امرأة شقية ، امرأة طاغية حطمت حياته ، مه ؟

- كيف يكون هذا ممكناً وأنت نفسك تبكين ؟

كانت عينا فرفارا بتروفا مغرورقنين بالدموع فعلاً •

- هيا ، اجلسى ، لا تخافى • انظرى الى وجهها لوجه مرة أخرى •
لماذا تحمرّين ؟ داشا ، تعالى الى هنا ، انظرى اليها ! ما رأيك ؟ هل قلبها
طاهر نقى ؟

وما كان أشد دهشة صوفيا ماتفتننا وما كان أشد رعبها أيضا حين
ربت فرفارا بتروفا على خدّها •

- المؤسف فقط أنك غيبة ، غيبة جدا بالقياس الى سنك • سوف
أعتنى بك • انتى أرى الآن أن الأمر لا يعدو أن يكون سفاسف • أقمى
هنا الآن • سأدفع عنك كراء الغرفة ونمن الطعام وما عدا ذلك • وسوف
أستدعيك •

حاولت صوفيا ماتفتننا أن تعترض فى وجل بأنها يجب أن تسافر •
فقلت لها فرفارا بتروفا :

- فيم العجلة ؟ سوف اشترى جميع كتبك • ابقى هنا • اسكتى •
لا أريد أن أسمع شيئا • لو لم أصل أنا لما تركته انت ، أليس كذلك ؟

قالت صوفيا ماتفتننا بلهجة قاطعة وهى تجفف دموعها :

- ما كان لى أن أتركه قط •

وصل الدكتور سالزفيس فى ساعة متأخرة من الليل • انه شيخ
محترم جدا ، وطبيب ممارس ذو خبرة قد ترك الخدمة منذ مدة قصيرة

على أثر مشاجرة قامت بينه وبين الادارة • فسرعان ما صار في حماية
فرفارا بتروفنا • فحص المريض بانتباه وتدقيق ، وألقى عليه عددا من
الأسئلة ، ثم أعلن لفرفارا بتروفنا ، مع كل المداراة الممكنة ، أن حالة
المريض مقلقة جدا ، وأنه يجب « توقع تفاقمها » • فاضطربت فرفارا
بتروفنا اضطرابا شديدا بعد أن ألفت منذ عشرين سنة الى الآن أن لا تأخذ
مأخذ الجد أى أمر يتعلق بستيغان تروفيموفتش • وشحب لونها شحوبا
شديدا •

— أليس هناك أى أمل حقا ؟

— لا يمكن القول اننا فقدنا كل أمل ، ولكن ...

لم ترقد فرفارا بتروفنا طوال الليل ، منتظرة طلوع النهار بفارغ
صبر • وما ان فتح المريض عينيه وعاد اليه شعوره (كان ما يزال يملك
وعيه كاملا ، ولكن قواه كانت تتناقص تناقصا سريعا) حتى اقتربت منه
عازمة أمرها ، وقالت له :

— ستيغان تروفيموفتش ، يجب توقع كل شيء • لقد أرسلت في
طلب كاهن • عليك أن تقوم بواجبك •

لقد كانت تخشى ، وهى تعرف اعتقاداته ، أن يرفض حضور الكاهن •
لذلك أسرعَت تصرخ منذ نظر اليها مدهوشا ، اذ تخيلت أنه سيرفض •
قالت :

— سخف ! سخف ! ليس الأمر أمر سفاسف وترهات الآن ! لقد
مزحت بما فيه الكفاية !

— ولكن ... هل حالتى سيئة الى هذا الحد ؟

ووافق على حضور الكاهن شارد اللب • لقد علمت فيما بعد ،

مدهوشا أشد الدهشة ، علمت من فم فرفارا بتروفنا نفسها ، أنه لم يخف من الموت أى خوف • لعله لم يصدق أنه سيموت ، لأنه ظل يعد مرضه أمراً تافهاً لا قيمة له •

واعترف للكاهن وتناول القربان المقدس راضيا كل الرضى • حتى اذا انتهى من تلقى الأسرار ، أقبل عليه الجميع ، ومنهم صوفيا ماتقنفسا والخدم ، يهثونه • وقد لقوا عناءً كبيراً فى حبس دموعهم حين رأوا وجهه الناحل المهدود ، وشقيقه اليضاوين اللتين كانتا تختلجان •

– « نعم يا أصدقائي » (بالفرنسية) ••• وانى ليدهننى فقط أن أراكم منشغلين هذا الانشغال كله ••• غداً قد أنهض ••• فنسافر ••• » ان هذا الاحتفال كله « (بالفرنسية) الذى أشعر نحوه بأكبر الاحترام طبعاً ، انما كان •••••

أسرعت فرفارا بتروفنا تتدخل مخاطبة الكاهن الذى كان قد نضا عنه ملابس الكهنوت فقالت :

– أرجوك يا أبى أن تبقى بقرب المريض • وأرجوك متى قدمت الشئ أن تتحدث فى أمور الهية تعزيزاً لا يمان المريض •

فبدأ الكاهن كلامه فقال بصوت متساوٍ رتيب ، بينما كان يحمل فنجان الشئ بيده :

– فى عصرنا هذا الذى بلغت فيه الخطيئة هذا المبلغ من القوة ، فان الملاذ الوحيد للجنس البشرى فى وسط آلام الوجود ومحن الحياة ، انما هو الايمان بالله ، والأمل فى السعادة الأبدية التى وُعد بها الصالحون ••• ظهر على ستيفان تروفيموفتش أنه انتعش ، وانسابت على شفقيه ابتسامة ناعمة رقيقة •••

« شكرآ يا أبت ، وانك لطيب جدا ، ولكن ... » (بالفرنسية) •

« لا » لكن « أبداً ... لا » لكن « البتة !

كذلك صاحت تقول فر فارا بتروفنا واثبة عن كرسيتها • وتابعت كلامها تقول للكاهن :

« أبت ، هذا رجل ، رجل ... سيكون من الواجب حمله على الاعتراف مرة أخرى بعد ساعة ... ذلك هو نوع هذا الرجل !
اتسم ستيفان تروفيموفتش ابتسامة محتشمة خفية • وقال :

« يا أصدقائي ، ان الله ضرورة لى ، ، لأنه الموجود الوحيد الذى يمكن أن يحبه المرء حباً أبدياً ... »

تُرى أكان يؤمن بهذا الكلام فعلاً ، أم أن فخامة الاحتفال قد بثت فى نفسه الاضطراب اذ أيقظت عاطفة الفنان التى تتصف بها طبيعته ؟ مهما يكن من أمر ، فانه ، كما يقال ، قد قال بلهجة جازمة نافذة بضعة أقوال تناقض آراءه القديمة مناقضة واضحة •

« ان خلودى ضرورة لازمة ، لمجرد أن الله لن يشاء أن يرتكب ظلماً يطفىء الى الأبد العاطفة التى اشتعلت فى قلبى حباً له • وأى شئ آمن من الحب ؟ ان الحب فوق الموجود قيمة ، انه تاج الموجود • فكيف يكون ممكناً أن لا يخضع له الموجود ؟ اذا كنت قد أحببت الله وسعدت بهذا الحب ، فهل يمكن أن يطفئنا الله ، أنا وحبى ، وأن يفرقنا فى العدم ؟ اذا كان الله موجوداً فأنا خالد ! ذلكم هو « اعلانى لمبادئى » (بالفرنسية) •

قالت فر فارا ملحة بصوت ضارع :

« الله موجود ، يا ستيفان تروفيموفتش ، أؤكد لك أن الله موجود •
فأنكر تلك السخافات كلها ، وانبذها ، ولو مرة واحدة فى حياتك •

أغلب الظن أنها لم تفهم « اعلانه لمبادئه » •

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزداد حماسة ، لحظة بعد لحظة ، غير
أن صوته لا يسهفه :

- صديقتى ... حين فهمت اليوم ... مدّ الخد الأيسر ...
فاننى ... فاننى ... فهمت على الفور شيئاً آخر أيضاً ... « لقد كذبت
طوال حياتى » (بالفرنسية) ... نعم ، طوال حياتى ! وأريد ... على
كل حال ... أريد ... غداً ... أن نسافر كلنا معاً ...
أخذت فرفارا بتروفنا تبكى • وكان ستيفان تروفيموفتش يبحث
بعينه عن شىء ما •

- هى ذى ، انها هنا !

كذلك قالت له فرفارا بتروفنا ، وأمسكت صوفياً ماتفتئنا من يدها ،
وقادتها الى قربه • فابتسم ابتسامة فيها رقة وحنان • وقال وهو يتنفّض
انتفاضة قوة :

- آه ... لكم أود لو أعيش أيضاً ! ان كل دقيقة ، بل كل لحظة ،
يجب أن تكون فرصةً للانسان ... نعم ... ذلك ما يجب أن يكون •
واجب الانسان أن يفعل ما يجعل هذا واقعاً • ذلك قانون الانسان ...
هو قانون خفى لكنه واقع • لكم أود أن أرى بتروشا ... والجميع ...
وشاتوف !

يجب أن أذكر فى هذه المناسبة أن أحداً لم يكن قد سمع شيئاً عن
شاتوف بعد ، لا داريا بافلوفنا ، ولا فرفارا بتروفنا ، حتى ولا الدكتور
سالزفيس الذى وصل من المدينة •

وكان اضطراب ستيفان تروفيموفتش يزداد ساعةً بعد ساعة ، وكان
هذا الاضطراب ينهك قواه •

- يكفي أن أتصور أن هناك شيئاً أعدل منى بما لا نهاية له ، وأسعد منى بما لا نهاية له ، حتى يملأني ذلك حنانا واسعا وأن يملأني شعورا بالمجد ، كائنًا من كنت أنا ، وفعالاً ما فعلت . لا يحتاج الانسان الى سعادته الخاصة كاحتياجه الى أن يعرف ويؤمن في كل لحظة أن هناك فى مكان ما سعادة مطلقة وسلاما لجميع الناس ولكل الأشياء ... قوام قانون الحياة البشرية كله أن يكون فى وسع الانسان أن ينحني أمام شيء عظيم عظيمة لا نهاية لها . فاذا حُرِمَ البشر من هذا الشيء الذى لا نهاية لعظمته رفضوا أن يعيشوا وماتوا فى اليأس . اللانهاية والمطلق لا غنى للانسان عنهما ، كما لا غنى له عن هذه الأرض التى يعيش عليها ... يا أصدقائي ، جميعاً جميعاً ! عاش « الفكر العظيم » ! الفكر الأبدى ، اللانهائى ! لا غنى لكل انسان ، كائنًا من كان ، عن الانحناء أمام الفكر العظيم . ان أغنى انسان فى حاجة الى شيء عظيم . بتروشا ... آه ... لكم أود أن أراهم مرة أخرى جميعاً ! انهم لا يعرفون ، لا يعرفون أنهم هم أيضاً تنطوى نفوسهم على ذلك « الفكر العظيم » ، ذلك الفكر الأبدى !

لم يكن الدكتور سالزفرض قد حضر الاحتفال . فلما عاد فجأة ارتاع وأخرج جميع الناس ملحاً على أن يتركوا المريض هادئاً .

مات ستيفان تروفيموفتش بعد ثلاثة أيام . ولكنه فقد الشعور قبل ذلك بكثير . ولقد توفى بهدوء ورفق كما تذوب شمعة . وقد أمرت فرفاراً بتروفتنا باقامة قداس فى غرفة الموتى ، وأرجعت جثمان صديقها العزيز الى سكفورشينكى ، وجعلت قبره فى حرم الكنيسة ، وكست القبر بشاهدة من مرمر ، وأحاطته فى الربيع بسياج من حديد مشبك .

دامت اقامة فرفاراً بتروفتنا فى أوستيفو ثمانية أيام . وقد اصطحبت فى عودتها صوفيا ماتفتنا التى أقامت عندها منذ ذلك الحين اقامة أظن أنها

ستكون دائمة • يجب أن نذكر أن فرارا بتروفا ، منذ اللحظة التي غاب فيها عن ستيفان تروفيومفتش شعوره ، قد أبعدت البائسة المتجولة ، بل طردتها من العزبة ، وظلت تعنى بالمريض وحدها الى آخر لحظة • ولكن ما ان لفظ المريض آخر أنفاسه حتى استدعت صوفيا ماتفتفنا ، وعرضت عليها أن تقيم في سكفورشنكي (بل قل أمرتها بذلك) ، فلما حاولت صوفيا أن تعترض خجلت وجلت ، لم تشأ فرارا بتروفا أن تسمع شيئاً ، وقالت :

— هذه كلها سخافات ! سامضى معك أبيع أناجيل • لم يبق لي أحد في هذا العالم !

فقال سالزفيش :

— ولكن لك ابناً !

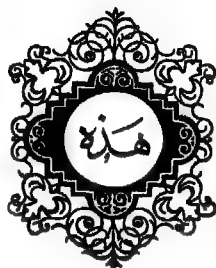
فقالت بلهجة قاطعة :

— لا بل لم يبق لي ابن •

لكنها كانت تقرأ المستقبل وتعلم الغيب •

الفصل الثامن

خاتمة



الجرائم كلها ، وهذه الفظائع كلها قد اكتشفت بسرعة كبيرة ، بسرعة أكبر مما كان يُقدَّر بطرس ستيفانوفتش . ففي ليلة مقتل شاتوف استيقظت المسكينة ماريا اجنايفنا قبل الفجر . فبحنت عن زوجها بعينها فلم تجده بقربها فجئنت قلقاً . وحاولت المرأة العجوز التي تركها آرينا بروخورفنا الى جانبها وباتت معها في الغرفة حاولت أن تهدئها ولكنها لم تظفر بطائل . ولذلك ما ان طلع النهار حتى ركضت الى بيت آرينا بروخورفنا التي لا بد ، كما قالت للمريضة ، أن تعرف أين يوجد شاتوف ومتى يعود . وفي أثناء ذلك كانت آرينا بروخورفنا تشعر هي أيضاً بأشد القلق : فان زوجها قد قصَّ عليها ما جرى الليلة البارحة في حديقة سكفورشنيكى . ان فرجنسكى قد رجع الى داره في نحو الساعة الحادية عشرة من المساء على حالة من الجزع يُرئى لها . وقد تهالك على سريريه وهو لا ينى يردد عاقفا يديه ذارفا دموعه : « ليس هذا ، ليس هذا أبداً » . وفى النهاية اعترف لآرينا بروخورفنا بكل شيء طبعاً . ولكنه اعترف لها وحدها . فأمرته آرينا بروخورفنا بأن يبقى راقداً وقالت له بلهجة قاسية ان عليه اذا أراد البكاء أن يدفن رأسه في الوسادة حتى

لا يستطيع أحد أن يسمعه ، وانه سيكون غيبا اذا لم تتحسن
 سحته في الند . وقررت مع ذلك أن تتخذ بعض الاحتياطات استعدادا لأي
 طارىء ، فحرقته أو أخفت الأوراق أو الكتب الخطيرة ، والمنشورات
 التحريضية . وفكرت في الأمر فقالت لنفسها انه ما خطر يهددها هي
 أو يتهدد أختها أو الطالبة أو أخاها شيجالوف على كل حال . فلما جاءت
 العجوز في الصباح مضت الى ماريا اجنايفنا بغير تردد . لقد كانت تريد أن
 تعرف أيضا ، بأقصى سرعة ، ما الذي انتهت اليه الآمال التي كان يعقدها
 بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف ، والتي حدثها عنها فرجنسكى زائع
 الهية تماما .

ولكن وصولها الى عند ماريا اجنايفنا كان متأخرا : فان ماريا وقد
 وجدت نفسها وحيدة لم تطلق صبرا على البقاء في البيت فنهضت وألقت على
 جسمها ما وقع تحت يدها من لباس - وهو ثوب رقيق جداً لا يناسب هذا
 الفصل من فصول السنة - وهرعت الى عند كيريلوف ، قائلةً لنفسها ان
 كيريلوف لا بد أنه يستطيع أن ينبئها عن شاتوف أكثر مما يستطيع ذلك
 أي شخص آخر . وتستطيعون أن تتصوروا الشعور الذي أحدثه في
 نفس المسكينة ، ذلك المشهد الذي كان ينتظرها في بيت كيريلوف .
 يجب أن نذكر أنها من شدة هلعها لم تنبه الى الرسالة التي كانت مع ذلك
 متروكة على المائدة في موضع بارز .

رجعت ماريا الى غرفتها فتناولت طفلها وولت هاربة في الشارع الذي
 كان لا يزال خالياً مقفراً في تلك الساعة . كان الجو رطباً والضباب
 منتشر . وكانت هي تركض لاهثة متعثرة بالوحل اللزج البارد .
 وقررت أخيراً أن تقرر أبواب المنازل ، ولكن لم يفتح لها أحد . وظلت
 مع ذلك تقرر الى أن فُتح لها أخيراً أحد الأبواب : انه مسكن رجل من

تجار مدينتنا اسمه تيتوف • قلبت ماريا اجناتفنا البيت كله رأساً على عقب : كانت تمول احوالاً شديداً وتكرر أن « زوجها قد قُتل » • وكانت أسرة تيتوف تعرف شاتوف • وكانت على شيء من العلم بقصته • والشيء الذي روعهم خاصة هو أن هذه المرأة التي ولدت منذ قليل كما تقول كانت تركض في الشوارع وهي لا يكاد يكسوها شيء • وذلك في هذا الجو البارد • مع طفل عاري تقريباً تحمله في يديها • ظلوا في أول الأمر أنها نهذي • لا سيما وأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا من الذي قُتل : أهو كيريلوف أم هو زوجها ؟ واذا لاحظت أنهم لا يصدّقونها أرادت أن تهرب • ولكنهم احتجزوها بالقوة • رغم أنها أخذت تصرخ وتتخبط كمجنونة فيما قيل • وذهبوا الى عمارة فيليوف • فما مضت ساعتان الا وكانت المدينة كلها على علم بانتحار كيريلوف وبرسالته • واستجوبت الشرطة ماريا اجناتفنا التي لم تكن قد فقدت وعيها بعد • وعندئذ انما اكتشفوا أنها لم تكن قد قرأت الرسالة • وانها لا تستطيع أن تذكر كيف استتجت موت زوجها من موت كيريلوف • كانت لا تزيد على أن تصرخ قائلة ان زوجها قد قُتل ما دام كيريلوف قد قُتل • « لأنهما كانا معاً » • وفي نحو الظهر فقدت وعيها • وماتت غداً غد دون أن تفيق من اغماؤها • أما الطفل الذي كان قد أصابه برد فانه سبقها الى القبر •

حين لم تجد آرينا بروخوروفنا لا الأمَّ ماريا اجناتفنا ولا طفلها • أحست بمجيء الكارثة وقررت أن ترجع الى البيت • ومع ذلك توقفت تحت البوابة وأرسلت العجوز « تسأل السيد الذي يسكن الجناح المستقل في صحن الدار هل ماريا اجناتفنا عنده • أو هل يعرف على الأقل أين هي • » فعادت العجوز وهي تطلق صيحات من شأنها أن تهيج الشارع كله • فأسرعت آرينا بروخوروفنا تسكتها بالحجة المروفة جداً : « اسكتي والا كان لك مع القضاء متاعب • » ورجعت الى دارها بأقصى سرعة •

واذ علمت الشرطة أن آرينا بروخوروفنا قد أشرفت على ولادة امرأة شاتوف ، فقد جاءت تستجوبها فى ذلك الصباح نفسه ، ولكنها لم تستطيع أن تحصل منها على شيء ذى بال . لقد رددت بأكبر الهدوء كل ما رآته وما سمعته عند شاتوف ، ولكنها صرّحت بأنها لا تعرف شيئاً عن موت شاتوف وعن الأحداث الأخيرة .

تستطيعون أن تتصوروا الانفعال الشديد الذى أحدثه هذا كله فى المدينة . « هذه قصة جديدة ! هذا اغتيال آخر » . ولكن الوضع أخذ يظهر الآن فى ضوء جديد : ان وجود جمعية سرية تضم قتلة ومشعلى حرائق ونوريين أصبح الآن أمراً لا يشك فيه أحد . ان موت ليزا الفطيم ، ومقتل زوجة ستافروجين ، واختفاء ستافروجين ، والحريق ، وحفلة الرقص التى أقيمت لمساعدة المعلمات ، والاستهتار الذى يسود بيئة جوليا ميخائيلوفنا ، وحتى هرب بطرس ستيفانوفتش فجأة . . . ذلك كله أصبح له شكل مؤامرة واسعة . وأخذت أنواع من الشائعات تجرى عن ستافروجين . ولكن الشيء الغريب هو أن الناس لم يتكلموا الا قليلاً عن بطرس ستيفانوفتش الذى علموا أنه سافر فى ذلك المساء نفسه . ولكنهم تكلموا كثيراً عن « عضو مجلس الشيوخ » .

رابط جمهور كبير أمام عمارة فيليوف طوال الصباح . وفى البداية صدّقت الشرطة الأكذوبة التى تضمنتها رسالة كيريلوف ، فاعتقدت بأن كيريلوف هو الذى قتل شاتوف ثم انتحر « القاتل » . ولكن السلطات اذا كانت قد انخدعت فان انخداعها لم يكن كاملاً . من ذلك أن الحديقة التى تشير اليها رسالة كيريلوف تلك الاشارة الغامضة ، لم تضلل أحداً ، على خلاف ما تنبأ به بطرس ستيفانوفتش . لقد أسرعَت الشرطة الى سكفورشنيكى فوراً ، لا لأنه ليس لدينا حديقة أخرى فحسب ، بل أيضا لأن نوعا من الغريزة قاد خطى البحث : ان جميع الأحداث الرهيبة فى

تلك الأيام الأخيرة انما تتصل كتبها أو فليلا بسكفورشيكي وسكانها
(بحسن أن أنير عابراً الى أن فرفاراً بتروفا التي لم تكن تعرف شيئاً كانت
قد غادرت المدينة في ذلك الصباح نفسه بحثاً عن ستيفان تروفيوفتشس) •
واكتشفت جثة شاتوف في نحو المساء • وعلى مقربة من مكان ارتكاب
الجريمة عُثر أيضاً على قبعة التي قد نسيها القتل خفةً وطيشاً • وظهر
من فحص الجثة فحصاً طيباً ومن بعض العلاقات الأخرى أن كيريلوف كان
له شركاء •

وأصبح من المسلّم به اذن أن هناك جميعه سرية تضم شاتوف
وكيريلوف ولها علاقة بالمشورات • ولكن من هم شركاؤهما ؟ لم يكن
« أصحابنا » يخطر ببال أحد حتى ذلك الحين • وقد علم أن كيريلوف
كان يعيش حياة منزوية ، وأن فدكا ، كما تذكر الرسالة ، قد استطاع أن
يقيم عنده مدة طويلة بينما كان يُبحث عنه في كل مكان ! ... والنقطة
التي أدخل الاضطراب في العقول أكثر من كل ماعده هو أنه كان
يستحيل على المرء أن يحل هذه الألغاز ويستخرج بعض النتائج • ولولا
أن كل الأمور قد اتضحت فجأة في الغداة بفضل ليامشين ، لكان يصعب
علينا أن نتخيل الافتراضات المعجيه والآراء الغريبة التي كان يمكن الوصول
إليها آخر الأمر •

لم يستطع ليامشين أن يطبق صبراً • لقد حدث له ما أوجسه بطرس
سينفانوفتشس نفسه في النهاية • قضى نهاره كله في السرير بحراسة
تولكاتشكو أولاً ثم بحراسة اركل • وكان هادئ المظهر ، ملتفتاً نحو
الحائط ، يلتزم الصمت ولا يكاد يجيب حين يوجه إليه الكلام • لم يعلم
اذن شيء مما كان يجري في المدينة غير أن تولكاتشكو الذي كان على علم
بكل شيء قرر في نحو المساء أن يترك المهمة التي أناطها به بطرس
سينفانوفتشس ، وأن يرحل الى المقاطعة ، أي أن يهرب : لكنهم قد فقدوا

صوابهم جميعا • واضح أن اركل لم يخطئ • لقد هرب ليوتين هو أيضا في ذلك اليوم نفسه منذ الصباح • غير أن السلطات لم تعلم برحيله الا في الغد ؟ وحين جاءت الشرطة الى مسكنه وجدت الأسرة كلها قلقة • لاختفائه أشد القلق ، غير أنها تكتم أمر هذا الاختفاء مع ذلك •

أعود الى ليامشين • انه منذ أصبح وحيداً (اذ كان اركل قد اتكل على تولكاشنكو وعاد الى بيته) ، أسرع يخرج ، فما هي الا برهة قصيرة حتى كان على علم بتفاصيل الموقف طبعاً •

فقرر أن يهرب بغير ابطاء ، وأن يمضى قدماً لا يلوى على شيء • ولكن الظلام كان حالكاً ، فبدت له مغامرته محفوفة بمخاطر سديدة • فبعد أن قطع شارعين أو ثلاثة ، رجع الى البيت ، وأتفل على نفسه الباب بالمفتاح • يقال انه حاول في الصباح أن يتحرر ، ولكنه لم يفلح في ذلك • فمكث في غرفته حتى الظهر • وعندئذ اتخذ قراره فجأة ، فأسرع يركض الى قسم الشرطة • يظهر أنه هناك جثا على ركبتيه ، وأخذ يزحف باكياً ناشجاً ، وأنه قبل الأرض وهو يصيح بأنه لا يستحق أن يقبل حتى أحذية الشخصيات السامية التي أمامه • وكانوا لطافاً في معاملته الى أبعد حد • ودام استجوابه قرابة أربع ساعات • حكى كل شيء ، كل شيء تماماً ، حتى أدق التفاصيل • بل لقد كان يستبق الأسئلة من شدة استعجاله الاعتراف الكامل ، فيروى أشياء لا داعي اليها وليس يسأل عنها • وقد اتضح انه عرف أموراً كثيرة • لذلك استطاع أن يكشف عن خفايا القضية : ان مأساة شاتوف وكيريلوف ، والحريق ، وموت لبيادكين وأخته ، كل ذلك كان في المرتبة الثانية من خطورة الشأن في حديثه ، أما المرتبة الأولى فقد كانت لبطرس ستيفانوفتش ، والجمعية السرية ، والتنظيم ، والشبكة • وحين ألقى عليه هذا السؤال : لماذا جرائم القتل هذه كلها ، لماذا تلك الفضائح كلها ، لماذا هذه الدنابات كلها ؟ أجاب فوراً بقوله : « ذلك لزعة

قواعد الدولة ، لتعجيل تفسخ المجتمع ، لبث اليأس فى النفوس ، لادخال
 البلبلة والفوضى الى العقول • وبعد ذلك يتم الاستيلاء على المجتمع الذى
 عمته الفوضى ، المجتمع المريض ، الحائر ، المستهتر ، الرياب ؛ ولكن
 على أساس التطلع الى فكرة موجهة ؛ فبذلك تُرفع راية الثورة اعتماداً
 على شبكة الحلقات الخماسية التى تكون قد عملت من جهتها على بشـ
 الدعاية ، ودراسة النقاط الضعيفة فى الخصم ، والوسائل العملية لمحاربته •
 وصرّح ليامشين فى النهاية أن ما شوهد فى مدينتنا ليس الا محاولة أولى
 لتخريب منظم ، وهو بمثابة برنامج يجب أن تتبعه الحلقات الأخرى التى
 أنشأها بطرس ستيفانوفتش • ذلك كان رأى ليامشين على كل حال • وقد
 ألح على « ضرورة النظر بعين الاعتبار الى أقواله والى الصراحة والوضوح
 فى عرضه للقضية كلها ، مما يدل دلالة واضحة على أنه يستطيع أن يقدم
 للسلطات خدمات كبيرة » • حتى اذا ألقى عليه هذا السؤال المباشر :
 « هل فى روسيا عدد كبير من هذه الحلقات الخماسية ؟ » أجاب بأن هذه
 الحلقات لا نهاية لعددها وان شبكتها تغطى روسيا كلها • ولم يأت بأى
 برهان يؤيد هذه الأقوال ، ولكننى أظن أنه كان صادقا حين قال ذلك
 الكلام • وقد اكتفى بتقديم برنامج الجمعية ، المطبوع فى الخارج ،
 وبمشروع يعرض توسيع نطاق العمل ، مكتوب بخط بطرس
 ستيفانوفتش • فظهر حينذاك أن ليامشين ، حين تكلم عن « زعزعة
 القواعد » ، انما كان يستعير نصاً من نصوص هذه الورقة ، لا يسقط منه
 نقطة أو فاصلة • ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينسب تلك الفكرة الى نفسه •
 وقد تكلم عن جوليا ميخائيلوفنا فأسرع يعلن بطريقة هزلية جدا ومن غير
 أن يسأل عن ذلك ، أسرع يعلن أنها « بريئة وأنها قد غرّرت بها » •
 يجب أن نذكر أنه أنكر أن يكون لستافروجين أية مشاركة فى الجمعية
 السرية ، وأكد أنه لم يكن ثمة أى تفاهم بين نيقولاى فيسيفولودوفتش

وبين بطرس ستيفانوفتش (لم يكن ليامشين ، بطبيعة الحال ، يعرف شيئاً عن الآمال السخيفة التي كان بطرس ستيفانوفتش يعقدها على ستافروجين) . وقال ان مقتل ليادكين وأخته كان من عمل بطرس ستيفانوفتش الذي تصرف منفردا دون أن يكون لستافروجين أى دخل فى الأمر ، وذلك بغية أن يجعل ستافروجين معرّضاً للخطر خاضعاً لسيطرته . ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يثر فى قلب ستافروجين « النيل » الا الاستياء الشديد والألم الممض ، بدلا من أن يثير فيه شعور الشكر والامتنان كما كان يتوقع . وأضاف ليامشين فى ختام افادته عن ستافروجين ، أضاف مستبقاً الأسئلة مرة أخرى ، أن نيقولاى فسيفولودوفتش شخص رفيع الطراز حتماً ، غير أن هنا سراً مجهولاً ، فهو قد عاش بيننا كالمتكر تقريبا لأنه مكلف بمهمة كبيرة ، ومن الجائز جدا أن يرجع من بطرسبرج بعد قليل (كان ليامشين مقتنعا بأن ستافروجين موجود ببطرسبرج) ، ولكن رجعتهم ستم فى ظروف مختلفة تماما هذه المرة ، وسيكون محاطا بأناس قد نسمع الناس يتكلمون عنهم فى القريب . وقال ليامشين انه عرف هذه الأمور من فم بطرس ستيفانوفتش ، « العدو الخفى لنيقولاى ستافروجين » .

ملاحظة : - بعد شهرين ، اعترف ليامشين بأنه حاول تبرئة ستافروجين لأنه كان يأمل أن يحميه . لقد كان يأمل أن عقوبته ستخفف بفضل هذه الحماية تخفيفا كبيرا ، وكان يتخيل أيضا أن ستافروجين سيرسل اليه مالا وسيبحث اليه رسائل توصى به السلطات السيرية خيراً . ان هذا الاعتراف يدل على أن ليامشين كان يرى فى نيقولاى فسيفولودوفتش رأياً فيه كثير من المبالغة .

فى ذلك اليوم نفسه قبض على فرجنسكى طبعاً ، بل قبض على أسرته كلها من باب اظهار الحماسة للقيام بالواجب (ولقد أفرج عن أرينا بروخوروفنا واختها وخالتها والطالبة ، منذ مدة طويلة ؛ ويقول بعضهم

مؤكداً ان شيجالوف سيفرج عنه فى القريب أيضاً ، لأنه لا يدخل فى أية فئة من فئات التهمين • وما هذه على كل حال الا أقاويل تُقال • وقد اعترف فرجنسكى اعترافات كاملة على الفور • لقد كان راقداً على سريره يعانى من حمى شديدة حين جاءوا يمتلقونه ، ويقال انه حين رأى الشرطة قد سُرَّ قريباً • ويروى أنه كان فى افادته صريحاً ، مع احتفاظه ببعض الوقار والرصانة ، وانه لم يتنازل عن أمل واحد من « الآمال المضیة » مع تنديده بالأساليب السياسية (لا الاجتماعية) التى انتقد لها فى خفة وطيش ، « مدفوعاً باعصار الظروف » • وقد نُظر بعين الاعتبار الى موقفه فى الحديقة عند مقتل شاتوف ، ويبدو أنه يأمل أن يشفع له هذا الموقف فيُخفف الحكم عليه ، أو ذلك ما يؤكده الناس فى مدينتنا على الأقل •

ولا كذلك اركل • فليس من المتوقع أن يُسامح معه • لقد لزم اركل الصمت منذ القبض عليه ، أو كان يشوّء الحقيقة ، ولم يمكن أن يُتزع منه قول واحد يعبر عن الندامة • ومع ذلك استطاع أن يوقظ فى نفوس القضاة ، حتى القساة منهم ، شيئاً من العطف عليه ، وذلك لشبابه وسذاجته ، ولأن من الواضح أنه كان ضحية متآمر سياسى أشمل فى نفسه نار التعصب ، ولأنه خاصة كان قتي برأ بأمه اذ كان يرسل اليها نصف ايراده الضئيل تقريباً • ان أمه هى الآن هنا : انها امرأة ضعيفة مريضة هربت قبل الأوان • وهى تبكى وتتمرغ بأقدام القضاة متوسلة اليهم أن يرأفوا بابنها • ولا يدرى أحد كيف سينتهى الأمر • غير أن عدداً كبيراً من الناس فى مدينتنا يرون لحال اركل صادقين •

أما ليوتين فقد قبض عليه بطرسبرج بعد أن مكث فيها خمسة عشر يوماً • ان ما وقع له يكاد يبدو غير معقول • لقد كان يملك جواز سفر باسم مزور ، وكان يملك مبلغاً ضخماً من المال ، فكان فى وسعه اذن أن يهرب الى الخارج • ومع ذلك لم يتحرك من بطرسبرج • حاول

فى البداية أن يهتدى الى ستافروجين وبطرس ستيفانوفتش ، ثم أُنس فجأة على الشراب واسترسل فى دعارة مسعورة • حتى لكأنه فقد سلامة عقله وأصبح لا يدرك وضعه أى ادراك • لقد قبض عليه فى أحسد المواخير سكران كل السكر • ويشيع بين الناس الآن أنه استرد شجاعته ، وأنه ما برح يكذب ، وأنه يعقد بعض الآمال (٩) على دعواه التى يتبها لها بعناية شديدة ، لأنه ينتوى أن يلقى خطاباً طويلاً • وأما تولكاشنكو فقد قبض عليه بعد هربه الى الريف بعشرة أيام ، وهو يسلك سلوكاً أليق كثيراً ، فلا يكذب ولا يراوغ ، ويقول ما يعرفه ، ولا يحاول أن يبرىء نفسه بل هو يعترف بأخطائه ، ولكنه يبدو ميّالاً الى الفصاحة والبلاغة ، فهو بتكلم كثيراً ، ويحلّو له أن يتكلم كثيراً ، حتى اذا دار الحديث على الشعب وعناصره الثورية (٩) اصطنع وضعاً وقوراً وحاول أن يكون له فى نظر سامعيه مهابة • ويقال انه هو أيضا يتنوى أن يلقى خطاباً أمام المحكمة • يمكننا أن نقول ، بوجه عام ، انه وليبوتين لا يبدو ان خائفين مما ينتظرهما وذلك شيء يثير الاستغراب •

أكرر أن القضية لم يُفصل فيها بعد • والآن ، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذه الأحداث كلها ، قد أفاق مجتمعنا من ذهوله واسترد اتزانته ، فهو يحكم على الأمور حكماً أكثر استقلالاً ، حتى ان هناك اليوم أناساً يرون أن بطرس ستيفانوفتش ان لم يكن عبقرى فهو على الأقل رجل أوتى « قدرات عبقرية » • « هذا تنظيم ! » ، كذلك كان يقول بعضهم فى نادينا رافما اصبعه • ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الكلام كله بريئاً • وكان بعض آخر يذهبون غير هذا المذهب • فهؤلاء على أنهم لا ينكرون ذكاء الرجل يلحون على جهله بالواقع ، وميله المفرط الى التجريد ، ونمو بعض ملكاته على حساب بعضها الآخر نمواً شاذاً ، وطيشه الخارق • أما صفاته الأخلاقية فكان عليها اجماع ، فلا جحود هنا قط •

لا أدري حقاً عنى يجب أن أتكلّم أيضاً •••

لقد رحل مافريكى نيقولايفتش لا يدري أحد الى أين • وخرفت
العجوز دروزدوف مرتدةً الى الطفولة • على أن هناك حكاية مظلمة يجب
على أن أقصّها • وسأكتفى برواية الوقائع •

حين عادت فرقارا بتروفنا من أوستيفو فانها لم تنزل بسكفورشنيكى
بل مضت الى المدينة ، وهناك علمت فوراً بكل ما جرى أثناء غيابها •
فاضطربت اضطراباً شديداً عميقاً ، وحسبت نفسها فى بيتها • كان ذلك فى
المساء ، وكان الجميع متعينين مكثودين ، فرقدوا مبكّرين •

وفى صباح الغد مدّت إحدى الخادّات الى داريا بافلوفنا فى السر
رسالةً قالت انها وصلت فى مساء أمس ، ولكنها وصلت متأخرة بينما كان
الجميع نائمين • أما كيف وصلت الرسالة فإن رجلاً مجهولاً أعطاها الكسى
ايجورتش بقرية سكفورشنيكى فسرعان ما حملها الخادم العجوز الى
الخادّمة وقفل راجعاً الى سكفورشنيكى •

تأملت داريا بافلوفنا ظرف الرسالة مدة طويلة ، خافقة القلب ، دون
أن تجرؤ على فضّها • لقد كانت تعلم أن الرسالة مرسلة من نيقولاى
فسيفلودوفتش • وكان مكتوباً على ظرفها : « الى الكسى ايجورتش لنقلها
الى داريا بافلوفنا » •

واليكم نص الرسالة كلمة كلمة • اننى لم أصحح أسلوب هذا
السيد الروسى الذى لم يكن قويا فى النحو رغم ثقافته الأوروبية :
العزيزة داريا بافلوفنا ،

« قلت لى مرةً انك تريدان أن تكونى « ممرّضى » وجعلتنى
أعدك بأن أستدعيك متى احتجت اليك • اننى مسافر بعد يومين سافراً
لا عودة بعده • فهل تريدان أن تسافرى معى ؟

« فى السنة الماضية أصبحت ، مثل هرتسن ، مواطننا فى كانتون « أورى » بسويسرا • ولا أحد يعرف هذا • حتى لقد اشتريت منزلاً صغيراً فى ذلك الكانتون • وسنقيم هناك الى الأبد • أصبحت لا أريد أبداً أن أذهب الى أى مكان •

« الموضع الذى يقع فيه المنزل حزين جدا • انه مضيق فى جبل • الجبال هناك تطفى على البصر والفكر • منظر يشيع فى النفس غمّاً وحداداً • وانما اخترت ذلك المكان اذ كان فيه منزل بباع • واذا لم يعجبك البيت فسوف أبعه وأشتري بيتاً آخر فى مكان آخر •

« ليست صحنى حسنة ، لكننى آمل أن يخلصنى هواء تلك البلاد من هواجسى • هذا شئ جسمى • أما عن حالتى النفسية فأنت تعرفين كل شئ • ولكن هل هذا كل شئ حقاً ؟

« لقد رويت لك أشياء كثيرة عني • ولكننى لم أرو كل شئ • حتى لك أنت • بالمناسبة ، أؤكد لك اننى أحس فى قرارة ضميرى بأننى مسئول عن مقتل زوجتى • اننى لم أرك بعد موتها ، لذلك أؤكد لك هذا الآن • وأنا أيضاً آثم فى حق ليزافتا نيقولايفنا • ولكنك عن هذا تعرفين كل شئ • انك قد تنبأت بكل شئ تقرباً •

« الأفضل أن لا تجيئى • انها لدناءة فظيعة منى أن أستدعيك • علام تقبرين نفسك معى ؟ انك تعجبيننى ، ولقد كنت أشعر بارتياح الى جانبك حين ينتابنى قلق وغم • أمامك وحدك انما كنت أستطيع أن أتكلّم عن نفسى بصوت عالٍ • ولكن هذا لا يعنى شيئاً • لقد قلت أنت نفسك انك ستكونين لى « ممرضة » • هذا تمبيرك ذاته • لماذا هذه التضحية الكبرى ؟ لاحظى أيضاً اننى لا أشفق عليك مادمت استدعيك ، واننى لا أحترمك ما دمت انتظرك • ومع ذلك استدعيك وأنتظرك • على كل حال ، أنا فى

حاجة الى جوابك ؟ لأن علىَّ أن أسافر بأقصى سرعة • وسوف أسافر وحدى اذا اقتضى الأمر •

« انتى لا أمل شيئاً من « أورى » ، ولكننى أسافر ، أسافر وكفى ! ولم يقع اختيارى على ذلك المكان الحزين عن عمد • ليس هناك ما يربطنى بروسيا : كل شيء غريب عنى هنا ، كأى مكان آخر على كل حال • صحيح أنتى أحب أن أعيش فى روسيا ، وكنت لا أحب كثيراً أن أعيش فى غيرها أيضاً • ولكننى حتى فى روسيا كنت عاجزاً عن كره أى شيء •

« لقد جربت قوتى فى كل مكان • ونصحتنى أنت بذلك حتى « أعراف نفسى معرفة أصدق » • وأثناء تلك التجارب ، بدت فوتى هذه غير ذات حدود ، أمام نفسى وأمام الآخرين • على مرأى منك تحملت صفة أخيك • وأعلنت زواجى على رموس الأشهاد • ولكن فى أى شيء يجب أن أستعمل هذه القوة ؟ ذلك ما لم أستطع أن أعرفه فى يوم من الأيام ، وما لا أعرفه حتى هذا اليوم ... لا أعرفه رغم ما أزوجت الى من تشجيعات صدقتها • أنا الآن ، كما كنت دائماً ، أستطيع أن أرغب فى القيام بعمل حسن ، وأجد فى ذلك لذة • والى جانب هذا أشتهى أن أرتكب عملاً سيئاً وأذوق من ذلك هذه اللذة نفسها • ولكن الشعورين كليهما ضعيفان ، ولم يكونا قوين فى يوم من الأيام • ان رغبائى ضعيفة مسرفة فى الضعف دائماً : انها لا تستطيع أن توجهنى • فى وسع المرء أن يعبر نهراً على لوح ولكنه لا يستطيع أن يعبره على قشرة • أقول لك هذا حتى لا تتخلى اننى أعقد آمالاً على أورى •

« لست أتهم أحداً ، كما لم أتهم أحداً فى الماضى • لقد جربت الدعارة ، واستهلكت قواى • ولكننى لا أحب الدعارة ولم أكن أريدها • كنت تراقبىنى فى الآونة الأخيرة • هل تعلمين اننى كنت أنظر الى أصحابنا الجاحدين نظرة كره وبغض ، ولكننى كنت أحسدهم على ماكانوا

يعقدونه من آمال ؟ غير أنك قد أخطأت اذ ساورك قلق على : اننى لا أستطيع أن أكون واحداً منهم ، لأننى لا أشاطرهم آمالهم • وكان ذلك يستحيل على من باب السخرية وحب الشر أيضاً ؛ لا لأننى أخشى أن أكون محل هزاء - فأننى لا أخشى أن أكون محل هزاء - بل لأننى قد احتفظت رغم كل شيء بعادات انسان لبق ، ولأن ذلك كان يثير الاشتزاز فى نفسى • ولكن لو قد كان كرهى وحسدى أقوى مما كانا ، اذ لأمكن أن أنضم اليهم •

« أيتها الصديقة العزيزة ، الحنون ، الكريمة ، التى اكتشفتها ! لعلك تأملين بما أعطيتني من حب كامل ، وما غمرتني به من كنوز نفسك الجميلة ، أنك ستستطيعين أن تخلقى حياتي هدفاً فى النهاية ! ولكن لا ، كونى عاقلة حكيمة : ان حبي سيكون مسكينا مثلي ، وستكونين أنت شقية تعيسة • قال لى أخوك يوماً : من يفقد كل رابطة بالأرض ، يفقد على الفور آلهته ، أى أهدافه • فى وسع المرء أن يناقش كل شيء الى غير نهاية ، ولكننى عاجز الا عن الانكار خالياً من أى عظمة نفسية ، خالياً من أية قوة • الجحود نفسه مسكين ضعيف عندي • كل شيء كاب رخو • ان كيريلوف الكريم لم يستطع أن يتحمل فكرته فاتحرج • ولكننى أدرك حق الادراك أنه كان كريماً لأنه كان لا يملك عقله كاملاً • لن أستطيع أن أفقد عقلى يوماً ، ولن أستطيع أن أومن بفكرة يوماً ، مثله • حتى اننى لن أستطيع أن أهتم بفكرة • فلن أنتحرج أبداً ، أبداً !

« أنا أعلم أنه يجب على أن أنتحرج ، أن أعجب عن وجه الأرض كحشرة مقرزة • ولكننى أخاف الانتحار ، لأننى أخاف أن أظهر شيئاً من عظمة النفس • اننى أعلم أن هذا لن يكون الا كذبة جديدة ، هى آخر كذبة فى سلسلة طويلة من الأكاذيب • أى فائدة أجنيها من الكذب لا شيء

الا أن أظهار بعظمة النفس ؟ لن أعرف الاستياء والحجل فى يوم من الأيام ، ولن أعرف اليأس اذن •

» اغفرى لى هذه الاطالة فى الكتابة اليك • لقد فعلت ذلك دون أن أريده • وهأنا ذا أمسك • فلو واصلت الكتابة على هذا النحو فلن أستطيع أن أقول كل شئ فى مائة صفحة ، مع أنه تكفينى على وجه الاجمال عشرة أسطر • ان أسطراً عشرة كافية لاستدعاء « ممرضة » •

» أقيم منذ سفرى عند مدير محطة تبعد عن المدينة ست محطات • لقد قصفنا معا منذ خمس سنين ببترسبرج • لا أحد يعلم أننى هنا • اكتبى الى على اسمه • أرفق اليك العنوان •

» نيقولاى ستافروجين • »

مضت داريا الى فرفاراً بتروفا تطلعها على الرسالة • فلما قرأت فرفاراً بتروفا الرسالة طلبت الى داشا أن تخرج لحظة : كانت تريد أن تميز قراءتها وحيدة • ولكنها سرعان ما نادت الفتاة • وسألها بما يشبه الحجل :

— أسافرين ؟

— نعم •

— استعدى • سنسافر معا •

ثم قالت فرفاراً بتروفا مجيبةً عن نظرة استفهام من داشا :

— ما عساي فاعلة هنا ؟ استوت عندى الأمور • أنا أيضا سأصبح مواطنة فى أورى ، وسأقيم فى الجبال ••• لا تخشى شيئاً • لن أزعجكما • كان ينبغي ركوب قطار الظهر ، فاذا بالكسى ايجورتش يظهر فجأة ، فيروى أن نيقولاى فسيفولودوفتش قد وصل الى سكفورشنيكى فى قطار

الصباح ، وان هيئته كانت غريبة ، وأنه كان لا يجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه ، وأنه حبس نفسه في شقته لا يبارحها •

وأضاف ألكسى ايجورتش يقول بلهجة ذات دلالة :

– لقد قررت أن أجيء الى هنا بدون أوامر ، وأن أطلعك على الواقع •••

أُلت عليه فرفارا بتروفا نظرة نافذة ، ولكنها لم تلق عليه أى سؤال •
وسرعان ما أُعدت العربية ، وسافرت فرفارا بتروفا الى سكفورشنكى مع داشا •

كانت أبواب شقة نيقولاى فسيفولودوفتش مفتوحة ، ولكن لم يمكن العثور عليه هو •

قال أحد الخدم فى حذر :

– أترأه يكون فى الطابق العلوى ؟

فصعد الجميع الى الطابق العلوى فوجدوا الغرف الثلاث خالية •

قال أحدهم وهو يشير الى باب الطابق الذى يقع تحت السقف :

– أترأه صعد الى أعلى ؟

ان هذا الباب الذى يكون فى العادة مغلقا كان الآن مفتوحا على سمته كلها فعلاً • ولم يكن يمكن الوصول اليه الا بصعود سلم خشبى طويل ضيق قائم • وكان فى الأعلى حجرة تشبه أن تكون زنزانة •

دمدمت فرفارا بتروفا تقول وقد اصفر وجهها اصفرارا شديدا :

– لن أصعد الى فوق • ما عساه يفعل هناك ؟

ونظرت الى الخدم الذين كانوا يتأملونها صامتين • وكانت داشا

ترتعد •

وعزمت فر فارا بتروفنا أمرها أخيرا فصعدت السلم بسرعة • ولكنها
ما ان دخلت الغرفة حتى أطلقت صرخة كبيرة وسقطت مغشيا عليها •

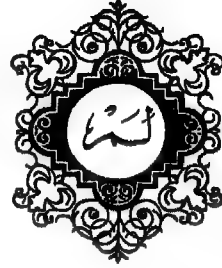
كان مواطن « أوري » مشنوقاً وراء الباب • وكان على المائدة ورقة
كتب عليها بالقلم الرصاص : « لا يُتَّهَمُ أحد • أنا الفاعل ! » • وكان
الى جانب الورقة مطرقة وقطعة صابون ومسمار كبير لا شك أنه حُفِّرَ
استعدادا لكل طارئ • لا شك في أن الجبل الحريري المتين الذي استعمله
نيقولاي فسيفولودوفتش قد اختير سلفاً ، وأحسن طليه بالصابون • ان
كل شيء يدل على العمد وسبق الاصرار • ويدل على أن ستافروجين قد
ظل الى آخر دقيقة يعي أفعاله وعياً كاملاً •

وقد نفى الأطباء الذين شرحوا الجثة ، نفوا نفياً قاطعاً افتراض خلل
عقلى •

اعتراف سافروجین

الفصل التاسع

عند يخبون



ينم نيقولاي فسي فولودوفتش في تلك الليلة • ظل جالسا على ديوانه الى أن طلع الصباح ، محدقاً في بعض الأحيان الى ركن وراء المنضدة • وظل مصباحه مضيئاً طوال الليل • وفي الساعة السابعة من الصباح نام وهو ما يزال جالسا ، فلما دخل عليه الكسي ايجورتش في الساعة التاسعة والنصف تماماً ، على عادته منذ زمان طويل ، حاملاً اليه قهوة الصباح ، وأيقظه من نومه ، ظهرت عليه دهشة بخالطها انزعاج من أنه أمكن أن ينام في تلك الساعة المتأخرة • وشرب قهوته بسرعة ، ولبس ثيابه ، وخرج بخطى حثيثة • فلما سأله الكسي ايجورتش محاذرا : « ماهي أوامرك ؟ » ، لم يجب بكلمة واحدة •

اجتاز الشوارع خافضا عينيه ، مستغرقا استغراقا عميقا • وكان في بعض اللحظات فقط يرفع بصره ويبدو عليه أنه فريسة اضطراب يصعب تحديده لكنه اضطراب شاق أليم • وعند مفترق طرق ، غير بعيد عن المنزل ، كانت جماعة مؤلفة من نحو خمسين شخصا تجتاز طريقها • انهم يتقدمون هادئين ، صامتين تقريبا ، مصطفين اصطفافا فيه نىء من نظام •

وعلى مقربة من دكان انتظر عندها لحظة ، قال له أحد الناس :
 « هؤلاء عمال مصنع شيجولين » ، فلم يكذب ينسب الى كلامه . وأخيرا ، فى
 نحو الساعة العاشرة والنصف ، وصل الى الباب الكبير من ديرنا ، دير
 العذراء فى « سباسو - افيى » ، الذى يقع عند مخرج المدينة بقرب
 النهر . وعندئذ توقف فجأة كأنه تذكر شيئا ما ، وتلمس جيبه الجانبى
 بسرعة وقلق ، ثم ابتسم . حتى اذا دخل فناء الدير سأل أول راهب لقيه
 من الرهبان المبتدئين أن يدخله على الأسقف تيخون المعتكف فى هذا
 الدير . فقاده الراهب المبتدىء وهو يزجى اليه التحية تلو التحية . حتى
 اذا وصلا الى النهاية من مبنى طويل ذى طابقين ، استولى عليه راهب ضخيم
 أشيب الشعر ، وقاده خلا لمرر طويل ، دون أن ينقطع عن تحيته (ولما
 كان ضخما ضخامة شديدة وكان لا يستطيع أن ينحنى انحنا شديدا فقد
 كان يهز رأسه بحركة قصيرة منتظمة) . ورغم أن ستافروجين كان يتقدم
 فى سيره لا ينتظر أن يرجوه أحد أن يتقدم ، فقد كان الراهب لا ينسى
 يدعو أن يتبعه . وكان لا ينسى يلقى عليه أسئلة شتى ، ويتكلم عن الأب
 الارشمندريت . فلما لم يحصل على أى جواب ، أصبح وضعه يزداد
 احتراما لحظة بعد لحظة . ولاحظ ستافروجين أنه معروف فى الدير ،
 رغم أنه فيما يذكر لم يكن قد ذهب اليه منذ طفولته . وحين وصل الرجلان
 الى الباب فى آخر الممر ، فتحه الراهب بيد قوية ، وسأل الخادم بغير
 كلفة ، منذ هرع هذا اليهما ، هل يمكن الدخول ، ثم لم ينتظر جواب
 الخادم بل فتح الباب واسعا ، وأدخل « الضيف العزيز » . فشكر له
 ستافروجين جميله ، فأسرع يغيب فورا كأنما هو يفر فرارا .

دخل نيقولاى فيسيفولودوفتش غرفة ضيقة . فاذا برجل طويل
 القامة نحيل الجسم يظهر فى اطار باب الغرفة المجاورة على الفور تقريبا .
 انه فى نحو الخمسين من عمره ، يرتدى جبة خشنة ، ويبدو عليه شيء

من مرض ، له نظرة غريبة ، خجلة وجلة ، وابتسامةٌ على الشفتين حيرى
 مترددة • انه تيخون ذاك الذى سمع عنه نيقولاى فسيفولودوفتش أول
 مرة من شاتوف ، وجمع عنه بعد ذلك معلومات شتى • لقد كانت تلك
 المعلومات متناقضة ، ولكن لها جميعها سمةٌ مشتركة : هى أن الذين يحبون
 تيخون والذين لا يحبونه (ان هناك أناساً لا يحبونه) كانوا يسكتون دائماً
 عن شيء ما ، فأما الذين لا يحبونه فانهم يسكتون من باب الاحتقار ، وأما
 الذين يحبونه بل يحبونه بحرارة فانهم يسكتون من باب التكتم • لكنهم
 يريدون أن يخفوا ضعفاً ما ، كأنهم يريدون أن يخبثوا هوساً بريئاً •
 وقد علم نيقولاى فسيفولودوفتش أن الرجل يقيم فى الدير منذ ست
 سنين ، وأن الناس كثيراً ما يفدون لزيارته (انهم أناس من الشعب ، ولكن
 بين زائريه كذلك أشخاصاً من أعلى طبقة) ، وأن له معجبين متحمسين ،
 حتى فى بطرسبرج ، وأن له معجبات خاصة • ولكن نيقولاى
 فسيفولودوفتش سمع رجلاً مسناً خطير الشأن من أعضاء نادينا ، وهو
 رجل شديد التدين ، سمعه يقول : « ان تيخون هذا رجل يكاد يكون
 مجنوناً ، وانه على كل حال انسان تافه ، وأغلب الظن أنه سكير • • »
 يجب أن أقول ان هذا الاتهام الأخير كان باطلاً كل البطلان ، وان تيخون
 كان لا يشكو الا من روماتزم فى ساقيه ، ومن تشنجات عصبية فى بعض
 الأحيان • وقد علم نيقولاى فسيفولودوفتش أيضاً أن الأسقف المعتكف
 لم يستطع ، اما لضعف فى شخصيته واما لذهول لا يفتقر له ولا يتفق
 ومنزلته ، لم يستطع أن يفرض على المدير ما توجه له رتبته من احترام •
 حتى لقد كان يقال ان الأب الأرشمندريت ، وهو رجل متقشف وصارم
 فى كل ما يتعلق بموجبات الصلاة ، وهو عدا ذلك رجل مشهود له بالعلم ،
 كان يحمل للأسقف تيخون نوعاً من عاطفة العداوة ويأخذ عليه (بطريقة
 غير مباشرة فى الواقع) أن حياته رخوة ، كما يعيب عليه ما كان يصفه بأنه

« هرطقات » • وكان الرهبان أيضا يعاملون الأسقف المريض معاملة خالية من الكلفة ان لم يكن فيها شيء من الازدراء أيضا •

ان الغرفتين اللتين تتألف منهما شقة تيخون • مؤثنتان تأثيثاً غريباً • فعلى مقربة من أثاث قديم ثقيل منجد بجلد مهترى • هناك عدد من الأشياء الجميلة : أريكة حافلة بالزخرف مريحة جداً ، مكتب كبير محفور خشبه حفرأ رائعاً ، خزانة للكتب ، موائد ، أرفف • انها هدايا • وهذه سجادة نيمية من سجاد بخارى تجاور حُصراً من قش • وهناك عدد من لوحات « عصرية » ، أسطورية ، وأيقونات مرصعة بذهب وفضة منها واحدة تضم بقايا قديسين • ويقال ان المكتبة كانت كبيرة التنوع : فالى جانب مؤلفات آباء الكنيسة توجد مسرحيات ، وربما وُجد « ما هو أسوأ من المسرحيات أيضا » •

فبعد المجاملات الأولى التى تبادلها الرجلان بشيء من الانزعاج وفى غير وضوح (لا ندرى لماذا) ، أدخل تيخون ضيفه الى حجرة عمله ، وأجلسه على الديوان قبالة الطاولة • وجلس هو قريباً منه كل القرب ، على مقعد من خشب الخيزران • ان نيقولاى فسيفولودوفتش الذى يجيش فى داخل نفسه انفعال قوى ، كان ذاهل الهیة ، يبدو عليه أنه اتخذ قراراً خارقاً ، لا رجوع عنه ؛ ولكن لا يمكن تحقيقه فى الوقت نفسه • وأجال بصره فى الغرفة ، ولكن دون أن يثلبث على شيء مما يرى • كان يفكر ، ولكن لا يدرى حتماً فى أى شيء كان يفكر • وأيقظه الصمت ، وبدأ له فجأة أن تيخون قد خفض عينيه مرتبكاً حتى انه ابتسم ابتسامة غريبة • فسرعان ما أيقظ ذلك فى نفس نيقولاى فسيفولودوفتش اشمئزازاً وتمرداً • وأراد أن ينهض وينصرف ، لا سيما وأن تيخون كان فى رأيه سكران كل السكر • غير أن تيخون لم يلبث أن رفع عينيه فجأة ورمقه بنظرة تبلغ من الثبات ومن الامتلاء بالفكر ، ومن البعد عن التوقع ، ومن الالغاز ، فى

الوقت نفسه ، أن يقولاي فيسيفولودوفتش ارتعش تقريباً • لقد بدا له أن
تيخون يعرف سلفاً السبب الذي دفعه الى المجيء ، وأنه على علم بالأمر
(مع أن أحداً لم يستطع أن يعرف سبب زيارته هذه) ، وأنه اذا لم يسبقه
الى الكلام فذلك لأنه يداريه ويخشى اذلاله •

قال نيقولاي يسأل الأسقف بصوت متقطع :

- هل تعرفني ؟ أعرفت بنفسى حين دخلت أم لا ؟ اننى شديد
الذهول ...

- لم تعرف نفسك ، ولكن سبق أن سعدت برؤيتك مرة ، منذ
أربع سنوات ، فى هذا الدير نفسه ، مصادفة ...

كان تيهون يتكلم ببطء شديد ، وصوتٍ متساوٍ رقيق عذب ، ناطقاً
كل كلمة من كلماته بوضوح وجلاء •

أجابه نيقولاي فيسيفولودوفتش يسأله بما يشبه أن يكون فظاظه :

- أتقول اننى جئت الى هنا منذ أربع سنين ؟ أنا لم أجدى الا حين
كنت طفلاً ، ولم تكن أنت حينذاك فى الدير ...

قال تيهون بآناة وروية من غير الحاح :

- لعلك نسيت ...

- لا ، لم أنس • من المضحك أن لا أتذكر ...

كذلك أجابه ستافروجين بشيء من الغلو ، وأضاف :

- لعلك سمعت عنى ، فتكوّن فى ذهنك رأى معين ، فتخيلت الآن
أنك رأيتنى من قبل •

صمت تيهون • فلاحظ نيقولاي فيسيفولودوفتش عندئذ أن وجهه

تلم به فى بعض الأحيان رعشات ، وهذه علامة مرض فى الأعصاب متأصل •
فقال :

- لكننى أرى أن صحتك اليوم ليست حسنة ، فلعل الأفضل أن
أنصرف •

• ونهض

قال تيخون :

- نعم ، أمس واليوم انتابتنى آلام فى الساقين ، ولم أتم هذه الليلة
الا قليلاً •••

وتوقف تيخون عن الكلام • وعاد ضيفه يستغرق فى تفكيره الغامض
فجأة • ودام الصمت مدة طويلة تقارب دقيقتين •

قال ستافروجين على حين بغتة بشىء من القلق والريب :

- انك تلاحظنى •••

- اننى انظر اليك فأتذكر ملامح وجه أمك • هناك تشابه نفسى
روحى كبير ، رغم اختلاف المظهر الخارجى •

- ليس هناك أى تشابه ، ولا سيما من الناحية الروحية ••• أبداً •••
ما ••• من ••• تشابه ••• البتة !

كذلك قال نيقولاى فسيفولودوفتشى بالحاح فيه مغالاة ، دون أن
يعرف هو نفسه لماذا • وأضاف فجأة :

- انك تقول هذا ••• من باب الشفقة على حالتى • سخافات ! •••
ولكن ماذا ؟ هل تأتى أمى اليك ؟

- نعم •

- لم أكن أعرف ذلك • لم تقل لى هى هذا فى يوم من الأيام • هل
نأتى كثيراً ؟

- كل شهر تقريبا ، وأكثر من ذلك أحيانا •

- لم أعلم بهذا أبدا ، أبدا • ولكن لا شك أنك أنت قد علمت منها
أنتى مجنون ، أليس كذلك ؟

هذا ما أضافه سائلا على حين بشفة •

- لا • لم تحدثنى عنك حديثها عن مجنون تماما • ولكننى سمعت
آخرين يقولون هذا •

- لا شك أن ذاكرتك قوية اذا كنت تستطيع أن تتذكر أمثال هذه
الترهات • وعن الصفة ، هل سمعت شيئا ؟

- بضع كلمات •

- أى كل شيء • وقتك واسع جدا على كل حال • وعن المباراة ،
هل حدثوك أيضا ؟

- عن المباراة أيضا •

- انك تعرف أشياء كثيرة هنا • فى مثل هذا المكان لا حاجة الى
جرائد • وهل كلمك شاتوف عنى ؟ هيه ؟

- لا • أنا أعرف شاتوف • لكننى ما رأيته منذ مدة طويلة •

- هم ! ••• ما هذه الخريطة التى عندك ؟ آ ••• خريطة الحرب
لأخيرة • ولكن ما حاجتك أنت ، أنت ، إليها ؟

- كنت أدرسها قارئاً النص • انه لوصف شائق جدا •

- أرني ! نعم ، كتابة جيدة • ولكن ما أغرب أن يقرأ رجل مثلك
هذه الأمور !

وشدَّ إليه الكتاب وألقى عليه نظرة • انه تاريخ مفصَّل جدا يسرد
وقائع الحرب الأخيرة وصفاً ممتازاً ، ولكنه لا ينظر الى الأمور من الناحية
العسكرية خاصة ، بل هو أقرب الى أن يكون عاما وأديبا • قلب ستافروجين
صفحات الكتاب وأعاد قلبها ، ثم رماه نافذ الصبر •

وقل مشمئز الهيئة وهو يحدق الى عيني تيوخون وكأنه ينتظر منه
جواباً :

- اننى لا أدري حقاً لماذا جئت الى هنا •

فقال له تيوخون :

- أنت أيضا يبدو عليك أنت مريض •

- فعلاً •

قال ستافروجين ذلك وطفق يروى بفتة ، بجملٍ قصيرة مقطعة ،
حتى يصعب فهمها أحيانا ، أنه توافيه هواجس غريبة ، ولا سيما في الليل ،
وأنه يرى في بعض الأحيان أو يحس أن بقره كائناً سريراً ساخراً
« معقولا » يظهر له في صور شتى وطباع مختلفة ، « ولكنه هو هو نفسه
دائماً ، وأنا يستمر حنقى في كل مرة • • • » •

غريبة ومشوشة كانت هذه الاعترافات التي تكاد تكون خليقة
بمجنون حقاً • ولكن نيقولاى فسيفولودوفتش كان في الوقت نفسه يتكلم
بصراحة خارقة وصدق غريب عن طبيعه ، حتى لكأن الانسان القديم فيه
قد اختفى اختفاء تاما مباحثا • لم يشعر بأى خجل من التعبير عن الخشية
التي كان يوقظها في نفسه هذا الشبح • ولكن ذلك كله لم يدم الا لحظة

واحدة ، وما لبثت هذه الحالة النفسية أن زالت على غير توقع كما جاءت على غير توقع •

قال في غضب وقد ثاب الى نفسه :

— هذا كله سخافات • سامضى استشير طبيباً •

فقال تيخون يؤيده :

— افعل • يجب أن تفعل حتماً •

— انك تتكلم جازماً • فهل رأيت أناساً منى يهتدون هذا النوع من

الهواجس ؟

— نعم رأيت ، ولكن قليلاً • اننى أنذكر واحدا • كان ضابطاً وقع

له ذلك بعد فقدته امرأته التى كانت له حليمة لا تضاهى • وسمعت عن

واحد آخر • وقد شفى الاثنان كلاهما فى الخارج • هل توافقك هذه

الأشياء منذ مدة طويلة ؟

— منذ سنة تقريباً • ولكن ما هذه الى تفاهات • سأستشير طبيباً •

تفاهات ! تفاهات سخيفة مضحكة ! هذا أنا نفسى فى وجوه مختلفة • ذلك

كل شئ • لا شك أنك تتصور ، بعد أن أضفت أنا هذه العبارة ، اننى

ما زلت أنك ، واننى لست وإثماً بأن هذا أنا حقاً وليس الشيطان •

نظر اليه تيخون نظرة استفهام • وسأله :

— و ... هل تراه فعلاً ؟ أقصد دون أن تحتفظ بفكرة أن هذا

ليس الا هلوسة كاذبة مرضية ؟ هل ترى صورة ما بالفعل ؟

أجابه ستافروجين الذى كان حنقه يزداد من جديد لدى كل كلمة :

— غريب الحاحك على هذا بعد أن شرحت لك اننى أرى ... أرى

قطعاً ... كما أراك ! ... أحياناً أرى ولا أثق بأننى أرى ، رغم علمى

بأن هذه هي الحقيقة : اما أنا واما هو ... سخافات ! ولكن هل يستحيل عليك أن تسلّم بأنه الشيطان ؟ ان هذا التسليم أكثر اتفاقاً ومهنتك ، هه ؟ أضاف هذا السؤال ضاحكاً ، هاوياً الى لهجة ساخرة على حين فجأة •

قال تيخون :

– الأرجح أن الأمر مرض ، ومع ذلك ...

– مع ذلك ؟

– الشياطين موجودون حتماً • ولكن يمكن تصنورهم على أنحاء

مختلفة ...

عاد ستافروجين يقول بلهجة غاضبة ساخرة :

– انك قد عدت تخفض عينيك لأنك تخجل عني اذا أنا صدقت

بوجود الشيطان • ولكن هأنذا أظاهر بعدم التصديق فألقى عليك ماكراً هذا السؤال : أهو موجود حقاً أم لا ؟

فابتسم تيخون ابتسامة غامضة •

قال ستافروجين :

– لا يناسبك البتة أن تخفض عينيك : هذا غير طبيعي ، هذا مضحك ،

هذا متصنع • ومن أجل أن أكفّر عن هذه الغلطة منى سوف أقول لك جاداً ، بصفاقة : نعم ، اننى أوؤمن ايماناً مطابقاً لايمان الكنيسة ، أوؤمن بوجود شيطان شخصى ، لا شيطان رمزى ؟ ولست أحتاج البتة أن أسألك • هذا كل شيء • لا بد أن تكون سعيداً غاية السعادة •

وانفجر ستافروجين يضحك ضحكاً مكرهاً ، عصياً • فرمقه تيخون

مستطعلاً بنظرة رقيقة جداً ، نظرة كأنها تشتمل على شيء من خجل •

وهذا ستافروجين يرميه فجأة بهذا السؤال :

– أتؤمن بالله ؟

– أؤمن بالله •

– ولكن قيل فى الكتاب : اذا آمنت وأمرت الجبل أن يسير لأطاعتك !
... هذه سخافات على كل حال ! ولكننى حريص على أن أعرف منك :
هل يمكنك أن تنقل جبلاً ؟

– نعم ، اذا الله أمر ...

كذلك أجاب تيمخون برقة وحياء ، خافضاً عينيه من جديد • فأجابه
ستافروجين :

– فكأن الله نفسه هو الذى حرّك الجبل ؟ ولكننى أسألك هل
تستطيع أنت ، أنت ، أن تحرّكه مكافأةً لك على إيمانك بالله ؟

– ربما •

– ربما • جواب حسن • لماذا تشك ؟

– إيمانى ناقص غير كامل •

– كيف ؟ إيمانك أنت أيضاً ؟ ناقص غير كامل ؟ ما كان لى أن
أفترض هذا حين أراك •

كذلك قال ستافروجين وهو يتأمل تيمخون بدهشة ، بل بسذاجة ،
وهو أمر لا يتفق ولهجة السخرية التى ألقى بها أسئلته السابقة • قال
تيمخون :

– نعم ، قد لا يكون إيمانى كاملاً •

– لكنك تؤمن مع ذلك بأنك قادر بمعونة الله على أن تنقل الجبل •

هذا وحده شيء • انك تريد الايمان على الأقل • وأنت تفهم كلمة «الجليل»
 بالمعنى الحقيقى لا بالمعنى المجازى • هذا وحده كثير • مبدأ عظيم • اقدم
 لاحظت أن التقديمين بين كهنتنا يميلون ميلاً قويا الى اللوثرية ، فلا مانع
 عندهم من تعليل المعجزات بأسباب طبيعية • هذا أفضل على كل حال من
 عبارة « قليلا جدا » التى قالها أحد الكهنة ، وهو تحت السكين • أأنت
 مسيحى قطعاً ؟

كان ستافروجين يتكلم بسرعة كبيرة ، وصوت ساخر تارةً جاد
 تارةً أخرى • ولمله كان لا يعرف هو نفسه لماذا يقول هذه الأشياء كلها ،
 ولماذا يسائل تيخون ، ولماذا يضطرب ويتحرك !

دمدم تيخون يقول بنوع من الاندفاع وهو يخفض رأسه مزيدا من
 الخفض :

– ربّ انى لن أخجل من صليبك !
 وأخذت أطراف شفّته تخرج فجأة •
 سأله ستافروجين :

– ولكن هل يمكن الايمان بالشيطان من غير ايمان بالله ؟
 – هذا يمكن جدا ، ويحدث كثيرا •
 ورفع تيخون عينيه وابتسم أيضا •
 قال ستافروجين وهو ينفجر ضاحكا :

– وانى لعلّ يقين من أنك ترى أن هذا الايمان أجدر بالاحترام من
 الجحود الكامل •

فابتسم تيخون من جديد ، وقال بما يشبه المرح ، مع استمراره على
 تأمل ضيفه قلقاً بعض القلق :

- بل الاتحاد الكامل أجدر بالاحترام من عدم الاكتراث •

- هوه ! ما أعجب هذا الكلام ! انك لتدهشنى حقاً !

- الملحد الحاداً كاملاً واقف على الدرجة الأخيرة التي تسبق الايمان الكامل (أن يخطو هذه الخطوة الأخيرة أو أن لا يخطوها فتلك مسألة أخرى) • أما الذى لا يكثرث ولا يبالي ، فانه لا يملك أى ايمان ، وليس فى نفسه الا شئ من الخوف أحياناً ، هذا اذا كان امرأً حساساً •

- هم° ... هل قرأت رؤيا القديس بوحنا ؟

- نعم •

- هل تذكر قوله : « اكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكين » ؟ ...

- أذكر •

سأل ستافروجين وهو ينظر حوله مضطرباً :

- أين الكتاب ؟ أريد أن أقرأ لك تلك الأسطر • هل عندك ترجمة

روسية ؟

قال تيوخون :

- أعرف تلك الأسطر • أتذكرها تذكراً واضحاً •

قال ستافروجين :

- أتخفظه على ظهر القلب • اتله على ! ...

وخفض عينيه ، ووضع يديه مبسوطتين على ركبتيه ، ونهياً للاصغاء •

تلا تيوخون الأسطر : « واكتب الى ملاك كنيسة اللاوديكين : هذا يقوله الشاهد الأمين الصادق بداءة خليفة الله : أنا عارف أعمالك • انك لست بارداً ولا حاراً • ليتك كنت بارداً أو حاراً • فلأنك لست بارداً ولا

حاراً أنا مزعم أن أتقيأك من فمي • لأنك تقول انى غنى وقد استغنيت ولا حاجة بى الى شىء ، ولست تعلم أنك شقى وفقير وأعمى وعريان • • • • •

قال ستافروجين مقاطعاً :

– كفى ! هل تعلم ؟ اننى أحبك كثيراً •

فأجابه تيخون يقول بصوت خافت :

– وأنا أيضاً •

وصمت ستافروجين وعاد يهوى فجأة فى أحلامه • لقد نكرر هذا ثالث مرة ، كأنه نوع من نوبة • وفى نوبة من هذه النوبات انما قال لتيخون : « أحبك » • وكان هو نفسه لا يتوقع ذلك •

وخيم الصمت دقيقة •

دمدم تيخون يقول وهو يلامس باصبعه كوع ستافروجين ملامسة خفيفة ، وكأنه هو نفسه خائف :

– لا تزل •

فانتفض ستافروجين وقطب حاجبيه غاضباً ساخطاً •
وسأل قائلاً بسرعة :

– كيف عرفت اننى زعلت ؟

فأراد تيخون أن يتكلم ، ولكن الآخر قاطعه وقد استبد به انفعال لا يمكن فهمه ؟ قال :

– لماذا افترضت أننى لا بد أن أزل ؟ نعم ، لقد غضبت • انك على حق ، وانما غضبت لأننى قلت لك اننى أحبك • انك على حق • ولكنك مستخف فظ • ان لك رأياً منحطاً جداً فى الطبيعة الانسانية • كان يمكن

أن لا يثور هذا الغضب لو كنت تخاطب شخصا آخر غيرى • على كل حال ، ان شأنك ليس مع أى شخص ، بل معى أنا • مهما يكن من أمر ، فأنت رجل طريف ، برى •

كان يسترسل مزيدا من الاسترسال لحظة بعد لحظة ؛ والشئ الغريب أنه كان يفقد كل ترويه فى كلامه • قال :

— اسمع جيدا : اننى لا أحب علماء النفس والجوايسس أو على الأقل لا أحب منهم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا الى قرارة نفسى • اننى لا أدعو أحدا ، ولست فى حاجة الى أحد • سوف أدبر أمورى بنفسى • أتظن أننى خائف منك ؟

رفع صوته وأنهض رأسه بحركة تحدير • وأضاف يقول :

— أنت واثق اننى انما جئت اليك لأعترف لك بسر رهيب ، وأنت تنتظر هذا السر بكل ما يتصف به كاهن مثلك من فضول • ألا فاعلم اننى لن أكشف لك عن شئ ، لن أكشف لك عن أى سر ، لأننى لست فى أية حاجة اليك • • • لأنه ليس هناك أى سر • • • ما هذا منك الا تهاويل خيال • • •

ألقى عليه تيحون نظرة ثابتة •

— لقد فجأك أن ترى أن « الحمل » يؤثر البارد على الفاتر ، كما يقول ، فأردت أن لا تكون باردا • اننى أحس ان قرارا خارقا ، قرارا لعله رهيب ، يستولى عليك • أرجوك ، أضرع اليك ، كفك تعذبا لنفسك • وقل كل شئ •

— أأنت واثق اذن اننى جئت وأنا أبیت فكرة ؟

دمدم تيخون يقول خافضا عينيه :

– حزت ذلك ... من وجهك •

كان يقولاي سيفولودوفتش شاحباً بعض الشحوب ، وكانت يدها
ترتشان قليلا • ولبت بضع نوانٍ يحدّق الى تيخون صامتاً • وأخيراً ،
استل من الجيب الجانبى فى ردنجوته ملازم مطبوعة ، ووضعها على المائدة •
وقال بصوت متقطع بعض التقطع :

– هذه الأوراق مُعدّة للنشر • فاذا قرأها ولو شخصٌ واحد ،
فاعلم اننى لن أخفيها ، وأن الجميع سيقرونها • هذا أمر مقرر • لست
فى حاجة اليك البتة ، لأننى قررت كل شيء • ولكن اقرأ ... وأثناء
القراءة لا تقل شيئاً ، حتى اذا فرغت من القراءة قلّ كل شيء ...

سأله تيخون متردداً :

– هل يجب أن أقرأ ؟

– اقرأ • اننى هادىء كل الهدوء •

– بدون نظارتين لا أستطيع أن أميز شيئاً • الأحرف صغيرة جدا •
هذا مطبوع فى الخارج •
– اليك النظارتين •

تناول ستافروجين النظارتين من على المائدة ومدّهما اليه • ثم ارتد
بجسمه الى وراء مستندا على ظهر الأريكة •

واستغرق تيخون فى القراءة •

هى خمس ملازم مضبورة ، من القطع الصغير ، قد طبعت فى الخارج فعلاً على ورق من ورق الرسائل خفية ، وربما فى مطبعة روسية سرية . انك اذا نظرت الى هذه الملازم نظرةً أولى رأيتها تشبه كثيراً المنشورات التحريضية . وقد استهلت بهذه العبارة : « من ستافروجين » .

اننى أثبت هذه الوثيقة بنصّها حرفاً حرفاً (ويجب أن نعتقد أن كثيرين يعرفونها الآن) . ولكننى أبحث لنفسى أن أصحح فقط بعض أخطاء الاملاء وهى كثيرة حتى لقد أدهشتنى ، لأن كاتبها رجل مثقف على كل حال ، ولا شك أنه قد قرأ كثيراً (نسيباً) . أما الأسلوب فقد تركته على حاله ، رغم أخطائه ورغم ما فيه من أنواع التفكك . انه لمن الواضح على كل حال أن صاحب هذه الصفحات ليس كاتباً . وأبيع لنفسى كذلك ملاحظة أخرى ، فاستبق الوقائع . . .

فى رأى أن هذه الوثيقة ثمرة من ثمرات المرض ، وأنها من عمل الشيطان الذى استولى على هذا الرجل . هذا شأن المريض الذى يعانى آلاماً شديدة : انه ما ينفك يتقلب على سريره يائساً يبحث عن وضع يهدئ ألمه ولو لحظة . فاذا لم يهدئه هذا الوضع أحلّ محلّه وضماً آخر مدة دقيقة . وهو عندئذ لا يتساءل طبعاً هل هذا التبديل حسن أو معقول .

ان ما يسيطر على هذه الوثيقة هو الحاجة الرهيبة الصادقة الى العقاب ، هو الحاجة الى الصليب ، الى العذاب على مرأى من الناس . غير أن هذا الظماً الى الصلب يعذب امرءاً لا يؤمن بالصليب . « وهذا وحده يمل فكرة » ، كما عبّر عن ذلك ستيفان تروفيموفتش يوماً فى مناسبة تختلف عن هذه كل الاختلاف .

ومن جهة أخرى تشتمل هذه الأوراق على شيء من عنف واستفزاز وتحدٍ ، رغم أنها كتبت لغرضٍ آخر تماما . ان كاتبها يصريح أنه « لم يستطع » أن لا يكتب ، وأنه « أجبر » على الكتابة اجبارا . وهذا جائز جدا . لقد كان يسعده أن يستطيع ابعاد هذه الكأس المرة عنه ، ولكن ذلك كان يستحيل عليه حقا . لذلك انتهز هذه الفرصة فأرخصى العنان لعنفه . نعم ، ان المريض يتحرك في سريره ويحاول أن يحل ألماً محلَّ ألم . وهاهو ذا يبدو له أن الصراع ضد المجتمع سيخفف عنه بعض التخفيف ، فاذا هو يتحدى المجتمع . ان مجرد تحرير هذه الوثيقة هو تحدٍ غير متوقع ، وقلة احترام للمجتمع . ان كاتب هذه الوثيقة يهيمه أن يستفز خصماً ما بأقصى سرعة ...

ومن يدري ؟ لعل هذا كله ، أعنى هذه الأوراق المهيأة للنشر ، انما ينتمى الى ذلك النوع نفسه من الوقائع ، الذى تنتمى اليه واقعة عض أذن الحاكم ! لماذا توافينى هذه الفكرة اليوم بعد أن اتضحت أشياء كثيرة ؟ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه . اننى لا أتى بأى دليل على كل حال ، ولا أستطيع أن أؤكد أن هذه الوثيقة كاذبة ، أى لفقها الخيال تلفيقا . قد تكون الحقيقة واقعةً بين هذه الطرفين الأقصيين ... ولكننى أستبق الحوادث . الأفضل أن نرجع الى الوثيقة نفسها . فاليكم ما قرأه تيمخون :

» من ستافروجين

» أنا ستافروجين ، الضابط المتقاعد ، قد قضيت سنوات ألف وثمانمائة وستين و ... ببطرسبرج مسترسلاً فى الدعارة استرسالاً لم أجد فيه أية متعة . كان لى خلال فترة من تلك السنين ثلاث شقق : ففى احداها كنت أسكن مع خادم يقوم بأعمال البيت ؛ وكانت ماريا ليبادكين التى هى زوجتى شرعاً أمام القانون تسكن فى تلك الشقة أيضاً . وقد استأجرت الشقتين الآخرين لأستقبل فيهما عشيقاتى : ففى احداهما كنت أستقبل سيدةً كانت

تجنبي ، وفي الشقة الأخرى كنت أستقبل خادمتها • وكانت رغبتى آنذاك
 هي أن أجعلهما تلتقيان عندي ، كلتاهما ، السيدة والفتاة • وكنت لمعرفتى
 بطبعهما أتنبأ لهذه المزحة أن تحدث لى متعة كبيرة • ومن أجل أن أهيء
 هذا اللقاء فى يسر كان علىّ أن أذهب أحيانا كثيرة الى واحدة من هاتين
 الشقتين ، تقع فى منزل كبير بشارع جوروخوفايا • فالى هناك انما كانت
 تأتي الخادمة • كنت أشغل فى ذلك المنزل عند بورجوازيين صغار غرفة
 فى الدور الرابع • وكان أصحاب البيت يشغلون غرفة أخرى أصغر ،
 بل غرفة تبلى من الصغر أن الباب الذى يفصل بيننا كان يجب أن يظل
 مفتوحا على الدوام • وذلك بعينه ما كنت أريده • لقد كان الزوج ، وهو
 يرتدى قفطانا طويلا ، يعمل فى مكتب من المكاتب ، فكان يذهب فى الصباح
 ولا يرجع الا ليلا • وكانت المرأة وهى فى نحو الأربعين من العمر تخطط
 وتصلح ملابس قديمة • وكانت تخرج فى كثير من الأحيان لتحمل عملها
 الى زبائنها • فكان يتاح الى اذن أن أنفرد بابتئهما الطفلة • كان اسمها
 ماتريوشا • وكانت الأم تحبها ، ولكنها تضربها أحيانا كثيرة وتشتنها على
 عادة أمثال هؤلاء الناس • وكانت هذه الصغيرة تخدمنى وترتب غرفتى •
 انى أعلن الآن أننى قد نسيت رقم تلك العمارة • وقد علمت أن المنزل
 القديم قد هُدم وأن عمارة جديدة كبيرة جدا قد شيدت فى مكان مبينين
 أو ثلاثة مباني قديمة هناك • وقد نسيت أيضا اسم صاحبي الشقة • ومن
 الجائر أن لا أكون قد عرفت اسميهما فى يوم من الأيام • أذكر أن المرأة
 كان يقال لها ستيفانيدا ، أما اسمه هو فلا أتذكره • أين هما الآن ؟
 لا أدري البتة • أحسب أننا اذا تقصينا الأمر لدى قسم الشرطة ببطرسبرج ،
 فقد نهتدى الى أثرهما • كان المسكن يطل على الفناء ويحتل زاوية منه •
 جرى ذلك فى شهر حزيران • كان المنزل مدهونا بلون أزرق شاحب •
 فى يوم من الأيام اختفت مطواتى من على المائدة • ولم أكن فى حاجة

الى تلك المطواة على كل حال • كانت لا تعينى فى شىء • كلمت فى الأمر صاحبة البيت ، دون أن يخطر ببالى أنها ستجلد ابنتها • ولكنها كانت قد أمسكتها منذ قليل بسبب اختفاء خرقة (ممسحة) ظنت الأم أن الطفلة قد استعملتها لتصنع منها لعبة (عروسة) • حتى لقد شدت لها شعرها • فلما عثر على تلك الخرقة ، فيما بعد ، تحت الحصيرة ، لم تشأ الطفلة أن تنطق بكلمة لوم واحدة ، وظلت صامتة • وقد لاحظت أنها تعمدت أن لا تنطق ، وأنا أتذكر هذا ، لأننى فى تلك اللحظة انما اتبعت الى وجه الطفلة الذى لم يلفظ ابتهاجى حتى ذلك الحين • انه أشقر شقرةً ساحبه ، الى بقع حمراء • وجه عادى • غير أن فيه كثيرا من الطفولة والهدوء ، بل كثيرا جداً من العذوبة والسكينة • لقد استامت الأم من أن ابنتها لم تلمها وصمتت • وفى تلك اللحظة انما جاءت حكاية المطواة • استمر حق الأم من أنها ضربت ابنتها ظلماً • فهامى ذى تناول أسواطاً وتمضى تجلد الطفلة الى أن تفجرت دماؤها على مرأى منى ، رغم أن الطفلة كانت قد دخلت السنة الثانية عشرة من عمرها • لم تصرخ ماتريوشا وهى تجلد • ولا شك أن ذلك يرجع الى وجودى • ولكنها كانت تشهق شهيقاً غريباً عند كل جلدة • ولقد ظلت تشهق ساعة كاملة بعد انتهاء الجلد • حتى اذا انتهى توقيع العقوبة عثرت على مطواتى فجأة فوق سريرى فى الفناء • فوضعتها فى جيب صديرتى صامتا • فلما خرجت رميتها فى الشارع حتى لا يعلم أحد شيئاً • وشعرت على الفور أننى قد ارتكبت عملاً حقيراً جباناً ، لكننى أحسست أيضاً بلذة ، لأن فكرة قد ومضت فى ذهنى فجأة وأحرقتنى كجمرة ، وتلبثت أنا عليها • وقد لاحظت فى تلك المناسبة اننى سبق لى مرارا أن استولت على حد الجنون مشاعر شريرة شتى كنت أصرُّ عليها اصراراً محموماً وأُشغف بها شغفا شديداً ، ولكن دون أن أفقد كل سيطرة على نفسى وكل تحكم بارادتى فى يوم من الأيام • فحتى

حين تمحقنى حرارتها وحين تبلغ أقصى درجات قوتها كنت أستطيع دائماً أن أتصر عليها وأن أوقفها • ولكن كان يندر أن أريد أن أفصل ذلك • وانى أعلن فى الوقت نفسه اننى لا احاول أن أدفع عن نفسى المسؤولية بحجة تأثير البيئة أو بحجة المرض •

انتظرت بعد ذلك يومين • أصبحت الطفلة بعد بكائها أشد صمتاً • انى لعل يقين من أنها لم تكن تحمل لى أنا أية عاطفة سيئة رغم أنها شعرت حتماً بشيء من الحجل لانزال العقوبة فيها على مرأى منى • لكنها وهى الطفلة الخضوع كانت تؤاخذ نفسها على هذا الحجل • أذكر هذا لأن له شأنًا هاماً فى قصتى • • • قضيت بعد ذلك ثلاثة أيام فى شقتى الأولى • انها منزل مفروش تفوح منه دائماً رائحة كريهة من روائح الطعام ، ويزدحم دائماً بالناس : موظفين صغار ، مستخدمين بلا عمل ، أطباء لا زبائن لهم ، أنواع شتى من البولنديين يسمعون حولى بغير انقطاع • اننى أنذكر كل شيء • • كنت أعيش فى ذلك المنزل الذى يشبه أن يكون مدينة سدوم ، أعيش متوحداً ، متوحداً فى داخل نفسى ، لكننى محاط دائماً بمصيبة صاحبة من « الرفاق » الذين يخلصون لى الى أبعد حدود الاخلاص ويكادون يعبدوننى عبادةً بسبب محفظة نقودى • أظن أننا كنا نفعل دناءات كثيرة • حتى لقد كان المستأجرون الآخرون يخشوننا ، أقصد أنهم ظلوا لطافاً فى معاملتنا رغم خلاعاتنا وبذاءاتنا وحماقاتنا التى كانت فى بعض الأحيان لا تفتقر • أعود فأكرر : لقد كنت أشعر حتى بشيء من اللذة حين أتصور أنى سأنفى الى سيبيريا • وكنت أبلغ من السأم والضجر أنى كان فى وسعى أن أشنق نفسى • واذا لم أشنق نفسى ، فلأنى كنت ما أزال يراودنى أمل ما ، كما كنت طوال حياتى • وأذكر اننى عُنيت حينذاك باللاهوت عنايةً تشتمل حتى على كثير من الجسد ، وأننى استطعت أن أسلّى نفسى قليلاً • ولكن ضجرى ازداد بعد ذلك • أما عواطفى

الاجتماعية فهي لا تتجاوز الرغبة في تحطيم كل شيء ، لو كان هذا التحطيم يستحق العناء . ولكن يجب أن أضيف أن تلك الرغبة لم يكن فيها خبث وشر وانما هي ترجع الى ضجرى الشديد ، لا الى شيء آخر . لست اشتراكيا البتة . اننى افترض أن ذلك كان مرضاً . حين سألت الدكتور دوبروليوبوف مازحاً : « أليس هناك عقار يمكن أن ينشّط الطاقة الاجتماعية » ، فان هذا الطبيب الفاضل ، الذى لا عمل له ، والذى يعول أسرة كبيرة ، ويقيم فى منزلنا ؛ قد أجابنى بقوله : « لتنشيط الطاقة الاجتماعية لا يوجد عقار فيما أظن ، ولكن قد تجد عقاقير لتنشيط الطاقة الاجرامية » . ان هذا المزاح قد سرته كثيرا رغم فقره الرهيب ورغم أنه مشغول عن امرأة حبلى وابتنتين صغيرتين جاعتين . على كل حال ، لولا أن البشر راضون عن أنفسهم لما أراد أحد أن يعيش .

انقضت ثلاثة أيام أخرى ، وعدت الى جوروخوفايا . كانت الأم تنهياً للخروج حاملة حزمة كبيرة . ولم يكن الأب فى البيت طبعاً . فبقيت وحدى مع ماتريوشا . كانت النوافذ (فى الفناء) مفتوحة . وكان فى المنزل صنّاع كثيرون وكانت جميع الطوابق تضج بأصوات المطارق والأغاني . انقضت ساعة . كانت ماتريوشا جالسة فى ركنها ، على دكة صغيرة . كانت تخطط شيئاً ما وقد أدارت لى ظهرها . وفجأة أخذت تغنى بعذوبة ، بعذوبة كبيرة . كان يحدث لها هذا أحياناً . استلكت ساعتى ونظرت فيها . هى الساعة الثانية بعد الظهر . أخذ قلبى يخفق خفقاناً قويا جدا . نهضت واقتربت من ماتريوشا ببطء . كانت النوافذ مزدانة بأصص أزهار . وكانت الشمس حارة . جلست الى جانب ماتريوشا على الأرض صامتاً . ارتششت ماتريوشا . خافت خوفا رهيباً فى اللحظة الأولى ، وبادرت تنهض فجأة . تناولت يدها وقبلتها . ثم أجلستها على الدكة وجعلت أفرس فى عينيها . أما أننى قبلت يدها فقد أضحكها ذلك كطفلة . ولكنها لم

تضحك الا لحظة قصيرة • لأنها عادت تنهض من جديد وقد اعترها رعب
بلغ من القوة أن وجهها تشنج • وحدقت إلى بنظرات ثابتة وأخذت
شفقها تختلجان كأنها تهم أن تبكي • ولكنها لم تصرخ • قبلت يدها مرة
ثانية • وأجلستها على ركبتى • فإذا هي تنهقر فجأة وتبسم • ولكن
ابتسامتها ابتسامة خجل • ابتسامة مائلة • واحمر وجهها حياءً • وأخيرا
حدث أمر يبلغ من الغرابة أنني لن أنساه فى يوم من الأيام • انه حدث
أثار فى نفسى دهشة شديدة • لقد أحاطت البنت الصغيرة عنقى بذراعيها
وأخذت تقبلنى بحرارة وهوى • كان وجهها بهر عن الافتان • نهضت
شبه غاضب : ان هذه الحركة التى تبدر من هذه الانسانة الصغيرة قد
أزعجتى كثيرا جدا بسبب الشفقة التى شعرت بها فجأة • • • • •

انتهت الملزمة هنا وانقطعت الجملة • وحدث عندئذ أمر لا بد من
ذكره •

كانت الملازم خمساً • الأولى فى يدي تيوخون الذى فرغ من قراءتها
والجملة لم تكمل • والأربع الأخرى كانت فى يدي ستافروجين • فلما
ألقى تيوخون على ستافروجين نظرة سائلة ناوله ستافروجين التهمة فورا •
فقال تيوخون وهو ينعم النظر فى الملزمة :

— ولكن الجملة لم تكمل • وهذه هى الملزمة الثالثة بينما التالية هى
الثانية لا الثالثة •

قال ستافروجين مجيباً بسرعة وهو يتبسم ابتسامة خرقاء :

— نعم هذه هى الثالثة • أما الثانية فقد حذفها الرقابة الآن • • •

كان ستافروجين جالسا على ركن من الديوان • وكان يحرق الى
تيوخون محموما جامدا لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره •

– سأعطيك اياها عما قريب ، حين ... حين تصبح جديرا بذلك •
كذلك أضاف يقول وهو يجرى بيده حركة أراد أن لا يكون فيها
كلفة • وكان يضحك ، غير أن ضحكه كان يبعث على الشفقة •
قال تيخون :

– مع ذلك أظن أننا فى النقطة التى وصلنا اليها يستوى أن تكون
هذه الصحيفة هى الثانية أو الثالثة ، أليس كذلك ؟
صاح ستافروجين يسأله وهو ينهض على حين فجأة :

– كيف ؟ لماذا ؟ ليس يستوى الأمران قط • آه منكم معشر الرهبان •
انكم تفترضون على الفور أقطع الدنئات • ألا ان الرهبان ليصلحون أن
يكونوا قضاة تحقيق من الطبقة الأولى •
نظر اليه تيخون صامتا •

قال ستافروجين :

– اطمئن بالآ • ليس ذنبى أن البنية كانت حمقاء ولم تفهمنى • لم
يحدث شيء • لم يحدث شيء البتة •
– الحمد لله !

ورسم تيخون اشارة الصليب •

قال ستافروجين :

– يطول شرح الأمر ... لقد وقع هنا ... وقع هنا سوء تفاهم
سيكولوجى •

واحمر فجأة • وظهر فى وجهه الاشتزاز والتلق والغم واليأس !
... وصمت • وأصبح الرجلان لا ينظر أحدهما الى الآخر ، وساد الصمت
بينهما أكثر من دقيقة •

قال ستافروجين على نحو آلى وهو يجفف العرق البارد الذى بلل
جبهته :

- اسمع • الأفضل أن تقرأ • و ... والأفضل أن لا تنظر الى بتاتاً
... يخيّل الى أن هذا حلم ...

ثم أضاف يقول بصوت خافت جداً :

- و ... ولا تستنفد صبرى •

حوّل تبحون عينيه عنه بسرعة ، وتناول الصحيفة الثالثة وأخذ يقرأ
بغير توقف حتى النهاية • كانت الصحائف الثلاث التى أسلمها اليه
ستافروجين لا ينقصها شيء • وقد بدأت الصحيفة الثالثة كما يلى :

« ... كانت لحظة رعب حقاً ، وإن لم تكن شديدة العنف •
وغدوت مرحاً جداً فى ذلك الصباح وأحسنّت معاملة الجميع ، وسرّت
العصبة منى كثيراً • لكننى تركتهم جميعاً ومضيت الى جـوروخوفايا •
التقيت بها تحت ، عند المدخل • كانت عائدة من دكان أُرسلت اليه لشترى
شيئاً من الهندباء • فلما رأتنى اندفعت تجرى فى السلم وقد اعترها خوف
رهيب • بل ان ما اعترها لم يكن خوفاً وانما كان رعباً أخرس يشل شلاً •
وحين دخلت كانت أمها تضربها لأنها دخلت الغرفة « حيثة الخطي خافضة
الرأس » • بذلك استطاعت أن تخفى السبب الحقيقى لرعبها • كان كل
شيء ما يزال اذن هادئاً • وقبعت فى ركن ولم تظهر طول المدة التى قضيتها
فى البيت • وبعد ساعة خرجت • ولكننى فى المساء شعرت بالخوف من
جديد ، وكان خوفى هذه المرة أشدّ كثيراً • وكان أشق نىء على نفسى
فى ذلك الخوف أننى كنت واعياً اياه وعياً كاملاً • اننى لا أعرف شيئاً
أعجبى من هذا ولا أعنف • لم أكن قد شعرت بالخوف حتى ذلك
الحين قط ، لا ولا شعرت به بعد ذلك أبداً • أما فى تلك اللحظة فقد

كنت خائفاً • حتى لقد كنت أرتعش • وكنت أعى هذا الخوف وعياً تاماً ،
 وكنت أعى كذلك مذلتى • لو استطعت أن أنتحر لانتحرت • ولكننى
 أحسست اننى غير جدير بالموت • على أن هذا ليس هو السبب الذى منعنى
 من الانتحار ، وانما منعنى من الانتحار ذلك الخوف نفسه • ان المرء
 ينتحر فى بعض الأحيان خوفاً ، ولكن يحدث أيضاً أن يستمر المرء فى
 الحياة خوفاً كذلك • فى أول الأمر لا يجرؤ الانسان أن ينتحر ، ثم يصبح
 الفعل بعد ذلك مستحيلاً • أكثر من هذا أننى فى المساء ، حين كنت فى
 بيتى ، قد شعرت نحو البنت بكرهٍ بلغ من القوة أننى قررت أن أقتلها •
 فما ان طلع الفجر حتى ركضت الى جوروخوفيا حاملاً هذه الفكرة •
 وكنت طوال الطريق أتصور كيف سأقتلها وكيف سأحقنها • وكان
 كرهى يهتاج خاصةً حين أتذكر ابتسامتها : كان يشب فى نفسى احتقار ،
 وكانت تمتلئ نفسى اشمئزازاً من ارتمائها على عنقى متخيلةً ما لا أدرى !
 ولكننى حين عبرت نهر فوتانكا شعرت بأن صحتى سيئة • وفى الوقت
 نفسه انبجست فى ذهنى فكرة جديدة ، رهبة ، رهبة جداً ، ولا سيما
 لأننى كنت أعياها • فلما رجعت الى بيتى رقدت فى فراشى مرتعشاً من الحمى ،
 واعترابنى رعب بلغ من القوة اننى صرت لا أكره البنت • لقد صرت
 لا أريد أن أقتلها ، وتلك هى بعينها الفكرة التى انبجست فى نفسى وأنا
 أعبر نهر فوتانكا • وعندئذ انما أدركت أول مرة أن الخوف حين يكون
 قوياً بطرد الكره بل يطرد كل رغبة فى الانتقام •

« استيقظت فى نحو الظهر ، مرتاحاً بعض الراحة ، بل مدهوشاً
 كذلك من شدة العواطف التى شعرت بها فى الليلة البارحة • خجلت من
 أننى أردت أن أقتل • ومع ذلك كنت معتكر المزاج • ورغم اشمئزائى
 كله ونفورى كله اضطررت أن أذهب الى جوروخوفيا • أذكر أننى كنت
 أتمنى حينذاك لو أشاجر أحداً ، لو أشاجر أحداً مشاجرة خطيرة حقاً •

ولكننى حين دخلت غرفتى فى جوروخوفايا وجدت فيها نينا سافليفا ،
 الخادمة ، التى كانت تنتظرنى هناك منذ ساعة . كنت لا أحب تلك الفتاة
 بتاتا ، وكانت قد جاءت على شئ من الخشية ، فهى تخاف أن تسوءنى
 زيارتها . كانت تجئ دائما على هذه الخشية . ولكن أسعدنى كثيرا أن
 أراها ، فسرّها ذلك سرورا عظيما وافتنت به افتنازا كبيرا . لم تكن دميعة .
 ثم انها كانت متواضعة وكانت تملك تلك الآداب التى يقدرها البورجوازيون
 الصغار قدرا عظيما . ولذلك كانت صاحبة البيت تمدحها لى مدحا كبيرا
 منذ مدة طويلة . وجدتهما تشربان القهوة ، وكانت صاحبة البيت تبدو
 نشوى بالحديث الممتع . وفى ركن من الغرفة الثانية لمحت ماتريونا :
 كانت واقفة تفرس خفية فى أمها والزائرة . فلما دخلت لم تختبئ كما
 فعلت فى المرة السابقة ، ولم تهرب . هذه نقطة أذكرها واضحة ، لأنها
 خطفت اهتمامى . وقد لاحظت من النظرة الأولى أنها نحلت تحولاً شديداً ،
 وأنها تبدو مصابة بحمى . لاطفت نينا ملاطفة كبيرة ، فلما تركتني كانت
 سعيدة كل السعادة . وقد خرجنا معا . ولم أعد الى جوروخوفايا بعد ذلك
 مدة يومين . لقد شبت منها ، ولكننى كنت ضجراً .

« وأخيرا قررت أن أنهى كل شئ دفعة واحدة ، وحتى أن أغادر
 بطرسبرج اذا لزم الأمر . ولكن حين ذهبت الى جوروخوفايا لأعلن عن
 سفرى وجدت صاحبة البيت فى ألم شديد وانفعال قوى : لقد كانت
 ماتريوشا مريضة منذ ثلاثة أيام ، وكانت تهذى كل ليلة . وما لبنت طبعاً
 أن سألت عما تقوله أثناء الهذيان (كنا نتحدث بصوت خافت جدا فى
 غرفتى) . فقدمت الأم تقول لى ان ابنتها تنطق بأمور فظيعة ، فهى تقول
 مثلاً : « قتل الله » . اقترحت أن آتى بطبيب على نفقتى ، ولكنها رفضت
 قائلة : « سيعيننا الله . سيذهب عنها المرض من تلقاء نفسه . ثم انها لا تبقى
 راقدة طوال الوقت . لقد أرسلتها منذ قليل فى شراء شئ من الأشياء » .

قررت أن أرى ماتريوشا على انفراد • وإذا كان قد أفلت من لسان صاحبة البيت أثناء حديثي معها أنها مضطرة أن تذهب في المساء الى الضاحية ، فقد قررت أن أرجع في المساء • وكنت على كل حال لا أدري على وجه الدقة لماذا أعود وماذا أريد أن أفعل اذ أعود •

« تغديت في المطعم ، ثم عدت في الساعة الثامنة والرابع • وأنا أدخل دائما بعد أن أفتح الباب بمفتاحي • كانت ماتريوشا وحيدة • وكانت راقدة وراء حاجز على سرير أمها • وقد لاحظت أنها قدّمت رأسها لترى من الداخل ، ولكنها لم تتظاهر بشيء • كانت النوافذ مفتوحة • وكان الهواء حاراً بل حارقاً • تقدمت بضع خطوات ثم جلست على الديوان • انني أتذكر كل شيء الى آخر دقيقة • شعرت برضى كبير لأنني لم أكلّم ماتريوشا ، بل جعلتها تنتظر في غير طائل ، لا أدري لماذا ! لبثت على هذه الحال ساعة كاملة • وانني لذلك اذ سمعتها تنهض فجأة وراء الحاجز • سمعت اصطدام قدميها بأرض الغرفة حين نهضت ، ثم سمعت وقع بضع خطوات سريعة ، ثم اذا هي تظهر في عتبة غرفتي • ما أحقرني ! لقد بلغت من الحقارة أنني أسعدني أن أكون قد صمدت هذا الصمود • آه ! ما كان أدناً هذا ، وما كان أذلني ! كانت واقفة تنظر الىّ في صمت • حقاً لقد نحتل نحولاً رهيباً بعد اليوم الذي رأيتها فيه آخر مرة من كتب • كان وجهها كالإبس ، ولا شك أن جبينها كان يحترق • ان عينيها اللتين أصبحتا كبيرتين تتفرّسان فيّ باستطلاع مبهوت فيما بدا لي أول الأمر • لبثت جالساً لا أتحرك • ومن جديد شعرت بالكراهة • لكنني لم ألبث أن لاحظت أن ماتريوشا لم تكن خائفة مني البتة ، وأنها لعلها كانت في حالة هذيان • وأخذت تهز رأسها على حين فجأة ، كما يفعل الأناس السذّج الذين لا يتصنعون ولا يتكلفون ، اذا هم أرادوا أن يلوموا أو يعبثوا • ثم رفعت اصبعها الصغيرة بقتة وهددتني بها من بعيد • بدت لي

هذه الحركة فى أول الأمر مضحكة ، ولكننى لم أطق صبرا عليها فى النهاية ، وأصبحت لا أستطيع احتمالها. نهضت بقوة واقتربت منها مرتاعا. كان وجهها يعبر عن يأس يشق على المرء أن يراه فى مخلوق صغير مثلاً . استمرت تهددنى باصبعها وتهز رأسها عاتبة . كلمتها برفق وحذر، بصوت خافت ، برقة وعذوبة ، لأننى كنت خائفا . لكننى رأيت على الفور أنها كانت لا تستطيع أن تفهم عنى ، فازداد رعبى . ولكنها أسرعت تغطى وجهها بيديها كما فعلت فى المرة السابقة ، ومضت نحو النافذة مدبرةً لى ظهرها . فتحولت حينذاك أنا أيضا ، وجلست بقرب النافذة . لا أستطيع بتاتا أن أفهم لماذا لم أخرج وبقيت مرتقبا هناك . كنت اذن أنتظر شيئا بالفعل . وربما كان يمكن أن أمكث زمناً طويلاً فى ذلك المكان ، لأقلها بعدئذ كمدأ ويأساً ، بغية أن أفرغ من الأمر مرةً واحدة بطريقتى من الطرق .

« ولكننى لم ألبث أن سمعت خطواتها السريعة من جديد . لقد خرجت من الباب الذى يفضى الى رواق خشبى يصل منه المرء الى السلم . فاقتربت من الدرابزين بسرعة ، واستطعت أن ألمحها تدخل حجرة صغيرة هى ضرب من قن للدجاج الى جانب مكان آخر . فلما عدت أجلس بقرب النافذة تسللت الى ذهنى فكرة غريبة : اننى لا أستطيع الى الآن أن أفهم لماذا وافتنى هذه الفكرة بعينها ولم توافنى فكرة أخرى غيرها قبل كل شيء . كان كل شيء اذن ينصب فى ذلك الأمر . واضح اننى لم أكن أستطيع بعد أن أصدق ذلك الأمر ، ومع ذلك . . . » . اننى أتذكر كل شيء تذكراً كاملاً . كان قلبى يخفق . وبعد قليل نظسرت فى ساعتى من جديد ، فعرفت الوقت على وجه الدقة . ما كانت حاجتى الى معسرفة الوقت ؟ - لا أدرى . غير اننى كنت فى تلك اللحظة أريد أن ألاحظ كل شيء . اننى أتذكر اذن كل شيء تذكراً واضحاً جداً، وأرى كل شيء كأنه مائل أمامى .

كان المساء يهبط • وكانت ذبابة تدندن حولي ، وما تفكك تجيء الى فتحة على وجهي • قبضت عليها ، وأمسكتها بأصابعي بضع لحظات ، ثم تركتها تطير من النافذة • ودخلت عربة شحن الى فناء المنزل مرققة • وكان أجير خياط يغني ملء حلقه (منذ مدة طويلة) بقرب نافذته في زاوية من الفناء • كان يعمل وكنت أستطيع أن أراه من مكاني • خطر ببالي أن أهدأ لم يلقيني حين اجتزت الفناء وصعدت السلم ، فمن الأفضل حتماً اذن أن لا يلقيني أحد كذلك حين أخرج • لذلك أبعدت كرسيي عن النافذة بحذر ، وجلست بحيث لا يستطيع الجيران أن يروني • أه • • • ما كان أحقرني ! تناولت كواباً ، ثم رميته ، وأخذت أرقب حركات عنكبوت صغير أحمر كان على ورقة نبتة من النباتات التي تزين النافذة • ونسيت نفسي خلال لحظة من الزمن • لكنني أتذكر اليوم كل شيء •

» استلكت ساعتى بسرعة ونظرت فيها • كان قد مضى على خروجها ثلاثون دقيقة • لكنني قررت أن أنتظر ربع ساعة أخرى تماماً • أهملت نفسي هذه المدة • خطر ببالي أيضاً أن من الممكن أن تكون قد رجعت وام أسمعها • ولكن هذا كان مستحيلاً • الصمت الآن يشبه صمت الموت ، فلو طارت ذبابة لكنت سمعتها • وفجأةً جعل قلبي يخفق خفقاناً شديداً مرة أخرى • نظرت في ساعتى : ما يزال هناك ثلاث دقائق • بقيت جالساً رغم أن قلبي خفق خفقاناً موحجاً • ونهضت أخيراً ، فوضعت قبعتى على رأسى ، وعقدت أزرار معطفى ، وفحصت الغرفة : هل خلّفت فيها أى أثر يدل على اننى مررت فيها ؟ وقربت الكرسي من النافذة ووضعت في المكان الذى كان فيه عند وصولى تماماً • وأخيراً فتحت الباب ، ثم أقفلته بالمفتاح في رفق ، واتجهت نحو الحجرة الصغيرة • كان بابها مغلقاً ، لكنه لم يكن مقفلاً بالمفتاح • كنت أعرف ذلك حق المعرفة ، غير أننى لم أشأ أن أفتحه • نهضت على رءوس أصابع القدمين ونظرت من شق في أعلى

الباب • وفي تلك اللحظة نفسها التي انتصبت فيها على رؤوس أصابع القدمين تذكرت أنني حين كنت جالسا بقرب النافذة أنظر الى العنكبوت كنت أنصور في الواقع كيف سأنتصب على رؤوس الأصابع وكيف سأنظر من فوق الباب كما أفعل الآن • أذكر هذا الأمر التفصيلي لأنني أحرص على أن أيسن أنني كنت مالكا قواى العقلية بكاملها ، واننى لست مجنونا البتة وأننى مسئول عن أفعالى • نظرت من فوق الباب مدة طويلة ، لأن الحجرة كانت مظلمة • لكن الظلام فيها لم يكن ظلاما تاما ، فاستطعت أن أرى ما كنت أريد أن أراه •••

« قلت لنفسى حينذاك اننى أستطيع أن أمضى ، وهبطت السلم • لم ألتق بأحد • ولم يستطع أحد اذن أن يدلى بأقوال تشهد على فيما بعد • وما انقضت ثلاث ساعات حتى كنا فى بيتى نلعب جميعا بالورق ونحتسى الشاي • كان لبيادكين يقرأ أشعارا ويروى أنواعا من الأفايص ، ويجكى تكات مضحكة بمصادفة تشبه أن تكون عمدا ، وذلك بدلا من السخافات التى كان يغمرنا بها فى العادة • وكان كيريلوف حاضرا كذلك • ولم يكن أحد يشرب خمرة ، رغم أن زجاجة من الروم كانت على المائدة • لبيادكين وحده شرف الزجاجة وقال بروخور مالوف : « حين يكون تيقولاى فسيقولودوفتش مسرورا رائق المزاج فان عصبتنا كلها تكون مرحة ، وتجد الحديث • » لاحظت أنا هذه الجملة • لقد كنت اذن مرحا مسرورا ، رائق المزاج ، وكنت أقول أشياء مسلية • لكننى أتذكر أنني كنت أعلم كل العلم أن فرحى بالخلاص يقوم على حقارة دينية ، وأننى لن أستطيع بعد اليوم أن أشعر بأننى نبيل ، لا على هذه الأرض ، ولا فى حياة أخرى ، أبدا • شئ آخر أيضا : لقد أدركت فى تلك اللحظة معنى المثل اليهودى : « المرء لا يشم ثنائة رائحته • » • كنت أشعر شعورا كاملا بأننى شقى ، ولكننى لم أكن أحسن من ذلك بخجل ، وكنت على وجه

الاجمال لا أتألم كثيرا . وفي تلك اللحظة ، بينما كنت أحسى الشأى وأثرثر مع عصبتى انما استطعت أن أدرك ادراكا واضحا جدا ، أول مرة فى حياتى ، أننى لا أفهم « الخير » و « الشر » ولا أحسهما ؛ واننى لم أفقد الشعور بهما فحسب ، بل أن الخير فى ذاته والشر فى ذاته لا وجود لهما (وقد أمتنى هذا كثير آ) ، وانهما ليسا الا وهمين من الأوهام الاجتماعية ، وأننى أستطيع حتماً أن أتحرر من كل وهم اجتماعى ، ولكننى اذا بلغت هذه الحرية فقد هلكت . أدركت ذلك كله أول مرة ، فى صيغة واضحة ، أمام مائدة الشأى تلك ، بينما كنت أمزح وأضحك مع رفاقى لا أدرى بأية مناسبة . ولكننى أتذكر كل شئ . انه يتفق كثيرا للأفكار قديمة يعرفها جميع الناس ، أن تظهر جديدة طريفة على حين فجأة .

» ومع ذلك لم أنقطع عن انتظار شئ ما . فعلاً ، فى نحو الساعة الحادية عشرة من المساء ، رأيت ابنة البواب التى أرسلتها صاحبة بيتى فى جوروخوفايا ، رأيتها راكضة نحوى لتقول لى ان ماتريوشا شنت نفسها . فنبعت الفتاة ، واستطعت أن أعرف أن صاحبة البيت كانت هى نفسها لا تدرك لماذا استدعتنى . كانت تتحب وتصرخ كما يفعل أمثال هؤلاء الناس فى مثل هذه الظروف . وكان هناك ناس كثير ، وكان هناك شرطة . قضيت لحظة ثم انصرفت .

» لم يزعجنى أحد فى هذه القضية . ومع ذلك أُلقيت على بضعة أسئلة . ولكننى لم أزد على أن البنت كانت مريضة ، وأنها كانت فى حالة هذيان ، واننى اقترحت استدعاء طبيب على نفقتى . وحدثونى أيضا عن المطواة ، فقلت ان صاحبة البيت قد جلدت ابنتها ، ولكن ذلك ليس له شأن . ولم يعرف أحد اننى عدت فى المساء . وهكذا انتهت المسألة .

» خلال أسبوع كامل ، امتنعت عن العودة الى جوروخوفايا ثم لم أذهب الى هناك الا لأفسخ ايتجارى . كانت صاحبة البيت ما تزال تذرف

دموعاً غزيرة (واني لأتذكر أنني امتعضت من ذلك) ، ولكنها كانت قد استأنفت عملها ، الخياطة • وقالت لي بدون كبير لوم : « بسبب مطوياتك انما أهنتها » • وقد دفعت لها حسابي بحجة اني أصبحت لا أستطيع أن أستقبل نينا سافليفا بعد اليوم في مسكنهم • وأثناء وداعنا أخذت تطرى نينا سافليفا كثيراً من الاطراء أيضاً • وأهديت إليها خمسة روبلات زيادة على ما كنت أدين لها به كراءاً للغرفة •

« كنت في ذلك الأوان أعاني ضعجاً يكاد يكون قاتلاً • وكان يمكن بعد زوال الخطر أن أنسى قضية جوروخوفايا نسيانا كاملاً كسائر أحداث تلك الفترة لولا انني كنت من حين الى حين أتذكر الرعب الذي أحسست به فأشعر بخفق شديد ، وأصعب غضبي على من يعرض لي مصادفة • وفي ذلك الأوان انما خطر ببالي - ولكن دون أي باعث - أن أفقد حياتي أغبي افساد ممكن • كنت قبل ذلك بسنة أفكر في اطلاق الرصاص على رأسي • ولكن وسيلةً أفضل من تلك الوسيلة كثيراً تعرض لي الآن • ففي ذات يوم ، رأيت ماريّا تيموففنا لبيادكين ، العرجاء ، منهمكة في خدمة البيت ، فساورتني هذه الفكرة ، وهي أن أتزوجها • لم تكن قد أصبحت مجنونة بعد ، ولكنها كانت بلهاء نشوى دائماً ، وقد اكتشف رفاقي أنها كانت تحبني في الخفاء حباً جنونياً • ان فكرة زواج يتم بين رجل من آل ستافروجين وبين هذه المخلوقة الشوهاء قد أثارت أعصابي لاذينة • لا يمكن أن يتصور المرء شيئاً أسخف من هذا ولا أغبي ولا أدعى الى الضحك • لكنني لا أستطيع أن أعرف هل كان قرارى الذى اتخذته يرجع ولو على غير شعور منى (على غير شعور ، هذا أكيد) الى الحق الذى ملأني به حقداً على نفسى ذلك الخوف الوضع الذى شعرت به فى قضية ماتريوشا • حقا انني لا أتصور هذا • مهما يكن من أمر فان هذا الزواج لم يكن فقط « ثمرة رهان تمّ بعد عشاء تخلله نراب كبير » •

وقد كان « نهودى » كيرلوف وبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكى الذى كان ماراً بومثذ بطرسبرج ، ثم ليادكين نفسه ، وبروخور مافلوف (الذى توفي بعد ذلك) • وعدا هؤلاء لم يعلم أحد بشئ • وقد قطعوا الى على أنفسهم عهد الشرف ليكتمن الأمر • ان هذا الكتمان قد بدا الى دائما دناءة • ولكن السر لم يكشف حتى الآن ، وان أكن عازماً على أن أعلن كل شئ • فأنا الآن أعلن اذن هذا الزواج • وبعد الزواج ذهبت الى أمى فى الريف • اتى أذهب الى هناك لأسرّنى عن نفسى ، لأن الحياة أصبحت فى نظرى لا تطاق • وقد أحس الناس فى مدينتنا بأننى مجنون ، وما يزال هذا الاحساس قائماً فى نفوسهم الى الآن ، وذلك أمر قد يؤذنى كثيراً ، كما سأترج ذلك • وسافرت بعدئذ الى الخارج وغبت أربع سنين •

« زرت الشرق ؟ وشهدت على جبل آئوس قداسات دينية كانت تدوم ثمانى ساعات • وذهبت الى مصر ، والى سويسرا ، وحتى الى ايسلانده • وتابعت خلال سنة من السنين محاضرات جامعة جوتنجن • وفى أثناء السنة الأخيرة من اقامتى فى الخارج أصبحت بباريس صديقا لأسرة روسية رفيعة المنزلة ، وأصبحت بسويسرا صديق فتاتين روسيتين • وحين مررت بمدينة فرنكفورت منذ سنتين أبصرت فى واجهة احدى المكتبات ، بين صور فوتوغرافية كبيرة ، صورة بنت أنيقة الملبس ، لكنها تشبه ماتريوشا كثيراً • اشتريت الصورة فوراً ، حتى اذا عدت الى الفندق وضعتها على المدفأة • وظللت لا ألسها أسبوعاً بكامله ، بل اننى لم ألق عليها نظرة واحدة ، وحين غادرت فرنكفورت نسيت أن آخذها •

« اتى أذكر هذه الواقعة لأبشّن مدى ما كنت أمتع به من قدرة على السيطرة على ذكرياتى ، ومدى ما كنت أئصف به من عدم الاكتراث بها • كنت أنبذها كلها فى آن معاً ، دفعة واحدة ، وكانت كتلتها كلها تغيب فوراً متى أردت ذلك • كان يضجرنى دائماً أن أذكر الماضى ، ولم أستطع

فى يوم من الأيام أن أحدث عن الماضى طويلاً كما يفعل جميع الناس تقرباً • وفيما يتعلق بماتريوشا ، نسيت حتى صورتها على المدفأة •

» منذ سنة ، فى الربيع ، بينما كنت مسافرا الى ألمانيا ، تجاوزت من ذهولى المحطة التى كان ينبغى أن أنزل فيها لأركب قطارا آخر • وتوقفت فى المحطة النى بعدها • كانت الساعة هى الثالثة بعد الظهر • وكان النهار واضحا نيراً • هى مدينة ألمانية صغيرة جدا • دلونى على فندق • كان ينبغى أن أنتظر : ان القطار التالى لا يصل الا فى الساعة الحادية عشرة من المساء • سرتنى هذه المغامرة ، فلا شئ كان يحضنى على السرعة • الفندق سىء صغير ، ولكنه محاط من جميع الجوانب بأشجار وأحواض أزهار • أعطيت غرفة صغيرة ضيقة • وأصبت غداً طيباً • ولأنتى كنت قد قضيت الليل كله فى القطار فقد نمت نوما عميقا حتى الساعة الرابعة بعد الظهر •

» رأيت حلماً لا أتوقع أن أرى مثله البتة • ذلك أننى لم يسبق لى أن رأيت أحلاما كهذه الأحلام • ان أحلامى تكون سخيفه أو رهيبة على الدوام • كان متحف درسدن يضم لوحة للرسم كلود لورين عنوانها « آسيس وجالاتيه » فيما أظن • وكنت أنا أسميها « العصر الذهبى » ، لا أدري لماذا ! كنت قد لاحظت هذه اللوحة منذ مدة طويلة ، وكنت قد رأيته مرة أخرى منذ ثلاثة أيام • بل لعلنى ما ذهبت الى درسدن الا لهذا الغرض • فهذه اللوحة هى ما رأيته فى الحلم ، ولكننى لم أراه فى الحلم لوحة ، وانما رأيته واقعا كان ، كما هو فى اللوحة ، ركناً من الأرخيل اليونانى ، وكنت أنا فيما يبدو قد تقهقرت فى الزمان أكثر من ثلاثة آلاف عام • أمواج زرق لعوب ، جزر وصخور ، شطآن مزدهرة • وفى بعيد ، منظر فاتن ، منظر نداء الشمس الغاربة ••• ان الألفاظ عاجزة عن وصف ما رأيت • وهنا مهد الاساية • أفعمت هذه الفكرة نفسى بحب أخوى •

هذه هي الجنة الأرضية • الآلهة تنزل من السماء وتتحد بالبشر • هنا
 جرت أولى مشاهد الأساطير الاغريقية • هنا كانت تعيش انسانية جميلة •
 البشر يستيقظون وينامون سعداء أبرياء • الغابات تدوى بأغانيهم الجذلى •
 فائض قواهم الغزيرة ينسكب حباً وفرحاً بريثاً • وكنت أنا أحس هذا ،
 وأدرك فى الوقت نفسه المستقبل العريض الذى ينتظرهم ولا يخطر لهم
 ببال ، فكان قلبى يرتعش لهذه الأفكار • آه ••• ما كان أعظم سعادتى
 بأن قلبى يرتعش ، وبأننى أصبحت قادراً على أن أحب فى آخر الأمر !
 كانت الشمس تسكب أشعتها على الجزر وعلى البحر وتبهج بأبنائها
 الجميلة • رؤيا رائعة ! رؤيا بديعة ! حلم هو أبعد الأحلام استحالةً ،
 ولكن الانسانية وهبت له جميع قواها ، وضحت من أجله بكل شيء •
 باسمه مات بعضهم على الصليب ، وفى سبيله قُتل الأنبياء ، وبدونه لا تود
 الشعوب أن تحيا ، ومن غيره لا تستطيع حتى أن تموت • وهذا كله قد
 عشته فى حلمى • لا أدري على وجه الدقة ماذا رأيت • الأصح أن الأمر
 كان احساساً لا رؤيا • غير أن الصخور والبحر والأشعة المائلة التى كانت
 ترسلها الشمس الغاربة - ذلك كله كان ما يزال يبدو لى أننى أراه حين
 استيقظت وفتحت عيني اللتين كانتا مبتلتين بالدموع أول مرة فى حياتى •
 ان الاحساس بسعادة مجهولة قد شق قلبى ، حتى لقد كنت من ذلك فى
 ألم • وكان الوقت مساء • ومن خلال خضرة الأزهار التى كانت تزين
 النافذة ، كانت الشمس ترشق غرفتى بحزمة مائلة من أشعة حارة ،
 وتفسلنى بالضياء • أسرعرت أعْمَض عيني كأننى أحاول أن أستعيد الحام
 الغائب ولكننى ما لبثت أن ميّزت فجأة فى وسط الضوء الساطع القوى
 نقطةً صغيرة حمراء • على هذا النحو انما بدأ الأمر • وفجأة تذكرت
 العنكبوت الأحمر الصغير • رأيته كما سبق أن تأملت فوق ورقة الزهر
 بينما كانت الشمس تلقى أشعتها المائلة فى تلك اللحظة • نفذ فى نفسى

شيء حاد • نهضت جالسا على السرير • هكذا تماما جرت الأمور •

« رأيت أمامي (أوه ! لا فى الواقع ! ولبت ذلك كان شبحاً يمكنني أن أخاطبه) رأيت ماثريوشا مهزولة محمولة العينين ، تماما كما كانت حين وقفت فى عتبة غرفتي ، وهزّت رأسها وهدّدتني باصبعها الصغيرة • ما من شيء آلمني فى حياتي يوما كما آلمني هذا • بأس يثير الشفقة ويبعث على الأسى ، لدى مخلوقة صغيرة عاجزة ما يزال عقلها لا شكل له ، تهددني (بأى شيء ؟ ماذا كانت تستطيع أن تصنع بي ؟) ولكنها حتماً لا تنهم الا نفسها • لم يسبق أن حدث لى شيء شبيه بهذا فى يوم من الأيام • لبثت جالسا طول الليل لا أتحرك ، فاقدًا احساسى بالزمن • أود الآن لو أشرح لنفسى ما جرى ، بأقصى وضوح ممكن • أكان هذا ما يسمى عذاب الضمير ، والندامة ؟ ما زلت أجهل ذلك حتى اليوم • والشيء الذى لا أطيق احتماله الآن ، انما هو تلك الرؤية ، رؤية البنت فى عتبة الباب ، رافعة قبضة يدها الصغيرة ، مهددة متوعدة • تلك هى الدقيقة التى تمزقني ، لا ما قبلها ولا ما بعدها • لا شيء الا مظهر البنت فى تلك اللحظة ، لا شيء الا تلك اللحظة ، لا شيء الا هزّ البنت رأسها على تلك الصورة • ان تلك الحركة ، حركة التهديد عنها ، أصبحت لا تبدو لى الآن مضحكة بل فظيعة • اننى أحس نحو البنت بشفقة حادة ، شفقة تذهب بعقلي وتجعلني كالمجنون • وانى لمستعد أن أسلم جسمي لجميع أنواع التعذيب فى سبيل أن لا يكون قد حدث ذلك الأمر فى ذلك اليوم • ليست جريمتي هى ما آسف له وأندم عليه ، لا ولا موت الطفلة • ولكن تلك اللحظة ، تلك اللحظة بعينها ، هى ما يستحيل علىّ احتماله استحالة مطلقة ، لأننى منذ ذلك الحين أصبحت تظهر لى كل يوم ، وأنا أعلم الآن علم اليقين اننى هالك • هى لا تظهر لى من تلقاء ذاتها ، وانما أنا

أستحضرها ، ولكن يستحيل علىَّ أن لا أستحضرها ، رغم أن هذا يجعل حياتي مستحيلة • آه ... ليتني أستطيع أن أراها مرةً أخرى في الواقع ، ولو هלוسةً ! أود لو تنظر الىَّ ولو مرةً واحدةً ، كما فعلت في ذلك اليوم ، بينها الواسعتين المحمومتين ؟ أود لو تحدثّ الى عينيَّ • • • فترى فيهما • • • آه ! • • • ما أغبى هذا الكلام ! فلن يحدث هذا في يوم من الأيام !

» لماذا لا توقف في نفسي أية ذكرى من ذكرياتي شيئاً شبيهاً بهذا ؟ ما أكثر ذكرياتي مع ذلك • • • بل ان بينها ذكريات أسوأ من تلك في نظر الانسان • ومع ذلك لا توقف في نفسي الا شيئاً من كرهه في أكثر تقدير ، وهو من جهة أخرى كره تولّده حالتى الراهنة • كنت في الماضى أنسى تلك الذكريات بهدوء كامل ، وأبعدها جميعاً ، وكنت أنعم باطمئنان اصطناعاً •

» ظلمت بعد ذلك أطوّف سنةً كاملةً ، محاولاً أن أشغل نفسي • أنا أعلم أنني ما زلت أستطيع أن أنحسّ صورة البنية حين أريد • اننى سيد ارادتى ، لى عليها سلطة كاملة ، كما كنت دائماً • ولكن المسألة كلها هى اننى لم أشأ أن أفعل ذلك فى يوم من الأيام ، واننى فى قرارة نفسي لا أريد ذلك ولن أريده • وسيدوم هذا الى أن أجن جنونا تاماً •

» فى سويسرا ، بعد شهرين (لعل ذلك كان رداً من الجسم الذى كان يكافح رغم كل شيء من أجل أن يحيا) ، اعترتني من جديد نوبة من نوبات الهوى العارم ، أو اتابتنى سورة شبيهة بتلك السورات المجنونة التى عرفتها فى شبابى • لقد شعرت بانجذاب الى اقتراف جريمة جديدة هى أن أتزوج امرأة ثانية فوق زوجتى (ذلك أننى كنت متزوجاً) ، لكننى لذت بالفرار عملاًً بنصيحة فتاة أخرى أفضيت إليها بأمرى ، حتى لقد اعترفت لها بأننى لا أحمل للمرأة التى أشتهيها أى حب ، واننى على وجه

الاجمال لا أستطيع أن أحب أحدا قط ، وأن نفسي لا يعتدل فيها شيء غير الشهوة . مهما يكن من أمر ، فأننى لو اقترفت تلك الجريمة الجديدة لما كان يمكن أن تخلصنى من ماتريوشا أبداً .

» لذلك قررت أن أطبع هذه الصفحات ، وأن أدخل منها الى روسيا ثلاثمائة نسخة . فمتى حان الحين ، أرسلتها الى الشرطة ، الى السلطات المحلية . بل اننى سوف أرسلها فى الوقت نفسه الى ادارات تحرير جميع الصحف راجيا منها أن تنشرها ؛ كما سوف أرسلها أيضا الى معارفى الكيريين فى بطرسبرج وفى روسيا كلها . وسوف تُنشر هذه الصفحات مترجمة فى الخارج .

» أنا أعلم أننى قد لا يزعمجنى القضاء ، أو اننى قد لا يزعمجنى كثيرا . فأننا أنهم نفسى ، ولا أحد يتهمنى . وعدا ذلك ليس هناك أدلة ، أو ليس هناك الا أدلة قليلة جدا . ثم ان كثيرا من الناس يعتقدون اننى مختل العقل . ومن المؤكد أن أهلى سيذلون كل جهودهم ليستفيدوا من هذا الرأى ، ويلغوا بذلك كل ملاحقة قضائية خطيرة . أقول ذلك لأبرهن برهاننا جديدا على أننى أملك عقلى كاملاً ، وأننى أدرك الوضع الذى أنا فيه . ومع ذلك سيقى هنالك الناس الذين سيعرفون كل شيء ، وسينظرون الى ، وسأُنظر اليهم أيضا . أريد أن ينظر الى جميع الناس . ترى هل يخفف هذا عنى ؟ لا أدرى ! ولكن ذلك أملى الوحيد .

» مرة أخرى : اذا أحسن البحث فى محفوظات شرطة بطرسبرج ، فقد يكتشف شيء ما . لعل تلك الأسرة ما تزال فى بطرسبرج . وسوف يُتذكر المنزل حتماً : لقد كان لونه أزرق شاحباً . أما أنا فلن أبتعد ، وسأقيم فى سكفورشنيكى ، الأطيان التى تملكها أمى ، سنة أخرى أو سنتين أخريين . واذا طُلب منى أن أحضر الى أى مكان ، فسأحضر .

» يقولوا ستافروجين » .

دامت القراءة قرابة ساعة • كان تيخون يقرأ قراءة بطيئة ، بل لعله كان يعيد قراءة بعد الفقرات • ومنذ الانقطاع الذي أحدثه ستافروجين اذ نحى الصحيفة النائية جانبا ، كان ستافروجين يجلس ساكنا صامتا ، مستندا بظهره الى مسند الديوان ، وكان يبدو عليه الانتظار • نزع تيخون نظارتيه عن عينيه ، وتلبث لحظة ، ثم ألقى على ستافروجين نظرة مترددة • فارتعش ستافروجين ، ومال بحركة سريعة الى أمام •

قال بلهجة مباغثة جافة :

نسبت أن أنبّهك الى أن جميع أقوالك ستكون عبثاً لا طائل تحته •
اننى لن أغير ما عقدت عليه نيتى • فلا تضيّع وقتك محاولاً أن تثنيى عن عزمى • سوف أطبع هذه الصحائف •

واحمرّ وجهه وصمت •

— لم يفتك أن تنبهنى الى ذلك قبل القراءة •

كان فى لهجة تيخون شيء من حنق • واضح أن « الوثيقة » قد أحدثت فى نفسه أثرا قويا • لقد جرح شعوره المسيحى ، وهو لا يقدر دائما أن يسيطر على نفسه • يجب أن ألاحظ فى هذه المناسبة أن السمعة التى اكتسبها ، وهى « أنه لا يحسن التصرف مع الناس » ، كما كان يقول عنه الرهبان ، لم تكن باطلة • فرغم كل ما يملكه من روح المحبة كان فى صوته استياء واضح •

تابع ستافروجين كلامه بلهجة قاطعة ، دون أن يلاحظ ما طرأ على تيخون من تغير ، فقال :

— طيب • اننى لن أعدل عما عقدت النية عليه مهما تكن حججك

قوية • لاحظ اننى حين أقول هذه الجملة البارعة - أو الخرقاء ان شئت - لا يخطر ببالي أن أتخذها وسيلةً لاثارة حجبك واستدراج رجائك •
قال ستافروجين هذه الكلمات الأخيرة وضحك ضحكةً ساخرة •
قال تيخون :

- لا أستطيع أن أناقشك ولا أن أطلب منك العدول عما عازمت عليه •
ان ما تتنويه شيء نبيل جداً ، ومن المستحيل أن يعبرّ المرء عن فكرة مسيحية حقاً ، تصيراً أفضل • ان الكفارة لا يمكن أن تمضى الى أبعد من هذا : انه لعمل رائح أن يعاقب المرء نفسه كما تتنوى أن تفعل ، اذا ...
- اذا ؟

- اذا كان ذلك كفارة حقاً ، اذا كان فكرة مسيحية فعلاً •
دمدم ستافروجين يقول واجماً ذاهلاً :
- هذه حذلقات ...

ونفض وأخذ يذرع الفرفة ذاهباً آيباً ، حتى دون أن يلاحظ ما يفعل •

وتجراً تيخون فقال :

- يبدو لى أنك تعمدت أن تصور نفسك أسوأ من حقيقتك ، وأسوأ مما يريد قلبك أن تكون •

- أصور نفسي ؟ أنا « لم أصوّر نفسي » ، أنا لم أكن ألعب •
« أسوأ » ! ما معنى كلمة « أسوأ » هذه ؟

واحمر وجهه من جديد • وأحرقه ذلك • فقال مشيراً الى الصحائف :

- أنا أعلم أن هذا أمر صغير ، تافه ، حقير ، ولكن يجب أن يدفع صفاره نفسه الى تعمق ...

وأمسك عن اتمام كلامه فجأة كأنه خجل أن يستمر ، وكأنه رأى أن من المذلة أن يسترسل في شروح . ولكنه في الوقت نفسه كان ينصاع انصياعاً أليماً ، ولو على غير شعور منه ، لضرورة أن يشرح ما بنفسه . يجب أن نلاحظ أنه ما من كلمة قيلت عن احتجاز الصحيفة الثانية . فكان هذه الصحيفة الثانية قد نسيها الرجلان كلاهما . وكان ستافروجين قد توقف بقرب مائدة الكتابة وها هو ذا يتناول عن المائدة صليبا من عاج ، ويأخذ يقلب بين أصابعه ، ثم اذا هو يكسره نصفين على حين فجأة . واعتزته عندئذ دهشة ، وثاب الى رشده ، فألقى على تيوخون نظرة مضطربة حائرة . ولكن شفته العليا أخذت تختليج بفتة ، كأنه أهين ، وكأنه يتهاى لأن يرشق خصمه بتحد متكبر . قال بصوت خافت ، كأنه يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يسيطر على نفسه :

- كنت أفترض أنك ستقول لى شيئاً فيه جد . ومن أجل هذا انما جئت .

ورمى حطام الصليب على المائدة .

فأسرع تيوخون يخفض عينيه . وقال يسأل ستافروجين بالحاح ربما يشبه أن يكون حماسة حارة :

- ان هذه الوثيقة تعبّر تعبيراً مباشراً عن حاجة قلب يشكو من جرح قاتل . أليس هذا ما يجب أن أفهمه ؟ نعم ، انه الحاجة الطبيعية الى التوبة والكفارة . لقد استولت عليك هذه الحاجة . فالألم الذى سببته للمخلوقة التى آذيتها وأهنتها قد بلغ من التأثير فيك أن المسألة عندك الآن أصبحت مسألة حياة أو موت : فما يزال هناك اذن أمل لك ، وأنت تسير فى الطريق

القوم اذ تهىء نفسك لقبول العقاب والعار أمام جميع الناس • وانك
تحتكم الى الكنيسة ، وان كنت لا تؤمن بالكنيسة • هل صدق فهمي ؟
ولكن يبدو أنك منذ الآن تكره وتحقر جميع أولئك الذين سيقراون
هذا النص • يبدو أنك تتجدهم •

— أنا ؟ أتحدى ؟

— انك لم تخجل من الاعتراف بجريمتك ، فلماذا تخجل من
التوبة ؟

— أنا ؟ أخجل ؟

— نعم ، تخجل ، وتخاف •

— أخاف ؟

قال ستافروجين ذلك وضحك ضحكة متشنجة ، وعادت شفته العليا
تختليج • أجاب تيخون :

— أنت تقول : ألا فلينظروا الىّ ! ولكن كيف عساك تنتظر أنت
اليهم ! انك منذ الآن تنتظر كرههم لترد عليه بكرم أكبر منه • انك كمن
يتباهى ببيكولوجيته ، وانك تستفيد من أشفه الأشياء لتدهش القارىء بانعدام
احساسك ، وشدة استخفافك واستهتارك وما الى ذلك مما قد لا يكون له
وجود فى نفسك • ومن جهة أخرى فان الأهواء الفاسدة والفراغ والبطالة
قد جعلتك فعلاً منعماً بالاحساس وغياً •

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً ساخراً وقد اصفر وجهه :

— ما القباء برذيلة •

فمقب تيخون قائلاً بحرارة وجزم :

— بل هو رذيلة أحيانا • انك وقد حرحتك رؤيا البنت فى عتبة الباب جرحاً قاتلاً ، تبدو فى هذا النص مع ذلك كمن لا يدرك ماذا يجب أن يخجله من الناس الذين يحتكم اليهم : أهو انعدام احساسه فى الجريمة أم هو الرعب الذى اعتراه ؟ حتى انك فى لحظة من اللحظات تسرع مؤكداً لقارتك أن حركة التهديد التى أجرتها البنت أصبحت لا تبدو لك مضحكة بل قاتلة • ولكن هل صحيح أنها أمكن أن تبدو لك مضحكة حقاً ، ولو لحظة واحدة ؟ نعم ، لقد بدت لك كذلك ، أشهد بهذا •

وصمت تىخون • كان يتكلم كامرىء عدل عن السيطرة على نفسه •
استحته ستافروجين قاتلاً :

— تكلم ، تكلم • انك حانق ••• وانك تؤنبى • يعجبنى هذا من راهب • ولكن اليك ما يدهشنى : اننا تناقش فى أمر هذه الصحائف منذ عشر دقائق • ولست أرى فيك رغم تأنيبك أية علامة على الاشمئزاز والشعور بالعار • انك لست مشمئزاً ، وانك تكلمنى كلام الند للند •

كان ستافروجين قد خفض صوته • وكأن هذه الكلمات « تكلمنى كلام الند للند » قد انبجست من بين شفتيه دون أن يفكر فى ذلك • فنظر اليه تىخون بانتباه • وقال بعد صمت :

— انك تدهشنى ، لأن أقوالك صادقة • أنا أرى ذلك • وفى هذه الحالة أكون أنا المذنب فى حقك • فاعلم اذن أنني كنت فظاً قليل الأدب ، وكنت مشمئزاً متقززاً ، ولكنك من شدة ظمئك الى التوبة لم تلاحظ ذلك رغم أنك لاحظت نفاد صبرى وهو ما أسميته أنت تأنيباً • غير أنك تعد نفسك جديراً باحتقار أعمق من ذلك الى غير نهاية ، ولقد كانت الكلمات التى نطقت بها بدون ارادة منك حين قلت « كلام الند للند » كلمات طيبة جميلة • لا أكتمك أنها ترعبنى ، هذه القوة الكبيرة العقيمة التى لا تسعى

الى غير التحقق فى ذنابات • ليس يتحول المرء الى أجنبي بغير سبب : ان ثمة عقابا يطارد جميع أولئك الذين ينفصلون عن أرضهم ، وان الضجر والسأم والبطالة تحاصرهم حتى ولو أرادوا أن يعملوا • ولكن المسيحية تقبل المسؤولية مهما تكن البيئة التى يعيش فيها المرء • ان الله لم يعجزنا من الذكاء • فكّر أنت نفسك : اذا كنت تسأل نفسك أنا مسئول أم غير مسئول عن أعمالى ، فمعنى ذلك أنك مسئول ضرورة • يستحيل أن لا تتسلل الفجوة الى هذا العالم ، ولكن ويلٌ للذى به تتسلل • على كل حال ، فيما يتعلق بخطيتك ، فان كثيرين يفعلون ما فعلت ، ولكنهم يظنون يعيشون فى سلام وهدوء ، حتى لتراهم يعدون خطيئات سن الشباب هذه أمورا لا مفرّ منها • وهناك شيوخ تفوح منهم رائحة القبر منذ الآن ، ومع ذلك تراهم يأتئون ويتأسون عن ذلك مرحين • ان العالم زاخر بهذه الفظائع • أما أنت فقد شعرت بكل ما فى ذلك عمق ، حتى لقد بلغت من هذا درجة نادرة كل الندرة •

قال ستافروجين وهو يضحك ساخراً :

– أترك أخذت تعتبرنى بعد قراءة هذه الصحائف ؟ انك أيها الأب المحترم تبتخون – وقد سمعتُ هذا عنك – لا تصلح أن تكون موجهاً للضمير ومرشداً للوجدان •

كذلك أضاف ستافروجين وهو يجبر نفسه على الابتسام اجباراً • وتابع يقول :

– انهم ينتقدونك كثيرا هنا • هم يقولون انك متى اكتشفت فى الخطيئة شيئا من مذلة وشيئا من صدق ، أعجبت به فوراً ، حتى لتكاد تبادر الى الندم واذلال نفسك أمام من جاءك • • • • • ثابتاً •

– لست مسئولا عن هذا مباشرة • ولكن من المؤكد اننى لا أحسن مخاطبة الناس • تلك كانت آفتى دائما ! • • • • •

كذلك قال تيوخون متهدداً ، وقد بلغ كلامه من البساطة أن ستافروجين نظر إليه مبتسماً • وتابع تيوخون كلامه وهو ينظر الى الصحائف :

— أما عن هذه فلاشك أن الجريمة التي ارتكبتها لا تفوقها جريمة في شدتها وفظاعتها •

قال ستافروجين بعد صمت لا يخلو من الغضب :
— كفانا قباساً بالأركين • لعل عذابي أن لا يكون قوياً الى الحد الذي وصفته هنا •

وختم كلامه فجأة :
ولعلني كذلك قد أسرفت في اتهام نفسي •
لم يقل تيوخون شيئاً • وكان ستافروجين يسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، خافضاً رأسه غارقاً في تأمله •

وفجأة سأله تيوخون :
— وتلك الفتاة التي قطعت صلتك بها ، أين هي الآن ؟
— هنا •

وخيم صمت جديد •
وعاد ستافروجين يقول مكرراً ملحاً :
— ولعلني كذبت عليك في شأنها • أنا نفسي لا أعرف معرفة واضحة حتى الآن ... على كل حال ، هبني أستفز الناس بوقاحة اعترافي — مادمتم قد لاحظتم استفزازي — ففيم يهمني هذا ؟ ذلك ما يجب • انهم يستحقون هذا الاستفزاز •

– أئ أن كرهك لهم أسهل عليك من قبول شفقتهم •

– أصبت • أنا لم أعتد أن أكون صريحا ، ولكن ما دمت قد بدأت
... معك ، فاعلم اننى أحتقرهم كما أحتقر نفسى سواء بسواء ، هذا ان
لم أحتقرهم أكثر من ذلك ، أكثر من ذلك ، أكثر بما لا نهاية له • مامن
واحد منهم يستطيع أن يكون لى قاضياً ... لقد كتبت هذه السخافات لأن
ذلك خطر ببالى ، كتبتها من باب الاستخفاف والاستهتار • ويجوز كذلك
أن أكون قد كذبت لا أكثر ، فى لحظة اندفاع •

قطع ستافروجين كلامه حانقا على حين فجأة ، واحمر وجهه من
جديد خجلاً من أنه تكلم بغير ارادته • واقرب من المائدة مديراً ظهره
لتبخون ، وأمسك قطعة من الصليب المحطوم •
قال تبخون يسأله :

– أجب عن سؤالى ، ولكن بصدق ، أجبنى أنا وحدى ، أو اجب
وكأنك تكلم نفسك فى خلوة ليلاً : اذ غفر لك واحد من الناس هذا
(وأشار الى الصحائف) ، لا واحد من الذين تغدرهم أو تخشاهم ، بل
شخص مجهول ، انسان لن تعرفه فى يوم من الأيام ، يغفر لك فى صمت ،
بينه وبين نفسه ، أثناء قراءة اعترافك ، فهل يهدئك أن تتصور هذا
أم أنت لا تحفل به ؟ اذا كان يشق عليك كثيراً أن تجيب عن هذا السؤال
من باب الكبرياء ، فلا تجب ، ولكن فكّر فيه بينك وبين نفسك •

قال ستافروجين بصوت خافت :

– ذلك يهدئنى •

وأضاف يقول بسرعة شديدة ، وبصوت يشبه أن يكون دمدمة ،
ولكن دون أن يتحول عن المائدة مع ذلك :

– اذا غفرت لى فان غفرانك سيحسن الى كثير •

- ولكن على شرط أن تغفر لى أنت أيضا •

- ماذا ؟ آ ... نعم ... هذا تعبيركم فى الأديرة • تواضع سوء !
هل تعلم ، ان جميع التعابير القديمة التى تستعملونها فى الأديرة ليست
جميلة البتة • ولكنكم أنتم تتصورونها جميلة جدا •

قال ستافروجين ذلك وانفجر يضحك ضحكاً حائقاً • ثم أضاف يقول
فجأة وهو يلتفت :

- حقاً لا أدري لماذا أنا هنا • آ ... نعم ... لقد حطمت ... قل
لى : أحسب أن هذا يكلف خمسة وعشرين روبلاً ، أليس كذلك ؟
قال تيخون :

- لا تقلق لهذا الأمر !

- أم هو يكلف خمسين ؟ لماذا يجب أن لا أفلق لهذا الأمر ؟ ما الذى
يسوِّغ لى أن أجىء اليك فأكسر لك أشياءك ، وعلام تغفر لى هذا
التخريب ؟ خذ ! اليك خمسين روبلاً •

قال ذلك وهو يستل المال من جيبه ويضعه على المائدة • ثم تابع كلامه
يقول :

- اذا لم تشأ أن تأخذها لك فخذها للفقراء ، أو خذها للكنيسة •
كان ستافروجين يحتاج مزيداً من الاحتياج شيئاً بعد شيء • وواصل
كلامه :

- اسمع • سأقول لك الحقيقة كلها : أريد أن تغفر لى ، وأن يغفر
لى ملك ثانٍ وثالث ، أما الجميع فليكرهونى ، فليكرهونى •
- أأنت قادر على أن تتحمل شفقة جميع الناس بمذلة كاملة ؟

– لا ، لا أقدر على ذلك • لا أريد شفقةً من الجميع • ثم ان هذا سؤال خالٍ من المعنى : فهذه الشفقة لا يمكن أن توجد • اسمع • لا أريد الانتظار • سوف أطبع هذه الصحائف • لا تحاول أن تقنعني • لا أستطيع أن أنتظر • لا أستطيع •

• كان خارجاً عن طوره •

قال تيخون شبه خجلان :

– اننى أخاف عليك •

– تخاف علىّ أن لا أصمد للأمر ؟ أن لا أستطيع احتمال كرههم ؟

– لا ، لا كرههم فحسب •

– ماذا اذن أيضا ؟

– ... ضحكهم •

قال تيخون ذلك بصوت خافت ، وكأنه يقوله رغم ارادته •

لم يستطع المسكين أن يكظم ما بنفسه ، وأخذ يتكلم فيما كان يحسن السكوت عنه • وكان يعلم حق العلم على كل حال أن الصمت أفضل •

فاضطرب ستافروجين ، وظهر القلق فى وجهه • قال :

– أوجست هذا • اذن كنت أظهر لك شخصا مضحكا أثناء قراءتك

« النص » ؟ لا تقلق ، لا تضطرب ؛ لقد كنت أتوقع ذلك •

كان تيخون قد اضطرب حقاً • وحاول أن يشرح معتذراً بأقصى

سرعة ، ولكنه لم يزد على أن أفسد الأمر افساداً أكبر • قال :

– لكى يقوم المرء بمثل هذه الأعمال لا بد له من الهدوء النفسى •

وحتى فى الألم لا بد من الاحتفاظ بقدر كبير من السكينة ورباطة الجأش •

وليس الحال كذلك فى أيامنا هذه • فالسكينة ورباطة الجأس تعوزان الناس فى هذا الزمان • فلا يرى الانسان فى كل مكان الا مناقشات ومشاجرات • ان البشر لا يتفاهمون الآن أكثر مما كانوا يتفاهمون فى عصر برج بابل •••

قال ستافروجين يقاطعه :

— هذا الكلام كله ممل مضجر ! أنا أعرف هذا الكلام • لقد كرهه الناس ألف مرة حتى الآن ! •••

قال تيوخون منتقلاً الى السؤال رأساً :

— على كل حال ، لن تبلغ هدفك • انك من الناحية القضائية لا يمكن أن ينالك أحد تقريباً • ذلك ما سينبهونك اليه قبل كل شئ ساخرين منك متهمين عليك • وبعدئذ سيحتار كثيرون : من ذا الذى سيفهم الدوافع الحقيقية لاعترافك ؟ لسوف يعتمدون أن لا يفهموها ، لأنهم يخشون الأعمال التى من هذا النوع • انهم يستقبلونها فى رعب ، ويكرهونها ويستقمون : الناس يحبون وحلهم ولا يريدون أن يحررّك • لذلك سيقلبون الأمر مزاحاً بأقصى سرعة • اذ بالأمازيج انما ينتصر الناس على مثل هذه الأشياء أسهل انتصار •

قال ستافروجين يستحثه :

— تكلم بوضوح • قل كل شئ •

— فى البداية سيعبرون عن شعورهم بالهول حتماً ، ولكن ذلك سيكون أقرب الى الظاهر منه الى الصدق ، ولن يكون له هدف الا ارضاء المواضعات الاجتماعية • لا أقصد أصحاب النفوس الطاهرة النقية : فهؤلاء سوف يرتاعون ، لكنهم سيتهمون أنفسهم ويصمتون ، فلا يلاحظهم أحد • أما الآخرون ، أقصد الناس الذين يختلفون الى المجتمع ، فانهم لا يخشون

الا ما يهدد مصالحهم رأساً . فمتى انقضت الدهشة الأولى ، ومتى انقضى الارتياح المصطنع الأول ، أخذوا يضحكون . فهؤلاء هم الذين سيضحكون . سيبدو لهم جنونك طريقاً شائعاً جداً . ذلك أنهم سيعدونك مجنوناً ، مع استمرارهم فى تحميلك قدراً من المسؤولية كافياً للضحك عليك . فهل تراك تتحمل هذا ؟ ألا يحمل قلبك عندئذ من الكره ما سوف يحطملك تحطيماً ؟ ذلك ما أخشاه .

أجابه ستافروجين منزعباً :

- طيب ... وأنت ... أنت نفسك ... اننى لیدهشنى أن يكون رأيك فى الناس شيئاً الى هذا الحد من السوء ! انك تحكم عليهم باشمئزاز شديد .

صاح تيخون يقول :

- صدقْ أننى اذ أقول عن الناس هذا الكلام انما أحكم عليهم اعتماداً على معرفتى بنفسى خاصة .

- أياكون فى نفسك اذن شيء يمكن أن يتلذذ بعذابى ؟

- من يدرى ؟ ربما نعم . آ ... نعم ... جائر جداً .

- كفى ! قل لى اذن : ما الذى يبدو لك من وضعى مضحكاً فى هذه القصة ؟ أنا أعرفه ، ولكننى أحب أن تدلنى عليه باصبعك . اذكره لى بأكبر استخفاف ممكن ، لأنك انسان مستخف أعظم الاستخفاف حقاً . انكم معشر الرهبان مستخفون استخفافاً رهيباً ، لا تدرون أنتم أنفسكم مدى ما تحملونه للبشر من احتقار ... كلمنى بأكبر صدق تقدر عليه . أعود فأقول لك مرة أخرى : انك انسان غريب الأطوار جداً .

- ثمة شيء مضحك فى نظر الناس ، بل شيء زائف أيضاً ، حتى

فيما عقدت عليه نيتك من أمر عظيم ، أعنى قبولك هذه التوبة الرائعة ؛
ناهيك عن شكل هذه النية ، وهو شكل مضطرب متردد غير ثابت ثباتاً
كافياً •

وصاح يقول فجأة ، وهو فيما يشبه النشوة :

— أوه ! لا يراودنك شك في انتصارك • اسوف ينتصر هذا
الشكل •••

قال ذلك وهو يشير الى الصحائف بيده • وتابع كلامه :

— ••• ولكن على شرط أن ترتضى الصفحات والبصقات صادقا كل
الصدق ••• وأن تحتملها الى النهاية • ان أحط صليب ينتهى دائماً
بالوصول الى أعلى مجد ، ينتهى بالوصول الى القسوة ، متى كانت المذلة
صادقة • ولكن أأنت قادر على هذه المذلة ؟ يجب أن لا تحتقر قضائك ،
وانما ينبغي أن تثق بهم ، وأن تثق بالكنيسة • وعندئذ انما تنتصر عليهم
وتجذبهم اليك بالقدة ، وتتحذ بهم في الحب ••• آه ••• ليتك تقدر
أن تحتمل كل شيء الى النهاية ! •••

— قل لى ما الذى تراه مضحكاً في هذه الصحائف !

— لماذا ، لماذا هذا الاهتمام بالمضحك ؟ لماذا هذا المرض لديك ؟

كذلك صاح تيحون فجأة وهو يهز رأسه •

قال ستافروجين :

— دعنا من هذا وقل لى ما هناك من شيء مضحك •••

دمدم تيحون يقول خافضاً عينيه :

— ان الدمامة هى التى ستقتل •

— الدمامة ؟ أية دمامة ؟

- دامة الجريمة • انها ديمة حقا • يمكن القول ان الجريمة ،
أية كانت ، تبدو أقطع ، ويكون تأثيرها أكبر ، وتكون اثارها أعظم ، على
قدر ما يكون قد سفع فيها من دم • غير أن هناك جرائم مخزية ، دنسة ،
ترجع فظاعتها الى حطتها وخستها ...

لم يكمل تيخون جملته • قال ستافروجين :

- أى ان ماتراه مضحكاً فى وضعى هو أننى قبّلت يدى بنت صغيرة
قدرة ... ثم أننى ارتعشت خوفاً ... الى آخر ما هنالك • اننى أفهم عنك
كل الفهم • وأنت تخاف علىّ لأن هذا العمل ديم ، ردىء ، لا ، لاردىء ،
بل مخزٍ ؟ مضحك • وتظن أن هذا بعينه هو ما لى أستطيع احتماله ؟
هه ؟

لم يجب تيخون ولبت صامتاً • وشحب ستافروجين وتقبض وجهه •
ودمدم يقول كمن يخاطب نفسه :

- الآن فهمت لماذا سألتنى هل آنسة سويسرا هنا !
أجابه تيخون :

- لست مسعداً ، لست فوياً فوة كافية •

قال ستافروجين فجأة بحماسة وحشية :

- اسمع ، أريد أن أنال مغفرة نفسى • تلك هى غايى الرئيسية ،
غايى الوحيدة • ذلك هو اعترافى كله ، تلك هى الحقيقة كلها ، وما عدا
هذا كذب • فمتى نلت مغفرة نفسى ، زالت الرؤيا ، أنا أعرف ذلك • ولن
تزول الرؤيا الا فى ذلك الحين • ذلك هو السبب فى توى الى عذاب
لا حدود له ، ذلك هو السبب فى أننى أسمى الى هذا العذاب •

وصرخ ستافروجين يضيف قوله كأنما على غير ارادة منه :

– فلا تشبط همتي ، والا هلكت غضبا وسخطا •

ولم يكن تيخون يتوقع هذه الاندفاع ، فها هو ذا ينهض • ويهتف قائلا بفرح :

– اذا كنت تؤمن بأنك تستطيع أن تغفر لنفسك ، وبأنك ستال غفرانك في هذا العالم بالألم ، واذا كنت لا تسعى الا الى الحصول على هذا الغفران ، فأنت اذن تؤمن ايمانا تاما • فكيف أمكنك أن تقول انك لا تؤمن بالله ؟

لزم ستافروجين الصمت •

– سيففر لك الله قلة ايمانك ، لأنك تقدس الروح القدس دون أن تعرف ذلك •

قال ستافروجين مكفهر الهيئة :

– لن أنال غفرانا • لقد جاء في كتابك انه ما من جريمة أفدح من ايذاء « طفل من هؤلاء الأطفال الصغار » • نعم ، في هذا الكتاب •

وأشار الى الانجيل •

فأجاب تيخون بلهجة نافذة :

– جوابا عن هذا أقول لك : اذا استطعت أن تغفر لنفسك فان المسيح سيففر لك أيضا • آه • لا • لا • لا تصدقني • • لقد جدت • • هبك لم تصالح نفسك ولم تغفر لنفسك فانه سيعفو عك لئيتك الحسنة وعذابك الكبير • • • ذلك ان اللسان البشرى تعوزه الكلمات وتعوزه الأفكار للتعبير عن جميع طرق « الحمل » الى اليوم الذي « يكشف لنا فيه عن تلك الطرق كشفاً كاملاً » • من ذا الذي يقدر أن يقيس « ابتجاوز كل قياس ؟ من الذي يستطيع أن يفهم عمقه كله ؟

وارتعشت أطراف شفتيه كما حدث من قبل ، وطافت بوجهه حركة خفيفة شنجته قليلا • لقد كان حبيده غنيا مسرفا في العنف • وخفض عينيه •

تناول ستافروجين قبعته عن المائدة • وقال :

- سأرجع في يوم آخر •

كان يبدو مرهقا • وأردف يقول :

- سوف نتكلم مرة أخرى في هذا كله • لقد سعدت بحديثك أكبر السعادة ••• واني لأقدر الشرف والاستقامة حق قدرهما ••• وأقدر عواطفك • صدق اننى أدرك الآن لماذا يجبك بعض الأشخاص ذلك الحب كله •••

سأله تيخون وهو ينهض أيضا وقد دُهنس دهشة كبيرة :

- أنتصرف ؟ وأنا •••

وبدا عليه التردد ••• لكنه أكمل كلامه فقال :

- كنت أريد أن أتجه اليك برجاء ••• ولكننى لا أدري الآن هل

••• اننى أخشى أن •••

- أرجوك ••• تفضل •••

كذلك قال ستافروجين وعاد يجلس وهو ما يزال ممسكا بقبعته • فنظر تيخون الى هذه القبة والى وضع ستافروجين ، وهو وضع رجل من رجال المجتمع الراقى ، لكنه رجل نصف مجنون • فاضطرب نيخون مزيدا من الاضطراب •

- اننى أسألك فقط ••• أنت تدرك بنفسك يا نيقولاى فيسغولودوفتش

(هذا هو اسمك اذا لم أخطئ) أنك اذا نشرت هذه الصحائف كنت

تحطم حياتك ... كنت تحطم عملك في هذه الحياة ... وسائر الأمور
الأخرى ...

– عمل في الحياة ؟

ألقى ستافروجين هذا السؤال وسعّر وجهه •
قال تيخون بصوت يشبه أن يكون ضارعاً وهو يدرك خرافته تمام
الادراك :

– لماذا تحطم كل شيء هذا التحطيم ؟

فألمّ بوجه ستافروجين تعبير عن ألم شديد • وقال :

– سبق أن قلت لك وهأنذا أكرر قولي : ان كلامك كله لا فائدة
منه • ثم ان هذا الحديث كله قد أصبح لا نطق •
وتحرك على مقعده •

– انك لا تفهم عني • أصغ الىّ دون أن تغضب • انك تعرف رأيي :
اذا كان فعلك هذا ثمرة المذلة فليكوننّ أجمل الأفعال المسيحية متى كنت
قادرا على تحمله • وهبّك لم تقدر فان الرب سوف يدخل تضحيك في
الحساب • ان كل شيء سيدخل في الحساب : كل كلمة من كلماتك ،
كل حركة من حركات نفسك ، أيسر فكرة تمر بخاطرك • لكنني أقترح
عليك تضحية أخرى ، أكبر من تضحيك هذه أيضا ...
لزم ستافروجين الصمت •

– انك في حاجة الى عذاب ونضحية • فتغلب اذن على هذه الرغبة
أيضا • دع هذه الصحائف ، واعدل عن خطيئتك ، فتنصرف عندئذ على كل
شيء : تحطم كبريائك وزهوك ، وتسحق سيطانك • سوف تظهر وتبلغ
الحرية ...

كانت عيناه تسطعان • وضمَّ يديه احدهما الى الأخرى توسلاً
وضراعة •

قال نيقولاى فسيفلودوفتش بأدب ولكنه كان مشتمز الهيئة قليلاً :
- انك تسرف فى أخذ الأمر مأخذ الجد ، انك تضى عليه كثيراً من
خطورة الشأن ••• ثقى على كل حال اننى أقدر ••• أنا ألاحظ انك
تريد أن تمد لى شباكاً ، على كونك تضمر أحسن النيات طبعاً ، وعلى كونك
تريد لى الخير من باب الرأفة والاحسان • انك تريد ، على الجملة ، أن
أضع لنفسى غاية ، بل ربما أن أتزوج أيضاً ، وأن أختتم حياتى الماضية
عضواً فى النادي ، وأن أجيء الى الدير فى أيام الأعياد • أليس كذلك ؟
على كل حال ، انك بصفتك رجلاً عارفاً بالقلب ، وبصفتك انساناً مستخفاً
لا يبالى ، ربما كنت تتبأ منذ الآن بأن الأمور ستجرى هذا المجرى نفسه ،
فليس عليك الا أن تلح وأن تتوسل الى باصرار ، لأننى فى قرارة نفسى
لا أرغب الا فى هذا • أليس كذلك ؟ بل انى لأراهن على أنك فكرت
أيضاً فى أمى وفى طمأنيتها •••

قال ستافروجين ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة •

وتابع يخون حديثه متكلماً بحرارة ، دون أن يولى ضحكة
ستافروجين وملاحظاته أى انتباه ، فقال :

- لا ، ليست المسألة مسألة هذه التوبة • اننى أهى لك توبة أخرى •
اننى أعرف شيخاً ليس هنا ولكنه غير بعيد عنا • انه ناسك ، متقشف ، يبلغ
من الاتصاف بالحكمة المسيحية درجة لا نستطيع لا أنا ولا انت أن تصورها •
سوف يستجيب لرجائى • سوف أقص عليه حكايتك كلها • هل تأذن لى
بذلك ؟ امض اليه ، واخضع لسلطته خمس سنوات أو سبعاً ، أو المدة التى
ستراها ضرورية فيما بعد • افرض على نفسك هذه الكفارة • وبفضل

هذه التضحية الكبيرة سوف تتألم كل ما أنت ظامئ الىه ، بل حتى
ما لا تأمل فيه . ذلك أنك لا تستطيع الآن حتى أن تتصور ما سوف تتأله .
أصغى اليه ستافروجين بجذ كبير . وازدحم الدم فى خسديه
الشاحين .

– أقترح على أن أترهب فى ذلك الدير ؟

– لست فى حاجة الى دخول الدير . ما ينبغى أن تترهب . كن
مبتدئاً فحسب ، فى السر لا فى العلانية . حتى لتستطيع أن تتابع حياتك
فى المجتمع .

فقاطعه ستافروجين يقول بنفور :

– دعك من هذا أيها الأب تيخون .
ونهض . ونهض تيخون .

صاح ستافروجين يقول فجأة وهو يحدق الى تيخون بما يشبه أن
يكون رعباً :

– ماذا بك ؟

كان تيخون واقفا قدامه ، ماداً يديه الى أمام ، وكان تشنج سريع قد
قبض وجهه المروع .

– ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

كذلك كرر ستافروجين مندفعاً نحوه ليسنده . لقد بدا به أن الكاهن
سيسقط على الأرض .

هتف تيخون يقول بصوت نافذ الصبر يعبر عن ألم شديد :

– انى أرى ... انى أرى بوضوح أيها الشاب الشقى أنك لم تكن

فى يوم من الأيام أقرب منك الآن الى ارتكاب جريمة أفطع من الجريمة الأولى !

فقال ستافروجين ملحاً وقد أفلقته حالة تبحون اقلاقاً شديداً :

- هدىء نفسك • قد أرجىء كل شىء أخيراً الى وقت آخر • انك

على حق •

- لا ، لا بعد النشر ، بل قبل النشر ، قبل النشر بيوم ، قبل هذه

التضحية الكبيرة بساعة واحدة ؟ ستبحث عن مخرج فى جريمة جديدة ،

ولن ترتكب هذه الجريمة الا لتتحاشى نشر هذه الصحائف •

ارتعش ستافروجين من الغضب ، ومن الخوف أيضا •

وهتف يقول ساخطاً :

- يالعالـم النفس اللعين !

وغادر الغرفة دون أن يلتفت الى وراء •

فهرس

الموضوع	الصفحة
تتمة الجزء الثانى	
الفصل السابع : « عند جماعتنا »	٥
الفصل الثامن : « ابن القيصر ، ايفان »	٤٧
الفصل التاسع : « مصادرة » فى بيت ستيفان تروفيموفتش	٦٥
الفصل العاشر : النصابون - صبيحة مشنومه »	٨١
الجزء الثالث	١١٧
الفصل الأول : « الحفلة »	١١٩
الفصل الثانى : « نهاية الحفلة »	١٦٢
الفصل الثالث : « نهاية رواية »	٢٠٦
الفصل الرابع : « قرار أقصى »	٢٤١
الفصل الخامس : « المسافرة »	٢٧٩
الفصل السادس : « ليلة مشقات ومخاوف »	٣٣٠
الفصل السابع : « آخر رحلة لستيفان تروفيموفتش »	٣٨١
الفصل الثامن : « خاتمة »	٤٣٤
اعتراف ستافروجين	٤٥١
الفصل التاسع : « عند تيوخون »	٤٥٣

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

"إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقاً أخذ بعضهم يشتر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن "الواقعية الخيالية" التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسى التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس.."

ألكسندر فيرولوفيف